المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

شجرة الحضارة

قصة الإنسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث

الجزء الثانى

تأليف: رالف لنتون

ترجمة: أحمد فخرى

تقديم: أحمد زكريا الشلق

ميراث الترجمة

1751

شجرة الحضارة

قصة الإنسان منذ فجر ما قبل التاريخ
حتى بداية العصر الحديث
(الجزء الثانى)

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1751
- شجرة الحضارة: قصة الإنسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث (الجزء الثانى)
- رالف لنتون
- أحمد فخرى
- أحمد زكريا الشلق
- 2010

هذه ترجمة كتاب:

The Tree of Culture

(Part II)

by: Ralph Linton

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

شجرة الحضارة

قصة الإنسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث

الجزء الثانى

تأليف: رالف لنتون
ترجمة: أحمد فخرى
تقديم هذه الطبعة: أحمد زكريا الشلق

لنتون، رالف.
شجرة الحضارة: قصة الإنسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث/ تأليف: رالف لنتون؛ ترجمة: أحمد فخرى. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.
مج ٢؛ ٢٤ سم. ـ (المركز القومى للترجمة، ميراث الترجمة؛ ١٧٤٤)
تدمك ٩ ٦٦٩ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ إنسان ما قبل التاريخ.
٢ ـ الحضارة القديمة.
أ ـ فخرى، أحمد. (مترجم)
ب ـ العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٩٤/ ٢٠١٠
I. S. B. N 978 - 977 - 421 -669 - 9
ديوى ٥٥٩,٨٨

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

محتويات الكتاب

« الجزء الثانى »

القسم الخامس

شعوب جنوب شرقي آسيا

الفصل الثالث عشر

جنوب شرقى آسيا
فى العصر الحجرى الحديث

لقد رأينا فى الفصل الحادى عشر ما أثبتته الأدلة المختلفة على أن انتاج القوت كان من الأمور التى توصل اليها سكان جنوب شرقى آسيا من تلقاء أنفسهم ، وأن سكان تلك المنطقة كونوا لأنفسهم حضارة نيوليتية مستقلة . ولكننا نجد أن أى محاولة من جانبنا لتوضيح واظهار ما كانت عليه تلك الحضارة محاطة بصعوبات كبيرة ، اذ لم يقم العلماء فى جنوب شرقى آسيا والجزر المجاورة لها بأية بحوث أثرية اللهم الا القليل النادر . وذلك القليل الذى يمكننا الوقوف على نتائجه يكاد يقتصر على الحضارات الهندية والبوذية، وهى حضارات غنية رائعة ولكن تاريخها لا يرجع الا الى العصر التاريخى المبكر . وفضلا عن ذلك ، فانه يلوح أن التقدم فى الصناعة فى تلك المنطقة كان يعتمد ، كما ذكرنا من قبل ، على استخدام مواد قابلة للفناء . وبخاصة الغاب الهندى ، وهذا ما جعل بقايا العصر النيوليتى وبخاصة ما يعثر عليه منها على سطح الأرض قليلة ولا تمدنا بمعلومات ذات جدوى .

واذا لم تتيسر لنا الأدلة المستمدة من الآثار ، فاننا نضطر الى العودة الى الأدلة المستمدة مما خلفته الحضارات فى المناطق الواقعة على حدودها . وقد لوحظ عند انتشار احدى الحضارات فى مناطق متسعة أن الأشكال القديمة تبقى فى الأجزاء الواقعة على حافة تلك المناطق ، وفى الجهات التى تعيش فى عزلة بالنسبة الى غيرها ، وتستمر تلك الأشكال وقتا طويلا بعد أن تكون قد

انتهت وماتت فى مركز انتشارها الأصلى . ومن الأمثلة التى يمكن ذكرها للتدليل على هذه النظرية أن بعض الأغانى الانجليزية التى يرجع تاريخها الى عصر الملكة اليزابث مازالت باقية حتى اليوم يغنيها بعض سكان الجبال الجنوبية فى الولايات المتحدة الأمريكية .

انمركز اللغات الملايو - پولينيزية - هو جنوب شرقى آسيا واندونيسيا، وحيثما نجدها نستطيع أن نقول ونحن واثقون بأنها أتت مع مهاجرين من تلك المناطق ، فقد كان الاندونيسيون القدماء أيضا بحارة مهرة وحملوا معهم لغاتهم وحضارتهم ، شرقا الى أبعد الجزر الواقعة فى المحيط الهادى ، وغربا الى جزيرة مدغشقر. فاذا ما وجدنا نفس العناصر المميزة للحضارة فى كلتا الناحيتين من تلك المنطقة العظيمة الاتساع ، واذا وجدناها أيضا منتشرة بين جماعات منعزل بعضها عن بعض بين أولئك الذين نسميهم محافظين على حضارتهم ويعيشون فى جزر اندونيسية بعيدة ، وفى جبال جنوب شرقى آسيا ، فانا نستطيع أن نستنتج ونحن مطمئنون أنها مستمدة من حضارة من جنوب شرقى آسيا فى عصر من عصورها القديمة .

ومن المستحيل أن نقول عن يقين ما اذا كانت تلك العناصر ترجع فى قدمها الى العصر النيوليتى ، ولكنها ترجع بكل تأكيد الى ذلك النوع من الحياة البدائية - بالنسبة الى غيره - الذى كان سائدا فى تلك المنطقة قبل انتشار العناصر الحضارية التى جاءت من الهند والصين .

ويمكن للانسان معتمدا على التجارب المختلفة أن يصور لنفسه حضارة العصر الحجرى الحديث فى جنوب شرقى آسيا بأنه كانت له المميزات الآتية :

كان اقتصادهم قائما على ما يحصلون عليه من جذور النباتات ومن الفواكه، ويستكملون غذاءهم فى المناطق الجبلية البعيدة عن الساحل من الرز الذى لايروونه والذى يحصلون عليه بطريقة قطع أشجار الغابة وحرقها . وكانت حيواناتهم الداجنة هى الخنزير والدجاج والكلب الذى لا يفارقهم . ومن

المشكوك فيه أن يكونوا قد عرفوا صنع الأوانى الفخارية ، لأن الفخار لايقتصر عدم وجوده على پولينيزيا فقط ، بل انه لا يوجد أيضا فى الحضارات العتيقة التى كانت فى مدغشقر حتى العصور الحديثة. وقد استعاضوا عن الفخار بغليهم للماء فى أوعية كبيرة من الغاب الهندى والخبز فى أفران أرضية . أما ملابسهم فكانت تصنع اما من لحاء الشجر أو من الحصير ، اذ أنهم لم يعرفوا النول أو النسيج . ولم تكن أدواتهم المصنوعة من الحجر كثيرة العدد بل تكاد تنحصر فى المطرقة والأزميل التى تتميز بأشكالها ذات الزوايا ، وصقلها التام . وكانت الأدوات الحجرية المصنوعة بالطرق نادرة ، والقليل الذى عثر عليه منها غير مصنوع بدقة ، وكانت سكاكينهم ومقاشطهم ومثاقبهم تصنع عادة من الغاب ، أما صناعات السلال والحصر والحفر فى الخشب فمن المرجح أنها كانت على درجة كبيرة من التقدم .

وكانت أهم الأسلحة التى استخدموها هى الحربة والعصا القصيرة الغليظة ، وقد عثر على كثير من كلا النوعين ، وكان سلاحهم الرئيسى الذى يمكنهم أن يقذفوا به من مسافة بعيدة هو المقلاع ، ولم يعرفوا على الأرجح استخدام الدروع . ولم تكن للقوس أهمية ، وفى الواقع يصعب علينا تفسير عدم استخدام ذلك السلاح كأحد أدوات القتال بين الجماعات المهاجرة من الملايو ـ پولينيزيين ، أو حتى بين القبائل الجبلية التى عاشت فى العصر التاريخى فى جنوب شرقى آسيا . ومن الجائز أن استخدام القوس كان منتشرا بين الشعوب التى تسمى متزنجة أو أشباه الزنوج التى كانت تحيا على جمع الغذاء والذين كانوا يعيشون فى جنوب شرقى آسيا ، وكانت لهم حضارات هناك منذ أزمنة بعيدة . ولهذا نرجح أن الملايو ـ پولينيزيين الذين عاشوا فى العصر الحجرى الحديث كانوا يعرفون هذا النوع من السلاح لاتصالهم ببعضهم . وقد اقترح بعض الباحثين أن اهمال القوس أمر متصل بموضوع صيد الرءوس الذى كان يحتم القتال من مسافة قريبة اذا أراد المحارب أن يحصل على ما يبغيه .

أما موضوع السكن فقد كان يختلف كثيرا حسب ارتفاع المكان ودرجة الحرارة ، ولكن شكل المنزل الأساسى كان مستطيلا وذا سقف « جمالونى » مثلث ، وكانت أرضيته مرتفعة عن سطح الأرض وذلك بتشييده اما فوق قوائم أو فوق طوار « رصيف » من التراب يكسونه من الخارج بالأحجار .

وكان لديهم زوارق جيدة الصنع منذ العصر الحجرى الحديث ، وكان فى استطاعة تلك الزوارق أن تصمد لرحلات طويلة فى المحيط ، ومن المحتمل جدا أنهم عرفوا أيضا فى ذلك الوقت المسند الخارجى على جانب الزورق كما عرفوا استخدام الشراع . أما تنظيمهم السياسى فلا شك أنه كان تنظيما ضعيفا ولم تكن هناك وحدات ادارية من القرى المتفرقة .

أما القرية نفسها فكان يحكمها رؤساء العائلات وهو نوع من حكم الأقلية ، وربما كان معهم أيضا بعض الزعماء الذين لم تكن لهم الا سلطة اسمية استشارية فقط . وكان أهل كل قرية يتزاوجون فيما بينهم ، ولم تكن لهم الا صلات قليلة من صلات المودة مع غيرهم من سكان القرى الأخرى حتى تلك التى كانت تتحدث لغتهم ولها حضارتهم . وكان مركز الأفراد والروابط الاجتماعية بين الناس قائما على أساس يجمع بين القرابة والثروة ، ولكن الثروة كانت هى الأهم . وكان الأفراد ينتسبون على الأرجح الى كل من عائلتى الأب والأم ، اذ أن التزاوج المحلى جعل كل فرد متصلا بكل فرد آخر وذلك عن طريق عدة فروع عائلية مختلفة .

وأشبهت نظرتهم الى الأمور الجنسية شبها كبيرا ما كان سائدا بين الحضارات الجنوبية الغربية فى العصر النيوليتى ، وما تفرع عن تلك الحضارات فى العصور التالية . فلم يقتصر الأمر بينهم على السماح بوجود التجربة الجنسية بين المراهقين بل انهم كانوا يكثرون من تشجيعها ، مثل انشاء نظام وجود منازل منفردة للمراهقين من الذكور ، وفى بعض الأحيان للبنات أيضا . فقد كانوا يتوقعون أن من يصل الى دور المراهقة يجب أن تكون

له علاقة جنسية مع جميع الأفراد الآخرين الذين يقاربونه أو يقاربونها في العمر الذين لا ينطبق عليهم تحريم الصلة الجنسية بحكم القرابة ؛ كما هو الحال عندنا الآن . وكان فى رأيهم أنه يتلو تلك الفترة اقلال تدريجى من الاهتمام حتى اذا ما انتهت فترة شدة المراهقة ووصلت الى نهايتها ، استقر رأى كل ولد وبنت على أن يقتصرا على بعضهما ، فاذا ما حملت الفتاة يتزوجان .والاقتصار على زوجة واحدة كان شيئا طبيعيا بينهم ، اللهم الا فى حالات بعض الأغنياء الذين يتخذون أكثر من زوجة واحدة . وكانوا يتوقعون أن يكون كل من الزوجين مخلصا لا يخون الآخر ، وكان الزنا سواء أكان من جانب الزوج أم من جانب الزوجة أمرا يستوجب الزجر ، ولو أنهم كانوا ينظرون الى جميع ما يحدث من تصرفات خلقية بسبب الصلات الجنسيه على أنها أمور عارضة ويمكن الاغضاء عنها .

واذا ما حاولنا أن نكون لأنفسنا فكرة صحيحة عن الديانة القديمة التى كانت سائدة فى جنوب شرقى آسيا لوجدنا أنها أصعب المشاكل جميعاً لأن المعتقدات اللاهوتية ، والطقوس الدينية ، على عكس الاعتقاد السائد بين أكثر الناس ، تدخلها التغييرات أكثر من المظاهر الثقافية الأخرى . ومع ذلك فمن الممكن أن يتعرف الانسان على بعض نقط معينة من الموضــوعات الأساسية المعتقدات والطقوس الخارقة للطبيعة ، التى نراها بين جميع الشعوب المتأثرة بالحضارة الملايو ــ پولينيزية ، وأشهر هــذه النقط ذلك الاحترام العميق للسلف (أى الأجداد) والاعتقاد بأن أرواح الأجداد تهتم اهتماما شديدا بما يفعله أبناؤهم المنحدرون منهم ، فيساعدونهم ، أو يعاقبونهم اذا أثموا ولم يرعوا الحرمات . وكان لديهم أيضا اعتقاد عام فى وجود معبودات تسيطر على قوى الطبيعة ولكل منها اختصاصه المحدود سواء فى نشاطه أو فى الأمور التى يركز فيها اهتمامه . كانوا يؤمنون بأن أولئك المعبودات تعيش بعيــدا وكانوا لا يهتمون فى الغالب بما يجرى بين الناس ، كما كانت هناك أرواح

كثيرة العدد ولكن نفوذها محدود وكيانها غير معروف تماما ، ويمكن الحصول على رضاها ومصالحتها اذا ما قدموا لها القليل من القرابين .

وتتميز كل تلك الجماعات من ناحية مستواها الخلقى بالتطور الكامل لفكرة الخوف من المحرمات . كان الانسان محاطا بتعاليم لا حصر لها باركتها قوى خارقة للطبيعة، ولكن أكثر تلك التعاليم لم يكن لها أى أهمية اجتماعية معترف بها أو دلالة أخلاقية . وأينما اتجه الانسان يجد الخوف من السحر الذى يستخدمونه كأداة للسيطرة الاجتماعية ، كما يجد اختلافا فى الرأى بين الأهالى الوطنيين فيما يختص بتبريره أو فى استخدامه استخداما ضارا .

وتختلف الأساطير ، التى نرى فيها انعكاسا لتلك الآراء ، والطقوس التى مازالت تستخدم حتى الآن بين الجماعات التى تعيش على حافة مركز تلك الحضارة اختلافا كبيرا ، ونرى فيها أثر عدد كبير من آراء مستقلة وكل منها له طابعه المحلى ، ونستطيع أن نرى صحة ذلك بوجه خاص فى الأمور المتصلة بتلك الكائنات الخارقة للطبيعة أكثر من أرواح الأسلاف مما يجعلنا نميل الى الاعتقاد بأنه لم يكن لتلك الكائنات الا أهمية عملية قليلة فى حياة ذلك المجتمع اذ لولا ذلك لما أصبحت ميدانا حرا لاضافة تعديلات يمليها التفكير والخيال المحض .

وهجرات الشعوب التى تتكلم اللغة الملايو ــ پولينيزية من موطنها فى جنوب شرقى آسيا والجزر القريبة، موضوع من أهم وأعجب أحداث التاريخ. فبالرغم من أنه لم يكن لديهم الا الشىء القليل الذى لا يكاد يدرك من النظم السياسية ، مما حال دون القيام بتنظيم أى عمل جماعى كبير ، وبالرغم من أنهم لم يعرفوا استخدام المعادن الا فى عصر متأخر فقد استطاعوا أن يقطعوا ثلث الكرة الأرضية فى أسفارهم الاستطلاعية ، واستطاعوا أن يؤسسوا محلات ثابتة فى أماكن بعيدة مثل جزيرة مدغشقر التى لاتبعد أكثر من ٢٥٠ ميلا من الشاطىء الشرقى لأفريقيا ، وفى جزيرة « ابستر Easter » على مسافة

انتشار
الشعوب المبكرة
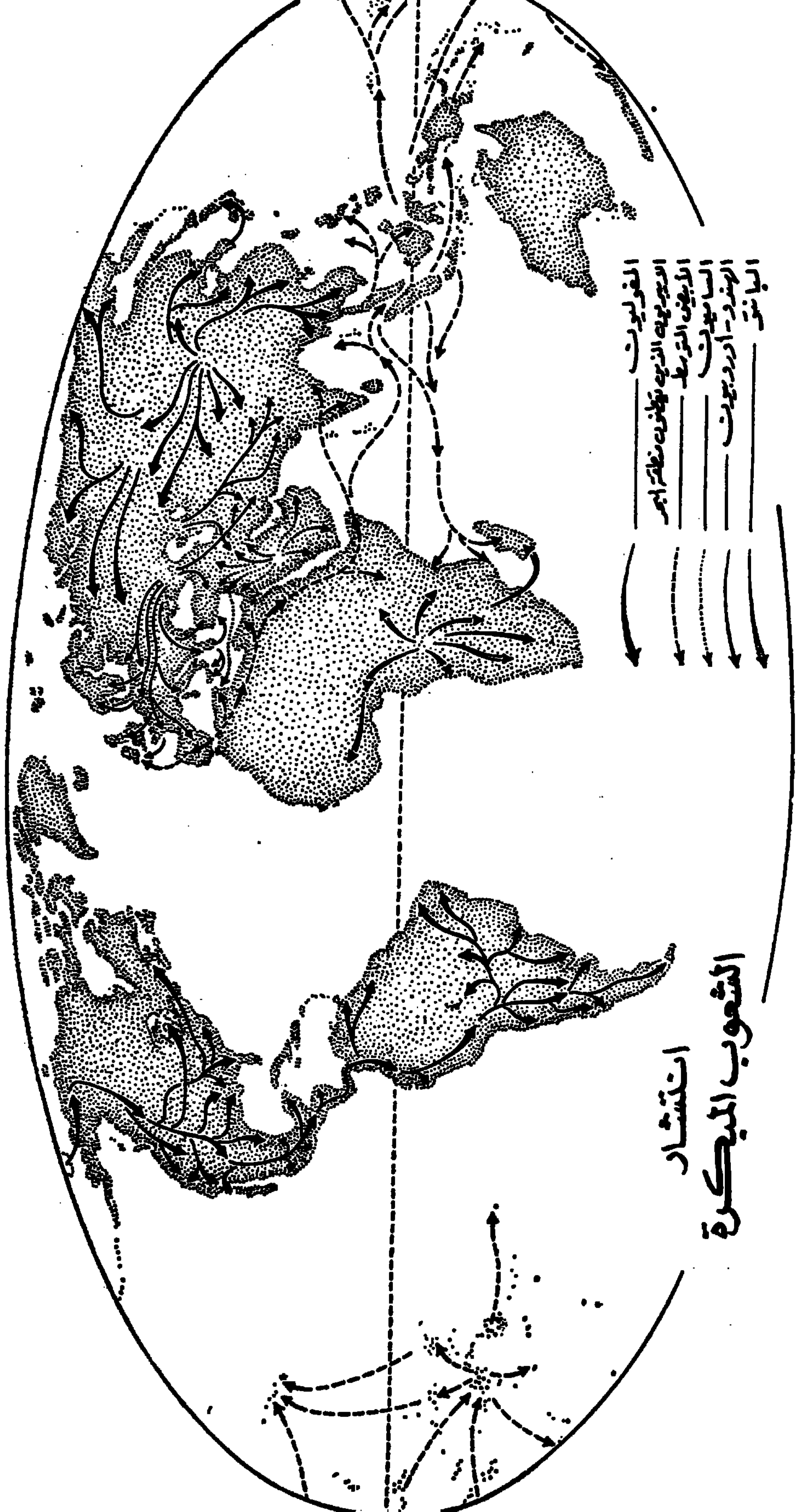
المغوليون
الاوربيون الذين يقطنون منطقة البحر الأبيض المتوسط
الساميون
الهندو-أوروبيون
البانتو

٢٢٠٠ ميل فقط من شاطىء أمريكا الجنوبية وجنوبي مدينة « دنفر Denver في الولايات المتحدة الأمريكية .

وقد بدأت الهجرات من أندونيسيا ــ على التحقيق ــ في الوقت الـذى كان فيه الملايو ــ پولينيزيون فى المرحـلة النيوليتية من حضـارتهم ، وقد استمرت تلك الهجرات حتى أيامنا الحالية ، فما زال صـيادو التريپانج (١) يزورون شاطىء أوستراليا الشمالى حيث يعيش هناك قوم من سلالة من سبق أن اختلطوا وتزاوجوا مع هؤلاء الصيادين الذين تركوا أثراكبيرا فى الحضارة الأصلية فى أوستراليا . وقد بدأت هذه الهجـرات حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م. وانتهى الاقبال عليها حوالى عام ٥٠٠ بعد الميلاد ، أى حوالى الوقت الـذى أصبح فيه جنوب شرقى آسيا واندونيسيا تحت سيطرة الحضارة الهندية .

والاعتقاد السائد بين الباحثين هو أن الشعوب التى نشـأت بينها عائلة اللغات الملايو ــ پولينيزية والحضارة النيوليتيه لجنوب شرقى آسيا كانت شعوبا ممن نطلق عليهم اسم ما قبل الملايو (proto-Malay) وما زالت بعض القبائل التى يتكون أكثر سكانها من هذا الجنس تعيش حتى الآن فى المناطق الداخلية فى الجزر الاندونيسية الكبرى وعلى حافة المنطقة المعروفة باسـم الملايو ــ پولينيزية .

وجنس ما قبل الملايو أسمر اللون طويل الرأس ذو شعر متموج وعيونه مستقيمة ويشبه الأوروبيين فى قسمات وجهه ، ويعتبرون بوجه عام من الجنس القوقازى .

ونظرا لأن جنوب شرقى آسيا كان مسكونا بشعوب متزنجة (Negrito)

---

(١) كلمة ماخـــوذة من لغة الملايو يطلقونها على اى نوع من الانواع المعروفة باسم خيار البحر التى توجد بكثرة على مقربة من أوستراليا وفى جزر ارخبيل الملايو ، وهم يغلون هذا النوع من السمك ويجففونه ثم يضـــعونه فوق الدخان ويصدر الى المناطق التى يقبل فيهـا الناس على اكله ، ويستخدمه الصينيون فى عمل نوع من الحساء . (المترجم)

وأوسترالية المظهر (Australoid) فلا يحتمل أن تكون شعوب « البروتو ــ ملايو » قد نشأت وتطورت فى هذه المنطقة ، ولكننا لا نستطيع أن نعرف على وجه التحديد أى مكان آخر لنشأتهم غير تلك المنطقة . وبعد أن استقرت شعوب البروتو ــ ملايو أخذت تفد عليهم قبائل منغوليه كانت تأتى من الشمال، ويلوح أن هجرات تلك القبائل كانت بطيئة الى درجة لم تجعل القادمين الجدد يقتبسون معظم لغة السكان (البروتو ــ ملايو) وحضارتهم ، بالرغم من أنهم جعلوا مظهرهم الجثمانى يسود فى المنطقة ، فنرى أكثر السكان الحاليين فى جنوب شرقى آسيا واندونيسيا بحيث يمكن أن نطلق عليهم اسم ديتروملايو أو ملايو ثانويين (deutero-Malayo) ، وهم ذوو لون أسمر ولكنهم ذوو رؤوس مستديرة وشعرهم سبط غير جعد وأعينهم منحرفة وقسمات وجوههم منغولية .

ونرى انعكاس هذا التغيير التدريجى فى المظهر الجثمانى فى تلك الفوارق فى مظهر السكان فى الجهات المختلفة من المنطقة الملايو ــ پولينيزية . فنرى أن صفات البروتو ــ ملايو ما زالت منتشرة بين الشعوب التى تعيش فى الجزائر البولينيزية البعيدة وأقدم شعوب سكان جزيرة مدغشقر ، أما فى جزر پولينيزيا الغربية وفى جزر ميكرونيزيا (Micronesia) فنرى نسبة كبيرة من مميزات الديترو ــ ملايو ، كما نرى هذا العنصر غالبا على ما عداه بين قبيلة ايمرينا (Imerina) الذين نعرف ، مما احتفظ به رواتهم ، أنهم آخر من وفد من المهاجرين الأسيويين الى جزيرة مدغشقر .

ويوجد بين جنوب شرقى آسيا واندونيسيا وبين الجهات النائية فى المحيط الهادى سلسلة تكاد تكون متصلة ، من الجزر تمتد من مجموعة الجزر اليابانية مارة بالفلبيين الى غينيا الجديدة ومجموعات الجزر الميلانيزية المختلفة، اذ كان الوصول الى كل هذه الجزر من الأمور السهلة على بحارين مهرة مثل الأندونيسيين القدماء. وقد وصل المهاجرون الملايو ــ پولينيزيون الى الفلبيين

فى وقت مبكر من أيام أسفارهم وهجراتهم المتعاقبة التى استمرت الى أواخر أيام القرن الرابع عشر عندما استقر أجداد الـ « مورو » (Moro) وهم أهل الملايو الذين اعتنقوا الاسلام ، فى منطقة مندناناو (Mindanao) ولا يكاد يوجد شك فى أن مهاجرين مبكرين وصلوا أيضا الى اليابان وساعدوا كثيرا فى تقدم كل من السكان اليابانيين والحضارة اليابانية فى ذلك الوقت ، وسنتحدث عن هذا الموضوع فى مكان آخر من هذا الكتاب .

وليست الجزر الميلانيزية الا ما بقى مما كان فى يوم من الأيام امتدادا فى جهة الشمال لقارة أوستراليا، ومن المؤكد أن كثيرا من هذه الجزر كانت آهلة فى وقت من الأوقات بسكان يشبهون كثيرا الأوستراليين الأصليين ، ولكن فى الوقت الذى بدأ فيه اتصال الأوروبيين بهؤلاء الناس كان أكثر السكان الميلانيزيين أقرب الى الجنس المتزنج من أى شىء آخر وما زالت بعض مجموعات من النجريتو (Negrito ــ الاقزام السود) توجد حتى اليوم فى مناطق التجأوا اليها ، تمتد من غينيا الجديدة حتى جزر اندمان (Andman فى خليج البنغال .

وهناك عدة نظريات لتفسير وجود شعوب متزنجة فى مثل هذه الأماكن البعيدة عن افريقيا ، فى الوقت الذى لا يوجد فيه سكان متزنجون فى المسافة بين تلك الأماكن وبين أفريقيا ، ولكن لا توجد من بين تلك النظريات نظرية واحدة مقنعة . فبالرغم من أننا نجد فى المتزنجين الميلانيزيين ما نتوقع رؤيته من الجلد الداكن اللون والشعر الفلفى الجعد ، فانهم يتباينون كثيرا فى الخصائص الجثمانية الأخرى وبينهم قليلون ممن يمكن أن يظنهم الانسان أنهم من أهل أى قبيلة أفريقية ، ومن المرجح جدا أن القسمات أو الصفات المميزة التى يشاركون فيها الافريقيين جاءت نتيجة تطور اقتضى تجمعها .

وعلى أى حال فالأحوال المناخية فى الجزر الميلانيزية لا تختلف كثيرا عن الأحوال المناخية فى الأراضى الواطئة فى غرب افريقيا ، وهى المركز الذى

يرجح أن يكون جميع الزنوج الحقيقيين قد انتشروا منه الى سائر أجزاء القارة الأفريقية .

ولكن مهما كان أصل المتزنجين الميلانيزيين ، فربما لا نعدو الصواب اذا قلنا انه فى الوقت الذى بدأت تنتشر فيه الهجرات الملايو بولينيزية ، كانت المنطقة آهلة بشعب داكن لون الجلد من جنس متزنج أو متفرع من الأوسترالى ، ومتأخر فى حضارته ، ولما كانت جزر ميلانيزيا واقعة على حدود المناطق التى يقطنها الملايو ــ پولينيزيون ، فقد كانت هذه الجزر معرضة لسيل مستمر من الغزاة .

وفى بداية العصر التاريخى كانت اللغات الملايو ــ پولينيزية منتشرة فى كل مكان ما عدا المناطق الداخلية فى عدد قليل من الجزر الكبرى . وعلى أى حال فبالرغم من الاختلافات الكثيرة المتفاوتة فى المظهر الجثمانى بين السكان المحليين من منطقة لأخرى كنتيجة للعزلة الاجتماعية والتزاوج بين الأقارب ، فاننا ما زلنا نرى حتى اليوم أن الغالبية العظمى من السكان متزنجة أوشبيهة بالجنس الأوسترالى . أما مجموعات الأقوام الپروتو ــ ملايو ، أو الديتورو ــ ملايو فاننا لانجدها الا فى بعض جزر قليلة من الجزر البعيدة عن الشواطىء بل انه يغلب على الظن أن أهل هذه المجموعات من نسل الپولينيزيين الذين عادوا ثانية من ناحية الشرق الى هذه الجزر منذ عهد غير بعيد .

واذا أردنا البحث عن تفسير لهذا التفاوت الغريب وعدم الانتظام فى توزيع اللغات والمظاهر الجثمانية ، فان خير تفسير يمكن تقديمه هو أن المهاجرين الملايو ــ پولينيزيين وجدوا أن البيئة الميلانيزية كانت حربا عليهم ، وأشد قسوة من الأهالى الميلانيزيين. وفى الوقت الحاضر يجد الأوروبيون المحدثون بالرغم مما لديهم من أدوية حديثة ، انه من الصعب أن يعيش الانسان ويستمر حيا فى بلاد ميلانيزيا ، فهناك امراض متوطنة كثيرة تحتل مكان الصدارة فيها أنواع عدة من الملاريا الخبيثة .

ومن المحتمل أن المهاجرين الأوائل من الملايو ــ پولينيزيين انشأوا لأنفسهم قرى عدة فى الجزر الميلانيزية ، وتزاوجوا مع السكان الأصليين الذين كانوا فى تلك الجزر ، وأصبح نسلهم نسلا هجينا مختلطا من جميع الوجوه . فقد كانوا يتحدثون بعدد من اللغات، تغلب فيها جميعا العناصر الملايو ــ پولينيزية وكان يوجد بينهم أنواع متعددة من الحضارات المحلية التى استمدت أسسها من الجمع بين أشياء متباينة سواء مما كان أصيلا فى البلاد أو مما جاء به الملايو ــ پولينيزيون .

وعلى أى حال فان المظهر الجثمانى للسكان الأصليين آخذ يحل بالتدريج محل المظهر الجثمانى للغزاة ، وذلك لميزته عليه فى ملاءمته للبيئة المحيطة به . ونرى شيئا شبيها بذلك فيما حدث لأوائل الجاليات الأوروبية التى تأسست فى البلاد الاستوائية فمازالت اللغات الأوروبية والشىء الكثير من مظاهر الحضارة الأوروبية باقية حتى الآن ، ولكن لا نرى بين السكان الحاليين الا آثارا قليلة من الدم الأوروبى .

لم يكن احتلال الملايو ــ پولينيزيين لجزر الفيليبين وتغلغلهم فى ميلانيزيا الا الخطوات الأولى فى اتجاههم نحو الشرق . فلما اجتازوا تلك الجزر أصبح المحيط الهادى بأكمله مفتوحا أمامهم بما فيه من الجزر الكثيرة الخالية من السكان والتى كانت فى انتظار من يأتى لسكناها . وكان أحد طرق الهجرة يمر على الأرجح بين جزر ميلانيزيا ثم يسير بحذاء جزر بولينيزيا القريبة منها نسبيا ، مارا بجزر تونجا (Tonga) وساموا (Samoa) ثم يتجه شرقا الى مجموعة جزر سوسيتى (Society) بالمركساس (Marquesas) وينتهى عند جزيرة ايستر (Easter Island) والى الشمال من هذا الطريق كان هناك طريق آخر للهجرة ، يتخذه المهاجرون ليصلوا الى مجموعة الجزر الصغيرة والتى تبعد كل منها عن الأخرى وهى المسماة الجزر الميكرونيزية (Micronesian Islands) التى وصلوا منها بعد ذلك الى جزيرة هاواى (Hawaii)

وكان كل قادم على أحد هذين الطريقين يحمل معه مميزات المنطقة التى جاء منها . فقد عاش أحفاد المهاجرين الأول الذين وصلوا الى پولينيزيا من الطريق الجنوبى حتى العصور التاريخية فى جزر ماركساس ومانجاريڤا وايستر ، وكانوا عنصرا هاما بين الجماعات التى ذهبت فى الهجرة الكبرى فى القرن الثانى عشر الى نيوزيلاندة . وبالرغم من أنهم لم يكن فيهم دم ميلانيزى على الاطلاق ، أو كان فيهم شيء قليل جدا منه ، فقد كانوا يشاركون أولئك الناس فى بعض المميزات الحضارية ، وكان أهمها الاقبال الشديد على ممارسة صيد الرؤوس والاحتفاظ برؤوس الأعداء والأسلاف على حد سواء . وكان من عاداتهم أيضا أكل لحوم البشر ليس كنوع من أنواع الطقوس بل بسبب حبهم لأكلها . وامتازوا أيضا بتفكك تنظيمهم السياسى تفككا تاما واستمرار القتال بين القبائل وبعضها ، كما كانوا يمتازون بميلهم الى نوع قوى من الفن تغلب عليه الخطوط المنحنية ، وكان الموضوع الغالب فيه هو موضوع الرسوم الانسانية .

أما المهاجرون الذين اتخذوا الطريق الشمالى فقد احتلوا ميكرونيزيا ،ومن المرجح أنهم أول من سكن فى هاواى ، وقد حصلنا من فحص احدى العينات من محلة فى سيپان (Saipan) فى جزر كارولين (Caroline) بطريقة الراديو كاربون على أن ذلك الأثر يرجع الى عام ١٥٠٠ قبل الميلاد ، ولكن هجرات متفرقة ومتباعدة ظلت مستمرة حتى العصور الحديثة ، ومعظم سكان جزر ميكرونيزيا هم فى الحقيقة ديترو ــ ملايو أكثر من كونهم پروتو ــ ملايو .

وبعد اقامتهم فى ميكرونيزيا ، وتعديل حضارتهم لتلائم الظروف التى كانت سائدة هناك ، أخذ أحفاد أولئك المهاجرين الأول يتجهون نحو الجنوب ، الى جزر پولينيزيا، وكانت أكثر هجراتهم الى الغرب نحو جزر ساموا وتونجا حيث غيروا الحضارة القديمة التى كانت هناك تغييرا كاملا الى درجة أنه لولا عوامل المظاهر الجثمانية واللغوية لتحتم اعتبار هذه المجموعات من الجزر ميكرونيزية

أكثر من اعتبارها پولينيزية . ومن جزر ساموا وتونجا انتشروا نحو الشرق مارين بالجزر المختلفة الى أن وصلوا أخيرا الى جزر سوسيتى . وكان الغزاة الجدد أقل مهارة فى الصناعة من أهل القبائل التى كانت تعيش فى تلك الجزر ، وخلال اقامتهم فى ميكرونيزيا فقـدوا الشىء الكثير من مهـارتهم كمزارعين وكصانعى أدوات من الحجر ، وثياب من لحاء الشجر وحفارين فى الخشب ، ولكنهم استعاضوا عن ذلك باختراعهم لنوع ممتاز من الزوارق والشراع ، وأساليب من التنظيم السياسى واسـتغلال القبائل المغلوبة . انهم وجـدوا الپولينيزيين القدماء مقسمين الى عدد لا حصر له من القبائل المحلية الصغيرة التى لم يكن فى استطاعتها التعاون لصد الغزاة ، فتمكنوا بذلك من تثبيت أنفسهم كارسـتوقراطية حاكمة وتكوين دويلات تقوم على أساس نوع من النظام الاقطاعى . وكان على رأس الجميع زعيم كبير ومعه زعماء اقل منه ، كان بعضهم من بين الغزاة والبعض الآخر من الزعماء الوراثيين للقبائل التى غلبت على أمرها .

ومع هذا فمن غير المحتمل أن تكون القبائل كلها قد قبلت الاستسلام ، وفيما تلا ذلك من العصور كان لدى الپولينيزيين نوع من التسليم مع الاحتفاظ للمحارب بشرفه ، اذ كانوا يعطون للفريق المهزوم وقتا كافيا لعمل زوارق وأخذ ما يكفى من المؤن ، ويتركونهم بعد ذلك يغادرون الجزيرة بحثا عن موطن جديد . ولسنا نعرف أكان مثل هذا النظام معروفا فى ذلك الوقت أم لم يكن معروفا بينهم ، ولكن وصول الميكرونيزيين قد تسبب دون شك فى بدء عهد جديد من السفر والتجوال بدأ منذ القرن العاشر الميلادى واستمر حتى القرن الرابع عشر .

وقبـل ذلك الوقت بفترة طويلة كان قد تم اكتشـاف نيوزيلاندة وكان يقطنها عدد قليل من السكان ، ولكن الهجرات الكبيرة بدأت فى ذلك الحين ، تلك الهجرات التى يقول معظم الماورى بأنهم من بسل من جاءوا خلالها . وفى

خلال ذلك العصر أيضا أبحر مهاجرون مختلطو الدم والثقافة من جزائر سوسيتى واتجهوا شمالا الى هاواى حيث نزلوا هناك وبسطوا سيادتهم على من وجدوهم فى تلك الجزر من السكان القدماء وأصبحوا حكاما لهم ، واذا صدقنا مايرويه الرواة هناك فانهم أدخلوا الى تلك الجزيرة أنواعا من الأغذية النباتية وعناصر أخرى من حضارة متقدمة .

أما الهجرات الملايو ــ بولينيزية التى اتجهت نحو الغرب فان معلوماتنا عنها أقل ويصعب علينا معرفة ماحدث فيها، وان كان يمكننا أن نقول انها كانت على نطاق واسع لأننا لا نرى فى جــزيرة مدغشــقر سكانا من أصــل ملايو ــ بولينيزى فى لغتهم وحضارتهم فحسب ، بل نرى أيضا كلا من البروتو ــ ملايو والديترو ــ ملايو فى مظهرهم الجثمانى .

والمحيط الهادى هو أعظم محيطات الأرض احسانا ، لأن رياحه الموسمية تساعد السفن فى سيرها بانتظام سواء نحو الشرق أو نحو الغرب حسب شهور السنة . ومن المحتمل جدا أنه فى الوقت الذى كان فيه الاغريق يسيرون على مقربة من الشواطىء ينتقلون بين مرفأ وآخر على طول الشاطىء الموحش بين مدخل البحر الأحمر والهند، كان الملايو ــ بولينيزيون قد عرفوا كيف يسيرون من جزيرة جاوة أو من جزيرة سومطرة الى شرق أفريقيا .

وقد احتفظت قبيلة ايمرينا (Imerina) فى مدغشــقر بقصة يروونهــا عن هجرتهم اذ يرجح أنهم جاءوا من سومطرة ، اعتمادا على ما وصل اليه الباحثون فى لغتهم ، فى القرن الخامس الميلادى بعد أن عمرت تلك الجزيرة بسكانها الأوائل بوقت طويل . يقص رواتهم أن أسلافهم تركوا وطنهم الأصلى فى ناحية الشرق بحثا عن « أرض خلت من الموت » وبعد سفرة طويلة رسوا على أرض كان فيها سكان سود لطيفو العشرة فلما رأوا أنه لا أثر للمقابر فى بلادهم اعتقدوا أنهم قد نجحوا فى بحثهم ، ولكنهم استاءوا بعد ذلك عندما عرفوا أن هؤلاء الناس كانوا يأكلون موتاهم . وعادوا الى زوارقهم واتجهوا نحــو الجنوب

يسيرون على مقربة من الشاطىء حتى نزلوا مرة ثانية بين سكان كانوا أيضا ظرفاء ، ولكنهم وجدوا أن لهم ذيولا فى أجسامهم ، فاشمأزوا من ذلك ونزلوا مرة ثانية الى زوارقهم وساروا نحو الجنوب حتى رسوا فى النهاية عند) توليار (Tulear) فى الطرف الجنـوبى الغربى من مدغشقر ، ومن ذلك المكان ساروا فى قلب الجزيرة متجهين نحو الشمال الشرقى الى أن بلغوا الهضـبة الوسطى حيث استقر بهم المقام .

فاذا وضعنا بدلا من الجملة الشعرية « أرض خلت من الموت » جملة عادية وهى « منطقة خلت من الملاريا » أصبحت تنقلاتهم مرة بعد أخرى تنقـلات معقولة لأن الشاطىء الشرقى موبوء بالملاريا ، وهضبة جزيرة مدغشقر كانت خالية تماما من الملاريا الى زمن قريب .

وهناك ما يؤيد الظن بأن طريق هجرة الملايو ــ پولينيزيين قد اتجه أولا الى شمال مدغشقر ثم نزلوا جنوبا الى الشاطىء الافريقى ، وذلك لأن تيار الماءفىموزمبيق (Mozambique) يسير بقوة نحو الجنوب فيصبح من المتعذر على الزوارق التى تسير بالشراع أن تسير فى اتجاه مضاد . وحتى فى وقتنا الحاضر مازلنا نرى على الشاطىء الغربىمن جزيرة مدغشقر زوارق ذات سنادة خارجية وشراع يشبه كثيرا ذلك النوع الذى يستخدمه الپولينيزيون الذينيعيشون فى الأطراف ، ولكن هذا النوع من الزوارق والشراع غير معروف بين سكان الشاطىء الشرقى .

وأخيرا ، لو أن المهاجرين أبحروا فى المحيط الهندى مباشرة لما أمكنهم أن يتجنبوا أو يضلوا عن جزر ماسكاران (Mascarens) وماوريتيوس وريونيون (Mauretius, Reunious) أو جزر سيشل (Seychelle) فلم تكن تلك الجزر خالية فقط من السكان عند اكتشاف الأوربيين لها : بل كان يأوى اليهاسلاحف هائلة الحجم وطيور غريبة لا أجنحة لها لم تلبث الا سنوات قليلة بعد سكنى الناس لتلك الجزر ثم اختفت .

وكثير من المناطق التى تقع على الشاطىء الشرقى من أفريقيا كئيبة وغير مغرية ولا تشجع على الاقامة فيها ، وبخاصة اذا كان المهاجرون ممن اعتادوا على مناطق اندونيسيا الخصيبة التى تكثر فيها نباتات المناطق الحارة . ولكن الى جانب ذلك توجد على هذا الشاطىء مناطق يمكن الاستقرار فيها ويمكن انشاء متاجر يقوم اقتصادها على محصولات مما جاءت أصلا من جنوب شرقى آسيا.

فقبل ادخال الأطعمة النباتية التى هى من أصل أمريكى كانت أهم محصولات أفريقيا الاستوائيه نباتات اليام والموز والتارو وكلها جاءت فى الأصل من جنوب شرقى آسيا ، وربما يكون البرتو ــ ملايو هم الذين أدخلوا زراعتها الى تلك البلاد . وكذلك الرز فربما تكون زراعته أيضا قد جاءت الى أفريقيا الاستوائية من المصدر ذاته لأنه مازالت تسود فى مدغشقر طريقة بدائية لزراعة الرز .

واذا أردنا تحديد أقدم تاريخ لهجرات الملايو ــ بولينيزيين الى أفريقيا ومدغشقر لما استطعنا ذلك ورأينا أنفسنا مضطرين للتخمين خصوصا أنه لم يعثر أحد على أدوات حجرية فى أى واحدة من هاتين المنطقتين . وليس معنى ذلك أنه لن يعثر عليها فى المستقبل متى بدأت البحوث الأثرية على نطاق واسع فى تلك المناطق ، ولكن استنادا الى ما لدينا من المعلومات حتى الآن فمن غير المحتمل أن تكون الهجرات الرئيسية لشعوب الملايو ــ بولينيزيا قد حدثت قبل أن يعرف أولئك المهاجرون استخدام معدن الحديد .

وعلى عكس ماكنا نتوقع ، فان الأساليب الأفريقية فى صناعة الأدوات الحديدية ، وشكل كثير من الأدوات والأسلحة الأفريقية ، وبنوع خاص استخدام أنواع متعددة من المنفاخ الذى يعمل بالضغط فى مناطق أفريقيا المختلفة ، وهو جهاز معروف أنه من شرقى آسيا ، كل هذه الأشياء تجعلنا نميل الى القول بأن زنوج أفريقيا قد تعلموا صناعة استخدام الحديد من مصادر ملايو ــ بولينيزية .

الفصل الرابع عشر

جزر أوسيانيا ومدغشقر

لم تسهم الحضـارات التى عاشت على حافة جزر الملايو ــ البولينيزية ، والتى بقيت حتى الآن فى جزر أوسيانيا ومدغشقر ، بشىء كثير فى التقدم الرئيسى لتطور الحضارة . ولكنها مع ذلك أمدت المعنيين بدراسة المجتمع والحضارة ببعض الأمور ذات الأهمية البالغة فى البحث المقارن ، ويرجع ذلك الى العزلة النسبية لهذه الجزر عن العالم الخارجى وارتباطها الوثيق بعضها بالبعض الآخر ، والتقليد المتبع بين أفراد هذه الشعوب بأن يعيشوا فى قبائل صغيرة ولا يتزوجون الا من ذوى قرباهم ، كما يرجع أيضا الى حياتهم فى قرى تتجنب الاتصال بغيرهم ، فلهذا كانت كل هذه الظروف سببا فى اتاحة فرصة كبيرة لدراسة نتائج تطور ونمو حضارة مستقلة عن غيرها . ويجد الانسان كل التطورات واضحة ظاهرة فى كثير من العناصر البسيطة التى تمثل حضارتهم والتى نراها فى كل مكان تقريبا . ولسنا بحاجة الى القول بأن هذا التنوع الحضارى يجعل من الصعب علينا ايجاد قاعدة عامة نسترشد بها فى فهمنا لتلك الحضارة ، اذ يبدو أن تطورات مستقلة مماثلة ظهرت فى بعض المناطق الأخرى ، ولكننا نلاحظ فى نفس الوقت أن حرية وسهولة التنقل بين الجزر التى كان يتمتع بها سكان الجزر الملايو ــ بولينيزية قد أنتجت لنا مظاهر متنافرة عديدة من الحضارة تتعارض مع ما رسخ فى أذهاننا عن فهم تطور المناطق الواقعة فى داخل القارات . واذا ما أردنا أن نصف الجزر البولينيزية وصفا عاما نجد أن كثيرا من الأوضاع السائدة فى معظم مجموعات الجـزر البولينيزية لا ينطبق على جـزيرة « ساموا » (Samoa)

على الاطلاق ، اذ نرى أن الجماعة التى تعيش فيها كانت نوعا من جمهورية ارستقراطية لا يهتم أفرادها كثيرا بتسلسل الأنساب ، كما كان اهتمامهم بالأديان أقل من ذلك . وقد ظهر الآلهة البولينيزيون كأشخاص فى أساطير شيقة لطيفة ، ولكن لم يكن هناك معبد واحد أو كاهن محترف فى الجماعة كلها ، وكان الاهتمام بأرواح الأجداد بصفة عامة ضئيلا للغاية .

وأشهر المناطق البدائية فى الجزر الملايو ـ البولينيزية هى جزر بولينيزيا ولكنها مع الأسف ، فى الوقت نفسه ، احدى المناطق التى لا نعرف الا القليل عن حضارة سكانها الأصليين ، وذلك يرجع الى ما تعرضت له من كثرة وفود المبشرين على هذه المنطقة فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، والى انتشار الأمراض الوبائية فيها والاستغلال التجارى لها . وعندما أتى الوقت الذى تطورت فيه الأساليب الحديثة لجمع وتحليل المواد الحضارية فى علم الأجناس كانت معظم حضارة البولينيزيين قد تدهورت .

وقد ترك الرواد الأوائل لهذه الجزر تقارير قيمة عما شاهدوه هناك وان كانوا لم يستطيعوا فهمه على حقيقته . قال هؤلاء الرواد عن سكان الجزر البولينيزية انهم مجتمع يتكون من أفراد من الناس الذين يحيون حياة طبيعية ، وكان روسو (Rousseau) وتلاميذه الرومانتيكيون يعتبرونهم مثلا أعلى للمجتمع وفيه طبقة أرستقراطية منظمة ، وهو مجتمع عزيز على نفس كل المفكرين العقلاء فى ذلك العصر .

وكانت كثرة العلاقات الجنسية دون تقييد ، وجمال النساء البولينيزيات وبخاصة فى أعين البحارة الذين كانوا قد قضوا الشهور العديدة فى عرض البحر ، سببا فى جعل بولينيزيا تظهر فى أعينهم جنة على الأرض . ومما يؤسف له أن امتزاج عدم الفهم الصحيح مع الرومانتيكية فى التفكير قد أدى الى ظهور أوصاف تمتدح الحضارة البولينيزية بشكل مبالغ فيه . وقد أعقب ظهور هذه الأوصاف كتب أخرى كتبها الرحالة الذين زاروا هذه المنطقة اعتمد

مؤلفوها على ما جاء فيما كتبه منزاروها قبلهم بدون مناقشة ما جاء فيها من معلومات عن هذه المنطقة ، ثم سار على نهجهم كثير من الباحثين الجادين فى عملهم . وحتى فى وقتنا هذا نجد اتجاها نحو بحث النظام السياسى البولينيزى فى ضوء النظام الملكى الأوروبى ، وبحث الدين البولينيزى على أساس عقد المقارنة بينه وبين الأساطير القديمة أو الأديان الموطدة الأركان .

ومما يؤسف له أيضا ، أنه لم يوجد بين الرواد الأوائل الذين كتبوا عن الحضارة البولينيزية شخص اسكتلندى مدقق ليلمس التشابه الشديد بين القبائل البولينيزية والعشائر الاسكتلندية ، ففى كلتا المنطقتين يسكن أفراد القبيلة أو العشيرة فى منطقة محددة لا يتعدونها ، مدعين أنهم جميعا من سلالة جد واحد ، ويتزوجون عادة فيما بينهم . وكان الزعيم فى كل منهما هو الشخص الذى يتصل نسبة مباشرة بالجد الأول ، ولم تكن هناك أى صعوبة فى وجود خلف له لأنه لو فرض وزال جميع أفراد القبيلة واحدا بعد الآخر ابتداء ممن ينتسب الى الجد الأكبر نفسه فان آخر من يبقى منهم على قيد الحياة يستطيع أن يحصل بطريق شرعى على منصب الزعامة وشعارها ، اذ كان الاحترام والطاعة اللذان يدين بهما أفراد القبيلة لزعيمهم هو أنهم كانوا لا ينظرون اليه كشخص بقدر ما كانوا يرون فيه رمزا للقبيلة كلها ، وكانت تربط بين الزعيم وأتباعه حقوق متبادلة نشأت عن صلاتهم ببعضهم كأقرباء .
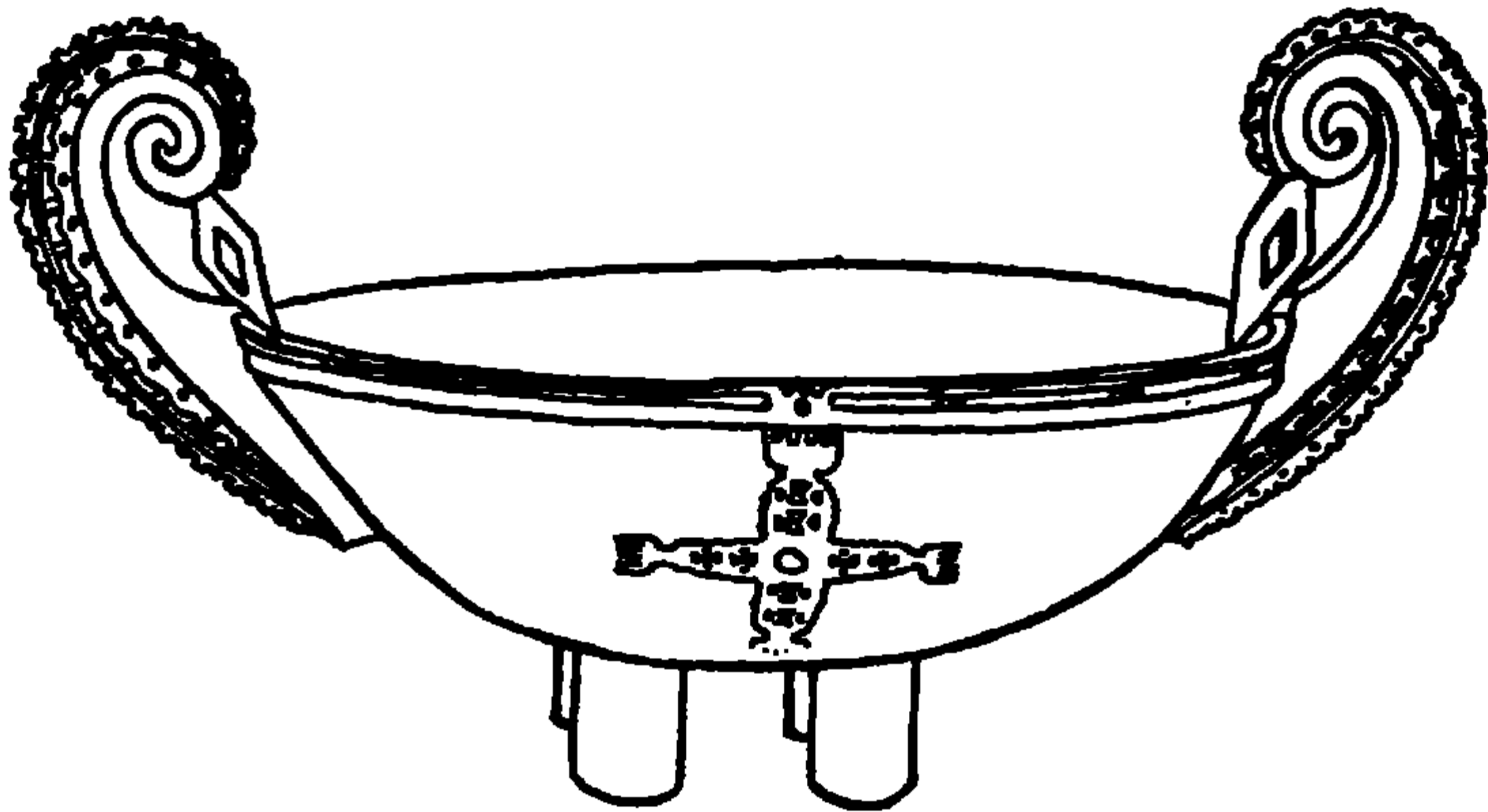
آنية للطعام ، جزر الادميرالية **(Admirality Islands)**

كان البولينيزيون والاسكتلنديون متشابهين الى هذا الحد . وفى نيوزيلندة وجزر الماركساس ، ومناطق قليلة أخرى ، كانت كل قبيلة تعيش على حدتها اللهم الا فى الأوقات التى تربط بينها محالفات وقتية ، كما هى الحال فى اسكتلندا تماما . وفى تلك الجهات البولينيزية حيث أقام المهاجرون المتأخرون حكومات لهم ، وعلى الأخص جزر هاواى وجزر سوسيتى ، أصبح زعيم القبيلة المسيطر ملكا عليها وكان يتلقى الجزية من القبائل الأخرى ، على اعتبار أنها نوع من الهدايا تقدم له مقابل استفادتهم من قواه التى فوق طاقة البشر واستغلالها لمنفعتهم . وكان أفراد قبيلة الملك نفسها يتمتعون كذلك بقسط أكبر من الاحترام والتقدير ولكن هذا لم يتطور فى يوم من الأيام فيجعل منهم نبلاء اقطاعيين . فما لم يعززوا مركزهم بمصاهرة العائلات القوية فى القبائل الخاضعة لهم ، كان لزاما عليهم أن يعملوا كأى فرد آخر .

كان الملوك البولينيزيون يحيطون أنفسهم بحاشية تعتمد فى معيشتها على ما يقدمه لهم أتباعهم من هبات اجبارية . وكان عدد قليل من رجال الحاشية يختارون من أقارب الملك أما الكثرة الكاثرة فكانت تتكون من الأفراد الذين يختارون لمقدرتهم الخاصة بغض النظر عن أصل عائلتهم . وكان يفد على بلاط الملك أفراد من الجزر الأخرى فكانوا يعملون فى الحرس الخاص للملك اذا كانت لهم المواهب الشخصية التى تؤهلهم لذلك . وبما أن هؤلاء الأشخاص لم يكونوا من السلالة التى ينحدر منها الملك نفسه ، فلم يكونوا من بين أولئك الذين تنتقل « المانا » (Mana) عن طريقهم ، ولهذا كان فى استطاعتهم لمس جسد الملك أو الأشياء الخاصة به دون الحاق الضرر بأنفسهم أو بالآخرين . وكان يفد أيضا على البلاط محاربون مشهورون لم تقتصر مهمتهم على عملهم كحرس خاص للملك ولكنهم كانوا دائما على استعداد لتنفيذ أوامره . أما مستشاروه فكانوا يختارون لحكمتهم بصرف النظر عن أصلهم .
وأخيرا ، كان كل بلاط ملكى يحوى عددا كبيرا من النساء والرجال الذين

. كانت مهمتهم تنحصر فى الترفيه عن الملك . وفى جنوب شرقى پولينيزيا كان هؤلاء الفنانون والفنانات يخضعون لنظام خاصٍ ويحتم عليهم ألا يتزوجوا ، ولكن هذا النظام لا يجبرهم بأى حال من الأحوال أن يعيشوا حياة طهر وعفة.

كان هؤلاء المرفهون ينتقلون من بلاط الى آخر فى فرق يؤدون رقصات وتمثيليات ذات طابع يميل الى الاباحية ، ومن الطريف أن نذكر أن الأهالى أنفسهم كانوا يعتبرون بلاط الملك بؤرة للكسل والفجور .

كان النظام السياسى الپولينيزى يتميز بظاهرتين فريدتين ميزتاه عن أى نظام آخر. فقد كان الپولينيزيون ينظرون دائما الى الأمام بدلا من أن يلتفتوا الى الوراء ، كانوا يفهمون القبيلة على أنها شجرة تنمو دائما وتتفرع الى أعلى. وكان كل جيل يفضل سابقه فى امتلاكه لقوة أكبر من المانا ، وكان الابن الأكبر فى العائلة فى منزلة أبويه تماما . كان هذا الاعتقاد مسيطرا عليهم لدرجة كبيرة ففى مناطق پولينيزية كثيرة كان زعيم القبيلة يفقد مركزه كزعيم لها حالما يولد
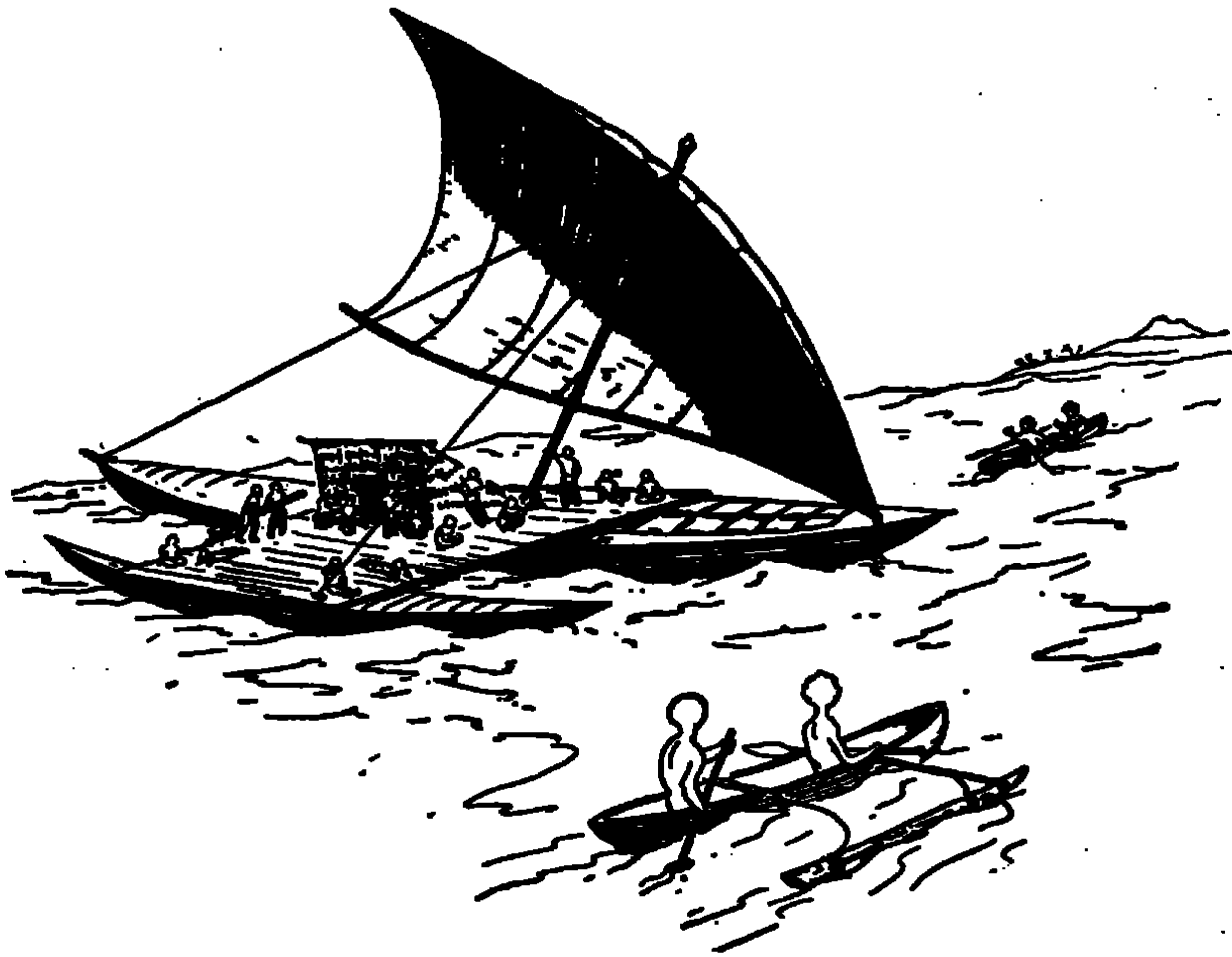
مركب شراعى ذو سنادات جانبية

له طفل وكان يستمر فى الحكم كوصى على ابنــه فقط حتى يبلغ ذلك الابن السن التى يستطيع فيها أن يتولى مهام الحكم .

أما الظاهرة المهمة الثانية فى النظام الاجتماعى اليولينيزى ، والتى سببت ارتباكا لاحد له للباحثين ، فهى نظامهم العجيب الذى كانوا يتبعونه فى ترتيب أنسابهم ووضع كل فرد منهم فى مركزه فى العائلة . كان المولود الأول فى العائلة هو الذى يحتل المركز الأول فيها سواء أكان ذكرا أم أنثى ، ويتلوه فى الأهمية المولود الثانى ، وهكذا حتى نهاية السلالة . واذا نظرنا فى تسلسل النسب عندهم نجد أن خط النسب ينحصر فى عائلة المولود الأول فى العائلة سواء أكان رجلا أم امرأة . وهــكذا لم تكن الأفضلية فى النسب عنــد اليولينيزيين خاضعة للتسلل عن طريق الأم أو عن طريق الأب، بل كانت خاضعة أولا وآخرا للانتساب الى المولود الأول ، وهو نظام لانجد مثيلا له فى أى مكان آخر فى العالم . وتبعا لهذه النظرية فان الوضع الاجتماعى لأى فرد من الافراد كان يحدده ترتيب مولده بالنسبة لاخوته ، ويحدده أيضا ترتيب مولد أسلافه بالنسبة الى اخوتهم وبما أن أفراد القبيلة كانوا ينتمون أصلا الى جد واحد وهو مؤسس القبيلة ، فان مركز أى فرد بالنسبة الى فرد آخر فى القبيلة يمكن معرفته بالرجوع الى سلسلة نسب كل منهما . كان أكبر الأبناء سنا ، فى مثل هذا النظام ، هو اعلاهم مرتبة .

كان هذا النظام فى الأنســاب هو الذى يحدد لكل فرد حقه فى امتــلاك الاراضى وفى الحقوق الأخرى مثل حصوله على عضــوية المجلس المقدس للقبيلة ، ولهذا كانوا يعنون عناية كبرى بالمحافظة عليه . ومن الامور العادية أن نجد لديهم شجرات أنساب صحيحة تمتد الى عشرين أو ثلاثين جيلا بينما أن بعض تلك الشجرات يرجع بانساب أصحابها الى ثمانين جيلا ، ولكن من المحتمل جدا أن تكون أصولها الأولى غير محققة وتغلب عليها الصبغة الخرافية.

كان نظام أفضلية المولود الأول (primogenitural) الذى اتبعــــه

البولينيزيون فى ترتيب النسب والمركز الذى يحتله كل فرد فى العائلة ، سببا فى خلق بعض النتائج العكسية الهامة فى نظامهم الاجتماعى والسياسى اذ ترتب على هذا النظام أن كثيرا من الاخوات كن يفضلن فى المركز الاجتماعى اخوتهن من الذكور ، وبالمثل كانت زوجات كثيرات يفقن أزواجهن ، وهكذا دواليك .
وقد أدى هذا النظام الى تحقيق درجة غير عادية من المساواة بين الجنسين. وبالرغم من أن النساء كان يحرم عليهن بعض الأشياء التى يسمح بها للرجال، وكان لكل من الجنسين نشاطه وأعماله المرسومة له ، فاننا لا نعدو الحقيقة اذا قررنا أنه ربما لا يوجد بين الجماعات البدائية أى جماعة أخرى كاد فيها الرجال والنساء يقفون على قدم المساواة الاجتماعية . وقد أثر نظام حق المولود الأول أيضا تأثيرا هاما على النظام السياسى فاذا حدث أن كان المولود الأول للزعيم فتاة ، فانه يصبح من حقها أن تتمتع بأعلى مرتبة اجتماعية فى القبيلة ، وتستطيع أن تورث هذه المرتبة لمولودها الأول . ولكن فى الوقت نفسه كان يستحيل عليها أن تمارس جميع الأعمال التى يتطلبها منصب رئيس القبيلة ومن بينها قيادة الجيش أثناء الحرب . ففى مثل هذه الحالة كانت الزعامة تنتقل مؤقتا الى أكبر اخوتها الذكور ، ولكن اذا كان أكبر أبنائها ذكرا فان الزعامة كانت تنتقل اليه . واذا أعقب الفرع صاحب الزعامة فى العائلة اناثا لأجيال متعاقبة ، فى الوقت الذى يولد أبناء من الذكور فى الفروع الثانوية الأخرى فان الزعامة تنتقل تبعا لذلك الى فرع ثانوى . ولكن فى الوقت ذاته يظل الفرع الرئيسى محتفظا بمركزه الاجتماعى الاعلى، بل ويعمل على توسيع الفارق الاجتماعى بينه وبين الفرع الذى انتقل اليه الحكم جيلا بعد جيل .
وهذا هو السبب الذى جعل « تونجا » (Tonga) التى كانت تعيش فى القرن الثامن عشر أعظم شخصية فى تلك المناطق ولم تكن الا المولودة الأولى لأخت الملك الكبرى التى كانت هى أيضا المولودة الأولى لوالدى الملك .
كان على الملك كلما قابل هذه السيدة أن يظهر اعترافه بمرتبتها التى تعلو

مرتبته وذلك بالانحناء لها وخلع ثوبه الخارجي . وقد قيل ان الملك كان يكره هذا العمل كراهية شديدة الى درجة أنه كان كلما علم بوجود هذه السيدة على مقربة من المكان كان يبث عددا من رجاله فى الخارج ليحذروه فى الوقت المناسب كى يتجنب مقابلتها .

وعند ولادة طفل ذكر كمولود أول فى الفرع الرئيسى كانت تقوم مشكلة عويصة حيث انه من الواضح أن الفرع الثانوى لم يكن يرضى بالتنازل عن سلطته بنفس راضية . وكان المتبع بينهم أن ممثل الفرع الرئيسى يصبح زعيما مقدسا تفرض عليه قداسته قيودا خاصة ، كان من أشدها أن مثل هذا الزعيم يحيل كل شىء يلمسه ، حتى الأرض التى يسير عليها أو الشجرة التى يقع عليها ظله ، الى شىء محرم « تابو » (Taboo) ولذلك كان لا يخرج الا بالليل ، وفى هذه الحالة أيضا لا يسير على قدميه بل كانوا يحملونه . ولم يكن مسموحا لاحد أن يلمس جسده أو يمسك بملابسه الا الخدم المخصصون لهذا العمل . وكان يتحتم أن يكسروا فى الحال كل آنية يأكل فيها أو يشرب منها ليحموا الآخرين مما عساه أن يلحق بهم من ضرر . ويذكرنا هذا بالارتباطات التى كانت تفرض على أباطرة اليابان فى نظام الـ « شجون » (Shagun) اذ كانوا هم أيضا مقدسين ، ولكن لم يكن لهم حول ولا قوة .

ووجدت جماعات كثيرة من البولينيزيين أن زواج الأخ بأخته هو الحل الوحيد للمشاكل الناجمة عن تطبيق نظام أفضلية الطفل البكر وما له من حقوق . فلو كان الطفل البكر فتاة فانها تتزوج من أخيها الأصغر ، وبهذه الطريقة تختفى المنازعات حول الاحقية فى الزعامة الى غير رجعة ، وكان من نتائج مثل هذا الزواج ولادة نسل له قوة مزدوجة من المانا .

ولكن فى معظم أجزاء پولينيزيا كان زواج الأخ بأخته ممنوعا منعا باتا كما هو الحال عندنا تماما ، ويبدو أن الرغبة فى الحصول على قدر أكبر من المانا أدت الى الزواج حتى بين الاخوة الكبار من أخواتهم الصغيرات فى جزر

هاواى ، ولكن مثل هذا الزواج كان يعتبر عملا شـــائنا فى نظر البولينيزيين الآخرين .
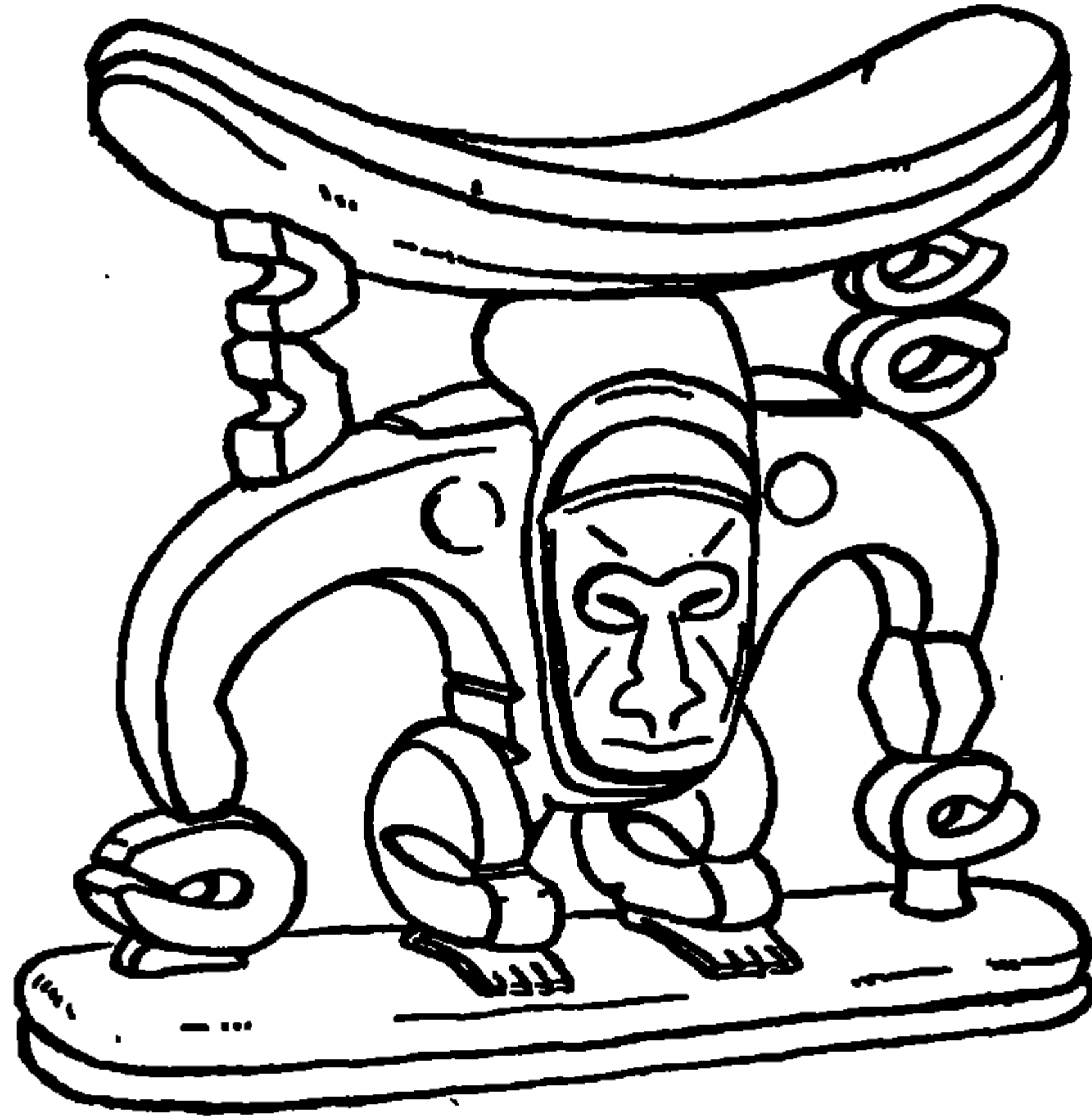
مسند للراس مصنوع من الخشب ، غانا الجديدة

ومن المستحيل أن نفهم النظام السياسى فى پولينيزيا أو ادارة حكومتهـا دون أن تفهم المقصود من مدلول كلمتى مانا وتابو . ومما يؤســف له أنه لا توجد ترجمة دقيقة واضحة لهاتين الكلمتين فى الانجليزية . وأقرب ترجمة لكلمة مانا هو « القدرة على انجاز العمل » أى أن أى شىء أو شخص يكون فى استطاعته أن يفعل شيئا أكثر من المعتاد، سواء أكان هذا الشىء خطافايمكن أن يصطاد به صاحبه سمكا أكثر من العدد المعتاد أم كان زعيمـا أمهر من المعتاد فى اتصالاته وتفكيره فانه يدل بذلك على أن فيه « مانا » .

ونرى شبيها لهذه الفكرة بين عدد كبير من الشعوب غير المتمدنة ، ولكن ليس من بين هذه الشعوب من نظمها تنظيما تاما مثل البولينيزيين . لقد جعل البولينيزيون من هذا الأمر فكرة منطقية فلسفية كانوا بفضلها يرجعون كل

مظاهر القوة غير العادية الى مسمى عام .

كانت المانا شيئا غير حي ولا حس فيه على الاطلاق ، مثل فكرتنا عن القوة أو الطاقة ، وكانوا يعتقدون أنها موجودة فى كل مكان ومن المستطاع دائما استخدامها لو اتبعوا الأساليب الصحيحة . ومن الممكن أن يقارنها الانسان بالموجات اللاسلكية ، ويقارن الأشخاص أو الأشياء الذين تظهر فيهم المانا بأجهزة الاستقبال . كانت قوة الآلهة والأرواح والبشر راجعة الى مقدرتهم على استقبال وتركيز المانا . وكانت هذه المقدرة تتفاوت تفاوتا كبيرا فى درجتها، فالزعيم الذى على قيد الحياة يملك مانا أكبر من التى تمتلكها روح من الأرواح، بل وأكبر مما يمتلكها أحد الآلهة الثانويين . كانت المانا شديدة العدوى الى أبعد الحدود ، وكان أى شيء يتصل بشخص أو بشيء فيه مانا قوية يصبح خطرا على الأشخاص الذين يمتلكون مانا أقل . وبالرغم من أن هذا الاعتقاد فى المانا يشبه فى ظاهره معتقدات الهنود الحمر فى المانيتون (Maniton) والأورنـدا (Orenda) ، فان هناك اختلافا جوهريا فى نظـرة كل من البولينيزيين والهنود تجاه الأشياء الخارقة للطبيعة . كان الهندى الأمريكى يعترف بوجود مثل تلك القوة اذا أحس بها عمليا، وكان يعلم بوجودها عندما كان يحس بالخـوف والرهبـة أو بما يسميه جولدنويزر (Goldenweiser) « النشوة الدينية » . لم يكن لدى الرجل البولينيزى اختبار موضوعى للمانا، ولا يعرف شيئا عن وجودها قبل أن يشاهدها وهى تقوم بعملها ، مثلهـا فى ذلك مثل الانسان الذى لا يعرف السلك المشحون بالكهرباء قبل أن يختبر سريانها فيه . ولهذا السبب يتحتم عليهم أن يعرفوا جيدا ويميزوا الأشـياء أو الأماكن التى أثرت فيها المانا وجعلتها خطرة . وفى كل مكان فى بولينيزيا يضعون علامات التابو (التحريم) للدلالة على أن هذا المكان مقدس ، أو أن هذه الأرض أو الممتلكات واقعة تحت حماية سحرية .

وليس لكلمة تابو (taboo) أيضا مرادف يؤدى المعنى تماما فى اللغـة

الانجليزية. وقد انتشرت هذه الكلمة بين الأوروبيين للمرة الأولى عندمانشر الكابتن كوك (Captain Cook) مؤلفاته فى أواخر القرن الثامن عشر، فسدت فراغا فىاللغة الانجليزية وأصبحت منالكلمات المقبولة فيها . تعنىكلمة «تابو» (Tapu) بين اليولينيزيين أى شىء محرم،الشىء الذى فيه خطر ناتجمنقوى فوق قوة البشر ، فهو خطر على الشخص نفسه وعلى الآخرين . ولكن ذلك لا يعنى أن التابو شىء لا يستقيم مع الخلق الكريم أو أنه غير قانونى . وكان الشىء المحرم نفسه (التابو) أو العمل الناتج عنه مرتبطا بالمانا . فاذا اعتدى على التابو ، أى شخص فيـــه مانا أقل من المانا التى يمتلكها الشخص الذى وضعها ، فان النتيجة الحتمية لعمله هذا هى نزول مصيبة به .

وفى الولايات المحكومة فقط ، كان الحكام غير مرتبطين بشعوبهم برابطة الدم ؛ ولهذا كان قانون التابو يستخدم بقصد استغلالعامة الشعب المحكوم. وقد بلغ هذا الاستغلال مداه فى جزر هاواى ، حيث نجد عقب غزو هـــذه الجزر كلها فىالقرنالثامنعشرعلىيد«كاميهاميهاالأول» (Kamehameha I) أن الحكام المتعاقبين والكهنة الذين كانوا قد أحسنوا تنظيم أنفسهم ، فرضوا كثيرا من المحرمات (التابو) حتى أفقروا عامةُ الشعب وأوصلوهم الى حالة اليأس ، ولم يتخلص الشعب من هذه الحالة السيئة الا بعد نشوب الصراع بين رجال الدين والدولة . فقد حدث أن خرق الملك نفسه قانون التابو عندما أكل علانية مع الملكة زوجته فى طبق واحد ، فلما رأى الناس أنه لم يحدث أى ضرر لكل منهما ، سرى خبر هذا الحادث بين الشعب كالنار فى الهشيم، فانهار قانون التابو من أساسه . فقام الشعب وثار على كهنته ودمر المعابد ، ولهذا كانت هاواى ، عندما وصل اليها المبشرون الأول ، بدون دين رسمى.

وقد أسىء فهم وتفسير الديانة اليولينيزية على وجهها الصحيح كما أسىء أيضا فهم النظام الاجتماعى اليولينيزى . فلم يعبد فى أى مكان من الكائنات ذاتالقوى المسيطرةعلى الطبيعة (ماعدا جزيرة ساموا) (Samoa) الا أرواح

اجداد القبيلة . وكان لكل قبيلة مكانها المقدس المخصص لهـذا النوع من العبادة وهو المكان الذى كانت تجرى فيه الطقوس الجنائزية. وكانت أرواح الموتى من زعمائهم ذات قوة عظيمة بنوع خاص لأنها تمثل القبيـلة كلها . والى جانب أرواح الأجداد كانت هناك قوى أعظم منهـا مكانة فى تقديرهم العاطفى وهى ذلك العدد الكبير من الآلهة الصغار الذين كان كل واحد منهم مختصا بمراقبة وتوجيه كل ناحية من نواحى نشاطهم . وعلى الرغم من أن هؤلاء الآلهة الصغار كانوا يوضعون فى مرتبة أعلى من أرواح الأجـداد ، فانهم لم يكونوا دائما أقوى منهم ، ولهـذا نرى أنه لم يكن هناك آلهـة لطائفة صانعى القوارب وللصيادين وحسب ، ولكن كان هناك أيضا آلهة للصوص ولبعض العمليات الجنسية المختلفة التى كان يعتبرها الأهالى أنفسهم شذوذا وانحرافا . ويبدو أن كثيرا من هؤلاء المختصين المقدسين كانوا أرواح الصناع المهرة الذين كانوا فى حياتهم متخصصين فى الحرفة ذاتها ، ويفضلون طبعا من كان منهم من أعضاء القبيلة نفسها . وكانوا يشيدون هياكل صغيرة ، يقدم فيها القرابين للآلهة أولئك الذين كانوا يرجون منهم العون والمساعدة.

واخيرا كان هناك عدد من الآلهة الكبار المتصلين بخلق العالم ، أو الذين يشرفون على أقسام كاملة من الكون فمثلا نجد أن تانجلوا (Tangaloa) كان الها للبحر وكان بطبيعة الحال الاله الحامى للارستوقراطيات البولينيزية التى يرجع أصلها الى الغزاة المتأخـرين الذين جاءوا من جزر ميكرونيزيا (Micronesia)

وكان رونجو (Rongo) الها للنبات ولهذا السبب كان أيضا الها حاميا للغابات والزراعة . وفى بعض الأحيان كان هؤلاء الآلهة الكبار يعبدون رسميا فى المناطق التى كانت توجد بها حكومات ، ولكنهم كانوا فى معظم أجـزاء بولينيزيا يعتبرون « مبعدين بطريقة لطيفة الى هاوية الأسباب الأصلية » . لقد كانوا آلهة يحبون الفنون والعلوم ، وهى حقيقة فشل فى معرفتها معظم الذين كتبوا عن الديانة البولينيزية .
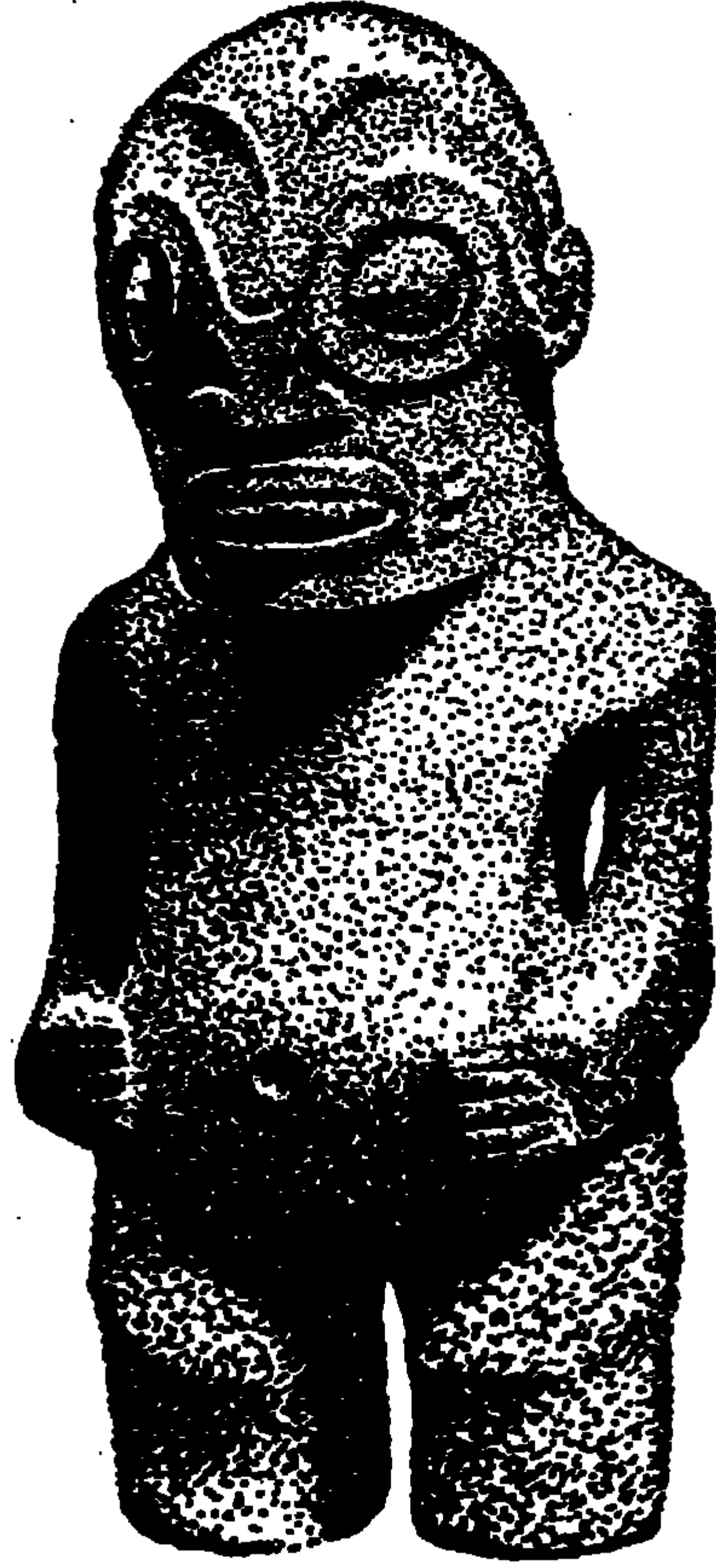
تيكى (Tiki) تمثال من الحجر ، جزر ماركيساس

وحيثما انتظمت المجموعات القبلية فى دول ، كما فى جزر هاواى وجـزر سوسيتى ، نجد معابد فخمة تقام فيها الطقوس الدينيةلنصرة الدولة وحكامها.

وكان حضور الرعية الى هذه الحفلات الدينية شيئا واجبا ليعبروا عن ولائهم للحاكم ، بالرغم من أنه لم يكن مسموحا لهم بالاشتراك فعليا فى هذه الحفلات . وفى جزر هاواى لم يكن مصرحا بالدخول الى داخـل المعبد الا لأفراد الطبقة الحاكمة فقط ، وكان عامة الناس يقفون فى الخارج فى احترام وتعبد كاملين مستجيبين لاشارات الكاهن الذى كان يقف فوق حائط المعبد.

وكانوا يعتنون بالقرابين عناية كبيرة ، وفى معظم الطقوس الدينية الرسمية ينحرون ذبائح بشرية ، وكانت الشعائر التى يقومون بها طويلة ومعقدة . وكما

كان يحدث فى روما القديمة فان أى خطأ فى اجراءات الطقوس يستلزم اعادتها مرة أخرى منذ بدايتها ، أما الاهمال فى أدائها ، فى پولينيزيا ، فكان أمرا غير مستحب ، ولأجل تفادى حدوثه كانوا يقتلون الشخص الذى تسبب فى الخطأ.

وكانت عبادة الجد الاكبر للقبيلة تتطلب أيضا هى الأخرى كهنة محترفين. وكان هؤلاء الكهنة من طبقتين ، طبقة تقوم بالطقوس والشعائر الدينية وطبقة تتلقى الالهام . كان كهنة الطقوس الدينية يعرفون شتى الاجراءات الواجبة فى مختلف الحفلات ، وكانوا يعتبرون حجة ومرجعا فى كل العلوم والفنـون للقبيلة . أما الكهنة الذين يتلقون الالهام فكانوا أشخاصا ذوى طبيعة عصبية واستعداد طيب لتتقمص أبدانهم أرواح الآلهة وأرواح الأجداد .

وكانوا عندما تنتابهم الغيبوبة يتكلمون بلسان الآلهـة ، ويتنبأون بمـا سيحدث ويطالبون بتقديم القرابين ، وهلم جرا ، وكان هؤلاء الكهنة الذين يتلقون الالهام ، هم وتماثيل الآلهة ، الوسيط الذى يقرب بين الآلهـة وبين الذين يعبدونهم .

كان الاله يأتى الى تمثاله ليتقبل القرابين أو يسمع الدعاء ، كما كان يأتى أيضا الى الكاهن الذى يتلقى الالهام ليفصح عن رغباته . ومن الأشياء ذات الدلالة الهامة فى معتقدات اليولينيزيين ان مرتبة كهنة الطقوس الدينية كانت تفوق بكثير مرتبة الكهنة الذين يتلقون الالهام مما منع وجود أى صراع أو تنافس بينهما .

ويبدو أنه لم تكن للرسوم المعقدة التى كانت تنقش على الأدوات والعصى بقصد الزينة أية دلالة سحرية . وعلى كل حال كان الفن الپولينيزى اذا نظرنا اليه من ناحية عامة ، يجعل كل شخص يعرف قوعد الاختبارات السيكولوجية الحديثة يفكر فى مقارنته بالرورشاخ Rorschach

كان الفن اليولينيزى ، خارج المنطقة التى يظهر فيها التأثير الميلانيزى ، يمتاز باحساس غير عادى للشكل ، وميل الى اتقان العمل ، كما جمع الى ذلك
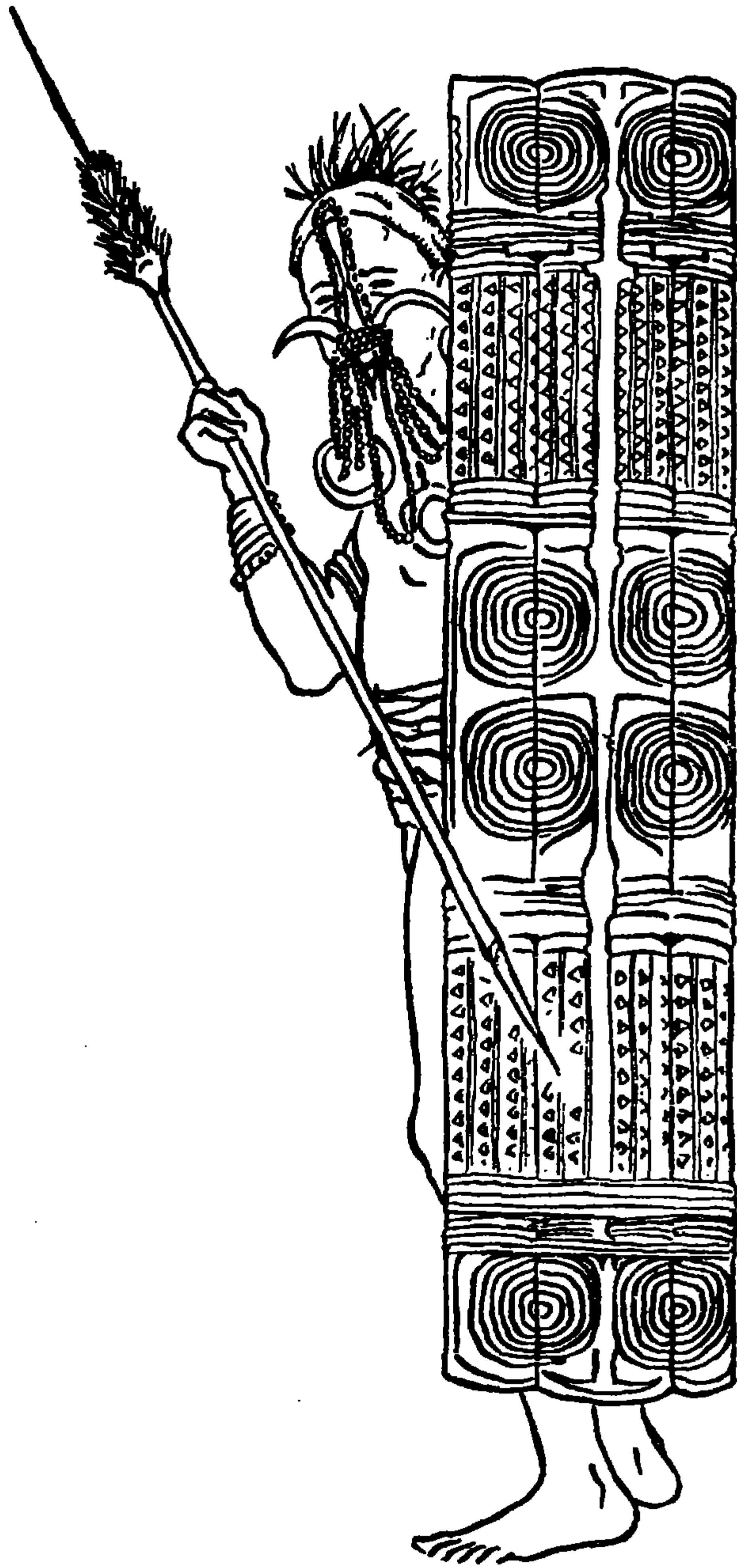
محارب من بريطانيا الجديدة (New Britain)

توازنا غريبا فيه . كانت سطوح الأدوات تقسم الى أقسام صــغيرة يملأونها بتفاصيل مكررة لا حصر لها من الرسوم ، كما لو كانت صـادرة عن نفوس مريضة بأعصابها ، واقعة تحت تأثير قوى . ومن الأشياء التى تسترعى الانتباه بشدة ، انعدام التلوين عندهم . كانوا يقومون بصقل وتلميع الخشب ليظهر لونه الطبيعى ، وأقصى ما كانوا يفعلونه هو أن يلونوه باللون الأســود . وفيما عدا جزر هاواى ، كانوا يقومون بتلوين الملابس المصـنوعة من قلف الأشجار بألوان بنية وسوداء باهتة ، اذا ما قصدوا زخرفتها .

وتوحى الينا هذه الخصائص الفنية ، بأن الفنانين كانت تنقصهم — على التحقيق — الاستجابة العاطفية لما حولهم ، وهو أمر يتفق مع حالتهم الحقيقية.

كانت نظرة البولينيزيين للحياة نظرة مادية أكثر منها عاطفية. ولم يكن الشخص منهم يستطيع أن يدرك حقيقة شىء ما الا بممارسته والاحتكاك به ، كما كانوا يرون أن الكون شىء منظم ومعقول . واذا حاول الانسان أن يجد لفظة واحدة يصف بها حضارتهم فلن يجـد خيرا من وصفها بأنها حضـارة « يدوية » (Mainipulative) ، وكانت أعظم آيات التقدير هى التى يسبغونها على الصناع بغض النظر عن طبيعة عملهم .

وحتى فى مجال العلاقات الاجتماعية بين الأفراد كان السلوك هو الذى يحدد هذه العلاقات ، بل كان هو أهم شىء فيها . كان للسلوك الاجتماعى قواعد منظمـة ومحددة ولم يكن من الميسور أن يتجاهلها أحد . كان السلوك الاجتماعى للافراد بعضهم تجاه الآخر يشبه لعبة الشطرنج حيث يصل اللاعب الذى يحرك قطعة فى اتجاه صحيح فى الأوقات المناسبة ، الى أن يخضع الآخر لمطالبه . وكانوا ينظرون الى موضوع العلاقات الجنســية على أنها متعة ذات صبغة مادية مثل الأكل تماما .

وكانوا يرون فى الحب الخيالى الرومانتيكى أنه ليـس الا انحرافات تنتاب المراهقين ، وكانوا يعجبون بالشخص الذى يتقن فن الحب سواء أكان رجلا أم

امرأة أكثر من اعجابهم بالشخص الوفى . وتظهر لنا هذه الاتجاهات الرئيسية فى الحضارة البولينيزية حتى فيمابقى من آثارها. فقد بهر البولينيزيون زائرى بلادهم من الأوروبيين بمهارتهم ، التى كانوا يفخرون بها ، فى فن الضيافة حتى ليكادوا لايفترقون فى ذلك عن أى مدير سويسرى ماهر فى عمله ولكنهم كانوا يفعلون ذلك دون عاطفة خاصة ، كالسويسريين تماما .

وفى ميلانيزيا أنواع متعددة من الحضارات واللغات أكثر مما نجده فى أى مكان فى مثل مساحتها فى أى بقعة أخرى من العالم ، ولهذا يصعب علينا جداأن نتحدث عنها بصفة عامة ، ولهــذا يجب أن يكون مفهوما أن الحقائق التى سنذكرها فيما يلى تشير الى العدد الأكبر من الحضارات الرئيسية لا الى المنطقة كلهـــا .

وبالرغم من أن البولينيزيين والميلانيزيين كانوا يتكلمون لغات ترجع الى أصـــل واحد ، وكان كل منهما فى طور العصر الحجرى فى طريقة ممارســـته للزراعة ، فان أهل المنطقتين اختلفوا اختلافا جوهريا فى معالجتهم لمعظم مشاكل الوجود . فقــد كانت نظرة الميلانيزيين نحو الكون نظرة أكثر بدائية من نظرة البولينيزيين . كان الكون الذى تصوروه كونا غير منظم تهيمن عليه كائنات لاعداد لها ، متقلبة الأطوار ذات قوى ضعيفة ومحلية النفوذ ، وكان عالمهم عالما لا يسير على قوانين طبيعية، وهكذا وجد السحر مجالا للسيطرة عليه .

لم تكن هناك خارج جزر «فيجى» التى كان يسود فيها التأثير البولينيزى، معابد أو كهنة أو تماثيل لآلهة فى أى جزء فى ميلانيزيا . ومن ناحية أخرى كان السحرة منتشرين فى كل مكان ، وكان كل شخص يعرف بعض السحر ، اذ كان يشعر بالضياع اذا لم يتيسر له ذلك لأنه كان محتاجا اليه لتحقيق أغراضه ولحماية نفسه من الآخرين . كان الميلانيزيون بصفة عامة أناساحقودين يحدثون الرعب للآخرين ، ويعتقدون أن مايحصل عليه الانسان من سعادة لابدا أن يكون على حساب شخص آخر، ويردد سكان «جزر تروبرياند Trobriand Islands»

مثلا يقول : « حاصد نبات اليام يتجول فى أثناء الليل » ، وذلك لأنهم يعتقدون أن نجاح الشخص فى زراعة اليـام يعتمد على السحر الـذى يستخدمه للابقاء على محصوله لئلا يترك المحصول حقله ، وكذلك لاجتذاب محصولات الآخرين لتأتى الى حقله هـو .

لم يعن ذلك أن الميلانيزيين لم يكونوا مزارعين يعنون بأرضهم ودائبين على العمل فيهـا ، فان كثيرين من بينهم كانوا يباهون بمظهر حدائقهم بل ويفتخرون بانتاج كميات كبيرة تزيد على حاجتهم من المواد الغذائية التى كانوا يعلمون أنهم لن يستخدموها أو يستفيدوا منها . وكانوا كذلك صناعا مهرة ذوى كفاية ، وذلك بالرغم من أن أسلوبهم فى صناعتهم وفنهم كان مختلفا عن أسلوب البولينيزيين ، وكان الكثير من أدواتهم متقن الصنع وافيا بالغرض المطلوب ، وأحيانا تفضل مثيلتها من الأدوات البولينيزية ، ولكن الميلانيزيين كانوا يفتقرون عادة الى ماكان للبولينيزيين من ذوق فى تشكيل أدواتهم واتقان صنعها . كانوا لايهتمون بصقل السطح الخارجي للأدوات ، وكانوا يسرفون فى زخرفة أى شيء يقع بين أيديهم حتى ولو كان غير متناسق الشكل . ولانجد بينهم صناعا مهرة يمكن مقارنتهم بالبولينيزيين الا فى المناطق الميلانيزية التى تأثرت بالحضارة البولينيزية .

وبدلا من ذلك ، تخصص الميلانيزيون فى اتقان بعض صناعات محلية فكانت كل قبيلة من قبائلهم تنتج نوعا أو نوعين من أشياء اختصت بها ، ثم تتبادل التجارة فى هذه المنتجات مع المناطق الأخرى على نطاق واسع .

ونحن ندهش لذلك كل الدهشة خصوصا لو عرفنا أن كل قبيلة من القبائل الميلانيزية كانت دائما فى حالة حرب على الأقل مع بعض القبائل المجاورة لها ، وكانت النتيجة التى ترتبت على ذلك هى اعتماد هذه المناطق على بعضهـا فى المعاملات الاقتصادية وابتعادها عن بعضها فى الناحية الاجتماعية .

وترتب على تخصص كل قبيلة فى بعض الصناعات انتاج مايلزم من الأدوات

والآلات اللازمة . فنرى مثلا ، فى جـزر الأدميرالية (Admirality Islands) أن احدى القبائل قد تخصصت فى صنع « أكياس الناموس » المصنوعة من الحصير المضفور التى تستخدمها الجماعة كلها ، ونجد قبيلة أخرى تنتج معظم الأوانى الفخارية . وتتخصص قبيلة من القبائل التى تعيش فى داخل الجزيرة ، فى صنع كل شباك الصيد التى تستعملها القبـائل القاطنة على السواحل ، وتقوم قبيلة أخرى بانتاج الأسلحة للجماعة كلها . وربما كان تخصص تلك القبيلة فى مثل هذه الصناعة هو أنها القبيلة الوحيدة التى يوجد فى منطقتها حجر « الأوبسيديان » اللازم لصناعة نصال الخناجر ورءوس الحراب . وحتى القبائل التى كانت فى حالة حرب مع القبيلة صانعة الأسلحة فانها كانت تعتمد فى الحصول على ما يلزمها من سلاح على القبيلة التىتحاربها وتحصل على مايلزمهـا من ذلك عن طريق وسيطين أو ثلاثة وسـطاء من المحايدين . وفى بعض المناطق التى كانت تعيش فيها القبائل داخل جزر بعيدة عن الشاطىء تحصل هذه القبائل على الماء النقى للشراب واعداد الطعام ، من السكان الذين يعيشون على الساحل فى مقابل اعطائهم الماء المالح . وعندما تكون هذه القبائل فى حالة حرب معبعضها ، كانت هذه المبادلات تتم خلال فترة هدنة مؤقتة فكان الرجال يقفون عن بعد مسلحين ومتأهبين للقتال ، بينما تتقدم نساؤهم للمساومة فى البيع والشراء .

وبالاضافة الى المتاجرة فى الأشياء الضرورية كان هناك أيضا تبادل طقسى فى بعض أدوات الزينة الرمزية ، وكان هذا التبادل فى الأدوات يمر بدورة كاملة فى نظام تام من قبيلة الى أخرى حتى تصل فى النهاية الى أصحابها مرة ثانية . وكان يصاحب كل مرحلة من مراحل هذا التبادل بعض أعمال السحر لتأكيد الفائدة ولهذا كانت تلك المساومات وتوطيد أواصر الصداقة خارج نطاق القبيلة مصدرا لبهجة المشتركين فيها .

كانت أكثرية المجتمعات الميلانيزية محبـة لجمع الثروة وبينمـا نرى فى

بولينيزيا أن الطريقة السليمة لتبادل الممتلكات هى فى تقديم الهدايا عن طيب خاطر ثم رد مايقابل قيمتها بقدر الامكان نرى أن النظم الاقتصاديةالميلانيزية لاتعدو أن تكون صورة هزيلة للنظم الاقتصادية الغربيةالحديثة. وكان عندهم الحجر وأسنان الكلاب والريش والحصير والكثير من أصداف البحر التى كانت تقوم مقام العملة فى أجزاء مختلفة من المنطقة .

وفى بعض الأحيان كان يوجد حوالى ستة أنواع من تلك العملة تستخدم معـا فى منطقة واحـدة مع تغير قيمتها فى التبادل التجارى بـين الارتفاع والانخفاض . زد على ذلك أن أنواعا معينة من تلك العملات كانت تستخدم دون غيرها فى أنواع خاصة من التبادل مثل الصداق عند الزواج أو فى شراء الأراضى . وكانت الفوائد تؤخذ عن القروض ، كما كانوا يشاركون على الخنازير ، وكان الثرى الميلانيزى يقضى معظم وقته فى محاولة جمع ماله من ديون على الناس وفى تجنب من يدينونه .

كان ذلك كله نوعا من الألاعيب الاقتصـادية التى تعتمد عـلى فائض الانتاج . وحتى الرجل الميلانيزى المفلس كان واثقا من حصوله على ما يلزمه من الطعام والمسكن ، اذ كان أقاربه فى جماعته يعنون بذلك ويتأكدون من حصوله عليهما ، وكان احسانهم هذا لايتأثر بأى مراعاة غير واجبة نحـو مشـاعره .

كان أساس التنظيم السياسى والاجتماعى فى هـذه المنطقة يقـوم على القبائل الصغيرة التى تتكون كل منها من عدد من الجماعات الصغيرة . ولم تكن الادارة المركزية معروفة داخل القبيلة ، ولم تكن الاتحادات التى تضم عدة قبائل معروفة أيضا ، اللهم الا فى فترات قليلة عندما كانت القبائل تعقد محالفات وقتية أو عرضية فيما بينها . وفى داخل القبيلة كانت توجد مجموعة من العشائر ينتسب بعضها الى الام وينتسب البعض الآخر الى الأب ، وكانت هذه العشائر فى أغلب الحالات ، ولكن ليس دائما ، متحدة تماما مع الجماعات

التى تتكون منها القبيلة . وكانت القبيلة تلتــزم نظام الاضــواء أى الزواج الداخلى فيما بينها ، بينما تتبع العشائر نظام الزواج الخارجى . وفى بعض المناطق ، كانت توجد أسس أخــرى للزواج أكثر تعقيــدا من ذلك وتذكرنا بالنظام الذى يتبعه الاوستراليون فى زواجهم . كان الشــباب المراهق مــن الجنسين يتمتع بفترة من الزمن قبل الزواج يمارسون فيها التجارب الجنسية كما هو الحال فى پولينيزيا ، ولكن الزواج كان يرتب عادة بين العائلات على أساس المنفعة المادية أكثر من اعتبارهم لانسجام أو رغبة الشاب والفتاة ، وحتى فى المجتمعات التى كان الناس فيها ينتسبون الى الأم لم تكن المكانة الأولى فيها للنساء بل كانت للرجال .

كان تعدد الزوجات شائعا بينهم ، وكان الأساس فى تقدير أهمية أى زوجة هو ما تستطيع أن تقدمه من منفعة اقتصادية ، وكانت نساء الاسرة خاضعات اما لسيطرة أزواجهن أو لسيطرة اخوتهن من الذكور .
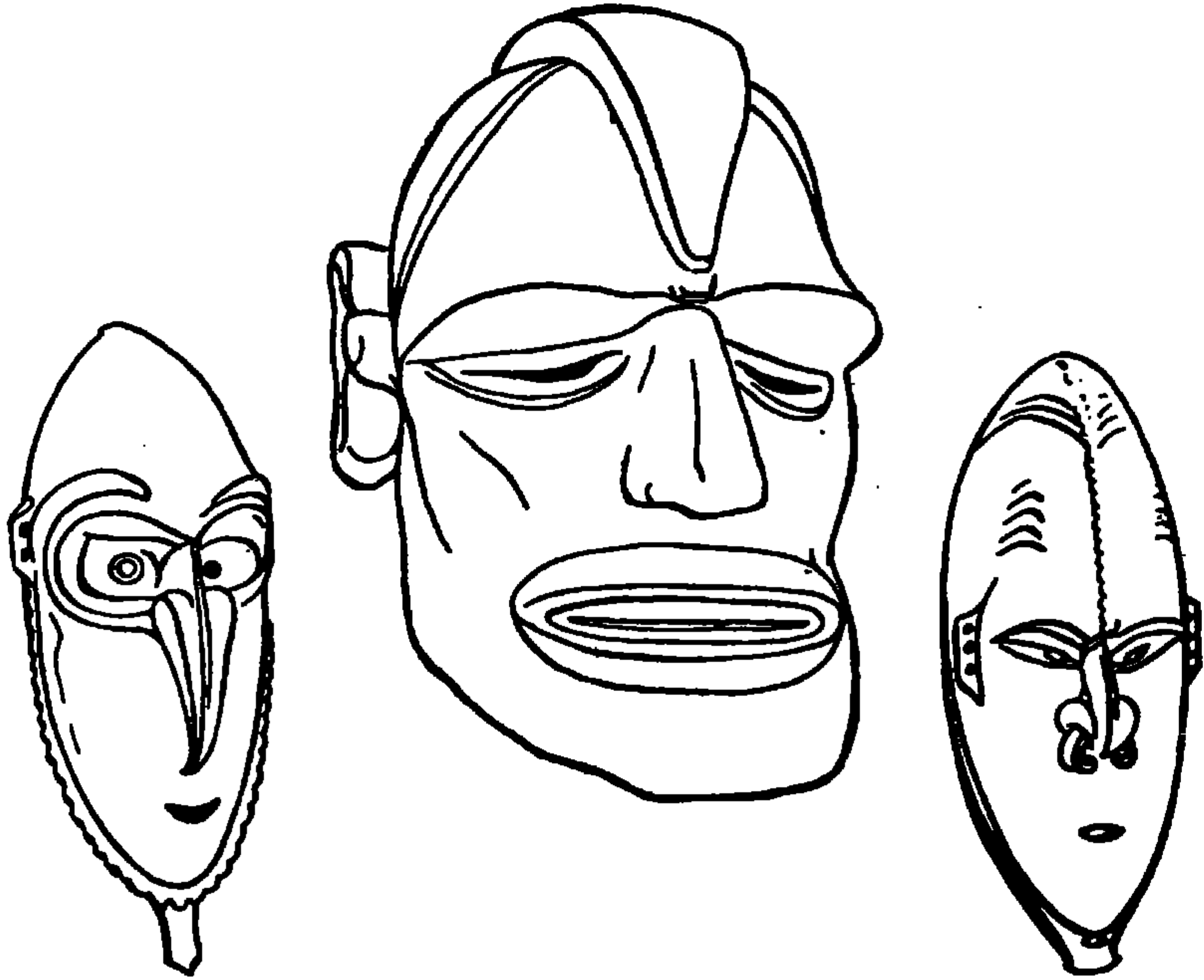
أقنعة من غانا الجديدة

وكانت النساء فى تلك المجتمعات مبعدات ابعاذا تاما عن الحياة الطقسية فى القبيلة اللهم الا اذا كن يحضرن ويجلسن بين النظارة الذين كانوايجلسون مشدوهين يبهرهم مايجرى امامهم من استعراضات عامة ، وكان ما يعـرفنه من فنون السحر ضئيلا ، ومن النوع البسـيط . واذا قارنا بين المجتمـع الميلانيزى والمجتمع البولينيزى الذى يمتاز بصلابته من الناحية النظرية فانا نراه مجتمعنا مائعا الى أبعد الحدود .

كان ثراء الفرد هو مقياس مكانته ، فاذا زالت عنه الثروة زالت مكانتـه الاجتماعية. ولم يحسبوا تسلسل نسب شخصأكثر مما تتطلبه قواعد الزواج، وكان فى استطاعة أى فرد منهم أن يخلق لنفســه مكانة مرموقة فى المجتـمع بفضل مجهوده الشخصى . وفيما عدا جزيرة فيجى لم يوجد فى أى منطقـة فى ميلانيزيا حكام عن طريق الوراثة ،ولكن هـذا يرجع أيضا الى التـأثير البولينيزى . كان نظام الحكم القبلى فى يد الخاصة من الأشخاص الأغنيـاء والبارزين فى المجتمع ، وبالرغم من أنه كان فى استطاعة أى شخص ذى كفاية ممتازة أن يسود القبيلة أثناء حياته فانه لم يكن فى اسـتطاعته ، بحال من الأحوال ، أن يؤسس أسرة حاكمة .

أشرنا قبل الآن الى ماحدث من تطور وتقدم كبيرين فى العلوم السحرية فى ميلانيزيا ، ولهذا نجد أنه فى الحالات التى لا يوجد فيها ما يشبه القانون أو السلطة السياسية يصبح السحر هو الوسيلة الوحيدة فى السيطرة على المجتمع.

كان استخدام السحر أمرا تقره شريعة المجتمع ضد كل من يرفض دفـع ما عليه من ديون أو ضد من يفشل فى القيام بالمسئوليات الاجتماعية الملقـاة على عاتقه . وعلى كل حال فسرعان ما انتقل استخدام السحر الى مجـالات أخرى بدافع من الغيرة أو الحقد . كان السحرة الذين يسخرون سـحرهم فى هذه الأغراض الشريرة هم المحترفين الوحيدين الذين يوجدون فى كل مكان فى تلك المناطق ، ولم يكن هؤلاء السحرة يتعيشون فقط مما يطـلب

اليهم أدلؤه من سحر بل يتعيشون أيضا عن طريق تهديد الناس لابتزاز المال فمثلا اذا ذهب شخص من الأشخاص الى الساحر طالبا منه الحاق الضرر بعدو من أعدائه فانه يتفق معه على ذلك ويدفع له أتعابه • ولكن الساحر يذهب الى العدو المقصود شارحا له الموضوع ويساومه على دفع أتعاب أكثر نظير الحاق الضرر بالشخص الأول بدلا منه • وقد تتكرر مثل هذه الألاعيب حتى يفلس أحد العميلين ويكف عن الاستمرار فى رفع قيمة الأتعاب وكثيرا ماكان يحدث فى مثل هذه الحالة أن يتطوع أحد المواطنين ذوى الضمير الحى والذين يشعرون بالواجب الملقى عليهم تجاه المجتمع الذى يعيشون فيه ، فيغمد رمحه فى صدر ذلك الساحر الذى استحق النقمة .

وكانت المجتمعات السرية الخاصة بالرجال تسيطر سيطرة تامة على جميع أوجه النشاط الدينى والتذوق الفنى فى أغلب المجتمعات الميلانيزية • كان « بيت الرجال » هو المسرح الذى تدور فيه الأحداث الرئيسية فى المجتمع ، وكان هذا البيت بناء كبيرا نسبيا أسبغ الرجال عليه كثيرا من مقدرتهم الفنية والهندسية . كان بعض هذه المنازل مبانى غير عادية فى فخامتها وحجمها بالنسبة لاناس مازالوا يعيشون فى العصر الحجرى • كان طول بعضها يبلغ أحيانا أربعمائة أو خمسمائة قدم ، ويبلغ ارتفاع الواجهة الجمالونية من ثمانين الى تسعين قدما . وفى كثير من المناطق ، كانت تصمم واجهات هذه المنازل على هيئة رأس حيوان فاغر فمه ، وكان المنزل نفسه يمثل كائنا له قوة فوق القوى الطبيعية تحدث بداخله أنواع كثيرة من الأعمال السحرية الغامضة • وعندما يصل الغلمان الى سن البلوغ كانوا يؤخذون الى منزل الرجال أو الى مكان خفى فى الغابة حيث يعلمونهم مايلزمهم من أشياء لرفعهم الى مرتبة الرجال • وهذا شبيه بالنظام المتبع فى اوستراليا حيث كانوا يقومون بأعمال رمزية تمثل قتل الشخص المرشح للدخول فى زمرة الرجال ثم اعادته مرة ثانية الى الحياة • كان هذا الشخص يتعرض فعلا لأنواع

مختلفة من التشويه المؤلم الذى يترك آثارا على جسده لتكون دليلا فى المستقبل على أنه تلقى أسرار الحياة الخاصة بالرجال، وأنه تلقى كذلك بعض تعاليم السحر المختلفة .

لم تكن هذه الطقوس لقبوله فى زمرة الرجال الا بداية فقط ، وهى شبيهة فى ذلك باللوج الأزرق فى نظام الماسونية . كان ذلك يتكلف بعض المال ولكن أفقر الأسر كانت قادرة عادة على دفع نفقات مثل هذه الخطوة لأبنائها. وبمرور الزمن كان الرجل يتدرج من درجة الى درجة أعلى منها فى معرفة الأسرار الطقسية كلما تيسر لديه المال اللازم لذلك . وكانت كل مرحلة من هذه المراحل تعنى معرفته لقدر أكبر من علوم السحر واكتساب الحق فى استخدام أشياء معينة تكمن فيها القوة ، اذ أنه باتصال هذا الشخص بتلك الاشياء المعينة كان يستمد القوة والنفوذ ، وتعطية أيضا الحق فى أن يتحلى بحلى خاصة فى المناسبات التى يرتدون فيها الثياب ، وأن يتبوأ مكانا خاصا فى بيت الرجال . ولم تكن عضوية المجتمع السرى فى أعلى درجاته دليلا على النجاح المالى للشخص فقط بل كانت أيضا من الاسباب المؤدية اليه .وعندما كان الشخص يرقى الى درجة أعلى فقد كان من الواجب عليه أن يوزع جزءا من ثروته على الأشخاص الذين سبقوه فى الترقى الى هذه الدرجة . والاهم من ذلك أن الشخص كلما ارتقى الى درجة أعلى كان يتعلم سحرا يساعده على حماية ما يملكه ، ويتعلم أيضا السحر المضاد لذلك ، وبهذا كان فى استطاعته أن يستغل أعضاء الرتب التى سبق أن مر بها من قبل ، ولكن لم يكن من المستطاع أن يستغله أحد اللهم الا أولئك الذين وصلوا الى رتب تعلو رتبته ، أو من زملائه فى الرتبة .

كان الرجل يستطيع أن يحوز رتبا كثيرة بقدر ما تسمح قدرته المالية ، وكان على رأس هذا المجتمع مجموعة صغيرة جدا من الرجال الموسرين والمتقدمين فى السن الذين كانوا الحكام الفعليين للجماعة كلها .

الزينة لتى يرتديها الرجل العـزب ، غانا الجديدة

كان الفن الميلانيزى يتميز بصفة عامة بالقوة ، ولكن لا يمكننا أن نقــول انه كان متصفا بالعنف • كانوا يرسمون أشكال الانسان والطائر والسمكة ، كانوا يرسمونها معا ، مع بعض المبالغة فى رسمها فى حرية تشبه الفن الغوطى (Gothic) . كما كانوا يســتخدمون الألوان كثيرا ، وحتى الأعمال الفنيــة التى لم تمثل أشخاصا أو أشياء معينــة كانوا يميلون فيهـا الى استخدام الخطوط المنحنية فى أوضاع ثائرة لا تقف عند فواعد معينة ، وهى فى ذلك تختلف تمام الاختلاف عن الأسلوب المتبع فى الفن البولينيزى .

وأكثر التماثيل والأقنعة تعقيدا فى صناعتها الفنية قد وصلت الينا من منطقة ارلنــدا الجــديدة (New Ireland) . وكانت هذه التماثيل والاقنعة منحوتة بطريقة غنية بزخارفها المنمقة ومزينة برسوم صغيرة متعددة . وكان لمنطقة

نهر ســــيبك (Sepik) فى غانا الجديدة أسلوب مميز نجـد منه أن الأنف ، وكانوا يرمزون به لقوة الرجولة ، قد بولغ كثيرا فى شكله . وكانلدى أهالى السولكا فى بريطانيا الجديدة (New Britain) أقنعة تشبه فى شكلها كابوس أحلام الفن السيريالى ، وكان اللون الغالب عليها هو اللون القرنفلى الفاقع .
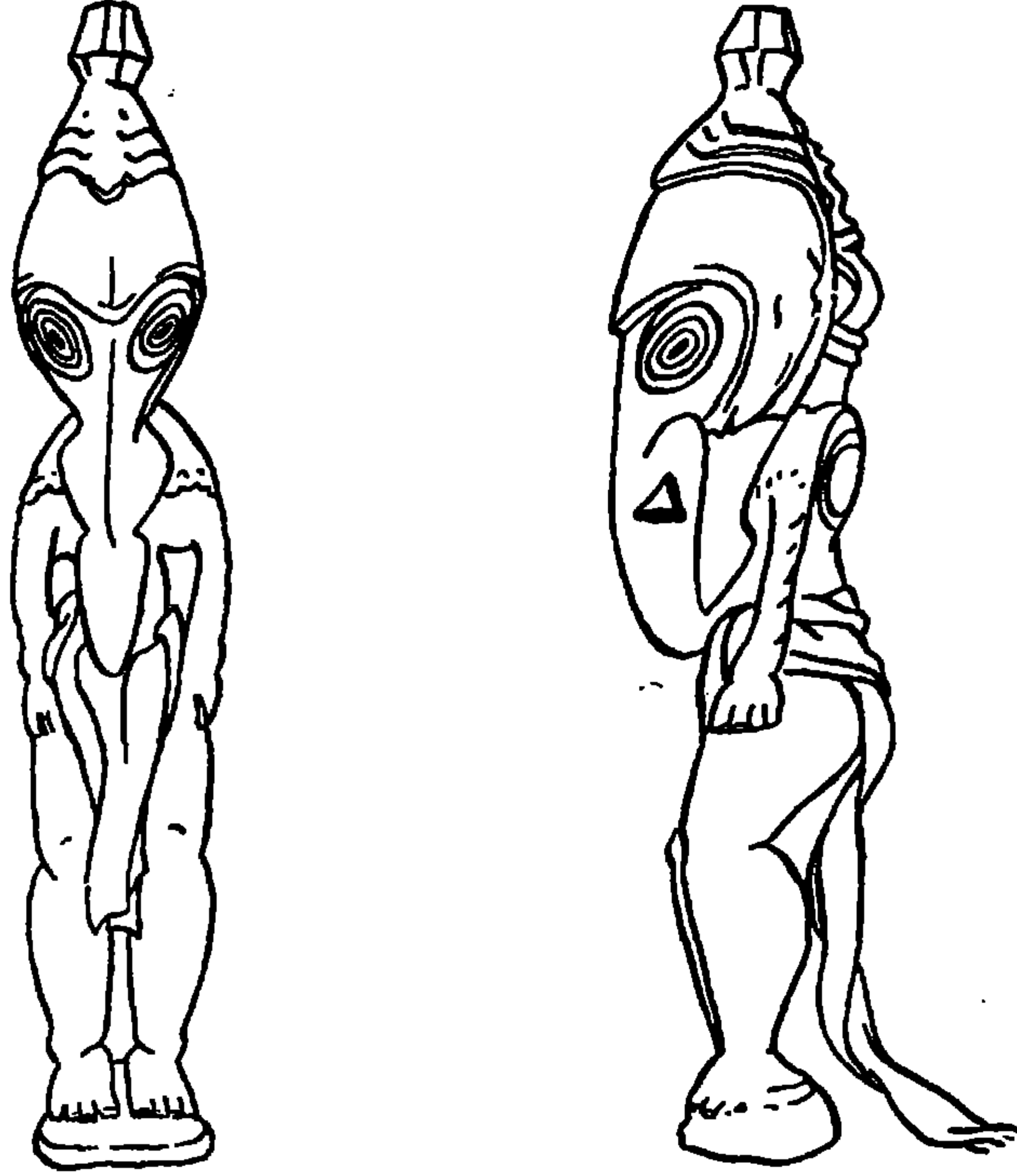
تماثيل خشبية ، من غانا الجديدة

أما أخلاق القبائل الميلانيزية فكانت متباينة لدرجة كبيرةحالت دون امكان الوصول الى تعميم واضح لها كما تيسر ذلك فى پولينيزيا .

كره الأوروبيون الميلانيزيين كما أحبوا دائما اليولينيزيين ، وذلك بالرغم من جد الميلانيزيين ونشاطهم وفهمهم للقيم التى يقوم عليها الاقتصاد الأوروبى ودوافعه . ويبدو أن أغلب تلك القبائل كانت ضحية الشـعور النفسـانى العميق بعدم الأمن والطمأنينة ، والنوازع العدائية المتأصلة فى نفوسـهم ،

والتى كان الشعور بالخوف يكبتها عادة فى نفوسهم. ووجدت هذه الأحاسيس والنوازع النفسية متنفسا لها فى خوفهم من الأشياء التى تمتلك قوة فوق قوى الطبيعة ، ويبدو لنا هذا الخوف ماثلا فى الأقنعة ذات الشكل المخيف ، وفى الملابس التى يرتديها أعضاء المجتمعات السرية ، وفى المكانة الكبيرة التى كانت للسحر الذى كان يستخدم فى الحاق الأذى ، وفى حفلات النصر الصاخبة التى كانوا يعذبون فيها الأسرى ثم يأكلون لحومهم .

وقد صارت جزر ميكرونيزيا (Micronesia) الآن ، بعد الاهمال العلمى الطويل لها ، ميدانا واسعا لجميع فروع البحث العلمى . وعند الانتهاء من هذه البحوث سنحصل على معلومات عن هذه المنطقة أكثر مما عرفناه حتى الآن عن أى منطقة أخرى فى مجموعة الجزر الأوقيانوسية (Oceania)

كانت ميكرونيزيا على اتصال أوثق باندونيسيا ولكنها كانت تتصل اتصالا غير مباشر بالجزء الجنوبى الشرقى من قارة آسيا نفسها ، أكثر من أى منطقة أخرى فى الجزر الملايو ــ پولينيزية . وقد حصلت ميكرونيزيا من هذا الاتصال على عناصر حضارية فى عصور متأخرة نسبيا من جنوب شرقى آسيا، مثل النسج على النول ، وصناعة الفخار ، وزراعة الرز . وعلى كل حال فقد كانت أغلب الجزر الميكرونيزية جزرا مرجانية، وهكذا كانت طبيعتها الجغرافيه سببا فى وضع قيود قوية على تطورها الحضارى .

كانت الزراعة فى جزرهم على جانب كبير من الصعوبة ، وكانوا يزرعون نبات التارو فى أحواض عميقة تحفر فى الأرض الصخرية الصلبة ، ويملؤونها بتربة صناعية مركبة . وفى جزر جلبرت (Gilbert) كانوا يزرعون أشجار فاكهة الخبز فى حفر وسط الصخور المرجانية ، وتملأ هذه الحفر بالصخور الهشة التى كانت تجمع مما تقذفه به أمواج البحر على الشاطى بعد أن يسحقوها جيدا . ولم تمدهم تلك الجزر المرجانية بالحجارة الصالحة لصنع أدواتهم ، كما أنها لم تمدهم الا بالقليل من الأخشاب الجيدة الصالحة

للاستعمال . ولكن بالرغم من ذلك كان أسلوبهم التكنولوجى مدهشا . كان همهم فى الصناعة منصرفا الى عمل الأشياء التى تفيدهم فى حياتهم اليـومية أكثر من العناية بالزخرفة ، وكانت القوارب الشراعية وبيوت الرجـال تلقى منهم أكبر قدر من العناية فى صنعها . وكانت بيوت الرجال هذه تسـتخدم لنوم العزاب من الرجال ولنوم الزوار القادمين من الجزر الأخرى وكمنتديات للرجال ، ولكنها كانت ، بعكس البيوت الميلانيزية ، لا ترتبط بأعمال السحر والطقوس الدينية . وكانت قواربهم الشراعية أجود القوارب الموجـودة فى المحيط الهادى صنعا ، وقد تقدم الميكرونيزيون أيضا تقدما كبيرا فى الملاحة وجعلوا منها علما ، وكان هذا كله سببا فى امكان وجود تجارة منظمة بين الجزر وبعضها وفى وجود صلات سياسية بينها . واستطاعت بعض القبـائل أو الجزر أن تجعل من بعض القبائل والجزر الأخرى من يخضع لحكمها وتأخذ منها الجزية نظير حمايتها لها ، ولكن فى الوقت ذاته لم يعرفوا على ما يظهـر نظام توارث الزعامة أو العناية بتسلسل النسب . وظلت السـلطة فى أيـدى الرجال الذين كانت لديهم معرفة كافية بفنون السحر والعادات القبلية ، والذين كانت لهم الشخصية الكافية للتسلط على رجال قبيلتهـم . أما فى النظـام الاجتماعى فقد اتبعوا النظام القاضى بالزواج الداخـلى فى القبيـلة ، وكان تسلسل النسب فى هذه المنطقة يبدأ غالبا من جهة الأم اكثر من الأب . ولم يميلوا كثيرا الى الاعتقاد فى المظاهر الخارقة للطبيعة ، ولم تلعب دورا رئيسيا فى حياتهم . لقد كانوا يخافون من الأشباح ومن الأرواح البحرية ، ولكن لم يكن عندهم أماكن مقدسة أو أدوات تستخدم فى الدين أو كهنة محترفون.

كان أغلب الميكرونيزيين يمتازون بالشجاعة ، ومحاربين عنيدين ، وكانت الحروب الداخلية بين القبائل وبعضها شيئا عاديا . كان سكان جزر جلبـرت يخوضون المعارك فى صفوف مكونة من أبطال يرتدون دروعـا كاملة مـن نسيج مصنوع من ألياف شجر جوز الهند تحمى أجسامهم ، وكانوا يتسلحون

بسيوف وخناجر توضع فى أطرافها أسنان سمك القرش (كلب البحر) . وكان لكل رجل من هؤلاء الرجال المسلحين تابع أو أكثر غير مسلحين ، يقفــون خلفه ويمدونه بالأسلحة الجديدة كلما احتاج اليها .

وقد تحدثنا قبل الآن عن استقرار الملايو ــ پولينيزيين فى جزيرة مدغشقر اذ وصل الى تلك الجزيرة ، على مايظهر ، مجموعتان على الأقل من مهاجرى جنوب شرقى آسيا. ويبدو أن أوائل من استقروا فىهذه الجزيرة منالمهاجرين عرفوا صناعة الحديد ، أى انهم لايمكن أن يكونوا قد غادروا اندونيســيا قبل عام ١٠٠٠ قبل الميلاد . وبالرغم من أننا نجد فى قصصهم ما يدل على أنهم وجدوا فى تلك الجزيرة صيادين من النجريتو الذين كانوا يعيشون على جمع الغذاء ، فانه يبدو أن القادمين الجدد لم يلاقوا أية مقاومة جدية فانتشروا فى طول الجزيرة وعرضها بسرعة ، وأقلموا أنفسهم فى البيئات المختــلفة فى تلك الجزيرة .

وتبلغ مساحة جزيرة مدغشقر ضعف مساحة بريطانيا العــظمى وايرلنــدا مجتمعتين ، والساحل الشرقى والمنحدرات الشرقية للهضبة الرئيسية فى تلك الجزيرة حارة على مدار السنة ، مع أمطار دائمة تقريبا حتى فى الفصول التى تعتبر جافة ، كما تنهمر الأمطار انهمارا مستمرا خلال الفصل المطير . وتنمو الغابات بكثافة ندرجة أن الأراضى التى تزال أشجارها تماما لزراعتها تغطى ثانية بالأشجار خلال عامين أو ثلاثة أعوام. والمناخ فىالهضبة الرئيسيةمعتدل، مع وجود الصقيع فى الشتاء بسبب ارتفاعها ، ولا تسقط فوقهــا الأمطار الا بشكل معتدل فى مواسم المطر . ويبدو انها ، عندما وصل اليها المهاجــرون الجدد ، كانت مغطاة بالغابات ، ولكن قطع أشجار الغابات واحراقها لأجل الزراعة ورعى الماشية قد أدى الى زوال تلك الغابات فى الوقت الذى وصل فيه الاوروبيون اليها . أما الجزء الجنوبى منالجزيرة والسهل الساحلىالغربى العريض فهى اما مناطق ملأى بالمستنقعات أو مناطق قاحلةولهذا لا تصلح لأى

استغلال اقتصادى اللهم الا فى تربية الماشية . ومن الممكن زراعة الرز الذى يعتمد على الرى فى وديان معظم الانهار المتجهة نحو الغرب ، ولكنـها كانت مجهولة قبل الغزو الاوروبى ، وقد قوبلت المحاولات الحديثة لادخال هـذه الزراعة بمقاومة شديدة من القبائل المحلية .

وقد ذكرنا من قبل أن الطريق الذى سلكه المهاجرون من اندونيسيا قـد اتجه الى شمال مدغشقر على الأرجح ، ثم الى الساحل المواجه لافريقيا وقد صاحب ذلك استقرار أولى على الجانب الغربى من الجزيرة كما يدل علىذلك توزيع العناصر الحضارية فى العصر التاريخى . ونجد أقدم الحضارات قائمة فى الجبال الشرقية وعلى طول الساحل الجنوبى الشرقى ، وذلك بالرغم من أن بعض قبائل هذه المنطقة يدعون أنهم من أصل عربى ، واننا نرى بينهم بعض التأثيرات العربية . ويسيطر الاميرينيون (Imerina) على الهضبة الوسطى سيطرة تامة ، وهم من سلالة آخر المهاجرين من الملايو ــ پولينيزيين الذين يحتمل ، كما يبدو من لغتهم ، أنهم جاءوا من سومطرة (Sumatra) فى القرن الخامس الميلادى . أما المناطق القاحلة فى الجنوب والغرب فتسكنها قبـائل سود فيهـا مميزات الجنس المتزنـج (Negroid) على الأخص فى صفاتهم الجسمانية ، ويعتمدون اعتمادا كاملا على تربية قطعان الماشية . وعلى كل حال فقد كانت قبائل مدغشقر تتكلم لهجات مفهومة فيما بينهم تفرعت كلها من لغة واحدة من لغات الملايو ــ پولينيزيين ، وكانوا يتبعون نفس الأسـاليب فى نظمهم الاجتماعية والدينية .

وعلى الرغم من هذه الوحدة التى تجمع بينهم ، فان اختـلاف الأساليب التكنولوجية جعل من الممكن التعرف على حضارتين مختلفتين لمجموعتين من المهاجرين الملايو ــ پولينيزيين . ويبدو أن المجموعة الأولى من المهاجرين قد جلبت معها محصولات جنوب شرقى آسيا العادية ، اللهم الا فاكهة الخبز ، ولكنهم اعتمدوا اعتمادا رئيسيا على الرز الذى كانوا يزرعونه بطريقة القطع

والحرق . ومن المحتمل أنه كانت لديهم الخنازير والدجاج على الرغم من أن تربية الخنازير لم تصبح ذات أهميـــة اقتصادية بينهم . وعلى الرغم من أنهم كانوا يعرفون طريقة استخراج الحديد وطرقه ، وعرفوا أيضا تعدين الذهب الذى كانوا يعتبرونه شيئا مقدسا ، فانهم كانوا يجهلون صناعة الفخار وكانوا يجهلون أيضا النسج ، وكانوا يستخدمون الحصير والملابس المصنوعة من قلف الأشجار للتدثر بها ، ولكنهم عرفوا اقامة الأنصاب المبجاليتية كجزء من عبادة الأجداد فيما بينهم .

وجلب المهاجرون المتأخرون معهم طريقة زراعة الرز بطريقة الرى ، وصناعة الفخار ، وصناعة متقدمة فى النسيج ، بما فى ذلك صنع النسيجبطريقةالايكات (Ikat) ولكنهم لم يجلبوا معهم العجلة أو المحـــراث ، اللذين لم يعرفا فى مدغشقر الا عندما أدخلهما الأوروبيون الى هذه الجزيرة .

وماشية مدغشقر من النوع المعروف باسم زبو (zebu) الاســـيوى مثل معظم الماشية الأفريقية . ومن المحتمل أن تكون هذه الأنواع من الماشـــية قد جاءت من أفريقيـــا فى الفترة ما بين هجـــرة الملايو ــ پولينيزيين الأولى والثانية ، ولكن تربية هذه الماشية لم تنجح فى أن تكون ذات منفعة عامة من الناحية الاقتصادية اللهم الا بين القبـــائل التى تعيش خارج نطاق المنـــاطق القاحلة . ولم يكن للبن الماشية الا أهمية ضئيلة فى الوجبات اليومية فى طعام أى قبيلة من القبائل المعتمدة على الزراعة . ولم يهتموا أبدا باستخدام جلود الماشية وكثيرا ما كانت الحيوانات المذبوحة تقطع الى أجزاء دون أن ينزع عنها جلدها ، ولم يأكلوا لحومها الا عندما كانت تذبح لتقديمها فى القرابين.ووجد المزارعون الذين يزرعون الرز بطريقة الرى أن روث البهائم يفيـــدهم فائدة عملية فى تسميد الزراعة ، فلهذا كانوا يضعون الماشية فى حظائر مقفلة تكاد تكون تحت الأرض حتى يحصلوا على كل ما يمكنهم الحصول عليه من ذلك السماد . وفى نفس الوقت كان للماشية قيمة نفسانية أخرى لأنها كانت رمزا

تعلو المكانة لأنها كانت الشيء الوحيد الذى يمكن بوساطته تسمية الثروة فى مثل تلك الظروف المحلية السائدة بين سكان تلك المناطق .

أما تنظيمهم الاجتماعى فكان يتبع فى أساليبه ما نعرفه عن التنظيم الاجتماعى الملايو ـ پولينيزى . كانت القرية هى الوحدة الأساسية ، وكانوا يتزاوجون فيما بينهم وكانوا ينتسبون الى الأب. ويمكن لعدة قرى متجاورة، وترجع الى أصل واحد ، أن تكون عشيرة ، ولكن مثل هذه المجموعة من القرى لم يكن يربط بينها نظام داخلى ، واذا حدث أن انفصلت قرية منها عن بقية القرى فانها كانت تنسى روابط القرابة التى تربطها بالقرى الأخرى . وتنقسم كل قرية الى عدد من العائلات التى يرجع أصل كل منها الى أصل معين أحدث من الشخص الذى أسس القرية أو العشيرة كلها . وكان لكل فرع من العائلات مكان محدد للسكنى فى داخل القرية ، ولأفراده الحق فى استغلال جزء معين من أرض القرية . أما أعظم شخصيات القرية فهو زعيم أقدم وأعرق فرع بها ، وكان يقوم بوظيفة الكاهن الذى يقدم القرابين المقدمة الى الأجداد ، وكان يتمتع باحترام وتقدير كبيرين ، ولكنه فى نفس الوقت لا يمكن أن نطلق عليه لقب « زعيم » لأنه لم تكن له سلطات تنفيذية خارج نطاق عائلته . أما المشاكل التى تتناول القرية كلها فكانت تحل بوساطة مجلس غير رسمى مكون من رؤساء الفروع وغيرهم من الرجال البارزين .

وكان لهم قانون متقدم ، تنتقل مواده من جيل الى جيل شفويا ، كما كان لديهم أيضا تنظيمات كاملة خاصة بالملكية والعقود . وكانت المحاكمات الرسمية تعتمد فى اصدار قراراتها على الأدلة ، وكان كبار رجال القرية هم الذين يصدرون هذه القرارت أما العقوبات التى كانوا يصدرونها فقد كانت عادة فى صورة غرامة مالية ، وفى الحالات الكبيرة يحكمون بالطرد من القرية . وكانت الأدلة يؤخذ بها بعد أن يقسم المتهم أقساما خاصة ، تتلوها محاكمة بوساطة التعذيب الجسمانى لمعرفة مدى احتمال المتهم . كانوا يلجأون الى

تلك الاختبارات بالتعذيب فقط فى الحالات التى كانت الأدلة فيها غير كافية ، وكان بعضها مليئا بالخطر ، مثل السباحة فى نهر ملىء بالتماسيح ، وهـذا كان لا يطبق الا على السحرة المشتبه فى أمرهم .

وفى تلك المناطق التى لم تكن بها وحدة سياسية أكبر من وحدة القرية ، كان القانون وتطبيقه شبيها بقانون الـ « أدات Adat » . أما فى الأماكن التى تكونت فيها الممالك ، فقد كان النظام المتبع فيها شبيها بالنظام المتبع فى أفريقيا . وكان الملك يمثل محكمة النقض العليا وكان عليه بالذات أن يصدق على كل الأحكام الهامة التى تصدرها محاكم القرى ، وذلك لأن كل رعاياه كانوا ملكا خاصا له فلا يقتل أى فرد منهم دون اذنه . وكان للملك أيضا الحق فى اصدار قوانين جديدة وكان يحصل على جزء كبير من دخله من الغرامات التى توقع على الناس . وتوحى الينا السهولة التى تم بها تغيير النظام القانونى المتبع فى الـ « أدات » الاندونيسى بهـذا النظام الأفريقى ، بوجـود رابطة حضارية بين هاتين المنطقتين .

أما تطور ونمو الوحدات السياسية الى شىء أكبر من وحدة العشيرة فمن المحتمل انه كان راجعا الى التأثير الأجنبى . كانت العشائر الحاكمة فى مثـل هذه الوحدات تدعى عادة أن نسبها يرجع الى أصل عربى ، وكانت الامبراطورية الاميرينية التى كانت تحكم ثلثى الجزيرة ابان القرن التاسع عشر امبراطورية ناشئة ، وكان المبشرون الانجليز يساعدون فى وضع تنظيم لها . وعلى حسب العادة ، كانوا يسيرون على النظام الآتى :

تتمكن عشيرة قوية ناهضة من اخضاع العشـائر الأخرى المجـاورة لها وتجعلها تابعة لها بقوة السلاح . وعندئذ كانت عشائر أخرى تستسلم طائعة مختارة لتضع حدا للمنازعات التى استمرت وقتا طويلا بينها وبين غيرها ، وليس حدوث ذلك بالأمر المستغرب لأن الذى كان متبعا فى أول الأمر هـو عدم استغلال العشيرة التى تقدم خضوعها وذلك راجع الى أن العشيرة الحاكمة

كانت تقنع ببعض الامتيازات التى تزيد من مكانتها الاجتماعية ، وتتمثل هذه الامتيازات فى حقهم دون غيرهم فى التحلى بالذهب ، وفى تدعيم قوتهم الحربية بمن ينضم اليهم من محاربى العشائر التى خضعت لهم . كان أفرادها يشغلون المنطقة الخاصة بهم فقط ، ويعتمدون على ما يزرعونه هم أنفسهم من محصولات ، ويقومون بكل الأعمال المعتادة .

وكانوا ينادون رئيس أعرق عائلة فى الفرع الحاكم بلقب الملك ، وكان لهذا الملك اشارات خاصة بوظيفته يستخدمها فى الحفلات الرسمية ، ولكنه مع ذلك لم يكن يتردد فى العمل بنفسه فى حقوله الخاصة .

وكانت المملكة التى من هذا القبيل تحوى ثلاث طبقات اجتماعية : طبقة ملكية ، وطبقة العامة ، وطبقة العبيد . وفى الحالات التى كان يهزم فيها الفرع الحاكم ويبعده غيره عن الزعامة كانت تنشأ طبقة رابعة من أعضاء الفرع المهزوم ، اذ يصبح أفرادها وسطا بين الطبقة الملكية وطبقة العامة . كان أفراد هذه الطبقة يحتفظون ببعض أعمالهم السابقة مثل قتل الذبائح التى تقدم للقرابين ويتقاضون أجرا عن هذا العمل ، ولكنهم كانوا يبعدون ابعادا تاما عن الاشتراك فى الأعمال الحكومية ، ومن الطبيعى أن كل طبقة كانت تتزاوج فيما بينها .

وكانت طبقة العبيد تتألف من العبيد الأصليين ومن سلالة العبيد الذين تحرروا ، وكانت الغالبية العظمى من العبيد هم أسرى الحروب الذين لم يستطيعوا دفع الفدية وممن يولد لهم ، وكان أولئك الأرقاء ينتمون الى فروع معينة فى نسبهم ولا يفترقون الا قليلا عن الأفراد الفقراء فى العشيرة . ولم يؤثر الرق فى أى وقت من الأوقات تأثيرا هاما فى اقتصاد جزيرة مدغشقر ، ولم تظهر أسواق الرقيق الا فيما بعد تحت تأثير الأوروبيين والعرب ، وفى معظم القبائل كانوا يعتبرون بيع الرقيق عملا شائنا لكل من الرقيق ولصاحبه .

أما الخطوة الأخيرة فى تطور الممالك فكانت تتم عند محاولة العشيرة الحاكمة

التوسع فى سيطرتها على العشائر الخاضعة لها واستغلالها اقتصاديا . وكانت احدى الوسائل المتبعة لتحقيق ذلك هى أن توضع عائلات من العشيرة الملكية فى كل قرية من القرى الخاضعة ، حيث كان يتحتم على أهالى القرية القيام بما يلزمهم من نفقات ، وفى الوقت ذاته يتيسر لهم ملاحظة أية بادرة من بوادر الثورة . ولكن بعد مضى عدة أجيال ينهار مثل هذا النظام ويتحول الى نوع من النظام الاقطاعى المفكك . وظلت العائلات الملكية تعيش فى جماعات لاتتزاوج مع غيرها ولكنهم امتزجوا بأفراد خاصين من أهل القرى أو من عشائر العامة الذين كانوا يحكمونهم ، وكانوا يحرضونهم على محاربة بعضهم البعض فانهارت السلطة المركزية نتيجة لذلك . وبالرغم من التفكك السياسى فقد ظلت رابطة الدم بين أعضاء الفرع الملكى السابق قوية كما هى . كان العامة يحاربون العامة وكان افراد العشيرة الملكية يحاربون أمثالهم . واذا قتل شخص من العامة عدوا من العائلة الملكية فان هذا الشخص من العامة يتعرض للقتل بيد زعيمه نفسه ، وعند مهاجمة قرية من القرى ، كان على المهاجم الأول الذى يصل الى رئيس القرية ، اذا كان المهاجم من العامة ، أن يحمل رئيس القرية على كتفيه الى خارج القرية ويساعده على الهرب . وفى مقابل ذلك كان رئيسه يكافئه لانقاذه حياة أحد أقاربه . ولكن اذا كان الشخص الأول الذى يصل الى رئيس القرية من أفراد الأسرة الملكية فانه كان ينازل رئيس القرية حتى يقتل أحدهما الآخر . وكان هناك نظام آخر أنجع من هذا النظام ، وهو أن يقيم فى كل قرية مندوب يعينه الملك . وكان هؤلاء المندوبون دائما من العامة الذين يختارون من عشائر غير التى يرسلون اليها ، وكانت مهمتهم الرئيسية هى القيام بجمع الضرائب وتحصيل الغرامات وارسالها الى الملك ، والاشراف أيضا على سير العدالة .

وبالرغم من هذه المحاولات التى تهدف الى التنظيم فقد كانت ممالك مدغشقر ممالك لاتعمر وقتا طويلا . ولم تكن الحضارة السائدة بين سكانها كافية

لجعل صلة القرابة التى تربط بين أفراد العشيرة أو القرية الواحدة تتحول الى وحدة سياسية . وساهم الدين كثيرا فى تقوية هذا النظام الذى يشبه نظام الأبروشيات ، وذلك لأن عبادة الأجداد قد امتصت وضمت اليها تقريبا جميع المعتقدات الدينية وطرق العبادة التى كانت معروفة هناك .

الفصل الخامس عشر

جنوب شرقى آسيا
بعد العصر الحجرى الحديث "النيوليتى"

وكما لاحظنا من قبل ، فان جنوب شرقى آسيا والجزر الملاصقة له ، بما فيها جزر الفيليبين ، تكون منطقة حضارية واحدة . وبالرغم من أن سكان هذه الجزر يختلفون اختلافا بينا فى حضارتهم فانهم جميعا ينتمون الى أصل واحد مشترك فى العصر النيوليتى فى جنوب شرقى آسيا ، وتعرضوا لنفس التأثيرات من المدنيتين الكبيرتين الهندية والصينية المجاورتين لهم . وفى القرى بنوع خاص نرى أوجه التشابه الحضارية تفوق الى حد كبير أوجه الاختلافات بينها ، ولهذا فمن الانصاف أن تتناول المنطقة كلها على اعتبار أنها وحدة واحدة مشيرين اليها عى انها منطقة جنوب شرقى آسيا ، مفرقين أثناء البحث بين اندونيسيا وبين البلاد التى فى أرض القارة ، أو بين المجموعات المختلفة من الاندونيسيين وبين الوحدات السياسية التى تعيش فى الأرض اليابسة عندما تكون هناك فوارق ذات أهمية .

ففى الوقت الذى كان فيه الملايو ــ پولينيزيون ينشرون لغتهم وحضارتهم فى الأطراف البعيدة من المحيط الهادى ، وفى أماكن أخرى بعيدة عن الساحل الأفريقى ، كانت الأحوال فى منطقة جنوب شرقى آسيا بعيدة من أن توصف بأنها مستقرة . وفى واقع الأمر آن معظم الاختلافات التى نراها فى الأماكن البعيدة المختلفة فى المناطق الملايو ــ پولينيزية يمكن تفسيرها فى الحال لو فرضنا أن مؤسسيها قد تركوا منطقة جنوب شرقى آسيا فى أوقات متباينة.

وبالتالى كان لدى كل منهم عناصر حضـارية متباينة ، وقد قامت العلاقات التجارية بين جنوب شرقى آسيا والهند والصين حتما قبل السجلات الأولى التى تشير الى هذه العلاقات بوقت طـويل . وقد سمع الجغرافى الأغريقى ، بطليموس الاسكندرى فى عام ١٦٠ ميلادية أن المنطقة غنية بالمعادن وقال عنها انها تنتج الذهب والفضة ، وقد عرفت الأماكن التى تحتوى على القصدير فى شبه جزيرة الملايو واستثمرها الناس قبل هذا التاريخ بوقت طويل . وقد عثر على كثير من الأدوات الحجرية الجيدة الصنع والتى يرجع تاريخها الى العصر النيوليتى فى تلك المناجم القديمة ولكن لم توجد أدوات معدنية هناك، ويبدو من المؤكد أن السـكان المحليين كانوا يستخرجون معـدن القصدير لتصديره . وحيث ان القصدير المستخرج كان من المعدن الخالص فقد كان يجد له سوقا رائجةحيثما كان يصنعالبرونز وحيثما كانتقيمته العاليةتتناسب مع حجمه ، وهو الأمر الذى ساعد على نقله بطرق النقل البدائية .

ولسنا نعلم الى أين كان يصدر قصدير الملايو ولكن من المحتمل أن تكون الصين هى أرجح الأسواق . وقد بلغت سبائك البرونز الصينية حد الكمال فى عهد أسرة شانج (١٧٦٥ ــ ١١٢٢ ق .م.) ، وظل معدن البرونز أهم معدن فى الصين خلال الألف سنة التى تلت ذلك العهـد . ومن ناحية أخـرى لم يسـتخدم البرونز فى شرقى وجنوبى الهنـد الا فى نطاق ضيق اذ كانوا قد استطاعوا الحصول على معدن الحديد فى وقت قريب جدا من ذلك التاريخ غير البعيد .

كان سكان جنوبى الصين بحارة مهرة يستخدمون سفنا ضخمة حسـنة الصنع تمخر البحار منذ العصر السابق لفجر التاريخ ، مما جعل فى مقدرتها أن تزور شبه جزيرة الملايو وذلك فى الوقت الذى كان فى استطاعة سكان جنوب شرقى آسيا أن يصلوا الىموانىء جنوبى الصين. وأخيرا، لا يمكننا أنتتجاهل أيضا احتمال استخدام طرق التجارة البرية التى تصل بين الصـين وجنوب

شرقى آسيا ، وسنستطيع دون شك أن نجيب على هذه المسائل المختلفة فى هذا الموضوع عندما تكون لدينا نتائج كافية من تحاليل معدن البرونز الصينى حتى نستطيع أن نحدد مصادر هذا المعدن ونحصل على بعض المعلومات عن آثار جنوبى الصين التى تعتبر الى الآن فى حكم المجهول بوجه عام فى الفترة السابقة لأسرة هان (٢٠٢ ق.م. — ٩ م.)

وقد ظلت الأدوات الحجرية مستعملة فى منطقة جنوب شرقى آسيا الى عصور متأخرة جدا ، ويبدو أن البرونز والحديد قد أدخل استعمالهما فى آن واحد تقريبا . فقد أظهرت البحوث أن الأدوات البرونزية من طراز « دونج — صن » (Dong-Son) والتى ترجع فى تاريخها الى ما بين عام ستمائة وثلثمائة قبل الميلاد هى أقدم الأدوات المعدنية التى وجدت فى هذه المنطقة ، وهى مزخرفة بأسلوب غير صينى أو هندى على التحقيق . وقد وجدت لهذه الزخارف ما يماثلها ، وأقدم ما نعرفه عن تلك الزخارف المرسومة على الأقمشة ، تلك التى كانت تستخدمها بعض الجماعات الاندونيسية البدائية وفى الأدوات المنحوتة ورسوم بورنيو وفى بعض مناطق ميلانيزيا . هذا ويبدو من ناحية أخرى ، أن الطريقة المتبعة فى السبك طريقة صينية . وقد صنعت أدوات حضارة دونج — صن كلها على الأرجح لتستخدم فيما يعود بالنفع وليس لاستخدامها فى الطقوس الدينية ، كما عثر أيضا بين أدوات هذه الحضارة نفسها على أدوات مصنوعة من الحديد . ومن المحتمل أن البرونز كان يستعمل فى ذلك الوقت فى الأغراض الدينية بينما كان الحديد يستخدم فى الأدوات المستخدمة فى لحياة العامة كما نرى ذلك فى الصين فى الوقت الحاضر .

وبالرغم من الأدلة التى تشير الى العلاقات الكثيرة التى كانت تربط الصين بمنطقة جنوب شرقى آسيا فان أقدم اشارة فى التاريخ الصينى لهذه المنطقة لا يرجع تاريخها الا الى أيام حكم وانج — مانج Wang-Mang (١ — ٢٣م)

فقط . ففي ذلك الوقت أرسلوا بعثة صينية الى « هوانج ـ تشى Huang-Tche التى يحتمل أن تكون اسم جزيرة سومطرة ، لتجلب لحديقة حيوان الامبراطور الصينى خرتيتا (وحيد القرن) . وفى عام ١٣٢ م . أرسل ملك « يى تياو Ye-Tiao الاندونيسى الجزية لامبراطور أسرة هان . وليست لهذه العبارة قيمة كبيرة لأن جميع الهدايا التى كانت ترسل للامبراطور الصينى من الحكام الآخرين كانوا يقولون عنها انها جزية .

ولكن فى أواخر حكم أسرة هان امتدت السيطرة السياسية الصينية على جزء كبير من الهند الصينية ، وقد تكرر ذكر هذه المنطقة فى المصادر المعاصرة ، وتدل المكتشفات الأثرية على وجود عدد من الموظفين الصينيين هناك ، بل وتدل على وجود جالية من الصينيين الذين استوطنوا هناك . وعلى كل حال فيمكننا أن ندلل على وجود العلاقات التجارية الواسعة بين الصين ومنطقة جنوب شرقى آسيا من وجود النواقيس والطبول البرونزية الأثرية ، والأوانى الفخارية ، وهى كلها من أنواع معروفة التاريخ فى بلاد الصين .

ولم يكن تأثير الحضارة الصينية على منطقة جنوب شرقى آسيا ذا أثر فعال بالرغم من هذه العلاقة الطويلة ، وبالرغم من أن الصينيين قد تزوجوا من نساء من أهالى البلاد. فقد ربوا أطفالهم ونشأوهم على الأسلوب الصينى، واحتفظوا بحضارتهم احتفاظا تاما ، وفى الوقت ذاته احتفظ أيضا سكان البلاد بحضارتهم الأصلية . وقبل سكان المنطقة بعض الأدوات والأساليب الفنية الصينية وأدمجوها فى حضارتهم ، ولكن يرجح جدا أنهم لم يقبلوا على اقتباس أى نظم اجتماعية أو سياسية أو دينية . ومن الصعب علينا أن نقدم تفسيرا علميا واضحا لهذا الموضوع الذى وصل فيه عدم الاقبال والتباعد الى هذا الحد غير العادى ، ولكن ربما كان ذلك راجعا الى عدم التجانس التام فى وجهات النظر بين العالم الصينى والعالم الاندونيسى بصفة عامة ، وهو الأمر الذى جعل من المستحيل على كل من الفريقين أن يتفهم الفريق الآخر أو يتقبل
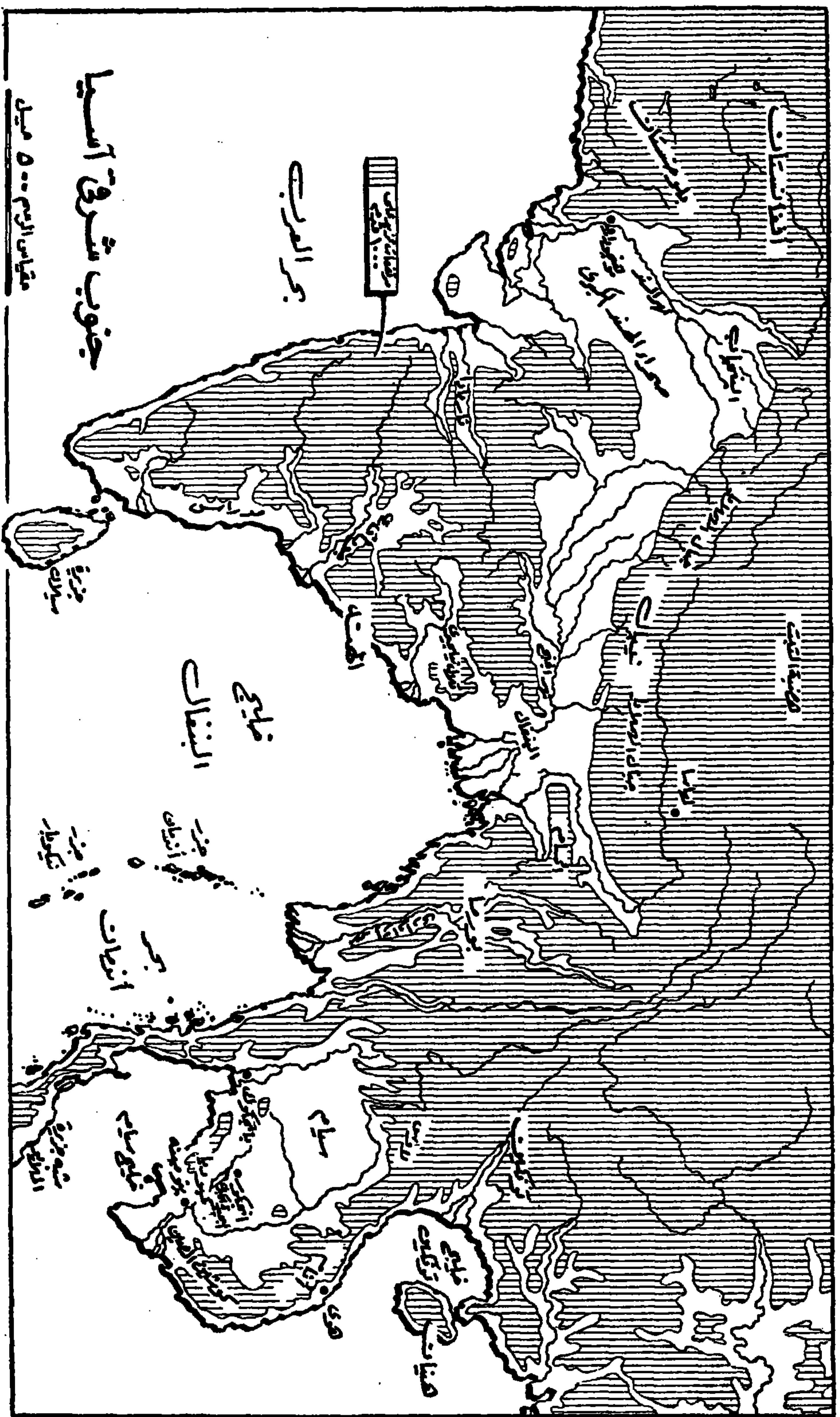
جنوب شرق آسيا

مقياس الرسم ٥٠٠ ميل

حضارته اللهم الا هذه الاستعارات البسيطة لبعض الأشياء والأدوات .

ومن الأمور التى تسترعى النظر حقا ، ذلك الموضوع الخاص بفشل المغامرين الصينيين فى أن يجعلوا من أنفسهم أمراء مستقلين أو أن يؤسسوا لأنفسهم أسرات حاكمة ، لأنه كان فى استطاعتهم تحقيق أغراضهم بما كان لديهم من معدات حضارية راقية ، وقبل أى شىء آخر بما كان لهم من فلسفة سياسية أكثر مما كان يستطيعه هؤلاء المهاجرون الهنود الكثيرون الذين أصبحوا حكاما على جنوب شرقى آسيا . وبالرغم من أن جماعات ممن كانوا يخرجون للنهب قد استطاعوا أن يقيموا ما يسمى بالجمهورية الصينية فى بورنيو فان القبائل الوطنية لم تصبح أبدا جزءا متما لهذه المجموعات .

وعلى عكس ما حدث مع الصين ، فقد انتشرت الحضارة الهندية فى المنطقة كلها وتركت طابعها حتى بين أكثر القبائل البدائية . وان الانسان ليعجز عن فهم السبب الذى أدى الى ذلك . فمن المؤكد أن ذلك لم يكن نتيجة لضغط سياسى لأن الهند نفسها كانت مقسمة الى مقاطعات صغيرة تناصب بعضها بعضا العداء فى الوقت الذى بلغ فيه النفوذ الهندى فى جنوب شرقى آسيا ذروته . وربما كان مرجع ذلك الى أن الحضارة الهندية كانت مزيجا قديما من عناصر مستمدة من حضارات نيوليتيه من جنوب شرقى آسيا ومن جنوبها الغربى ، وكان هذا المزيج الحضارى أكثر ملاءمة للمزاج الملايو ــ پولينيزى . وعلى أى حال فقد تقبلوا عناصر الحضارة الهندية وأقبلوا عليها حتى وصل الأمر الى أنهم كثيرا ما كانوا يشيرون الى منطقة جنوب شرقى آسيا بأنها الهند الأقصى . ومنذ بداية العصر المسيحى تقريبا حتى القرن الرابع عشر الميلادى كان تاريخ هذه المنطقة صراعا يكاد يكون مستمرا بين الأسرات الحاكمة الهندية وبين الامبراطوريات التى كانت تمتد حينا وتتقلص حينا آخر، تلك الامبراطوريات التى كان حكامها اما من البوذيين أو من الهندوس .

وأول دليل نملكه على وجود الحكام الهنود فى أندونيسيا مجموعة مكونة

من أربعة نقوش عثر عليها فى شرق بورنيو ، ويرجع تاريخها الى حوالى عام ٤٠٠ م. فاذا كان الهنود قد توغلوا فى بورنيو فى ذلك العهد فان ذلك يحتم وجودهم فى جزيرتى جاوه وسومطرة قبل ذلك التاريخ بوقت غير قليل . وقد عثر على تمثال للاله بوذا فى جنوب جزيرة سومطرة ويرجع تاريخهالىالقرن الثانى الميلادى ، ولكن من المحتمل أن يكون قد جىء بهذا التمثال بعدصناعته بوقت طويل ، ويبدو أن المهاجرين الأوائل كانوا يؤمنــون بالبرهمنية ، أى يزاولون الطقوس الدينية للهندوس .

ومنذ استقرارهم الأول كانت جزيرتا جاوة وسومطرة أعظم مراكز النفوذ الهندى . وقد قامت فى جزيرة سومطرة دولة شيريفيچايا (Shrivijaya) التى ظهرت الى عالم الوجود فى بداية القرن السابع . وكان حكامها من أتباع مذهب الهنايانا البوذى (Hinayana Buddism) ولكنهم غيروا مذهبهم فى بداية القرن الثامن الى مذهب المهايانا (Mahayana) وبالرغم من أن نقوش السريفيچايا مكتوبة بالكتابة البالية (Pali, القديمة التى كانت منتشرة فى جنوبىالهند ، فان لغة تلك النقوش كانت احدى لهجات الملايو القديمة ، مما يثبت أنامتزاج المهاجرين بالسكان الأصليين كان قد تقدم كثيرا فى ذلك العهد . ومن ناحيــة أخرى ، كانت اللغة السنسكريتية هى اللغة التى كتبت بها النقوش الأولى فى جزيرة جاوه وكان الأمراء الأوائل لهذه الجزيرة من الهندوس وكان ينظر اليهم على أن الاله سيفا قد تجسد فيهم ، وقد انتهجوا سياسة بناء المعابد على نطاق واسع ونسج على منوالهم الحكام الذين جاءوا من بعــدهم . وفى منتصف القرن الثامن قامت أسرة شيلندرا (Shailendra) القوية فى سومطرة وكانت معاصرة لأسرة شريفيچايا فى الجزيرة نفسها . وكان حكام هــذه الأسرة من البوذيين المهيانيين (Mahayana Buddhists) ويرجح انهم جاءوا من البنغــال وشيدوا امبراطوريةواسعة تملكقوة بحرية ،استطاعت أنتسيطر علىبحرالصين الجنوبى وأن تشن الحروب على كامبوديا (Cambodia)

وفى بلدهم الأصلى ، كانوا قد شـيدوا البروبودور (Borobudur) وهو من أعظم الآثار التى عرفها العالم . وليس هذا البناء الا تلا طبيعيا حولوه الى اسـتوپا (Stupa) أى معبد بوذى . ونرى فى هذا الأثر سبع درجات ، جعلوا الأربع السفلى مستطيلة الشكل بينما الثلاث العليا دائرية الشكل ، ثم سووا سفح التل ليمثل السطح الأعلى للبناء . وعلى الدرجة السفلى صوروا مناظر تمثل عذاب الجحيم وما يقاسيه هؤلاء الذين يعيشون دون أن ينقذوا أرواحهم . أما الدرجات الأخرى المستطيلة فقد نقشوها بمناظر تفصل لنـا أولا حياة الجوتاما بوذا (Gautama Buddha) كمعلم ومخلص يأتى بالمعجزات ثم مجموعة مختارة من قصص تجسداته السابقة . وعندما يصل الزائر الذى يأتى للحج الى الشرفات الدائرية ، فان عقله يكون قد استعد لتقبل الحقيقة العليا ، وعند ذلك لا يجد الا البساطة الصافية ، فلا منحوتات ولا زخارف . وفى وسط سطح التل أقاموا استوپا مشيدة من الأحجار الصلدة وفيها تمثال للجوتاما بوذا ، وحول هذه الاستوپا شيدوا عددا من الاستوپات الصغيرة المشيدة من الحجر المزخرف بالنقوش البارزة وفى كل منها تمثال للاله ذيانى بوذا (Dhyani Buddha) تمثله وهو فى حالة التأمل .

ومنذ القرن الحادى عشر لم يكن هناك فيما يبدو أى هجرات جديدة هامة من الهند سواء أكانت هندوسية أو بوذية . وتقدمت عمليـة الامتزاج بين حضارة الوطنيين وبين الحضارة المجلوبة تقدما كبيرا مع مرور الزمن ، شأنها فى ذلك شأن ما تم أيضا من امتزاج الطقـوس الدينية لكل من الهنـدوس والبوذيين . فما انجاءت أواخر أيام القرن الثالث عشر حتى نرى أنه كان فى استطاعة الملك سينغاسارى (Singhasari) فى جزيرة جاوة أن يبنى معبـدا خصص الطابق الأسفل منه للاله سيفا والطابق الأعلى للاله بوذا . وكان من العادات المتبعة تقسيم الرماد المتخلف من حرق أجسـاد الملوك بين مدفنـين أحدهما سيفى والآخر بوذى . وقد ساعد على هذا التوفيق أن اعطاء الأهمية

العظمى لهذه الأديان كان مقصورا على الطبقات العليا أما الريفيون فقد كانوا ينظرون الى الطقوس الدينية كسحر من نوع راق ، ولكنهم لم يحاولوا أن يتفهموا مبادىء تلك الأديان .

ثم جاء بعد ذلك حادث هام آخر كان له أثر واضح فى حضارة جنوب شرقى آسيا الا وهو دخول الاسلام ، الذى يمكننا أن تؤرخ بكثير من الدقة بداية دخوله. فعندما زار ماركوپولو (Marco Polo) جزيرة سومطرة فى عام ١٢٩٢ كسفير لامبراطور الصين وجد مدينة پيرلاك (Perlak) الصغيرة ، والتى تقع فى الطرف الشمالى لجزيرة سومطرة ، قد اعتنق أهلها الاسلام . وكان معظم المسلمين الذين وفدوا الى جزيرة سومطرة من الهنود ولم يكونوا من العرب . وكانت معظم المبادىء التى علموها للسكان الأصليين قد مرت بها معظم التغييرات اللازمة لجعل عقيدة صالحة لبدو الصحراء تلائم وتفى بحاجات قوم مزارعين يعيشون فى منطقة الرياح الموسمية ، ولهذا انتشر الاسلام بينهم انتشارا سريعا .

وكانت آخر دولة هندوسية هامة فى أندونيسيا هى مملكة مادچا پاهيت (Madjapahit) فى جزيرة جاوه . ففى عهد أحد رؤساء الوزراء المقتدرين ويدعى جاچا مادا (Gaja Mada) امتدت تلك الامبراطورية حتى شملت معظم أجزاء أندونيسيا . وعلى كل حال قد كانت هناك عوامل أخرى تتجمع ضدها وكان الوقت الذى استغرقه سقوط امبراطورية مادچا پاهيت أقل بكثير من الوقت الذى استغرقه قيامها ، وكانت الفترة مابين قيامها وسقوطها من سنة ١٢٩٣ م الى سنة ١٣٨٩ م . وبعد عام ١٤٠٠ م بدأت أسرة مينج (Ming) فى الصين عهد توسع سياسى قصير الأمد فى اندونيسيا ، وبالرغم من أن سلطتها لم تتعد تحصيل الجزية فان ما قدمته الصين من حماية للامراء الذين دانوا لها بالطاعة ساعد على انهيار الدول الكبرى التى كانت قائمة هناك . كان الصينيون كعهدهم دائما يقصرون اهتمامهم على التجارة والسيطرة السياسية ، غير

معبد يقوم فى وسط الماء فى بورما

عابئين بالشئون الدينية ، ولهذا عاملوا كلا من الأمراء الهندوس والمسلمين دون أى تحيز لفريق خاص .

واتتشر الاسلام بينهم بسرعة فائقة ، اذ كان فى اعتناق الاسلام خلاص لبعض السكان من نظام تسلط بعض الطبقات على البعض الآخر فى الدين الهندوسى وهو نظام لا يتفق مع طباع وتقاليد سكان جنوب شرقى آسيا ، كما أن مبدأ الجهاد فى نشر الاسلام بين الكفار كان فرصة وجدت قبولا من بعض المغامرين الطموحين ومن قراصنة الملايو الذين كانوا يجوبون البحار الشرقية .

كان أى زعيم يستطيع أن يجمع حوله قوة صغيرة من الرجال وينشر الاسلام فى منطقة مازالت على دين الوثنية أو على دين الهندوس ، يصبح على ثقة مما سيناله من جزاء . كانت الغنائم دافعا قويا لمثل هذا العمل كما بشر الله المؤمنين الذين يجاهدون ويموتون فى سبيله بالجنة ، وهذا جزاء عظيم آخر .

وقبل أن يتمكن المسلمون من تثبيت أقدامهم فى البلاد التى دانت لهم ، ظهرت على مسرح الحوادث الدول الأوروبية ، فجاء البرتغاليون الذين استطاعوا أن يسيطروا على الطرق البحرية فى تلك المنطقة فى عام ١٥١٥ م ، ثم جاء بعدهم الأسبانيون ثم الهولنديون والانجليز ، وقد بدأوا جميعا عهدا من السيطرة التى ظلت حتى عهد قريب ، ولم تبدأ فى الزوال الا فى أيامنا هذه.

ودراسة حضارات جنوب شرقى آسيا الآن أشبه ماتكون بعجلة الزمن التى ترجع الى الوراء مارة بفترات متعاقبة من السيطرة الأوروبية والاسلامية والهندية الى أن تنتهى الى العصر النيوليتى . واذا توغل الانسان نحو الشرق من جزيرة جاوة الى جزر الفلبيين أو سواحل الجزر الكبيرة الى داخلها فانه سيصادف حضارات أقل تأثرا بالنفوذ الأجنبى ، ويقل هذا التأثر كلما تقدم الانسان فى توغله . وعلى أى حال فهناك بعض مظاهر معينة تشترك فيها جميع الحضارات فى هذه المنطقة تقريبا مع بعضها البعض ، كما يرى أيضا فى توزيع بعض الحضارات مايدل دلالة واضحة على أصلها .

ويقوم الاقتصاد فى جميع أنحاء جنوب شرقى آسيا على زراعة الرز ، وتستخدم طريقة زراعته بالقطع والحرق فى المناطق المتخلفة أكثر من غيرها ، أو فى الأماكن التى يستحيل فيها الرى . ولكن هذه المناطق التى يستحيل فيها الرى قليلة لأنه حتى فى المناطق الجبلية نراهم يزرعون الرز بطريقة الرى على مدرجات الجبال .

استخدمت الجماعات التى تأثرت كثيرا بالنفوذ الهندى المحراث الذى يجره ثور أو جاموسة ، أما الآلة التى كانت مفضلة لديهم فى الزراعة فهى

الجاروف ذو اليد الطويلة والسن غير العريض الذى تطور من عصا الحفر التى كانت شائعة الاستعمال فى العصر النيوليتى . أما الحيوانات المستأنسة فلم تلعب دورا هاما كمورد للطعام أو كوسيلة للنقل ، ولم يستعمل اللبن الا قليلا حتى فى المناطق التى كان فيها النفوذ الهندى قويا ، أما صيد السمك فكان منتشرا فى كل مكان على الساحل وعلى شواطىء الأنهار .

وكانت المنازل مستطيلة فى تخطيطها وذات سقوف مثلثة ، وكانت من القش ومرتفعة دائما عن سطح الأرض ، اذ كانت تشيد على أعمدة فى المناطق المنخفضة الحارة أو على أرصفة حجرية فى الناطق المرتفعة الأكثر برودة .

وكانت الملابس تنسج من مواد مختلفة ، ولكن القطن والحرير كانا أكثرها شيوعا ، وكانوا يزخرفونها بطريقة من اثنتين : طريقة « ايكات Ikat وهى رسوم تصبغ خيوطها وتوضع كسداة (الخطوط الطولية) قبل أن تنسج ، والطريقة الثانية هى طريقة « باتيك batik » وهى رسوم ترسم على القماش بعد الانتهاء من نسيجه ، وذلك بتغطية جزء منه قبل صبغه ، وقد نسجت بعض أقمشة البروكاد الفاخرة المطرزة بالمعدن فى مناطق قليلة . ويبدو أن صناعة النسيج بأكملها قد جاءتهم من الهند ، وكانت نساء أعلى الطبقات الاجتماعية يفخرن بمهارتهن فى النسج . ومازالت بعض المجموعات المختلفة تستخدم الملابس المصنوعة من قلف الأشجار ولكن الحد الذى وصلت اليه هذه الصناعة يتناسب تناسبا عكسيا مع مدى ماوصل اليه النفوذ الهندى فى تلك البقاع .

وكان سكان هذه المناطق من جميع الطبقات الاجتماعية يلوكون التانبول (betal) . يأخذون قطعا من جوز نخيل الأركا (Arekka) ثم يعصرون عليها الليمون ويلفونها بأوراق الفلفل ، فاذا مضغت تحدث تأثيرا مخدرا لطيفا . ويضيفون الآن اللبان الأمريكى فى المناطق التى انتشرت فيها الحضارة الأوروبية ليزيد من المدة التى يتمتعون فيها بمضغ تلك المادة .

وقد استقبل أهالى هذه البلاد نبات التبغ بحفاوة بالغة عندما أدخله الأوروبيون اليهـا بعد اكتشاف أمريكا وأصبح يدخن الآن فى كل مكان ، وقد انتشر النبيذ المستخرج من نخيل البلح بالرغم مما نص عليه الاسلام ، وتحـريم النبى لشرب الكحول. وحل الكبريت الأوروبى محل الطرق البدائية فى اشعال النار ، وقبـل ذلك كانت طريقة اشعال النار بوساطة منشار الغاب الهندى هى الطريقة المتبعة بين الجماعات المتأخرة ، أما فى المناطق الأكثر تقدما فقـد كانت طريقة اشعال النار بوساطة المكبس هى الطريقة المفضلة . كانت هذه الطريقة الأخيرة عبارة عن بوق على هيئة اسطوانة تضيق فى قاعها ومجهزة بمكبس محكم يثبتون فى سطحه الأسفل خيطا من القطن المغموس فى الزيت فاذا ماضغطوا المكبس فى الاسطوانة فان هذا الضغط المفاجىء الناتج من ضغط الهواء فى الاسطوانة يكفى لتوليد الحرارة الكافية لاشعال القطن .

وانحط مستوى الصناعات المعدنية الآن بين السكان نتيجة لمنافسة المصانع الأوروبية ، ولكن الأمر الذى يدعو الى الدهشة أن صناعات المعادن الوطنية كانت فى كل مكان ، حتى فى المناطق البعيدة المتخلفة ، على درجة كبيرة من التقدم . وكانوا يصبون الشبة (النحاس الأصفر) ، وليس البرونز ، بطريقة الشمع المفقود ، أما الأدوات المزخرفة المصنوعة من الذهب والفضة والمرصعة بالأحجار الكريمة فكانت على جانب كبير من الجمال تضارع فى دقة صنعها ما ينتجه أى بلد فى أى مكان فى العالم . وانتشر استعمال المنفاخ ذى المكبس فى جميع أنحاء البلاد ، وصهروا الحديد المستخرج من المعادن الخام المحلية وصنعوا الصلب . أما الأدوات والأسلحة فقد كانت على جانب كبير من دقة الصنع والاتقان . وشاع استعمال الحربة والدرع فى كل مكان ، أما القبائل التى كانت أقل حضارة فقد استخدمت بلطة ذات سلاح عريض تشبه ساطور القصاب ، فى حين أن القبائل التى كانت أكثر تقدما استخدمت أنواعا مختلفة من السيوف أدخلت على أشكالها الهندية بعض التعديلات المحلية . وكان

أهم ما يميز هذه المنطقة هــو استعمال الخناجر والسيوف المعروفة باسم كريس (Kris) وهى سيوف ذات نصل متموج تستخدم للقطع وللطعن . وفى جاوة ، كانوا يصنعونها من صفائح من الصلب المصنوع بطريقة الكربون المنخفض ثم من الكربون العالى بالتعاقب ، فكانت هذه الطريقة فى الصناعة تكسب النصل الصلابةوالقوة، وكانت هذه الصفائحتلحم معبعضهاالبعضثم تطرق وتطوى ، ثم يعاد لحامها مرة ثانية وهكذا . فاذا ما تم صنع النصــل بزخرفون سطحه بوضعه فى سائل من الزرنيخ وعصير الليمون الأمر الذى يجعل الصفائح المصنوعة بطريقة الكربون المنخفض الصلب تتآكل وينتج عن ذلك زخرفة تشبه فى مظهرها شكل الخشب المتآكل . وعرفوا أيضــا القوس والقاذفة واستخدموهما فى جميع أنحاء المنطقة ، ولكنهم لم يعتبروا هذا أو ذاك سلاحا ذا أهمية .

وكان للقبائل المتأخرة غرام شديد بالأشياء القديمة التى كانوا يعلقونعليها أهمية كبرى ، ولها بينهم قيمة خيالية ، وكانت الأوانى الصينية القديمةوالطبول البرونزية على مختلف أشكالها من أهم الأشياء المفضلة لديهم . ويعود تاريخ بعض هذه الأشياء الى عهد أسرة هان فى الصين ، وبعضها الآخر لا يعرف له أصل على وجه التحديد ، أما الأجراس النحاسية فقد كانت ذات أهمية عظيمة بينهم فى كل مكان وكانت لها مكانة كبرى فى كثير من أعمالهم شبه الرسمية ، وفى بورنيو ومدغشقر وفى غرب أفريقيا ، كان للخرزات القديمة قيمة كبيرة بالغوا فيها الى أقصى حدّ .

أما الثياب فكانت قليلة على وجه العموم . وكان القدر الذى تغطيه الملابس من الجسد يتفق تقريبا مع الحد الذى وصل اليه النفوذ الهندى . كان الرجال يرتدون مئزرا حول خصورهم ، ولكن فى المجموعات الأكثــر تحضرا كانوا يرتدون نقبة يلفونها حول النصفالأسفلمن الجسم، وقدحذت النساءحذوهم فى ذلك .وكان كلا الجنسين يرتدونكالعادة قراطق (صديريات) قصيرة. اما

الجماعات التي بلغت شأوا كبيرا من الحضارة فكان أفرادها يرتدون فى المناسبات الرسمية ملابس جيـدة الصنع ، ويضـعون فوق رءوسهم أغطيـة مزركشة ويتحلون بالجواهر . وانتشرت عادة الوشم بين الجنسين ، وبطبيعة الحـال كان الوشم يزداد بين الجماعات التي ترتدى ملابس أقل من غيرها . وكذلك انتشرت عادة تسويد الأسنان وبردها ، والتفسير المعتاد لمثل هذا العمل هو أن أسنان الانسان يجب ألا تبدو كأسنان الكلاب أو الخنازير .

وكانت التجربة الجنسية قبل الزواج احدى المظاهر المتأصلة فى حضارات جنوب شرقى آسيا ولم يستطع الدين الهندوسى أو الدين الاسلامى أن يقضيا عليها قضاء تاما . وفى كثير من القبائل المتأخرة جدا تنام الفتيات المراهقات بعيدا عن عائلاتهن فى منازل خاصة حيث يستطيع الشاب العزب أن يزورهن، وحتى فى الأماكن التى لم يعد فيها وجود لمثل هذه الأماكن فانهم يتسامحون كثيرا فى موضوع التجربة الجنسية قبل الزواج . ولكن من ناحية أخـرى بأشد أنواع العقاب ولا يسمح للرجل بالزواج بأكثر من زوجة واحدة مادامت فالخيانة بعد الزواج من أى من الجنسين كانت من الأمور التى يعاقبون عليها بأشد أنواع العقاب ولايسمح للرجل بالزواج بأكثر من زوجة واحدة مادامت زوجته على قيد الحياة ، ولكن فى استطاعة الأمراء والموسرين من الناس أن يتزوجوا بأربع زوجات وبعدد غير محدود من الاماء مستغلين فى ذلك ماسمح به الدين الاسلامى . وحتى بين الجماعات الاسلامية تتجول النساء بحـرية تامة وغير مقنعات ، ولا يكاد يقـل مركز المرأة الاجتمـاعى كثيرا عن مركز الرجل . ولكل من لجنسين حرف خاصة يمارسها ولكن ليس هناك من حرج على الرجـال اذا ساعدوا فى أعمال الطهى وفى تربية الأطفال وغير ذلك من الأعمال المنزلية . ولا يتزوج سكان القرى الا من بينهم ، ولـكن الجماعات الصغيرة المرتبطة برابطة القرابة من بين أهل القرية نفسها كانوا يتزوجون من غير عائلاتهم . والاستثناءات الرئيسية فى نظام الزواج الداخلى كانت حالات أولئك الذين يحيون فى ظل نظام طبقى عتيق ويمكن تتبعـه الى أثر النفـوذ

الهندى ، وهو النظام الذى يحدد عدد العائلات فى كل طبقة فى أى قرية ، ففى مثل هذه الحالات يلجأ أعضاء هذه العائلات الى خارج قريتهم للبحث عن الأزواج .

وقد تقدمت النظم القانونية وتطورت كثيرا حتى شملت كل أوجه النشاط، والعلاقات الاجتماعية . وينظر الناس الى هذه القوانين كما ننظر نحن الآن الى قوانيننا، اذتعتمد على التقبل الاجتماعى لها وليس على مالها منهيبة آتية من قوة فوق قوة البشر ، وهى تختلف أيضا اختلافا واضحا عن نظم التحريم (التابو) ، التى تنتشر بين الناس انتشارا واسعا بل وتعتبر من مميزات هذه المنطقة من بقاع العالم . ومن بين المظاهر غير العادية لنظام التحريم ، ذلكالأمر الذى يفرض العزلة التامة على أهل القرى خلال فترة من الزمن يعيشون فيها بدون عمل لعدة ايام متتالية .وخلال هذه الفترات لايسمح لأىغريب بدخول القرية ، حتى تلك الأعمال الضرورية التى لايستغنى عنها كالطهى وتناول الطعام ، فانها تخفض الى الحد الأدنى .

وبالرغم من تعاقب الطقوس الدينية للهندوس والبوذيين والمسلمين بعضها فوق بعض فان الديانة لا تزال ترتكز حولمحاولة تهدئة الأرواحالمعادية وطلب المعونة من أرواح الأجداد . ويمكن التعرف على ارادة الأرواح عن طريق الوسطاء الذين يذهبون فى سبات عميق ويتركون الأرواح تتكلم علىألسنتهم. ومازال التنجيم واسع الانتشار بينهم ومازال السحر الذى يوقع الأذىيمارس كثيرا ، وما زالت حوادث دس السم للاخرين من الأمور المعتادة .

وفيما عدا مجموعات القرى التى اتحدت وكونت من بينها دولا تحت لواء حكومة مركزية فان القرى كانت فى حالة حرب مستمرة ، كأنما هى حالة وباء مستمر ، لم يقض عليها الا التدخل الأوروبى . وكان السبب فى انتشار تلك الحالة راجعا الى عادة اصطياد الرءوس ، وهذه العادة بدورها قد نبعت من نظرية القوة التى تشبه بعض الشىء فكرة المانا (Mana) عند البولينيزيين .

فمن المفروض أنه يوجد فى كل فرد أو جماعة قدر معين من القوة الروحية ، ولهذا كانت قوة الأشخاص الذين قطعت منهم رءوسهم تضاف الى ما يمتلكه فعلا المحارب الناجح من تلك القوة هو أو قرينته . ولهذا كانت هنـــاك قبائل كثيرة تعتقد أن الرجل لا يمكن أبدا أن يحصل على الثراء ما لم يجمع عددا من الرءوس فيضيف قوتها الى قوته. وكانت الجماجم تحفظ ، وكانت أعمال صائد الرءوس الناجح تؤهله للبس حلة من نوع معين ، ويكون له الحق فى وشم جسده برسوم معينة .

وهناك ، أو كانت هناك ، أنواع متعددة من حضارات أخرى منتشرة بين بعض مناطق جنوب شرقى آسيا حيث أقام المهاجرون الهنود ولايات مركزية ، وكان وجود كل منها بداية تكوين طبقات اجتماعية . وكانت ظاهرة التجنب التام للمنبوذين فى نظام الطبقات الهندية لا تتفق على الاطلاق مع ما يؤمن به سكان جنوب شرقى آسيا من التماسك المحلى ، وكانت أكثر مما يستطيعون قبوله . ومع ذلك فان زواج رجل من طبقة وضيعة بامرأة من طبقة عالية كان أمرا ممنوعا فى كل مكان ، أما الاختلافات فى المركز الاجتماعى فقد وجدت ما يؤيدها فى تلك القواعد المتأصلة بينهم فى أدب السلوك . وكانت هناك طرق مختلفة يتحتم اتباعها عند تحية الأكفاء ، أو من هم أعلى درجة أو أقل درجـــة فى مراتبهم الاجتماعية ، كما كانت هناك ألفاظ خاصة تستخدم عند مخاطبة كل طبقة منها .

وكان الزعيم الذى يتربع على رأس المملكة ، ويطلقون عليه اللقب الهنـــدى راجا (Rajah) يعيش فى قصر رحب يحيط به عدد كبير من نساء الحريم ، كما كان هناك حراس للقصر ومجموعة ضخمة من الأتباع والخدم وموظفى الحكومة. وكان رئيس الوزراء هو أهم شخص بين موظفى الحكومة وكان الراجا يترك له عن طيب خاطر جميع مقاليد الحكم ولم يشذ عن ذلك الا عدد قليل من الراجات ذوى النشاط غير العادى. وكان الراجا، كرمز للدولة وذا صفة شبيهة

بالصفة الالهية ، يؤدى أهم ما تتطلبه منه طبيعة وظيفته عند قيامه بالشعائر الدينية التى تحفظ القوة الروحية لدولته . وكانت رجولته احدى مظاهر قوته، وكانوا يتوقعون منه أن يضم الى حريمه أجمل فتيات المملكة ، ومع ذلك فلم يكن هناك سوى ملكة واحدة من أصل ملكى ولم يكن فى استطاعة أحد لا يكون ابنا مولودا لها أن يرث الملك .

وكثيرا ما كانت المعابد الكثيرة تشيد بفضل رعاية الملك ويصرف عليها من دخل بعض قرى معينة . وكان رجال الدين من الهندوس والبوذيين يقلدون البراهمة الهنود عند قيامهم بالطقوس الرسمية فى هذه المعابد، وكانوا يسخرون قوتهم فى السحر لمنفعة الأفراد الأغنياء الذين تمكنهم ثروتهم من دفع الثمن اللازم لهذا العمل . وكانت المعابد والقصور هى المراكز الرئيسية للنشاط الفنى ووجدت بعض الطرز الفنية الهندية طريقها الى الأساليب الفنبة القديمة فى جنوب شرقى آسيا واختلطت بها ، وترجموا كثيرا من القصص الهندية الى اللغات الوطنية ، كما قلدوها أيضا بنجاح كبير . وكان رجال الطبقات العليا يفخرون بمهارتهم كممثلين يؤدون أدوارهم بعمل الاشارات دون الكلام وكان النـاس ينظرون الى الرسم والتأليف الأدبى على أنهما من المهن التى تليق بالنبلاء اذ كان لديهم فسحة كبيرة من الوقت لممارسة مثل هذه الأمور ، لأن أعباء الحكم عليهم قد قلت حتى اقتصرت على اعلان الحرب وجمع الضرائب من الفلاحين البؤساء . وبالرغم من وجود ممثل للملك ، وغالبا ما يكون من أقاربه ، فى كل قرية ، فانه كان يسمح لأهل القرية بأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم طبقا لقانونهم المعروف باسم أدات (Adat) ، ذلك القانون الذى كان سائدا بينهم منذ أقدم وأبعد العصور .

ولم يغير دخول الاسلام من هذه الصـورة الا الشىء القليـل وذلك لأن السلطان المسلم حذا حذو الراجا فى أعماله .

وبالرغم من مناهضة الاسلام لعمل التماثيل فمازال فن عمل التماثيـل من

الفنون المزدهرة . وقد استقر الاسلام الآن فى جميع أنحاء أندونيسيا وجنوب الفيليپين تقريبا ، ولم يبق من الأماكن التى ظلت فيها الأساليب الهندوسية والبوذية سائدة بين السكان الا جزيرتا بالى (Bali) ولومبوك (Lombok) ولازالت القبائل « الوثنية » تحتل المناطق النائية مثل داخل جزر بورنيو ، وفى سومطرة توجد قبيلة مينا نجكابو **Menangkabau** المسلمة بالاسم ولكنها مازالت تحتفظ بنظمها الخاصة بالانتساب الى الأم وسلطتها على العائلة ، وهى أمور يعتبرها المؤمنون الحقيقيون وصمة عار لهم .

واتصلت أراضى جنوب شرقى قارة آسيا وهى واقعة بين الصين والهند ، بهاتين الحضارتين العظيمتين فى وقت مبكر ، ماعدا تلك الأراضى التى تقع الى الشرق من جبال لاوس (Laos) ، وكان النفوذ الهندى فى تلك المنطقة أكثر انتشارا وأقوى تأثيرا من النفوذ الصينى ، وقد يرجع هذا الى أن الهنود قد أتوا فيما يبدو كمستعمرين ومبشرين بينما أتى الصينيون كفاتحين أو تجار . وحتى فى الأزمان التى تلت الفتح كان الصينيون لا يستقرون الا نادرا فى الأراضى التى أخضعوها استقرارا دائما ، وكانوا يظلون بعيدين عن السكان الوطنيين عندما ينشئون المستعمرات . ولم يكن الصينيون فى أى وقت من الأوقات قوما يسعون الى هداية غيرهم بعكس الهنود ، سواء أكانوا هندوسيين أم بوذيين أم مسلمين، فانهم كانوا دائما ذوى نشاط تبشيرى عند استعمارهم لأى بلد .

وكانت أقدم مملكة فى جنوب شرقى آسيا هى مملكة فونان **(Funan)** ، وقد اختفت هذه المملكة اختفاء تاما مما دعا بعض المؤرخين الأوروبيين القدامى الى الاعتقاد بأنها كانت مملكة أسطورية ربما كانت فى احدى الجزر ، حتى عثر أحد علماء اللغة الصينية من الفرنسيين فى بعض كتب التاريخ القديمة باللغة الصينية على اشارات الى مملكة فونان وقد قام هذا الباحث بترجمة هذه الاشارات .

تكونت مملكة « فونان » من القرى التى كانت منتشرة فى الأرض الخصبة فى المناطق الواطئة على امتـداد نهر ميكونج (Mekong) ، وفى القرن الثالث الميلادى أخضعت هذه المملكة لنفـوذها دولا أخرى مجـاورة حتى احتلت مايسمى الان باسم الصين الكوشينية (Cochin China) وكمبوديا (Cambodia) والجـزء الشمالى من شـبه جزيرة الملايو . وكان سـكان فونان من شعب « مون خمر » (Mon Khmer) الذى ينتسب اليه أهل سيام وكمبوديا ، وكانت شبه جزيرة الملايو عندما أخضعتها مملكة فونان واقعة تحت نفوذ هنـدى قوى . ولما كانت مملكة « فونان » واقعة على الطريق التجارى المباشر بين الهند والصين فقد استقرت فيها الجاليات الهندية منذ القرن الأول الميلادى وجلبوا اليها بعض الاساليب الهندية .

وفى القرن السابع الميلادى هزمت مملكة فونان أمام جحافل من شـعوب الـ « خمر » الذين كانوا فى كمبوديا ، وأصبحت جزءا من بلادهم . وامتدت امبراطورية كمبوديا حتى شملت معظم أراضى الهند الصينية كما شملت فى فترة من الفترات شمال شرقى سيام ، وهذا ما يفسر لنا سبب ذلك التشابه الذى نلمسه بين أهل سيام وأهل كمبوديا فى العادات وفى الموسيقى والدراما والرقص، وذلك بالرغم من أن الشعبين يتكلمان لغتين مختلفتين .

وعلى رأس « البحيرة الكبرى » أقام الكمبوديون عاصمتهم «انجكور توم» (Angkor Tom) وأقاموا بجوارها معبد « انجكور ڤات » (Angkor Vat) وقد أقيمت هذه المجموعة من المبانى على أرض تزيد مساحتها على ١٠٫٠٠٠ فدان . وقد شيدت فيما بين القرن العاشر والقرن الخامس عشر خلال حكم عشرين ملكا . وبلغ معبد « انجكور ڤات » ذروة مجده فى عهد الملك سوريارا ڤارمان (Suriyaravarman) الثانى (١١١٣ ـ ١١٥٠) ، وقد أقيم هذا المعبد لتكريم الاله « ڤيشـنو » (Vishnu) ، رغم أن الملك استطاع بعمل احـدى الألاعيب الكمبودية أن يوحد بين نفسه وبين هذا الاله ، فأصبح هذا المعبد

ضريحا لجلالته . وقد عثر على تماثيل بوذية قليلة فى المعبد مما يثبت أنه فى يوم من الأيام كانت هذه التماثيل تستخدم فى الطقوس الدينية البوذية .

كان الطراز الفنى الهندى هو الطراز السائد فى هذا المعبد ولكنا نرى فى الوقت ذاته أن نحاتى خمر (Khmer) القدامى قد بحثوا عن مصادر جديدة فى مختلف الفنون الأجنبية ، وألهمتهم هذه الفنون فتوصلوا الى انتاج أعمال فنية تختلف عن الأساليب الهندية بل أن بعضها كان جديدا وغير مقتبس من أى فن آخر . وكانت أكثر المبانى من الحجر الرملى ولكنهم استخدموا الطوب أيضا فى تشييد بعضها . وزخرفوا كرانبش الأبواب وأعتابها وأعمدتها برسوم دقيقة ملأى بالحيوية . أما الجدران الخارجية فقد زينوها برسوم بالحجم الطبيعى تمثل ١٧٥٠ أپسارا (apsara) (أى راقص سماوى) ، يختلف لباس رأس كل منهم عن الآخر ، وكانت هذه الرسوم المحفورة تمتد على الأقل مسافة نصف ميل فوق سطح الجدران .

وأنهارت امبراطورية كمبوديا حوالى عام ١٤٤٠ م بعد حرب طويلة مفجعة مع سيام . وكان شعب الـ « تشام » (Chams) ينهبون الامبراطورية من الشرق ، كما كانت هناك أيضا بعض الاشتباكات مع الأناميين . وقد نهبت جنود « سيام » معبد انجكور وفر الملك والنبلاء من المدينة ، وأقاموا فى مدينة « پنومپنه » (Pnompenh) وهى العاصمة الحالية .

وهاجر السكان من المنطقة أيضا وخلفوا وراءهم مدينة ومعبدا من أجمل ما شيده الانسان فى العالم لتفعل بهما الغابة ما تشاء . ومن الأمور التى تدعو الى الدهشة الحقة أن تلك المدينة العظيمة التى ظلت طيلة قرنين من الزمان تقاوم أعداءها وتحاربهم حربا مستمرا يهجرها ملوكها بل وأهلها هجرانا كاملا ، ومهما كان الأمر فربما كانت فخامتها التى تأخذ بمجامع القلوب من بين أسباب سقوطها . فمثل هذه المبانى العظيمة لابد أنها قامت على أكتاف الأرقاء وتسخير القرويين ، وربما لم تكن تلك المبانى العظيمة فى نظر جموع

الشعب الا رمزا للاستغلال والعمل المرير اللذين هربا منهما عن طيب خاطر .

وفى السنين الأولى من القرن العشرين ، عندما قطعت الحكومة الفرنسية أشجار الغابة التى كانت قد نمت على هذه المبانى وجدوا أنها لم تكن فى حاجة الى أى ترميم كبير لصيانتها . فقد كان المعماريون الذين قاموا بتصميم هذه الأبنية يفهمون حق الفهم مشاكل ثقل الأحجار وتوزيع الكتل مما ساعد هذه الأبنية على مقاومة الغابات الزاحفة ومرور الأجيال المتعاقبة . وقد تفتتت بعض المنحوتات الجميلة والزخارف البديعة ولكنها مع ذلك مازالت تحتفظ بجمالها الأخاذ وحيويتها الكبيرة .

والى الشمال الشرقى من شعب « خمر » كان يعيش ال « تشام » الذين كانوا يتحدثون بلغة الملايو ، وكانوا فى أوائل العصر المسيحى مجموعة من الصيادين البدائيين وصائدى الأسماك، ونظرا لأنهم كانوا فى منتصف المسافة بين الصين وجزيرة جاوة فقد تأثروا منذ عهد بعيد بهاتين الحضارتين الكبيرتين وعلى الأخص بالحضارة الجاوية .

وقد أقبل التشاميون على الديانة الهندوسية فى مبدأ الأمر ولكنهم اعتنقوا الاسلام بعد ذلك ، وكانت لغة الكتابة عندهم هى اللغة السنسكريتية . وغزا الصينيون بلاد « تشامپا » (Champa) و « أنام » (Annam) فى مناسبات كثيرة وبالرغم من أن منطقة «تشامپا» كانت الى جنوب الأخرى فانها لم تخضع لسيطرة الصين خضوعا تاما . وفى احدى الحروب التى قامت بها تلك البلاد ضد الصينيين واستمرت من عام ٤٣١ الى عام ٤٤٦ نهب الصينيون المعابد الهندوسية فى تشام ويقال انهم صهروا التماثيل الذهبية وحملوا معهم الى الصين الف رطل من الذهب ، ومهما كان فى هذا الخبر من مبالغة فانه دلالة على الثروة والقوة اللتين كانت تتمتع بهما امبراطورية تشامپا فى ذلك الوقت ، وكانت عاصمة تشامبا فى « اندرابورا » (Indrapura)

على مسافة قريبة من « هيو » عاصمة أنام ولم يزد على آثار معابدالتشامبا فى فخامتها الا آثار « انجكور فات » .

وقد استخدم « التشامپيون » الطوب فى البناء ولم يستخدموا الحجارة الا فى أعمال الزينة وفى بناء الواجهة . وكان الهيكل الرئيسى مكونا من ثمانيـــة معابد أقيمت على قواعد مرتفعة وزينت بمنحوتات وأفاريز جميلة . ومازالت تغلب على منطقة التشامپا المؤثرات الهندية ولكن مع بعض التعديلات التى سببتها صلتهم بالصين . وقد حارب « التشامبيون » سكان كمبوديا خـــلال القرن الثالث عشر . ولما كانت منطقتا تشامپا وأنام تحتلان أجزاء متلاصقة من الساحل الشرقى للهند الصينية فانهما كانتا دائما فى حالة حرب ، وقد هزمت التشامپا فى القرن الخامس عشر ، وضمها أهل أنام الى بلادهم . وقضى على معظم شعب « تشام » ودفعوا بمن تبقى فى هذه المملكة التى كانت قوية فى يوم من الأيام ، دفعوا بهم من الشاطىء الى المناطق الجبلية مرة أخرى حيث يعيشـون حتى الآن كأقلية صغيرة . ويزرع « التشامپيون » الرز ولـــكنهم لا يربون الخنازير مثلما يفعل المزارعون الآخرون من الأناميين ، وذلك لأن الغالبية العظمى من « التشامپيين » مسلمون لا يمسون لحم الخنزير .

وفى بداية القرن التاسع عشر عندما بدأت الدول الغربية تدرك امكانيات استغلال بلاد الشرق كانت حضارة أنام هى الحضارة السائدة فى شرقىجبال الهند الصينية، وكانت أنام هى البلد الوحيد فى جنوب شرقى آسيا الذى كان للحضارة الصينية فيه الغلبة على الحضارة الهندية . وعلى مدى مئـــات من السنين كانت أنام تقع تارة تحت السيطرة الصينية ثم تقوم بعد ذلك منكبوتها وتستعيد استقلالها ، لتعود من جديد الى خضوعها . وبالرغم من أن كلا من الصينيين والأناميينظلوا محتفظينبكيانهم اللهم الا فىحالات قليلة منالاختلاط بالزواج أو الصلات الاجتماعية ، فان النظم الدينية والحكومية بل والتنظيم العائلي قد قامت على طراز وأسلوب مثيلاتها فى الصين . وكانالعلماءالأناميون

يدرسون الكتب الصينية التقليدية ، وكان مثلهم الأعلى هو قانون كونفوشيوس الأخلاقي الذي يحتم احترام من هم أكبر سنا ، وما يحويه من قواعد لأدب السلوك. كانت الأسرة، كما كان شأنها في الصين، هي الوحدة الاجتماعية الأساسية، وكانت عبادة الأجداد والمحافظة على لوحاتهم من الواجبات الرئيسية على أهل كل منزل في أنام . أما الدين فكان خليطا من نوع سهل متسامح من البوذية، ونوع آخر من الطاوية (Taoism) التي كانت تهتم كثيرا بتهدئة الأرواح المحلية أكثر من عنايتها بتعاليم لاو ــ تزه (Lao Tzu) مع قبول جزئي للكاثوليكية التي جلبتها البعوث التبشيرية الفرنسية .

وكما كان الحال في الصين ، كان الناس ينظرون الى الأمبراطور على أنه سليل مباشر لاله الشمس . وكان باب الوظائف مفتوحا لجميـــع الرجال من جميع الطبقات الذين ينجحون في امتحانات المسابقة التي كانت تقام لهم ، كما كانت الحال في الصين فيؤدون امتحانا في الكتب التي خلفها كونفوشيوس.

وعندما احتلت فرنسا بلاد الهند الصينية الغت النظام القديم واستبدلوا بنظام التوظيف الصيني سيطرة الموظفين الفرنسيين . وحاولت فرنسا أن تسير على سياسة استيعابية لكي تحطم قوة طبقة الموظفين وقوة الجماعات أو القرى التي كانت بمثابة مؤسسات تحكم نفسها بنفسها وتقوم على اسعاد أفرادهـــا وتعليمهم . وبالرغم من أن الفرنسيين قد أدخلوا بعض الاصلاحات ، وأكثروا من الأراضي الصالحة للزراعة واستغلوا موارد البلاد المعدنية ، وأنشـــأوا خطوطا للسكك الحديدية وطرقا للســـيارات ، فان حكمهم لم يتجـــه نحو توحيد السكان . ففي ظل الحكم الفرنسي كانت هناك في الهنـــد الصينيـــة اختلافات كثيرة في اللغة وفي الحضارة ، وكان الأمر الوحيد الذي دعا الى الوحدة بينهم هو اجماعهم على معارضة ومحاربة الاستغلال الفرنسي لبلادهم.

وكانت سيام أو تايلاند (Thailand) ، كما تفضل أن تسمي نفسها الآن ، هي البلد الوحيد في جنوب شرقي آسيا الذي استطاع ان يحتفظ باستقلاله

أثناء الضغط الأوروبى فى القرن التاسع عشر ، ذلك الضغط الذى حدا بجميع الدول المجاورة الى الخضوع للسيطرة السياسية للدول الغربية . ولم يكن ذلك نتيجة لقوة البلاد أو لأى مهارة سياسية ولكن لأن سيام كانت تقع بين منطقتى النفوذ الانجليزى فى بورما وفى الهند وبين منطقة النفوذ الفرنسى فى الهند الصينية ، وكان يسر كلا من الامبراطوريتين أن تضم اليها سيام ولكن كلا منهما كانت تعلم جيدا أن أى حركة من هذا النوع ستقابل من الطرف الآخر بالغضب المرير ، وبذلك استطاعت سيام أن تحتفظ بحريتها السياسية بالرغم من أن كلا من الفرنسيين والانجليز قد اقتطعوا منها أجزاء من المناطق الواقعة على الحدود .

وكان أول من استقر بسيام جاليات من الهندوس ولكنها فى القرن السادس أصبحت ولاية بوذية . وفى القرن الحادى عشر أصبحت سيام جزءا من امبراطورية كمبوديا التى كانت امبراطورية كبيرة وأغلب أهلها من الهندوس. وجاء شعب ثاى (Thai) ، الذين يطلق اسمهم على البلاد فى الوقت الحاضر، فيما بين القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الشمال من المنطقة التى تسمى الآن « يونان » (Yunan) ويحتمل أنهم قد طردوا من ديارهم عندما غزا المغول بلاد الصين . وانتشر أهل ثاى أيضا فى بورما حيث يعرفون الآن باسم « شان » (Shan) ، وانتشروا كذلك فى سيام حيث استقروا حول نهر « مينام » (Menam) وفى منتصف القرن الرابع عشر كون بعض أقوام من «ثاى» مملكة أخضعت لنفوذها دولا ثانية أخرى . وفى عام ١٧٦٧ غزت بورما بلاد سيام وخربت العاصمة القديمة التى كانت فى «آيوثيا» (Ayuthia) ولكن بعد هذه الهزيمة استطاع قائد من أصل سيامى ــ صينى أن يسيطر على البلاد وأن يقيم عاصمة جديدة فى بانجكوك (Bangkok) . وخلف هذا القائد قائد آخر يدعى « شاكى » (Chakky) وهو مؤسس الاسرة التى ما زالت تحكم سيام حتى الآن . وكان تدهور الأسرة الملكية فى بورما

وهزيمتها امام الانجليز فى عام ١٨٢٠ سببا فى تخلص سيام من عدوها ومنافسها الرئيسى ، وقد ازدهرت البلاد تحت حكم هذه الأسرة .

وبالرغم من أن الثابيين ينتمون الى أصل صينى فان حضارة سيام متأثرة بالحضارة الهندية أكثر منها بالحضارة الصينية . أما من الناحية الدينيةفانهم من أتباع مذهب هينايانا البوذى ، وهم أكثر استمساكا بدينهم من أى قطر آخر فى جنوب شرقى آسيا . وعمارة المعابد فى سيام ، بما فيها من حافات السقوف التى تنحنى الى أعلى ، ليست الا أثرا باقيا من طراز الباجودا الصينية ، مع أن الاحساس بالفن الهندى يظهر ظهورا قويا فى زخرفتها . وقد وقعت سيام كأى دولة من دول جنوب شرقى آسيا تحت أثر النفوذ الغربى ولكن سيام لم تحتفظ باستقلالها فى القرن التاسع عشر فحسب بل استطاعت أيضا أن تزدهر وأن ترتفع بمستوى المعيشة فيها أكثر من أى بلد آخر فى جنوب شرقى آسيا .

القسم السادس

جنوب غربي آسيا وأوروبا

الفصل السادس عشر

جنوب غربى آسيا
فى العصر الحجرى الحديث "النيوليتى"

ان أهم مركز لتدجين النبات واستئناس الحيوان فى بلاد العالم القديم هى تلك المنطقة الواقعة فى جنوب غربى آسيا والتى يحدها البحر الأبيض المتوسط من ناحية الغرب ، والبحر الأسود وبحر قزوين ومناطق الاستبس فى قارتى أوروبا وآسيا فى الشمال ، والهضبة الجبلية فى وسط آسيا فى الشرق ، ويحدها فى الجنوب الحزام الصحراوى الذى يمتد من شبه جزيرة سينا حتى الهند .

ومناخ معظم أجزاء هذه المنطقة مناخ قارى ، أى حار صيفا وبارد شتاء ، ولم تكن تسقط فيها خلال شهور الصيف الا أمطار قليلة جدا ، ولذلك كانت أهم مشكلة تواجه المزارعين الذين عاشوا فيها فى العصور المتأخرة هى الاحتفاظ بالرطوبة التى تسربت الى جوف الأرض من ثلوج الشتاء وأمطار الربيع . ولهذا السبب أصبحت النظم الاقتصادية التى تطورت فى هذه المنطقة فى العصر النيوليتى أساسا لجميع مدنيات العالم القديم باستثناء جنوب شرقى آسيا واليابان وأفريقيا جنوب الصحراء الكبرى ، كما أن معظم العناصر الحضارية التى تجمعت بطرق شتى لتكوين تلك المدنيات قد نشأت فى تلك المنطقة ، ولهذا لم تدرس أى حضارة مشتركة بالعناية وسعة الوقت اللتين درست بهما هذه الحضارة .

وهناك اتجاهان معروفان فى تلك الدراسة أولهما استخدام الأدوات الحجرية المصقولة والقوس والفخار كأشياء يقاس عليها مدى التقدم فى العصر النيوليتى ، وثانيهما هو التتابع المستمر للعصور التى أعقبت العصر النيوليتى وهى عصر البرونز وعصر الحديد فى تقدم الحضارة ، فهى كلها قائمة على هذه الدراسات ، ويمكن تطبيقها على المناطق التى تأثرت بحضارات منطقة جنوب غربى آسيا .

ومن العبث فى الوقت الحاضر أن نحاول البحث عن أصل المكان الذى تم فيه تدجين النباتات المختلفة واستئناس بعض حيواناتها على وجه التحديد، وكل ما نستطيع أن نقوله هو أنه حوالى عام ٥٠٠٠ ق.م. كانت نظم حياة القرية منتشرة فى معظم أرجاء هذه المنطقة وأن قبائل متباينة كانت تشترك فى اتباع تقليد واحد . وقد تستخدم القبائل المختلفة لزخرفة أوانيها الفخارية، وتبنى منازلها ، بطرق تختلف عن بعضها اختلافا بسيطا ، ولكن أوجه التشابه بينها كانت تغطى دائما على أوجه الخلاف ، واذا دجنوا نباتا او استأنسوا حيوانا فى أى منطقة منها ، فانه سرعان ماينتشر فى جميع الأرجاء لتعم فائدته الاقتصادية .

ولا يعادل صعوبة معرفة الأماكن الحقيقية التى نشأت منها النباتات والحيوانات المختلفة فى هذه المنطقة الا معرفة الأزمنة ، على وجه التحديد التى ظهرت فيها بعض المظاهر الحضارية التى كونت مع بعضها البعض صرح الحضارة فى منطقة جنوب غربى آسيا ، والتى انتشرت فى جميع أرجاء البلاد. وقد تبع تطور انتاج الغذاء فى هذه المنطقة تقدم حضارى سريع لدرجة أنه يصعب علينا أن نعرف بوضوح وعلى وجه التأكيد محتويات أى طبقة من الطبقات التى تدل على تتابع العصور الزمنية فى المناطق الأثرية . فلا يمكننا أبدا أن نجزم متى صنعت أول عجلة أو متى صنع أول محراث أو نول ، أو متى صهر أول معدن أو متى كتب أول نقش ولكننا نعلم فقط أن كل هذه

الاختراعات التى غيرت مجرى الحضارة فى العالم قد نشأت فى بلاد العالم القديم وانه يمكن تتبعها الى هذه المنطقة ، وأن ذلك قد تم مابين سنتى ٥٠٠٠ و ٣٥٠٠ ق ٠ م ٠

وبالرغم من أن هذه المنطقة كانت فى العصر النيوليتى أيضا مركزا لجميع الحضارات القديمة فان معظم أعمال البحث عن الآثار تركزت فى الكشف عن بقايا المعابد والقصور ، ولم تبدأ الا فى القرن الحالى فقط تلك البحوث التى تستحق الذكر لدرس مراكز العصر النيوليتى ، بل ومازالت معلوماتنا حتى الوقت الراهن فى هذه الناحية محصورة فى نطاق ضيق . ولكن بالرغم من ذلك كله فان هذه المنطقة جزء مما ينطبق عليه بحق اسم الشرق الأزلى أو الشرق الموغل فى القدم .

وفى أماكن كثيرة منه لايزال الفلاحون يعيشون كما كان يعيش أسلافهم فى العصر النيوليتى ، ويستطيع عمال الحفائر الأثرية أن يوضحوا الغرض الذى استخدمت فيه الأدوات المختلفة التى يعثرون عليها فى حفائر هذه المنطقة خيرا مما يستطيعه معظم علماء الآثار ، وفى هذا مايساعدنا على محاولة تصور ماكانت عليه الحياة الاقتصادية والتكنولوجية فى العصر النيوليتى مع كثير من الدقة . ولكن مما يؤسف له أنه ليست لدينا معلومات مؤكدة عن النظم الاجتماعية والدينية فى ذلك العصر .

وحتى فى أقدم العصور كان الناس يعيشون فى قرى . ولم يكن هناك على مايبدو منازل منعزلة مما يترتب عليه وجود الحروب الداخلية بين أبناء القرية الواحدة . وقد حدثت دون شك مشاحنات بين أهالى المحلات السكنية المتجاورة حول الأراضى الصالحة لمرعى حيواناتهم كما كانت الحيوانات المستأنسة تغرى دائما بالسرقة . ومع ذلك فان عدم مبالاة السكان بالمنشآت الدفاعية حول القرى دليل على أن تلك الحروب لم تكن ذات خطر كبير ومما هو جدير بالذكر أن عادة اصطياد الرءوس البشرية التى كانت متبعة

فى جنوب شرقى آسيا لم تعرف على الاطلاق فى هذه الحضارة .

كانت المنازل مستطيلة الشكل ومشيدة من الطوب او من حصر يثبتونها فوق اطار خشبى ثم يلطسونها بالطين . أما سقوفها فكانت من القش وهى اما مسطحة أو مثلثة الشكل (على هيئة الجمالون) وذلك يرجع قبل كل شىء آخر الى حالة نزول المطر فى المنطقة . وتدل طريقة تشييد تلك المنازل على أنه كانت توجد منذ ذلك الوقت البعيد أزمة فى الأخشاب فى مناطق كثيرة ، أو أن سكان القرى كانوا يتحاشون بذل المجهود اللازم فى قطع الأشجار واعدادها . وزرعت الحقول الصغيرة حيثما وجدت التربة الصالحة، وكانوا يفضلون ماكان قريبا من القرية ، أما الأراضى البعيدة أو الضعيفةفقد استخدموها للرعى ،وكانت على الأرجح غير مملوكة لأى شخص معين . وبقيت الأراضى المزروعة ملكا للعائلات التى أصلحتها وهيأتها للزراعة طالما ظلت مستمرة فى استغلالها ، أما الأراضى التى تركوها عدة سنوات وأصبحت أرضا بورا ، فانها كانت تجد من يعيد امتلاكها . وكانوا يعزقون الأرض فى العصور القديمة بوساطة فأس من الحجر أو بوساطة عصا الحفر ، وظهر فيما بعد استخدام ذلك المحراث الخشبى الذى يجرهالرجال أو الثيران. ولم يكن المحراث البسيط الذى ظهر فى هذه المنطقة كافيا لتحطيم التربة اليابسة القوية ، ولهذا كانوا يستخدمونه فى حرث الأرض طولا وعرضا الأمر الذى يساعد على تفتيت التربة الجافة فى أوائل الصيف ويحيلها الى تراب متماسك يمنع تبخر الرطوبة .

وكانت المحصولات الرئيسية هى القمح والشعير بالاضافة الى العدس والبسلة والبصل والخيار والقرع ليغيروا من وجبات طعامهم . وبعد أن تنتهى فترة الخصوبة العالية للأرض كانوا يزرعونها سنة ويريحونها سنة أخرى ، ولم يمض الا وقت قصير حتى طبقوا نظام زراعة دورة فى كل ثلاث سنوات . فكانت الحبوب تزرع فى السنة الأولى والخضراوات فى السنة

الثانية ثم يتركون الأرض دون زراعة فى السنة الثالثة . وكانوا يحصـــدون سنابل الحبوب التى تم نضجها بوساطة مناجل مصنوعة من الخشب ، أو من قرن الوعل بعد أن يثبتوا فى حدها القاطع شطفات من حجر الظـــران . وكان لكل قرية جرن يستخدم عنـــد الحصاد ، وهى مســاحة واسعة من الأرض يغطون أرضيتها المسطحة بالطين ويحيطونها فى العادة بحائط منخفض من الحجر . وكانت هذه الأرض تخدمهم فى غرضين ، أولهما فى وقت الحصاد أما ثانيهما فانها كانت مكانا مناسبا لاجتماعات أهل القرية . وكانت الحبوب أما ان تدق لتنفصـــل عن سنابلها أو تدوس عليها الحيوانات ، وتدور دائما فوقها ، لتؤدى الى النتيجة نفسها . وكانوا يغربلونها وذلك بقذفها فى الهواء فى أحد الأيام التى يشتد فيها الهواء فيتطاير التبن فى الهواء ويسقط الحب عند قدمى من يغربله نظرا لثقل وزنه . وكانوا ينتفعون بكل شىء من المحصول فكان التبن يستخدم فى الوقود وكان القش يستخدم فى تغطيـــة ســقوف المنازل أو كعلف للحيوانات . أما الحب المستخلص فكانوا يخزنونه فى حفرات يحفرونها فى أرض طينية صلبة أو يضعونه فى أهراء مصنوعة من الطين عـــلى هيئة خلية النحل ، وتغطى سقوفها فى العادة بالقش . وكان تسرب الفيران أو الجرذان الى مخازن الحب مصيبة من المصائب الكبرى ، ونرى فى بعض أوراق البردى المصرية القديمة وصفات لتبخير مخازن الغلال ، كمـــا نجـــد فيها أيضا تعويذات شبه سحرية لابعاد الحشرات القارضـــة عنهـــا . وكانوا يسحقون الحب فوق حجر مستو ذى سطح خشن ، ثم يطحنون الحبـــوب فوقه بوساطة حجر آخر يحركونه الى الأمام والخلف فى حركة مشابهة تماما لحركة لوحة الغسيل القديمة . وكانت الأكلة المستمدة من طحن الحبـــوب بهذه الطريقة مخلوطة بكثير من الحصى مما يترتب عليه استهلاك أســـنان الأهالى المتقدمين فى السن ، ويصيبها التلف حتى يصـــل الى اللثة . وكانوا يأكلون الحبوب المجروشة بعد تحميرها على النار ولكن الطريقة الأكثر اتباعا

كانت على تلك الحبوب فى الماء . وكانوا يصنعون أيضا أرغفة من الخبز بخلط الدقيق المطحون جيدا بالماء ثم وضع العجين على لوح من الحجر الساخن أو فوق سطح اناء مملوء بالفحم الساخن . ولم يعرف تخمير الخبز الا بعد ذلك بقرون كثيرة، أما تخمير الشعير وعمل الجعة فقدعرفه القدماءواستخدموه منذ عام ٤٠٠٠ ق . م . على أقل تقدير .

وكانوا يضعون الحيوانات المستأنسة فى سياجات داخل القرية أو بالقرب منها ، وهذه الحيوانات هى الماشية والضأن والماعز ، وفى بعض الحالات الخنازير أيضا ، واستخدموا الحمير فى النقل ولكن الجياد كانت قليلة أو لم تكن معروفة على الاطلاق . وفى جميع العصور التاريخية فى بلاد الشرق الأدنى كانت الخيول من الحيوانات التى تستخدم للرفاهية ويقتصر استعمالها على الحروب أو لغرض المباهاة . وربما يتذكر القارىء قصة أحد ملوك بنى اسرائيل الذى اتهمه الناس بالكبر والخيلاء لأنه امتطى جوادا بدلا من الحمار . كانت كل حيوانات القرية التى من نوع واحد ترعى مع بعضها البعض ويشرف عليها الأطفال ويحرسها قليل من الرجال المسلحين اذا لزم الامر . وكانت بقايا سيقان نباتات الحبوب من الأشياء الصالحة لأكل الحيوانات وفى الوقت ذاته فان روث هذه الحيوانات يساعد على تخصيب الأرض . وكانوا يحلبون الحيوانات فى الصباح وفى المساء ، كما صنعوا اللبن الرائب والزبد منذ أقدم العصور . وكان الزبد أكثر أهمية لاستخدامه فى التجميل أكثر من استخدامه فى الطعام ، ولكن اللبن الرايب المجفف ساعد على تخزين فائض اللبن لاستعماله فى الأوقات التى تقل فيها كميات الطعام . وكانت الحيوانات المستأنسة أثمن من أن تذبح اللهم الا فى الاحتفالات الرسمية ، ولهذا السبب لم يكن أكل اللحم أمرا كثير الحدوث . وكانت الوجبات العادية فى هذه المنطقة تتكون من الحبوب المطحونة واللبن مضافا اليهما بعض الخضراوات والنباتات البرية والحيوانات التى يصطادونها، والأسماك ، وبعبارة

أعم كل شيء يمكن أكله ويجدونه فى المنطقة التى يعيشون فيها .

وكانت النساء يقمن بأعمال الطهى وصنع الأوانى الطينية التى كن يغلين فيها الطعام . وقبل اختراع العجلة كانت هذه الأوانى تصنع باليدمن حلقات من الطين يضعنها واحدة فوق الأخرى ، ومن المرجح أن هذه الطريقة كانت تقليدا لطريقة عمل السلال القديمة بوساطة عمل « أطواف » مستديرة يوضع بعضها فوق البعض . وكانوا «ينعمون» جدرانها من الداخل ومن الخارج بوساطة الحصى ، ثم تجفف وتوضع على النار فى الهواء الطلق فوق أكوام من التبن أو من روث البهائم الجاف . وصنعوا الأوانى الفخارية فى أشكال متباينة كثيرة ، منها الطاسات والأباريق وأوانى الطهى . أما الأوانى التى كانوا لا يقصدون عند استخدامها أن توضع على النار فكانت تلون عادة بالأحمر والأبيض والأسود بألوان معدنية . أما استخدام التزجيج فلم يعرف الا بعد ذلك الوقت ببضعة قرون .

والى جانب القيام بعمل الأوانى الفخارية كانت النساء يقمن بغزل أقمشة خشنة الصنع على أنوال يدوية بسيطة . وكانت الخيوط من الكتان أو الصوف الذى « يفتلونه » فوق الفخذ ثم يبرمونه بقوة بوساطة مغزل اليد . وقد عرفت الصبغة منذ وقت بعيد ، وصنعت أقمشة مخططة بألوان مختلفة منذ البداية ، ولكنهم لم يعرفوا فى ذلك العهد زخارف أو رسوما معقدة . وكانت الملابس بسيطة ، وتتكون من نقبة يلبسها النساء ومئزر صغير يلف حول الجزء الاوسط من جسم الرجال . وكن يصنعن قطعا كبيرة من القماش تلف حول الكتفين يلقون بها بعيدا أثناء العمل وتستخدم للتدثر ليلا . وكان الرجال والنساء يلبسون عباءة مصنوعة من جلود الأغنام أو الماعز مع الاحتفاظ بشعرها ، يستخدمونها عندما يكون الجو باردا . وكانت الملابس كلها تصنع من قطع مستطيلة من القماش كما تخرج من النول . ومن الأمور الطريفة أن الملابس المفصلة التى تعتبر الآن احدى العلامات التى يتميز بها

الانسان المتحضر كانت تعتبر حتى فى السنوات المتأخرة من أيام اليونان والرومان علامة يتميز بها الهمج والبرابرة ، وذلك راجع الى أنها لم تنشأ فى حضارة جنوب غربى آسيا بل نشأت بين الشعوب التى تحيا على الصيد فى الغابات الشمالية الذين كان يتحتم عليهم أن يلبسوا ملابس تدفىء أجسامهم وفى الوقت ذاته تسمح لهم بحرية الحركة ، ولم تتقبلها الجماعات التى تنتمى الى حضارات جنوب غربى آسيا الا بعد ذلك بوقت بعيد . وحتى فى العصر البرونزى كان السكان الذين استقروا فى بلاد اسكنديناوة يرتدون قطعاً من القماش مربعة الشكل وغير مفصلة يلفونها حول أجسامهم .

ويأبى الغرور الانسانى الا أن يفصح عن نفسه بطرق شتى . فلوبنينا حكمنا على دراستنا للتماثيل الصغيرة التى يعثر عليها من آن لآخر لوجدنا أنهم قد بدأوا يصففون شعر الرأس فى أشكال منمقة ، وقل نشاط تلك الحشرات الصغيرة التى تعيش فى شعر رأس الانسان التى كانت سببا فى استعمال دهان الشعر المصنوع من الزبد ، والدبابيس الطويلة التى توضع فى الشعر والتى تستخدم أيضا فى الهرش . وعلى أجسام التماثيل الصغيرة التى قلنا عنها انها كانت تصفف شعر رأسها نرى علامات تثبت انتشار الوشم أو الرسم على الجسد أو الاثنين معا . ومن المحتمل أيضا أن سكان هذه المنطقة كانوا يزيلون شعر أجسادهم لأن أحفادهم كانوا يمارسون هذه العادة منذ أقدم العصور التى وصلتنا عنها أى معلومات مسجلة . وفى حضارات المدن فى العصرين البرونزى والحديدى فى هذه المنطقة كانت النساء اللواتى لايزلن شعر أجسادهن هن العاهرات المقدسات الملحقات بالمعابد دون غيرهن من النساء . ونبعت عادة حلق اللحية من هذه المنطقة أيضا وترجع فى تاريخها الى بداية العصر البرونزى على الأقل . وكان سكان هذه المنطقة يتزينون بحلى عديدة وخصوصا العقود المصنوعة من حبات الأصداف أو من الأحجار نصف الكريمة مثل اللازورد والعقيق ، والحجر اليمانى (أجات Agate)

والجمشت (الامتيست amethyst) وقد اتضح من فحص العينات التى عثر عليها فى الحفائر الأثرية أن هذه المواد كانت تنقل الى مسافات بعيدة للاتجـار بهـا .

وكانت المدى والمكاشط وسنان القذائف تصنع من نصال من حجر الظران، يعاد توضيبها بطريقة الضغط . أماالفئوس المصقولة فكانت تصنع من الأحجار الصلبة مثل حجر الديوريت ، وكانت تستخدم فى قطع الاشـجار واعـداد الأخشاب ، ولكن ندرة وجودها بين الأدوات التى يعثر عليها فى الحفائر الأثرية، وعدم وجود أشكال ثابتة محددة منها يدلان على أن المصنوعات الخشـبية لم تكن عنصرا هاما فى هذه الحضـارة .

وأهم تقدم وصلوا اليه فى صناعة نحت الحجر فى ذلك العصر هو اختراع المثقاب الدائرى ، اذ تحدث هذه المثاقب حفرا اسطوانية الشكل تاركة وراءها لبا متينا يمكن فصله بعد أن تنتهى أعمال الثقب. وبذلك أمكن ثقب الأدوات الحجرية الثقيلة مثل البلطة ودبوس القتال الذى تضرب به رؤوس الأعـداء كما ظهرت أيضا مقابض المدى التى مازالت تستعمل الى الآن . واستخدموا المثقاب الدائرى أيضا فى عمل الأوانى المصنوعة من الحجر ، فبعد أن ينتهوا من عمل الشكل الخارجى للاناء يجوفون الجزء الداخلى منه بعمل ثقـوب على مسافات متقاربة ثم يزال بعد ذلك اللب ويزال كل شىء آخـر ماعـدا جدران الاناء ثم يحكون الجدران الداخلية حتى تصبح ملساء .

ومنذ أقدم العصور كان الناس يتزينون ببعض الحلى القليلة من النحاس والذهب ، اذ كانوا يعثرون على هذه المعادن محليا ويشكلونها وهى باردة بطرقها أو حكها . ولكن هـذه المعادن كانت ذات قيمة مرتفعة حالت دون استخدامها كأدوات ، وعلى أى حال فانها لم تكن أصـلح فى أداء معظـم الأغراض التى تستخدم فيها الأدوات الحجرية .

وكانت النساء يقمن بعمل الحصر وصنع السلال . ومن المحتمل أنهن كن

يقمن أيضا باعداد كميات غير قليلة من جلود الحيوانات وكن يصنعن منها النعال وقرب الماء وغير ذلك من الأغراض للمحافظة على الأشياء الأخرى. أما أسلحة الحرب التى عرفوها فهى القوس والحربة والدرع، ولم يستخدموا الفأس الا كأداة من الأدوات .

ومع ذلك فنحن نرى فيما عرفناه من أقدم المنحوتات التى عثر عليها فى هذه المنطقة والتى يرجع تاريخها الى العصر البرونزى صور رؤساء عمال أو جنود يحملون أسلحة غريبة منحنية يحتمل جدا أن تكون اداة بومرانج (عصا الرماية) . وقد عثر فى بعض مراكز العصر الحجرى الحديث المتأخر والعصر البرونزى المبكر على دبابيس للقتال رءوسها على شكل ثمرة الكمثرى مثقوبة طوليا ومثبتة فى مقابض مستقيمة وقصيرة. وكانت هذه الصوالج أو الدبابيس تصنع عادة من أحجار مزخرفة السطح يحملها الزعماء ، ومن غير المرجح أنهم كانوا يرتدون فى ذلك العهد أى نوع من أنواع زرد الحرب الذى يلبسه المحاربون ليقيهم أثناء القتال .

وقد ظهرت أنواع من المركبات الفخمة الصنع ذات العجلات الأربع منذ وقت بعيد ولكنا لا نستطيع أن نحدد لها تاريخا على وجه الدقة ، وكانت العجلات الأولى مكونة فيما يبدو من قطعة واحدة هى ومحورها.

وعلينا ، اذا حاولنا أن نصور لأنفسنا الأحوال الاجتماعية ، أن نعتمد على نماذج عامة للحضارات التى نشأت فى المنطقة مع مقارنتها بما يعثر عليه من الآثار كلما تيسر ذلك . وتدل الفوارق التى توجد فيما يعثر عليه فى المقابر على اختلافات أخرى فى الثروة والمركز الاجتماعى ، اذ كان موقفهم من الثروة التى تكون ناحية من التقاليد المشتركة لسكان جنوب غربى آسيا ، تختلف تماما عن مثيلاتها فى الحضارات الميلانيزية أو فى الحضارات الأكثر بدائية فى جنوب شرقى آسيا ، اذ كانت للثروة أهمية كبيرة فى المناطق الأخيرة وكانت تلعب دورا كبيرا بينها لأن الموارد المالية كانت أساسا للمركز الاجتماعى،

بل ان شجاعة واقدام صائدى الرءوس ومهارة السحرة ، كانت تقدر بينهم لأنها كانت وسائل لجمع الثروة قبل أى اعتبار آخر . أما فى حضارات جنوب غربى آسيا فقد كان السكان يدركون تمام الادراك قدر القوة الحقيقية الناجمة عن جمع الثروة ، لان المركز الكبير كان ، ولو من الناحية النظرية على الأقل ، من نصيب الحائزين على صفات الشجاعة والقوة والتبحر فى الالمام بالطقوس الدينية . وحتى فى مجتمعنا الحالى يمكننا أن نمدح حاكما من الحكام فنصفه بالشجاعة أو بالعدل أو بالحكمة ولكن من النادر أن نصفه بالثراء .

كانت القطعان هى الثروة الرئيسية اذ أن تربيتها هى الشىء الوحيد الذى يمكن استغلالها فيه فى الظروف السائدة فى تلك المنطقة ، ولكن العثور من آن لآخر على ثروات مكدسة يدل على أنه كان هناك أيضا ميل الى جمع البضائع التى تصبح رأس مال لهم . كانت هناك دون شك تجارة بين القرى المتجاورة ، بل وكانت الاشياء النفيسة تحمل الى مسافات بعيدة . ونحن متأكدون من أن مثل هذه التجارة كانت بقصد الربح ، ولم يصاحب التبادل التجارى أى روابط اجتماعية أو مايلازمها من أعمال السحر فى بلاد أخرى مثل ميلانيزيا أو أوستراليا .

ونستطيع أن نقول ونحن آمنون انه لم يكن هناك الا تنافس قليل على اقتناء الثروة أو فى بعثرتها ، كما نرى فى نظام التنافس الكبير فى تبادل الهدايا بقصد اظهار الثراء فى بعض مناطق الساحل الشمالى الغربى لأمريكا .

ويدل تخطيط القرى ، ووجود المنازل التى كانت تسكنها العائلات الكبيرة ، ثم ظهور المقابر بعد ذلك بفترة قصيرة وفيها مدافن متعددة بنيت على الأرجح فى أوقات مختلفة على وجود نوع من المجموعات العائلية المتفرعة وأن أكثر من مجموعة واحدة من هذه المجموعات كانت تعيش معا فى قرية واحدة.

ومن الصعب علينا أن نجزم ما اذا كانت المجتمعات القديمة تقوم على أساس سبطرة الأمهات أو سيطرة الآباء ، فان الانتساب الى واحد من الاثنين يختلف تماما باختلاف الاماكن فى هذه المنطقة . فمثلا نرى أن الذين كانوا يعيشون على حدود منطقة البحر الابيض المتوسط فى العصر البرونزى المتوسط كانوا يسيرون على نظام سيطرة الأمهات بينما نرى أن سكان الحدود الشمالية كانوا يتبعون فى الوقت عينه نظام سيطرة الآباء . ويبدو من المحتمل ان الانتساب فى أى مجموعة من المجموعات يمكن أن يكون من نصيب جنس الذكور أو جنس الاناث حسب نشاط هؤلاء أو هؤلاء وأهميتهم فى الناحية الاقتصادية ، وهذا بدوره يرتبط بما يتفاهمون عليه من طريقة انتقال الثروة من جيل الى جيل عن طريق الجنس الذى يملك المهارة اللازمة لاستغلالها . ونحن نعلم أن السكان القدامى لمنطقة البحر الابيض المتوسط كانوا يعتمدون على الزراعة اعتمادا كليا ، ولكن نظرا لأنه لايوجد دليل على استخدام المحراث فى هذه المنطقة الا فى أواخر العصر البرونزى ، فمن المحتمل جدا أن الزراعة كانت من أعمال النساء يقمن بها بوساطة الفئوس وعصى الحفر . ومن ناحية أخرى كانت القبائل الشمالية التى تسير على نظام سيطرة الآباء تعيش فى المناطق التى أخذت أهمية الزراعة فيها تتناقص ، وحيث كانت تسود فيها تربية الحيوانات المستأنسة وهى من أعمال الرجال .

ومهما كان نوع خط النسب فمن المؤكد أن قوانين الزواج المعقدة التى كانت من مميزات الأوستراليين والميلانيزيين لم تكن معروفة بين سكان هذه المنطقة ، ومن المؤكد أيضا أن روابط القربى كانت أقل سلطانا فى سيطرتها على العلاقات الشخصية اذا قورنت بما كانت عليه فى جنوب شرقى آسيا . كانت هناك بكل تأكيد أسر تنتمى الى أصل واحد ؛ ونحن على ثقة تامة من أن أكثرهم كانوا يكتفون بزوجة واحدة بالرغم من أن تعدد الزوجات كان مسموحا به للموسرين الذين يستطيعون أن يتحملوا الانفاق على أكثر من

زوجة واحدة .

كان الزواج ممنوعا على الأرجح بين الأفراد المنتسبين الى خط نسب واحد فى أى مجموعة ، ولكن الزواج بين عائلات القرية الواحدة كان امرا عاديا ومسموحا به ، على عكس ماكان يحدث فى جنوب شرقى آسيا، ويمكننا أن نكون على ثقة من أنهم كانوا ينظرون الى الزواج باعتباره عقدا قانونيا أكثر من نظرتهم اليه كرباط مقدس ، يقويه ويسنده نوع من تبادل الملكية بين العائلات المتصاهرة سواء أكان ذلك بمثابة ثمن للزوجة أو مهر لها أو الاثنين معا .

واذا بنينا حكمنا على مانراه الآن ساريا بين احفادهم ، فاننا نستطيع أن نقول ان التقاليد المشتركة لسكان جنوب غربى آسيا اختلفت اختلافا بينا عن التقاليد التى كانت سائدة فى جنوب شرقى آسيا من ناحية نظرتهم الى الموضوعات الجنسية . ففى جنوب غربى آسيا لم يشجعوا التجربة الجنسية قبل الزواج ، وكان الكثير من المجتمعات التى تؤمن بتلك التقاليد المشتركة يعلق أهمية عظيمة على بكارة البنات عند الزواج ، وكانت لهم نظرة مزدوجة فى السلوك الجنسى ، اطلاق الحرية للرجل وتقييد حرية المرأة . وكان ذلك يتصل باتجاه آخر وهو حدوث فترات من الاختلاط كجزء من طقس دينى يرتبط فى العادة بعبادة آلهة الخصب . ويمكن أن ننسب ما نسير عليه الآن من النظرة المزدوجة الى سلوك كل من الرجل والمرأة فى ناحية الحريةالجنسية الى أنه مما ورثناه من جنوب غربى آسيا . كما ورثنا طبق الشوفان الذى تتناوله عند الافطار .

ومن غير المحتمل انه كانت توجد وحدات سياسية أكبر من القرية ، ومع ذلك فمن المحتمل أيضا أن تكون القرى ذات اللغة والحضارة المشتركة قد أدركت أنه تربط بينها روابط معينة وبذلك استطاعت أن تتحد ضد الغرباء عنها .

وكان على رئيس القرية أن يقود الجيوش فى الحرب وأن يدير مهام منطقته، وعلاوة على ذلك فقد كان يمارس سلطته أيضا فى فض المنازعات والعمل على استقرار السلام فى منطقته .

وكانت الزعامة وراثية فى عائلات معينة ، ولكن المنصب كان يؤول لأكثر المرشحين كفاية . ونظرا لأن القرى كانت تسكنها مجموعات صغيرة تعيش فى مكان واحد فان السلطة الحقيقية كان يمارسها زعماء العائلات والرجال المهمون فى القرية . ونستطيع أن نلاحظ الآن وجود هذا النوع من السلطة فى كثير من المناطق الريفية وبالرغم من أنها سلطة غير رسمية فانها ذات أثر كبير . كان الرجال يحبون الاجتماع فى أى مكان يرتاحون اليه فى القرية وغالبا ماكان الجرن الذى يدرسون فيه الحبوب ، وهناك يناقشون أمورهم الهامة عندما تقل حرارة الجو فى المساء . كان لكل عضو فى القرية الحق فى أن يقول ما يؤمن به فى أى أمر من الأمور ، لكنهم قلما كانوا يلقون بالا الى صغار السن أو من كان مركزهم الاجتماعى ضئيلا ، بينما كانوا يستمعون باحترام الى الرجال ذوى المكانة . وكانوا يوافقون بالاجماع على القرارات التى يصل اليها المجتمعون ، لأن الخبرة الطويلة مكنت أعضاء الجماعات من معرفة اتجاه العواطف ، ولم يكن هناك من يحب أن يجد نفسه الشخص الوحيد الذى يدافع عن رأى لا يشاطره فيه أحد . وكما هى الحال فى جميع الجماعات الصغيرة كان لكل قرية فى العصر النيوليتى مجموعة من العادات التى سيطرت على جميع أنواع السلوك ، وكان من الممكن أن تتبلور مجموعة العادات التى تحدد علاقات الأشخاص بعضهم ببعض فتصبح قانونا ، الا أن ذلك لم يحدث فى ذلك الوقت . وكان الاعتقاد بأن القانون امر قد أمرت به سلطة عليا ويجب ألا يتأثر بمنازعات القرية من مميزات التقاليد المشتركة بين سكان جنوب غربى آسيا تماما كما كان الالتجاء المستمر لقوة الـ «أدات» (Adat) من مميزات سكان جنوب شرقى آسيا .

وكان موقف سكان جنوب غربى آسيا من موضوع أرواح الموتى يشبه الى حد كبير ما نشعر به من عدم الارتياح ازاء الأشباح . كانوا يضعون مع الميت بعض ماكان يملكه حتى يستطيع أن يحصل على احتياجاته فى العالم الآخر ، ولكن كان لذلك غرض آخر أيضا وهو اعطاء الميت كل الأشياء التى كان متعلقا بها أثناء حياته ليقللوا من رغبته فى العودة الى بيته ، ولم يذبحوا للموتى فيما يبدو أية حيوانات كقرابين بعد الانتهاء من الجنازة . ولم يكن هناك أى تفكير فى استمرار وجود الموتى معهم أو مشاركة الأحياء فى حياتهم اليومية ، وكان الغموض يحيط بالأفكار المتعلقة بالعالم الآخر ولكنهم كانوا يتصورونه فيما يبدو كمكان للأشباح التى تعيش فيه حياة خمول وضيق مطلق بعكس ماكان يؤمن به سكان جنوب شرقى آسيا الذين كانوا يؤمنون بأن الموتى كانوا مضطرين للسهر على حراسة أبنائهم ويشتركون فى كل شىء يحدث فى حياة الأحياء .

وكان لكل قرية أو مجموعة متجاورة من القرى اله . وكانت هذه الآلهة اما من الذكور أو من الاناث ، وفى كلتا الحالتين كان لهؤلاء الآلهة أزواج الهيون فى المرتبة الثانية . وبينما كان لكل اله ماينا ظره من الظواهر الطبيعية كالشمس أو القمر أو السماء أو عالم ما تحت الأرض وهكذا ... أو يرتبط بنشاط معين كالحروب ، أو الزراعة، فان سلطته كانت سارية حيثما كان الأمر يتعلق برفاهية رعيته . كانوا ينظرون الى الاله كأنما هو مالك للارض وتقدم اليه العطايا كايجار يؤدونه ؛ ولكنه كان مسئولا بدوره عن رفاهية مستأجريه. كانت سلطته لاتتعدى حدود منطقة معينة وكما كانت الحال فى الشرق الأدنى فيما بعد ، ربما كانوا يحسون بأن الاله لم يكن يأبه للصلوات التى تؤدى خارج تلك المنطقة وقد استمر ذلك حتى العهود التوراتية . ولعل القراء يذكرون قصة نحمان الأبرص، الذى بعد أن أبرأه النبى اليشع من البرص بقوة « يهوه » ، توسل الى النبى أن يسمح له بأن يأخذ جزءا من تراب

فلسطين معه الى دمشق ليغطى به أرضية حجرة فى منزله لكى يتمكن من الصلاة وتقديم الشكر للمالك الالهى لفلسطين .

وكان لكل قرية هيكلها المحلى الذى كان فى العادة مكانا مرتفعا خارج القرية ، كما يحتمل أيضا أنه كانت هناك هياكل قبلية ، يأتى اليها الكثيرون من أهل القرى العديدة . وكانوا يعبدون أولئك الآلهة عن طريق وساطةرجال الدين الذين يعرفون كيف يقومون بعمل الطقوس على الوجه الصحيح ، ويأخذون جزءا من الأضاحى والقرابين كأجر على ذلك . واستنادا الى أقدم السجلات المدونة التى عثر عليها فى هذه المنطقة فان كثيرا من الطقوس الدينية كانت فى حقيقة الأمر أشياء سحرية عملت لتجبر الآلهة على المساعدة وفى نفس الوقت تطلب منهم المعونة . ونظرا لأنهم كانوا يعتقدون أن الاله يشبه الانسان تماما فى احتياجاته الجسمانية للطعام والمأوى فقد كانتالعلاقة بينه وبين من يعبدونه علاقة منفعة متبادلة فاذا لم يلب مطالبهم فانهم لا يلبون مطالبه .

ومن المستحيل علينا أن نعرف كيف كان مدى تنظيم كل هذه الآلهة فى نظام دينى عام خلال العصر النيوليتى ، ومع ذلك نستطيع أن نؤكد أنهبالرغم من اختلاف الأسماء فانه كان ينسب لعدد من الآلهة المحليين نفس الصفات ، لدرجة تجعل من السهل علينا أن نوازن أو نسوى بين واحد منها والآخر . فاذا ماقامت امبراطورية من الامبراطوريات فى تلك المنطقة ، يمزجونهم فى شخص اله واحد . وكان الانباء بالغيب من الأمور التى كانت على جانب كبير من الأهمية ، وفى العصور التالية كان للكثير من الآلهة المحليين مراكز وحى مشهورة يستطيع كل من يقصدها أن يستفيد منها مقابل أجر مناسب .

وكان يتقدم على سائر الآلهة الهان ، ذكر وأنثى . كانوا يقولون عن الاله الذكر عادة بأنه السماء أو الشمس ، أما الأنثى فقد وحدوا بينها وبين الأرض التى تدر الخير ، وكان هؤلاء الآلهة أيضا يعبدون أحيانا على هيئة بعض

الظواهر المحلية ، ولكنهم كانوا على أى حـال الأساس الذى قام عليه كثير من المعتقدات والأديان المحلية . كانت بعض القبائل تؤمن بسلطان اله معين من هذه الآلهة وبعض القبائل الأخرى تقدم الها آخر . أما الفارق بين هذا وذاك فكان يكمن فى النظم الاجتماعية اذ كانت هذه النظم تسير على نظام سيطرة الآباء أو نظام سيطرة الأمهات . وكانت عبادة « **الالهة ــ الأم** » بصفة خاصة تضم عناصر كثيرة من سحر الاخصاب ، وتقديم العذر لوجود فترات من الاباحية كان يجد فيها العابدون تفريجا عما كانوا يعانونه من كبت جنسى. وترجع عبادة الالهة ــ الأم الى العصر الحجرى القديم على الأقل كما يظهر من تلك التماثيل الصغيرة الغريبة الشـكل التى نطلق عليها اسم تماثيل فينوس التى بالغوا كثيرا فى اظهار مميزاتها الجنسية ، وقد عثر على هذه التماثيل فى بلاد مختلفة من أوروبا . وقد استمرت هذه التماثيل حتى العصور اليونانية الرومانية ، ولكن مع حذف الكثير من الطقوس الخـارجة فى عبادتهـا ، بل ويمكننا أن نجد أثرا لها حتى الآن فى طقوس عبادة العذراء بين بعض الطوائف المسيحية .

وظل نوع أو نموذج الآلهة المحليين الذين يتساوون مع واحد أو آخر من أعضاء مجموعة الآلهة العامين فترة طويلة العهد ، ووصل الى أوروبا كجزء من حضارة جنوب غربى آسيا وأصبح الأصل الذى تفرعت منه عقيدة الحراس أو الحماة المحليين . ولهذا السبب نجد فى بلاد اليونان سـت مدن بجانب أثينا كانت لها الهتها أثينا (Athenas) الخاصة . وعرف علماء اللاهوت فى أوروبا فى العصور الوسطى أن « عذراء » بلد من البلاد أو القديس تومـا لمكان من الأمكنة ليس الا مظهرا أو انبثاقا من العـذراء أو القـديس توما الأصليين ، ولكن فى نفس الوقت كان رجال المدن ينظرون الى كل منها على أنها مخلوق خاص يهتم برفاهيتهم أكثر من اهتمامه بالغربيين عنهم . وعندما أصبحت المسيحية الدين الرسمى للعالم الغربى ، كثيرا ما انتقلت بعض صفات

هذه العناصر المحلية للالهة الوثنية الى الدين الجديد مع من اعتنقه من عبادها. وكثيرا مايجد الانسان فى منطقة البحر الابيض المتوسط على الاخص أن الهيكل المحلى الخاص بأحد المعبودات الاوليمبية قد تحول مكانه الى هيكل لأحـد القديسين المسيحيين الذين بقيت لهم المميزات الخاصة باسلافهم الوثنيين .

الفصل السابع عشر

انتشار حضارة جنوب غربي آسيا

قامت الحياة فى القرية على زراعة الحبوب واستغلال منتجات الألبان فكان ذلك نقطة البدء فى تطور تقليد مشترك جديد. وقدظهر وصفنا لحضارة جنوب غربى آسيا دون شك أمرا مألوفا لدى معظم القراء لأن حضارتنا الريفية مستمدة ، أو على الأقل كانت مستمدة ، الى ماقبل تصنيع الزراعة من تلك الحضارة ، ومتفرعة منها مباشرة . وما زالت الحياة الريفية فى معظم مناطق العالم القديم ، اللهم الا فى المنطقة الحارة الرطبة ، تسير على الأساليب التى نشأت فى جنوب غربى آسيا فيما بين عامى ٧٠٠٠ و ٤٥٠٠ قبل الميلاد . والى أن ظهر « عصر العلم » الذى بدأ منذ وقت قريب جدا ، لم نعرف خروجا هاما على هذه القاعدة ، وهى استمرار الحياة الريفية على أساليبها القديمة ، الا فى المناطق التى تطورت فيها حياة المدن أو توطدت فيها أركانها.

كان ظهور المدينة حدثا اجتماعيا ذا نتائج بعيدة المدى جعلت ساكن المدينة مختلفا ليس فقط عن أجداده بل وعن معاصريه من ساكنى الريف .

ونظرا لهذا الاستمرار فى الحضارة فان تقسيم عصور ماقبل التاريخ فى المناطق الأوروبية الأسيوية الى العصر النيوليتى والعصر البرونزى والعصر الحديدى ليس بالأمر الكبير الأهمية اللهم الا بالنسبة للباحث فى الآثار . كانت زراعة الحبوب وصناعة منتجات الالبان اللتان قامت عليهما حياة القرية فى بادىء الأمر تسيران على أساليب بسيطة الى أبعد الحدود ، ولكن اختراع

المحراث والعجلة والنول ساعد على زيادة القوى الصناعية دون أن تستلزم احداث تغييرات أساسية فى الأسلوب القديم للحياة . ويمكن أن يقال نفس الشيء بالنسبة لصناعة المعادن فى العصور القديمة . وكانت فرص النصر فى الحرب متاحة أمام الجماعات التى تملك البرونز أكثر مما كانت متاحة أمام الجماعات التى لا تملك غير الحجر . ولكن البرونز كان نادر الوجود فى البداية فلم يكن الا ذا فائدة حقيقية ضئيلة لمن استخدموه ، ولم يكن فى الاستطاعة تجهيز أى قوة عسكرية كبيرة خلال معظم أيام العصر البرونزى بأسلحة ومعدات برونزية تجهيزا كاملا . وان الانسان ليتساءل عما اذا كان مظهر البطولة الذى كان يقوم به الزعماء عندما كانوا يتحاربون معا بين صفوف أتباعهم بينما ينتظر هؤلاء الاتباع ليفروا من الميدان أو ليطاردوا أعداءهم نتيجة لهزيمة واحد من الزعيمين أو انتصاره ، لم يبدأ فى العصر الذى كان فيه هؤلاء الزعماء وحدهم القادرين على التسلح بأسلحة معدنية كافية . ولم يستخدم معدن البرونز فى صنع الأدوات الا بعد استخدامه فى صنع الأسلحة، ولم يحدث من جراء ذلك أى شيء أكثر من أنه جعل فى مقدور الصانع أن يعمل عملا أحسن وأن يزيد انتاجه فى أى وقت محدد .

وكان لاستخدام الحديد نتائج ثورية أكثر من استخدام البرونز لأنه أدى الى ماسماه جوردون تشيلد (V. Gordon Childe) تعميم استعمال المعدن وجعله فى متناول أفراد الشعب . وكانت خامات الحديد كثيرة ومنتشرة على نطاق واسع مما جعل هذا المعدن الجديد رخيصا ومتوافرا . وهكذا كان من السهل الحصول على الحديد لصنع الأدوات بل والمعدات الزراعية بالاضافة الى الأسلحة ، وقد ساعد ذلك بكل تأكيد على رفع المستوى العام للمعيشة. ومع ذلك لم يكن تأثيره على الأساليب القديمة المتأصلة للحياة فى القرية الا تأثيرا ضئيلا . لقد اكتسح الفاتحون المجهزون بأسلحة حديدية معظم المناطق الأوروبية الاسيوية (أوراسيا) المعتدلة أمامهم ، ولكن ساكن القرية استمر

يحرث الأرض بالمحراث الذى تجره الثيران ، ويبذر ويحصد الحب ويرتدى الملابس التى تغزلها له زوجته ويخضع لعادات موغلة فى القدم ، ويسترضى ذلك الحارس الذى يحرس حقوله بما لديه من قوة فوق قوى الطبيعة .

كان الانتقال من العصر النيوليتى الى العصر البرونزى ، ومنه الى العصر الحديدى ، فى أماكن وأوقات معينة مصحوبا بهجرات هامة للشعوب وتغيرات فجائية فى الحضارات . وعند الحديث عن مثل هذه الحالات نرى أنفسنا مضطرين لاستخدام التعبيرات المألوفة ، ولكن يجب أن نضع نصب أعيننا أن ذلك الاستمرار الحضارى فى المناطق الأوروبية الأسيوية يختلف فى طول مدته باختلاف هذه المناطق كما أن الانتقال من عصر الى عصر كان يحدث فى أوقات مختلفة جدا فى المناطق المختلفة . فمثلا ، أصبح استخدام المعدن أمرا شائعا فى بلاد الشرق الأدنى حوالى ٤٥٠٠ قبل الميلاد ، ولكنه لم يصل الى الجزر البريطانية حتى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد على أقصى تقدير . وبدأ العصر الحديدى فى بلاد الأناضول بين أعوام ١٨٠٠ ، ١٦٠٠ قبل الميلاد ، ولكن استخدامه لم ينتشر فى غرب أوروبا الا بعد مضى مايقرب من ألف سنة بعد ذلك التاريخ . وهناك أيضا مثل آخر فان أحدث مراحل الحضارة فى المناطق الأوروبية — الاسيوية وهى التى تمتاز بالنشاط واستخدام الوسائل العلمية قد ظهرت فى غرب أوروبا فى حوالى منتصف القرن الثامن عشر ، ولكنها لم تصل حتى اليوم الى بعض المناطق المنعزلة فى العالم .

كانت المدينة حدثا واكتشافا اجتماعيا له نتائج بعيدة المدى أكثر من أى اكتشاف تكنولوجى آخر (أنظر الفصل العاشر) ، ولهذا السبب يعتبر ظهورها نقطة النهاية للفترة التى نتحدث عنها الآن . ويصعب علينا أحيانا أن نعين النقطة المحددة التى تتركز فيها الحضارة فى المدينة وتصبح لها مميزات مدنية خاصة ، ولكننا لا نخطىء أبدا اذا نظرنا الى المدينة على أنها مؤسسة جديدة . لقد ظهرت أولا فى منطقة جنوب غربى آسيا وتطورت تماما فى بلاد

ما بين النهرين بين عامى ٤٥٠٠ و ٤٠٠٠ قبل الميلاد ، وظهرت أيضا فى مصر حوالى هذا التاريخ ولكنها اتخذت شكلا مختلفا بعض الشيء ، وذلك لأن الأسلوب الخاص للاستقرار الذى فرضه وادى النيل جعل المدن المصرية الأولى لاتزيد الا قليلا عن كونها مراكز دينية وادارية فىمنطقة نامية مزدحمة بالسكان. أما مدن وادى السند فكانت من النوع المألوف وتشبه مدن بلاد ما بين النهرين ، وبالرغم من أن التاريخ المحدد لهذه المنطقة لا يزال غير مؤكد ، فانه من المحتمل جدا أن ترجع نشأة المدينة هناك الى عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد على الأقل . أما المدن فى الصين فانها لم تظهر حتى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد على أقصى تقدير . فاذا رجعنا ثانية الى أوروبا فاننا لا نجد فيها الا عددا قليلا مما يمكن أن نطلق عليه بحق اسم مدن حتى فى اليونان نفسها قبل عام ٩٠٠ أو عام٨٠٠ قبل الميلاد ، بينما لم تقم مثل هذه المدن فى شبه جزيرة اسكنديناوة حتى عام ١٠٠٠ ميلادية .

وجاء مع الحياة القروية النيوليتية أمران آخران وهما الهجرة والانتشار فقد ترتب على زيادة موارد الطعام الناتجة عن الزراعة وصناعة منتجاتالألبان زيادة كبيرة وسريعة فى عدد السكان ، اذ من المعروف أن المجموعةالانسانيه تستطيع أن تضاعف من عددها كل خمسة وعشرين عاما تحت الظروفالملائمة، هذا مع العلم بأن الطرق البدائية التى كانت تتبع فى زراعة الحبوب دون تسميد أو دورات زراعية تؤدى الى سرعة اجهاد الأرض المزروعة ، كانت بدورها دافعا قويا للهجرة . وفى حقيقة الأمر كان المهاجرون فيما يبدو يتدفقون من منطقة جنوب غربى آسيا فى جميع الاتجاهات .

كانت كل المناطق الصالحة للسكنى على أساس الزراعة تمد ساكنيهابمؤونة من مواد الطعام البرى اذ أن المناطق قد سكنتها قبل ذلك قبائل تعتمد فى معيشتها على الصيد وجمع الطعام . وعلى أى حال فلم يكن عدد هذهالقبائل من الكثرة التى تمكنها من أن تقاوم مقاومة جدية ، ويبدو أن التحول المطرد

لمنطقتهم الذى انتهى بتحويلها الى أرض تزرع بالحبوب أو أرض للمراعى قد قلل من مؤونة طعامهم كما أدى الى نقص عددهم أيضا . ومن المحتمل جدا أن الموقف اذ ذاك كان مشابها للموقف الذى نشأ بين الهنود الأمريكيين والمستعمرين البيض فى شمال أمريكا .

ويبدو من غير المحتمل أن كثيرا من المجموعات الأصلية من السكان قد تحول مباشرة من الصيد وجمع الغذاء الى الحياة المستقرة التى تعتمد على الزراعة ، فان تغييرا من هذا النوع لايستدعى فقط اعادة تنظيم الحياة الاقتصادية ولكنه يستدعى أيضا تغيرات أعمق أثرا فى الاتجاهات والقيم . وربما كان الأرجح أن سكان القرى الأولين الذين كانوا يفدون الى المنطقة قد تاجروا مع جامعى الغذاء المحليين وأنهم اتخذوا لهم زوجات من السكان المحليين . ولما كانت مؤونة الطعام المتيسرة تمكنهم من زيادة عددهم فى وقت قليل ، فمن المحتمل أن يكون نسلهم المختلط قد حل تدريجيا وباطراد محل من سبقهم من السكان . وعندما كان ضغط السكان يحدث حركة هجرة أخرى جديدة فان كثيرا من أولئك المهاجرين يكونون من ذوى الدم المختلط، وهؤلاء بدورهم يتزاوجون مع السكان الأصليين فى المنطقة الجديدة . وبهذه الطريقة كان السكان الحقيقيون لمنطقة جنوب غربى آسيا يذوبون ويقل الدم الأصلى بينهم كلما حدثت هجرة بعد أخرى ، الى أن نجد أخيرا بعض أساليب حضارة جنوب غربى آسيا وقد حملتها الى المنطقة الجديدة مجموعات لاتمت الى الحضارة الأصلية بصلة . ونعرف مثلا أن مؤسسى أسرة شانج فى شمال الصين كانوا مهاجرين وفدوا من ناحية الغرب حوالى عام ١٧٠٠ ق.م. حاملين معهم أشياء خاصة بسكان جنوب غربى آسيا تدل عليهم ، كالقمح والماشية والعجلة والمحراث . ولكن فى نفس الوقت كان لهؤلاء المهاجرين الطابع الجسمانى الكامل للجنس المغولى .

كانت الهجرة ذات أهمية قصوى فى وضع أسس الأساليب الحضارية الأولى

لمنطقة جنوب غربى آسيا خارج منطقة موطنهم الأصلى .

وكانت الجماعة الأولى ذات الاستعداد لتقبل الشئ الجديد والتى تضمنه حضارتها ، تعدله تعديلا كافيا أثناء تلك العملية فيصبح أيسر وأسهل لتقبل الجماعات الأخرى له . ولهذا ، فليس ضروريا لنا أن نقول ان الهجرة كانت السبب فى نشر وتوزيع بعض المخترعات كالعجلة والمحراث أو حتى بعض النواحى الخاصة بالتنظيم الاجتماعى أو الدينى . كانت هناك هجرات عديدة بعد الاستقرار الأول فى المنطقة التى كانت تعتمد على الزراعة وصناعة الألبان معا ، ولكن هذه الهجرات لم تكن ذات أهمية خاصة للحضارة الا عندما كانت تتصل بجماعات تنتشر وتتشعب حضاراتها فيما بعد .

وكان أهم تشعب بين الحضارات التى نمت وتطورت خارج منطقة جنوب غربى آسيا ما حدث بين الجماعات التى كانت تعتمد فى اقتصادها الأصلى على الزراعة ، وكذلك بين الجماعات التى كان يقوم اقتصادها على الحيوان المستأنس .

أما فى المناطق التى قضت ظروفها المحلية بأن تكون الزراعة فيها غير مستقرة ، فقد اضطر سكانها للاعتماد شيئا فشيئا على تربية قطعان الأغنام والماشية . وظهرت حضارات صانعى الألبان التى قامت على أساليب حضارة سكان جنوب غربى آسيا فى مناطق الاستبس الأوروبية ـ الآسيوية وفى المناطق القاحلة الى حد ما فى جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا ، فتطورت حضارة كل من هذه المناطق تطورا خاصا بها وأصبح لها مميزات خاصة. وبينما يبدو من الصعب على الصيادين الأوائل وجامعى الغذاء من السكان الأصليين أن يتحولوا الى حياة الزراعة الرتيبة المملة ، فقد كان فى مقدورهم أن يحولوا أنفسهم فى سهولة الى حياة استئناس الحيوان . وأمامنا شاهد على ذلك وهو ما حدث عندما دخل الجواد فى حضارات الهنود الأمريكيين فى شمال القارة الأمريكية وجنوبها . وما حدث فى شمال المنطقة الأوروبية الآسيوية اذ

تحولت ، فيما يبدو ، جماعات مختلفة من سكانها الأصليين الذين كانوا يعتمدون على الصيد الى الاقتصاد القائم على استئناس الحيوان . أما الجماعات التى كانت تعيش فى المناطق الشمالية البعيدة فقد ذهبت الى أكثر من هذا فاستأنست حيوانا جديدا وهو الرنة . وتدل الطرق التى اتبعوها فىاستخدام حيوان الرنة بأن مرجع ذلك كان عن طريق الانتشار ولم يكن اختراعامستقلا، فقد كانت تلك الطرق هى الطرق نفسها المتبعة فى استئناس الماشية فى غربى منطقة أوراسيا وما كان متبعا فى استئناس الجواد فى شرقى أوراسيا . أما فى أفريقيا فقد انتقل الاقتصاد الذى كان يعتمد على الحيوان المستأنس ويقوم على تربية الماشية الى جماعات مختلفة من الزنوج ورجال البوشمن وأصبح أساسا مميزا الى حد كبير لحضارات محلية هناك .

وما زال فى امكاننا أن نتتبع التشعبات الأخرى بين ورثة حضارة القرى فى منطقة جنوب غربى آسيا وارجاعها الى تلك الصلات التى كانت بينهم وبين الجماعات المختلفة من السكان الأصليين . فقد كانت هذه العلاقات ذاتأهمية بالغة فى المناطق التى كانت تختلف فيها البيئة اختلافا بينا عن تلك التى نمت وتطورت فيها حياة القرية ، أو حيث كان السكان الأصليون ذوى عدد كبير ومتقدمين فى حضارتهم . فمثلا وجد سكان القرى الذين انتقلوا الى المناطق الرطبة فى شمال أوروبا حيث كانت الغابات متكاثفة ، وجدوا فى تلك البلاد سكانا عديدين مدربين على الصيد ، فاستعاروا منهم الشىء الكثير . أما الذين هاجروا الى منطقة البحر الأبيض المتوسط فقد وجدوا بيئة تشبه كثيرا بيئتهم التى خلفوها فى موطنهم الآسيوى ووجدوا كذلك سكانا أصليينقليلى العدد فلم يتعلموا منهم الا القليل فاستوعبوهم دون أن يترك أولئك السكان الأصليون أى أثر على حضارتهم .

وان محاولة تصوير تحركات السكان وتقدمهم الحضارى التى حدثت بين ظهور حضارة العصر النيوليتى فى بلاد الشرق الأدنى وبينظهور العصر التاريخى

أمر محفوف بصعوبات جمة . فهناك ثغرات كاملة فيما لدينا من معلومات عن مناطق هامة لم تحظ الا بقدر ضئيل من أبحاث الأثريين فيها . ولهذا فان أقدم حضارات القرى فى المنطقة الممتدة من البحر الأبيض المتوسط الى حدود الهند ومن الشواطىء الجنوبية للبحر الأسود وبحر قزوين الى الخليج الفارسى والمحيط الهندى مازال أكثرها غير معروف بالرغم من أن هذه المنطقة هى قلب المنطقة التى حدث فيها التطور الحضارى فى العصر النيوليتى .

وعاق تقدم البحث فى تلك المواقع القديمة ماخلفته الحضارات الأحدث منها سواء من آثار ذات قيمة فنية عظيمة أو من نقوش كانت عزيزة على قلب جيل علماء الآثار السابقين ، ولم تحظ البقايا الأقدم منها بالعناية التى تستحقها الا فى غضون السنوات القليلة الماضية . لقد لعب أقليم الأناضول بفضل موقعه دورا عظيم الأهمية كنقطة للبدء فى الهجرة الى أوروبا ومع ذلك فان حضارات الأناضول فى العصر النيوليتى والأزمنة المبكرة من عصر استخدام المعادن تكاد تكون مجهولة نسبيا . أما البلقان فى أوروبا ، وهى المنطقة التى وصل اليها مهاجرو جنوب غربى آسيا أولا نظرا لموقعها ، فهى معروفة أكثر من اقليم الأناضول ولكنها مازالت فى حاجة الى دراسة أكثر . وبالرغم من البحوث العظيمة الأهمية التى جرت فى أناو (Anau) الواقعة فى الطرف الشرقى لموطن النيوليتيين فاننا لا نعلم غير القليل عن الظروف الحضارية المبكرة فى هذا الجزء من المنطقة ، على حين مازالت معلوماتنا عن حضارات الجزيرة العربية فى العصر النيوليتى والقرن الأفريقى المواجه لها تعتمد اعتمادا يكاد يكون تاما على ما يعثر عليه بطريق المصادفة البحتة فوق سطح الأرض .

وعلى عكس هذا ، فهناك مناطق يعانى فيها المرء من كثرة ما يعثر عليه فيها ، فقد درست آثار المناطق الغربية والشمالية فى أوروبا من العصر الميزوليتى فصاعدا بعناية كبيرة وكتب عنها مؤلفات كثيرة ، ويبدو أن حضارات كثيرة ومتنوعة كانت فى تلك المنطقة ، ويمكننا أن نميز بينها وبين بعضها باختلاف

الأوانى الفخارية . لم يهتم أصحاب هذه الحضارات اهتماما كثيرا بمواطنهم أو يربطوا أنفسهم بها فكانوا يتحركون بحرية ، وكانو يتاجرون ويتبادلون الأفكار مع الجماعات المختلفة التى اتصلوا بها . أضف الى هذا أن معظم علماء الآثار الأوروبيين كانوا متعصبين لبلادهم فكانوا يميلون لاثبات أن مركز كل تقدم حضارى هام أو أى هجرة من الهجرات قد حدثت فى وطنهم هم . ويمكن للقارىء أن يقف على الشىء الكثير عن تشعب وصعوبة الأدلة اذا اطلع على الكتاب الحديث الذى ألفه جوردون تشيلد وعنوانه : « الهجرات فى أوروبا فى عصر ما قبل التاريخ » (١) وهو فى حد ذاته تلخيص لمجموعة ضخمة مما كتبه المتخصصون .

وان كثرة النظريات التى قامت على ما ظهر من معلومات ، والاختلافات الكبيرة فيما وصل اليه الخبراء المقتدرون لمن الأمور التى تدعو الى الدهشة الحقة . ومن حسن الحظ أن مجال هذا الكتاب وهدفه لا يستلزمان وصفا مفصلا لهذه الحضارات ، وقد التزمت فيه عرض الحقائق والنتائج التى يبدو أن الاجماع عليها يكاد يكون تاما ، مقترحا فى بعض الحالات نتائج أخرى تقوم على مقارنة المادة العلمية التى جاءتنا من المواقع الأوروبية بغيرها مما وصل الينا من المناطق الأخرى التى لوحظ فيها بطريق مباشر وجود عمليات قوية وفعالة فى التغير الحضارى .

---

(١) Childe, V. Gordon, Prehistoric Migration in Europe. Oslo : H. Aschehough and Co., 1950.

وبعترف مؤلف هذا الكتاب بدينه الكبير لهذا العمل العظيم الذى يعتبره خير ما كتب عن هذا العصر فى التاريخ الاوروبى .

الفصل الثامن عشر

أوروبا فى العصر النيوليتى

وفد المهاجرون الأوائل الذين وصلوا الى أوروبا فى العصر النيوليتى من اقليم الأناضول على ما يبدو ، وثبتوا أقدامهم فى المنطقة التى تعرف الآن باسم البلقان . ومن هذه النقطة كان هناك طريقان رئيسيان للهجرة : أولهما سار محاذيا لشواطىء البحر الأبيض المتوسط حيث تدفقوا على شبه جزيرة ايطاليا وشبه جزيرة ايبريا ، كما استقرت أفواج أخرى فى جزر البحر الأبيض المتوسط المختلفة عندما تقدمت وسائل السفر فى البحر التقدم الكافى . وعززت هذه الحركة بعد ذلك بوقت قصير بمهاجرين آخرين جاءوا عن طريق البحر مباشرة من البلاد الواقعة على الطرف الشرقى من البحر الأبيض المتوسط .

أما طريق الهجـرة الثانى فقـد كان الى أواسط أوروبا عن طريق نهـر الدانوب وروافده ، واستقر أحفاد المهاجرين الذين أتوا من هذا الطريق فى شرق فرنسا والمانيا وشبه جزيرة اسكنديناوة بعد أن عززوا بمهاجرين آخرين من منطقة اقليم الاستبس الواقعة بعيدا فى ناحية الشرق . وقد وفد فى هـذين الطريقين مهاجرون أقاموا فى بيئات مختلفة عن بعضها اختلافا بينا ، وكان من نتيجة ذلك أن تطورت حضارات تختلف كل واحدة منها عن الأخرى .

وعندما بدأت هجرة الشعوب الزراعية الى أوروبا كانت غابات الصنوبر تغطى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، ولكن هذه الغابات لم تستطع أن تجدد نفسها بسبب قلة سقوط الأمطار . وحينما كانت تتلاشى هذه الغابات كانت تحل محلها شجيرات الماكيز (Maquis) الكثيفة أو مروج الجاريجيه (Garrigue)

الجافة ذات الرائحة العطرة . وعلى أى حال ، كانت الأحوال المناخية تشبه الى حد كبير مثيلاتها فى مركز نشأتهم الأصلى فى جنوب غربى آسيا . وكان المطر يسقط فقط فى فصل الشتاء مما جعل فى الامكان استخدام المحراث والقش الذى يغطى الأرض فى هذه المنطقة كما كان يستخدم فى بلاد الشرق الأدنى . وكان فى استطاعتهم زراعة المحصولات الأصلية دون حاجة الى ايجاد أصناف أخرى جديدة ، أما العقبة الرئيسية فقد كانت عدم توافر الأرض المستوية لأن معظم منطقة البحر الأبيض المتوسط منطقة جبلية .

وكان للظروف المحلية أثرها فأحدثت بعض تغيرات فى الاقتصاد الاصلى للسكان. فاستعاضوا الى حد ما عن قلة مساحات الأرض المستوية، بعمل المدرجات المزروعة ولكنهم لم يستخدموا نظام المدرجات المروية فى الزراعة ، وربما كان ذلك راجعا الى قلة موارد الماء وعدم انتظام كمياتها فى جميع الفصول فاستعاضوا عن ذلك باقبالهم على الاعتماد على محصولات الأشجار. فدجنوا، بل وحسنوا أشجار التين والزيتون ، وكلاهما مما ينبت فى حوض البحر الأبيض المتوسط بالاضافة الى عنايتهم بزراعة أشجار البندق والجوز على اختلاف أنواعها ، كما ادخلوا أيضا زراعة كروم العنب خلال الجزء المتأخر من عصر البرونز .

وبالرغم من أن شجرة العنب قد جاءت فيما يبدو من آسيا فقد وجدت فى المنحدرات الحجرية فى منطقة البحر الأبيض المتوسط الساحلية البيئة التى تلائمها تمام الملاءمة . وأصبح زيت الزيتون من الأشياء التى لاغنى عنها فى اقتصاد منطقة البحر الأبيض المتوسط فقد كان هذا الزيت يستخدم فى طهى الطعام وجعل طعم الخبز و « السلاطة » أكثر مساغا ، كما كان هذا الزيت يستخدم فى الاضاءة وفى حماية الجلد من البرودة ومن الماء المالح . ولم يدخل النبيذ المستخرج من مزارع العنب الموجودة فى منطقة البحر الأبيض المتوسط السرور على نفوس زارعيه فحسب ولكنه أمدهم أيضا بمادة ثمينة صالحة

للتصدير . وقبل نهاية عصر البرونز فى منطقة بحر ايجة كان زيت الزيتون والنبيذ يصدران الى مناطق لم تكن لها مثل تلك المزايا ، وكان المثل الأول فى جمال التعبئة عندما كان سكان جزيرة كريت يعبئون صادراتهم من الزيت فى أوان ملونة بألوان جميلة حوالى عام ١٥٠٠ ق .م . وسار اليونانيون القدماء فى هذا الاتجاه وتقدموا فيه ، وكان الاثينيون أثناء الحروب الفارسية يحصلون على القمح اللازم لهم من الاسكيذيين الذين كانوا يقطنون فى شمال البحر الأسود .

وجلب الذين استقروا فى مناطق البحر الأبيض المتوسط معهم جميع الحيوانات المستأنسة التى كانت معروفة فى جنوب غربى آسيا ولكن البيئة حتمت مرة أخرى ادخال بعض التغيرات. لقد ظل الثور كما كان ، الحيوان الوحيد الذى يستخدم فى أعمال الجر ، وحلت الماعز محل كل من الماشية والأغنام كحيوانات ذات أهمية بالغة من الناحية الاقتصادية . كان فى استطاعة الماعز أن ترعى الأعشاب الجافة على جوانب الجبال المنحدرة عندما تلاشت غابات الصنوبر الأصلية ، وكان أكل الماعز للنباتات حتى جذورها ، وما تحدثه حوافرها الحادة ، من الأمور التى ساعدت على تفكك التربة . وكان هذا بدوره عاملا مساعدا على منع نمو الغابات مرة أخرى ، وعوضهم عن الندرة النسبية لمنتجات الحيوان ، وجود البحر دائما على مقربة منهم .

كان سكان منطقة البحر الأبيض المتوسط يعتمدون غالبا فى معيشتهم على صيد السمك كما كان يفعل سكان اندونيسيا. وكان لكل قرية ساحلية أسطول للصيد وكانت الأسماك المجففة من بين السلع التجارية الهامة التى يتجرون بها مع المناطق الداخلية فى البلاد . وقبل أن يبزغ فجر التاريخ كان أفراد القبائل التى تحتل الجزر والمناطق الساحلية قد أصبحوا بحارة مهرة ، وكانت أول قوة بحرية سجلها التاريخ هى القوة التى كانت فى جزيرة كريت .

وتأثر التقدم الحضارى فى منطقة البحر الأبيض المتوسط بعاملين متعارضين.

فمن ناحية كانت العزلة التى حتمتها طبيعة الجزر ،وطبيعة الوديان العديدةالتى يصعب الوصول اليها فى المناطق الجبلية فى داخل البلاد ، كانت سببا فى وجود اختلافات محلية كثيرة ، ومن ناحية اخرى ساعد البحر على قيام العلاقات بين المناطق البعيدة كما ساعد على الانتشار السريع لبعض الأساليب الحضارية فى مساحات واسعة .

ومما زاد الأمور تعقيدا أن هذا الانتشار لم يتقدم بطريقةمنظمة ،ولكنه كان يعتمد على درجة وطبيعة العلاقات التى تنشئها الجزر والقبائل المختلفة مع الشعوب الأكثر تقدما فى شرق بحر ايجة . ولهذا فقد زعم بعض الباحثين ــ اعتمادا على نتائج بعض الحفائر الحديثة ــ أن جزيرة كابرى (Capri) الحالية كانت هى الجزيرة الأسطورية التى عاشت فيها جنيات البحر . كان سكانها فى العصر النيوليتى من آكلة لحوم البشر ، ومن المحتمل أنهم كانوا يستخدمون نساءهم فى اغراء البحارة المارين بالجزيرة بالنزول الى الشاطىء، ولذلك لم يتيسر لمثل هذه الجماعة الفرصة الكافية لتستعير من حضارة غيرها ومن ناحية اخرى نرى أن القبائل التى كانت تعيش فى شبه جزيرة ايبريا والتى كان بينها وبين التجار علاقات ود وصداقة قد وصلتها تأثيرات قوية من سكان منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط بالرغم من طول المسافة التى تفصل بينهما.

ويمكننا أن نلاحظ أنه كانت هناك نماذج حضارية معينة يرجع أصلها الى منطقة البحر الأبيض المتوسط وكانت شائعة فى المنطقة كلها ، وقد أشرنا قبل الآن الى التغيرات التى دخلت على الاقتصاد الخاص بموضوع الغذاء تحت ضغط الظروف المحلية . كان اعتمادهم على صيد السمك ، وهو جزء من اقتصادهم ، سببا فى التقدم فى صناعة أقدم السفن الصالحة للسفر فى البحر فى تاريخ العالم . انتشرت هذه السفن اولا فى منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط حيث كانت الجزر العديدة بمثابة مدرسة لتدريب البحارة على السفر فى مياه البحر العميقة . والبحر الأبيض المتوسط بحر فيه فترات هدوء طويلة يسكن

فيها الريح ، ولكن فيه أيضا تيارات مائية خائنة . فالسفينة التى تعتمد فى سيرها على القلوع وحدها تعرض نفسها للسير فى المياه الخطرة أو أن تمكث لعدة أيام وهى عاجزة تتأرجح فوق المياه . وفى رسوم السفن التى نراها مرسومة على الأوانى الفخارية من العصر النيوليتى نراها تسير بمجاديف كثيرة ولكن دون أن يكون لها صار او قلع . وبالرغم من أن النوع الاخير من السفن قد عرف حوالى عام ٢٠٠٠ ق .م. فانهم زودوا السفن التى تحتاج الى السرعة والقدرة على المناورة ، مثل السفن الحربية ، بالمجاديف ، وقد استمر ذلك حتى اواسط القرن الثامن عشر الميلادى . ومن المصادفة ان التجديف بالمجاديف الطويلة بدلا من استخدام المجاديف القصيرة العريضة ، الذى لولاه لاستحال ظهور السفن الطويلة ذات الطابق الواحد التى تسير بالقلع والمجاديف (Galleys) فيما بعد كان على مايبدو أحد مخترعات البحر الأبيض المتوسط .

ولم يستخدم سكان البحر الأبيض المتوسط فى العصور القديمة طريقة استخدام شخصين أو ثلاثة أشخاص لمجداف كبير واحد الا فى حالات الضرورة، ولهذا ضاعفوا عدد المجاديف والمقاعد مما استلزم وجود نظام محكم لطبقات بعضها فوق بعض يجلس عليها المجدفون. ونظرا لأن هيا كل السفن كانت تبنى طويلة ليكون فيها مكان كاف للمجاديف المطلوبة ، وضيقة لتكون سريعة فى سيرها، فان السفن الكبيرة فى أيام اليونانيين القدماء كانت ذات مقدمة ثقيلة مما جعلها عرضة لأن تدور حول نفسها أو أن تنشق الى نصفين اذا تعرضت لريح عاصفة . وكان من عيوبها عدم توافر المساحة المطلوبة للحمولة والبحارة اللازمين ولم يكن فى مقدور مثل هذه السفن أن تمكث فى الماء فترة طويلة لأنها لا تستطيع أن تمد بحارتها بالطعام الكافى أو أن توفر لهم الراحة فى النوم . وحتى فى العصور اليونانية القديمة لم يكن فى البحر الأبيض المتوسط سفن تستطيع أن تعبر المحيط الأطلنطى . وعلى أى حال فان البحر الابيض المتوسط يعد بحرا صغيرا نسبيا ، وفيه موانىء وجزر عديدة ، وكان فى استطاعة السفن

ذات المجـاديف أن تؤدى مهمتها بنجاح مادامت الأيدى العـاملة رخيصـة ومتوافرة .

وعندما أخذ بحارة البحر الأبيض المتوسط يغامرون بالسـفر فى المحيط الأطلنطى جابهتهم المصاعب من جراء الرياح غير المنتظمة والأجواء العاصفة والأمواج المتلاطمة ، ولهذا كانوا يقومون بمعظم رحلاتهم فى الصيف . وعلى أى حال فقد استطاعوا أن يصلوا الى شبه جزيرة اسكنديناوة فى الشمال حيث كانت السفن النورسية الطويلة فى عصر الڤيكنج (Viking) تبدو وكأنها نماذج مبسطة ومحسنة من السفن القديمة فى البحر الأبيض المتوسط ، وفى نفس الوقت حدث تقدم مستقل فى بناء السفن على طول ساحل المحيط الأطلنطى ، فقد عثر فى مواقع أثرية من العصر النيوليتى وعصر البرونز على قوارب كبيرة جدا منقورة فى جذوع الأشجار وكانت صالحة للرحلات البحرية القصيرة ، ولم ينقلها أصحابها بطبيعة الحال عن نماذج أقدم منها من سفن البحر الأبيض المتوسط . ويذكر يوليوس قيصر فى تعليقاته التى كتبها أن سفن أهل البندقية قد بنيت لتصارع أمواج خليج بسكاى العنيفة ، وأنها فد بنيت من خشب البلوط ، وكانت متينة جدا ، وكانت اشرعتها من انجلد . وأضاف أن هـذه السفن كانت متينة لدرجة أن السفن الرومانية ذات المجاديف لم تستطع أن تحطم جوانبها بضربها بالكباش ، ولكنها فى النهاية استطاعت التغلب على تلك السفن بقطع أشرعتها فأصبحت عاجزة ، مما يدل دلالة واضحة على أن هذه السفن كانت تسير بالشراع ولا تسير بالمجاديف. ولسنا نستطيع أن نقول متى برزت هذه المدرسة فى بناء السفن الى عالم الوجود ولكنا نعلم أنها كانت موجودة فى اسكنديناوة فى عهـد الڤيكنج كله وأن النورسيين قاموا بمعظم رحلاتهـم وتجارتهم على سفن بطيئة ذات مقدمة ضخمة تسير بالشراع ، وهى تشـبه سفنهم الطويلة كما تشبه سفينة نقل البضائع احدى المدمرات فى عصرنا الحالى.

أما عن التنظيمين الاجتماعى والدينى فان أساليب منطقة البحـر الأبيض

المتوسط يبدو أنها كانت مستمدة أيضا مما كان فى جنوب غربى آسيا موطنها الأصلى . وما من شك فى أن كثيرا من القبائل التى عاشت فى العصر النيوليتى وعصر البرونز على سواحل البحر الأبيض المتوسط وفى جزره ، كانت تتبع النظام الذى يقضى بالانتساب للام ، كما كانت للام أيضا السلطة على العائلة . ونستطيع أن نستشف وجود هذا النظام من دراسة الأساطير الاغريقية وقد ظل متبعا حتى العصور التاريخية القديمة فى كثير من المناطق المنعزلة ، وقد ترتب على وجودهذا النظام احتلال النساء لمركز اجتماعى متسام، وقد سيطرن فيما يبدو على الحياة الدينية فى المنطقة فى عصر ماقبل التاريخ لأنناترى صورا كثيرة للكاهنات بينما كانت صور الكهنة نادرة الى أبعد الحدود .

وتدل عادة بناء المقابر الكبيرة التى تظل مستخدمة خلال عدة أجيال على أن كثيرا من شعوب منطقة البحر الأبيض المتوسط كانت تتبع نوعا من التنظيم القبلى فيه جماعات متماسكة من الأقارب ، وأن هذا التنظيم ظل سائدا بينهم لفترة طويلة . وتدل العناية التى بذلوها فى تشييد هذه المقابر ووجود الأثاث الكثير بها على أن نوعا ما من عبادة الأسلاف كان سائدا بينهم وهى فكرة غريبة عن الحضارة الأصلية لمنطقة جنوب غربى آسيا .

ويمكننا أيضا أن نميز وجود بعض العقائد والطقوس الخاصة بالايمان بقوى فوق قوى الطبيعة ، وهى مستمدة أيضا من منطقة البحر الأبيض المتوسط . كان الدين القديم لمنطقة جنوب غربى آسيا يسمح ببعض الأمور الخليعة فى بعض ما له علاقة بعبادة (الأرض الأم) ولكن الانسان يشعر بصفة عامة أن الارضاء العاطفى فى هذا الدين كان أمرا هينا ، أما شعوب منطقة البحر الأبيض المتوسط فكانت تقدر العاطفة لذاتها وتبحث عن « أحوال الشغف الدينى » التى يشعر فيها المرء، وكأن الأرواح قد تملكته واتحد الى حد ما مع الاله المعبود. وكانوا يتأثرون تأثرا شديدا بمشكلات وجود الانسان التى كانت تشغل عواطفهم أكثر من أى شىء آخر ، وهى مشكلات الحمل والولادة

والموت ، وأقاموا دينهم حول هذه المشاكل ولكن الأرض الأم كانت أهم معبود لديهم وكانت تمثل مبدأ التناسل . وكان يقوم بطقوسها الدينية كاهنات تتقمصهن الأرواح فى الغالب ، وكان التنبؤ بالغيب جزءا منتظما من طقوس العبادة . والى جانب عبادة الالهة الأم وشعائرها الخليعة كانت هناك أيضا عبادة آلهة الليل والظلام اللذين كان يتجسد فيهما خوف الانسان من الموت ومن المجهول ، وكانت تشمل طقوس هذه العقيدة الاستغراق فى الرعب كما شملت طقوس عقيدة الالهة الأم استغراقا ونشوة فى موضوع الولادة . كانت هذه الطقوس تقام ليلا وربما فى الخفاء ، ومن المحتمل جدا أنها كانت الأصل الذى استمدت منه بعض الديانات الصوفية الغامضة التى ظهرت فيما بعد .

كانت الظروف البيئية على الساحل الأفريقى المطل على البحر الأبيض المتوسط تشبه الى حد كبير مثيلاتها على الساحل الأوروبى ، وكانت الصلات الحضارية بين الاثنين وثيقة ومستمرة الى حد أنه يمكن أن نعتبر كلا الساحلين منطقة حضارية واحدة الى أن جاء الغزو الاسلامى فى القرن الثامن الميلادى ، ولا نستثنى من ذلك الا مصر وحدها . ولكن الحضارة العريقة المتقدمة التى ازدهرت فى تلك المنطقة لم تؤثر الا قليلا على تطور الحضارات فى منطقة البحر الأبيض المتوسط .

ويكمن الاختلاف الرئيسى بين السواحل الشمالية والسواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط فى طبيعة البلاد التى تقع وراء تلك السواحل . ففى الوقت الذى وصل فيه أوائل الذين استقروا هناك فى العصر النيوليتى كانت المناطق المناخية الأفريقية السائدة الآن قد ظهرت فى عالم الوجود . كانت الصحراء الكبرى مليئة بالعشب وحيوانات الصيد حتى نهاية الزحف الجليدى الأخير ، ولكنها أصبحت بعد ذلك صحراء جدباء ، وخلت مساحات كبيرة فيها من السكان وبقيت هكذا حتى دخل اليها استخدام الجمال ، وكان ذلك قبل بداية العصر المسيحى بوقت قصير . وبين الصحراء والساحل توجد منطقة

يسقط فيها مطر خفيف مما ساعد على وجود الحياة الرعوية ولكن لم يتيسر انتشار الزراعة الا فى أماكن قليلة حبتها الطبيعة ببعض الميزات ، وعلى طول الساحل حيث يسقط قدر كاف من المطر يسمح بالزراعة الجافة وبغرس الأشجار ، كما يسقط مطر غزير على جبال الأطلس فى الطرف الغربى من المنطقة ويسود فيها مناخ أقل حرارة وتنبت فيها غابات كثيفة .

وأكثر أجزاء المنطقة الساحلية فى شمال أفريقيا وحشة هو الجزء المعروف باسم ليبيا وهى المنطقة التى يصادفها المهاجرون الأوائل الذين يعبرون أفريقيا عن طريق السويس ويتجهون غربا بطريق البر .

لم يكن فى تلك البلاد ما يغرى المزارعين فى العصر النيوليتى بمحاولة استيطانها فكان ذلك سببا للاقلال من حركة الهجرة نحو الغرب حتى أصبح فى استطاعة المهاجرين أن يفعلوا ذلك عن طريق البحر . وتتحسن الأحوال تدريجا بعد ليبيا ، وفى خلال العصر النيوليتى كانت هناك محلات آهلة بسكانها فى كل من الجزائر ومراكش . ويبدو أن هذه المنطقة قد شاركت شبه جزيرة أسبانيا فى كثير من خصائصها الحضارية ، وكونت الاثنتان بعد ذلك فى العصر النيوليتى وعصر البرونز وحدة حضارية ومركزا جديدا للهجرة ، كان المهاجرون يسافرون منه متجهين نحو الشمال على طول ساحل الأطلنطى . كما كانت هناك هجرات أخرى نحو الجنوب ، اذ نعرف أنه وصل الى جزر الكنارى (Canary Islands) فى العصر النيوليتى من استقر فيها من سكان تلك المنطقة .

وبالرغم من أن معظم الساحل الافريقى من مراكش حتى ريودورو (Rio d'Oro) كان موحشا لا يساعد على استقرار السكان فيه فى العصر النيوليتى ، فان التجارة مع زنوج أفريقيا عبر الصحراء كانت قد بدأت على ما يبدو فى العصر النيوليتى . لم تكن هناك غير طرق قليلة يمكن السير فيها قبل استخدام الجمال ولهذا فمن غير المحتمل وجود أى هجرة على نطاق واسع

نحو الجنوب قامت بها الشعوب التى عاشت فى العصر النيوليتى ، ومع ذلك فقد إنتشرت بعض العناصر الحضارية النيوليتية ووصلت الى غرب السودان ، بل والى ماهو أبعد من ذلك فى الجنوب . لقد عثر على كثير من الفئوس الحجرية المصقولة من النوع الذى كان شائع الاستعمال فى منطقة البحر الأبيض المتوسط فى العصر النيوليتى فى أماكن كثيرة فى غرب أفريقيا ، من ليبريا الى الكامرون ، كما عثر هناك أيضا على أوان فخارية يرجح أنها من الفخار النيوليتى ، ولكن طبيعة ودرجة تأثير منطقة جنوب غربى آسيا فى العصر النيوليتى على حضارة الزنوج مازالت فى المواضع التى تنتظر الدرس والتمحيص .

وبعد أن تم الاستيطان الأول لمنطقة البحر الأبيض المتوسط ظهر مركزان حضاريان أولهما فى شبه جزيرة ايبريا والثانى فى الجزر الايچية . كان المركز الايچى على حدود مدنيتى مصر وبلاد ما بين النهرين ، وكانت كل منهما متقدمة فى حضارتها فكان لهما على الحضارة الايچية تأثير كبير ، وقد بلغت هذه الحضارة أوج ازدهارها فى جزيرة كريت وفى الحضارة الميسينية المتفرعة منها التى سنتحدث عنها بتفصيل أكثر فيما بعد .

استقر المهاجرون من شبه جزيرة ايبريا ابان العصر النيوليتى فى الجزر البريطانية حيث أخذ عنهم السكان المحليون كثيرا من صفاتهم الجسمانية التى ظلت واضحة حتى الآن . وساروا بمحاذاة ساحل المحيط الأطلنطى الى ان وصلوا الى شبه جزيرة اسكنديناوه واستقروا فى معظم فرنسا والبلاد الواطئة ، واندفعوا فى النهاية الى سويسرا عن طريق البر حيث قابلوا وامتزجوا بسكان القرى الآخرين الذين كانوا قد وصلوا عن طريق وسط أوروبا .

وكانت العلاقة بين شبه جزيرة ايبريا والجزر البريطانية وثيقة بصفة خاصة ، وظلت مستمرة طوال عصر البرونز . ويبدو أن شبه الجزيرة كانت

نقطة البدء لما يسمى الثقافة الميجاليتية (Megalithic) فى غرب أوروبا ، وكان من بين مظاهرها تشييد المقابر واقامة النصب من كتل ضخمة من الأحجار الخشنة . وليس هناك من دلالة على أن انتشار هذا النموذج الحضارى قد صاحبته هجرة على نطاق واسع ، بل يرجح أنها كانت تمثل انتشارا لاحدى العقائد الدينية متحدة على مايبدو مع شكل جديد من التظاهر القبلى .

ففى بولينيزيا الشرقية ، كانت كل قبيلة تقيم أبنيتها الدينية من أضخم الحجارة التى يمكنهم نقلها ليكون البناء دليلا على مقدار قوة أفراد القبيلة ؛ وان المرء ليشك فى أن الدافع لاقامة المبانى الميجاليتية الضخمة فى غرب أوروبا ، وما استلزمته من نقل واقامة الأحجار التى تزن كل منها عدة أطنان . كان الى حد ما راجعا الى مثل هذا السبب .

لقد كتبت مؤلفات كثيرة عن الحضارة الميجاليتية فىأوروبا، ومن المستحسن أن نشير الى أنه كان يوجد نموذجان لتشييد المبانى الميجاليتية فى منطقة البحر الأبيض المتوسط والمناطق الملاصقة لها ، وكان كل منهما مستقلا عن الآخر فى انتشاره . فحول الطرف الشرقى من منطقة البحر الأبيض المتوسط كانت الأحجار الضخمة تستخدم فى بناء التحصينات وكان هذا ضرورة عملية لان الجدران الحجرية القديمة كانت تشيد دون استخدام الملاط فى بنائها ، وكان فى الامكان تحطيمها الى قطع متناثرة فى عمليات الحصار مالم تكن هذه الحجارة ثقيلة الى درجة لايسهل التغلب عليها . وكانت الأحجار الكبيرة تستخدم أيضا فى بناء المقابر ولكن لم يكن هذا الاستخدام بصفة مستمرة ، ولم يكن على ما يبدو شيئا ضروريا للعقائد الجنازية فى شرق البحر الأبيض المتوسط . لقد استخدمت الأحجار الضخمة فى اقامة كل من الـ « منهير » (Menhir) والـ « دولمن » (Dolmen) ولتحدد مساحات ودوائر كانت تستخدم على الأرجح فى الطقوس الدينية للجماعة كلها . فأما الـ « منهير »

فليست الا أحجارا بسيطة قائمة ، كانت فى الغالب غير مقطوعة من الجبل وكان بعضها من الضخامة بحيث يزن مابين ثلاثين وأربعين طنا ، وكان نقلها واقامتها يتطلبان مهارة هندسية على درجة من التقدم . أما الـ « دولمن » فكانت مائدة كبيرة من الحجر ، تتكون من قطعة ضخمة من الحجر المستوى موضوعة فوق أحجار عدة أصغر منها فى الحجم ، وتبدو كأنها حجرة مسقفة. وكان الكثير من الـ « دولمن » مغطى فى الأصل بكومة كبيرة من التراب تشبه التل وكانت تستخدم فى الدفن .

ومع ذلك ففى جزيرة مدغشقر حيث ظل السكان يقيمون كلا من الـ «منهير» والـ « دولمن » حتى عام ١٩٢٨ ميلادية لم تكن الدولمن مقبرة وانما كانت نصبا تذكاريا لامرأة بينما كان الـ « منهير » ، بما فيه من تلميح واضح الى عضو التذكير ، نصبا تذكاريا يقام للرجال. وكان الـ « دولمن » فى جزيرة مدغشقر يستخدم أيضا كمائدة توضع عليها القرابين التى تقدم للأجداد مجتمعين .

ولما كانت صلة المنهير الأوروبى من الأمور النادرة بالمقابر ، فمن المرجح أنه كان يقام فى مكان ظاهر لتخليد ذكرى الشخص الذى أقيم من أجله لتبقى ذكراه دائما فى أذهانهم . وكانوا يعنون كثيرا بجعل اتجاهات المبانى الميجاليتية الدينية موازية للجهات الأصلية ، وخير أمثلتها ما نراه فى بلدة «ستون هنج» (Stonehenge) فى انجلترا ، وربما كانت متصلة بنوع ما من عبادة الشمس .

وبالرغم من أن الثقافة الميجاليتية قد ظهرت فى غرب أوربا فى نهاية العصر النيوليتى فان اقامة المبانى الحجرية العظيمة ظلت مستمرة خلال عصر البرونز كله ، كما ظلت المبانى الدينية تقام خلال العصر الكلتى اى ٣٠٠ ـ ٤٠٠ قبل الميلاد .

وكان لظهور صناعة المعادن فى مناطق البحر الأبيض المتوسط أثر عظيم فى زيادة الأهمية الاقتصادية لشبه جزيرة ايبريا الغنية بالنحاس وبعض خامات

المعادن الأخرى . وبالرغم من أنه من المحتمل أن طرق العمل فى المناجم وصناعة الأدوات المعدنية قد جاءت من الشرق فانه يبدو أن شبه الجزيرة كانت مركزا ومكانا نشأت فيه جماعة غريبة من الناس عرفت باسم عشيرة القدح (Beaker folk) لقد انتشرت بقايا هذه الحضارة فى كل بقاع غرب أوروبا ، وكانت أهم نقط تجمعهم فى الأماكن التى فيها مايدل على وجود التعدين البدائى . ويبدو أنهم لم يؤسسوا جاليات حقيقية الا فى الجزر البريطانية وفى مقاطعة بريتانى وفى هولاندا وقد اتخذوا طرق الهجرة الايبرية التى كانت مستخدمة منذ العصور النيوليتية ، ولم يخلفوا وراءهم أى بقايا هامة من محلاتهم التى سكنوها فى أماكن أخرى ، ولكنهم خلفوا وراءهم جبانات صغيرة تحتوى مقابرها على أدوات تدل على صلات واسعة مع غيرهم . وربما كان هؤلاء الناس جماعة من التجار والباحثين عن الثروة الذين شقوا طريقهم نحو شمال أوروبا « الهمجى » وراء الاشاعات التى تحكى عن وجود مستودعات معدنية وانهم استغلوا هذه المستودعات بمساعدة العمال من أهل تلك المناطق بعد تدريبهم فى عملهم . ومن الأمور الطريفة أن يحاول الانسان أن يفسر كيف أمكنهم الحصول على مساعدة الوطنيين المحليين فى أعمالهم التعدينية . فلم تكن هذه الجماعة فيما يبدو من كثرة العدد بحيث يمكنها قهر أو استعباد السكان المحليين ، ولم تكن محتويات مقابرهم كثيرة ولم يعثر على أى كميات كبيرة مخبأة من السلع التى كانوا يتجرون فيها نستطيع أن ننسبها اليهم ، ولم تكن الأقداح التى أصبح اسمها يدل عليهم فى حقيقة الأمر الا أقداحا صغيرة على هيئة أكواب من الفخار كانت تستخدم على الأرجح فى شرب الجعة . وهناك مايغرى المرء على القول بانهم كانوا مثل التجار الأوروبيين الأوائل الذين اتجروا مع الجماعات المختلفة من السكان الوطنيين وكانت أهم سلعهم التجارية هى المشروبات الروحية .

وهناك نقطة أخيرة تستحق الذكر عن حضارات منطقة البحر الأبيض

المتوسط . لم يتكلم أى شعب من الشعوب النيوليتية التى كانت تقطن تلك المنطقة أو هاجرت منها ، لغة من اللغات الهندو ــ أوروبية . وقد قدمت نقوش العصر البرونزى المتأخر وعصر الحديد الأدلة الوحيدة على ماكان يمكن أن تكون عليه تلك اللغات ، يضاف اليها مابقى من أدلة حتى العصور الحديثة كلغة الباسك (Basque) التى يتحدث بها الناس حتى الآن فى منطقة البرانس (Pyrenees) ولغات البربر فى شمال أفريقيا . ومن هذه المعلومات الضئيلة يمكن أن نقول ان تلك اللغات كانت من أصول مختلفة وعديدة .

ويمتد خط الانتشار الثانى لحضارة جنوب غربى آسيا فى أوربا عن طريق البر من الاناضول حتى البلقان ثم يسير بعد ذلك على طول نهر الدانوب وروافده حتى نهاية مساقط المياه الشمالية. ثم ساروا بعد ذلك متتبعين مجارى الأنهار التى تصب فى المحيط الاطلسى حتى وصلوا الى البحر ، فنشأ عن ذلك قيام العلاقات بين مهاجرى وسط أوروبا وبين المهاجرين الذين استقروا قبل ذلك بوقت قصير فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، وامتزجت تقاليد الفريقين ونتج عن هذا الامتزاج حضارات محلية متباينة .

وحدث تغيير مفاجىء فى المناخ والنباتات شمالى منطقة الجبال التى تفصل بين حوض البحر الأبيض المتوسط وبين بقية أوروبا . وفيما عدا الشاطىء الأطلنطى كان المناخ القارى يسود جميع أنحاء المنطقة فكان الصيف حارا والشتاء باردا ويشبه فى ذلك المنطقة الواقعة فى وسط الولايات المتحدة الأمريكية . وكان المطر يسقط بغزارة أكثر من أمطار حوض البحر الأبيض المتوسط ولكنه لم يكن مطرا موسميا . وغطت الغابات الملأى بالأشجار التى تسقط أوراقها فى الشتاء معظم أوروبا عندما بدأت الهجرات الأولى فى العصر النيوليتى ، وكانت هذه الغابات شبيهة بغابات شرقى الولايات المتحدة الأمريكية عندما وصل اليها المهاجرون الأوربيون . وكانت هناك مناطق خلت من الأشجار على طول الساحل الأطلنطى بسبب التربة الخفيفة فى تلك المنطقة

ووجود رياح البحر الشديدة ، ولكن كلما اتجهنا نحو الشرق نرى أن الغابات قد اختفت وحلت مكانها مناطق تنبت فيها الحشائش تمتد الى منطقة جبال تيان شان (Tien Shan) ولكنها تأخذ في الجفاف حتى يبلغ هذا الجفاف مداه في منطقة منغوليا . والى الشمال من الغابات كان هناك حزام من غابات الأشجار ذات الثمار المخروطية (Coniferous) يمتد عبر القارة الأوروبية الاسيوية ولكن معظم هذه المنطقة كانت بعيدة عن متناول أيدى الزراع الذين لم يستخدموا الوسائل العلمية في الزراعة، وكثيرا ما كان يتردد عليها الصيادون والمعنيون بتربية حيوان الرنة الى ماقبل سنوات قليلة .

واستدعت الظروف التى واجهها المهاجرون الذين جاءوا من منطقة جنوب غربى آسيا أثناء تحركاتهم فى وسط أوروبا أن يعيدوا تنظيم طرق زراعتهم. فقد جرى العمل فى الزراعة على طريقة القطع والاحراق . وإذا كان للمرء أن يحكم من دراسة الأساليب الزراعية التى كانت متبعة لدى الايروكى (Iroquois) وهم المزارعون الذين كانوا يعيشون فى ولاية نيويورك وفى جنوب كندا ابان العصر النيوليتى وفى ظروف بيئية متشابهة ومعدات تكنولوجية متشابهة ، فان طريقتهم فى الزراعة كانت هى الالتجاء الى الاحراق أكثر من التقطيع . فقد كان من الصعب قطع الأشجار الضخمة بالأدوات الحجرية التى لديهم كما كان من غير الضرورى قطع هذه الأشجار لو كان الهدف من قطعها هو افساح الأرض للزراعة . كان فى الامكان أيضا تحزيم الأشجار وتركها حتى تموت ثم يحرقون المكان المطلوب دون أن يضطروا الى قطع الأشجار قبل ذلك . وتعطى الحقول التى تم حرق أشجارها حديثا محصولا طيبا فى السنتين أو الثلاث السنوات الأولى، ولكن سرعان مايصيبها الاجهاد فيتركونها دون زراعة حتى تظهر فيها بواكير غابة جديدة . ولكن كان على المزارعين الذين يمارسون هذه الطريقة أن يتحركوا بقراهم من آن لآخر ، وكان يحدث ذلك بين الايروكى كل عشرين عاما على وجه التقريب .

وكان من نتائج مثل هذه التحركات والهجرات امتداد حدود المنطقةالنيوليتية بسرعة ناحية الشرق الى أن وصلت الى الحدود التى سمحت بها الظروف المناخية. ومن المفهوم أنه مادامت هناك أراض جديدة صالحة للاستغلال فلم يكن هناك مايدعو الى الحرب بين الجماعات التى عاشت فى العصر النيوليتى. واذا كانت هناك حروب على الاطلاق فانها كانت على أكثر الاحتمالات ضد الشعوب الميزوليتية المتفرقة نسبيا ، والتى كانفى مقدورها أنتشيع الاضطراب بين الشعوب المستقرة فى العصر النيوليتى ، ولكن لم يكن فى مقدورهم أن يفعلوا شيئا كثيرا ازاء الزيادة المطردة بين السكان .

كانت محلات الاستقرار الأولى فى العصر النيوليتى موزعة توزيعا غير منتظم وذلك لتفضيل المزارعين فى العصر النيوليتى للتربة غير المتماسكة التى كانت أصلح شىء لزراعة الحبوب . والى أن انتهوا من استغلال هذه الأراضى كلها ظلت الشعوب الميزوليتية مسيطرة على المناطق التى كانت تربتها رملية أو كانت من الطين المتماسك ، وقد ساعد ذلك على اتاحة الفرصة لقيامعلاقة طويلة الأمد بين الحضارتين ، واستمرار تبادل العناصر الحضارية بينهما . وقد شجع على ذلك دون شك ذلك التغير الكبير فى ظروف البيئة ، وهو الأمر الذى جعل لزاما على الذين استقروا واستوطنوا تلك المناطق فى العصر النيوليتى أن يغيروا كثيرا من أساليبهم التكنولوجية السابقة . فلم تعدالمنازل المبنية من الطين فى جنوب غربى آسيا صالحة لسكناهم نظرا لمناخ أوروبا الرطب نسبيا الذى جعلهم يشيدون المنازل من غصون الاشجار الملطوسة بالطين ذات السقوف المرتفعة المصنوعة من القش . وعندما حصل المستوطنون على معدن البرونز سهل عليهم قطع الأخشاب ، وحتى تلك المنازل قد استبدلوها فى مناطق كثيرة بمنازل متينة من كتل الأشجار وهى الأصل الذى أخذنا عنهالمنازل الخشبية التى مازالالناس يشيدونها علىحدود مناطقالغابات فى أمريكا . وقد ساعدت بيئة الغابات على توفير الأخشاب وقلف الأشجار

لصناعة الأدوات والآلات على اختلاف أنواعها ، ونحـن نعلم أن الشـعب الميزوليتى كان يستخدم هذه المواد استخداما كبيرا . كان الازدياد الفجـائى لأهمية الأخشاب فى اقتصاديات ساكنى الغابات الأول فى العصر النيوليتى فى أوروبا سببا فى وجود القواديم بكثرة فى محلات سكناهم . ولا شـك أن البلطة هى أهم الأدوات المستعملة فى قطع الأشجار ، ولكن القدوم كان أفضل الأدوات لتهذيب الخشب . وكانت لهذه القواديم فى أكثر الحالات مقابض مصنوعة من قرن الوعل يثقبونها لتثبيت المقبض ، وقد عرفوا ذلك بدون شك من شعوب الحضارات الميزوليتية .

زرع المستوطنون الأولون فى العصر النيوليتى فى وسط أوروبا القمح بأنواعه المختلفة ، والشعير ، والخضراوات المختلفة ، كما عنوا بتربية القليل من الماشية رغم ضآلة أهميتها الاقتصادية . وكانوا يسـتخدمون الفؤوس الحجرية فى زراعة محصولاتهم ، ولم يفعلوا الا الشىء القليـل من صيـد الحيوانات أو صيد الأسماك . كانوا يعيشون فى قرى ، وكان عليهم أن ينقلوا قراهم كلما حدث اجهاد للتربة . كان القرويون يعيشون فى منازل فسـيحة مستطيلة ويعيش فى كل منها عدد من العائلات مما يدل على وجود نوع متقدم من التنظيم العائلى وكانت حضارتهم المادية بسيطة ، وأهم مايلفت النظر فيها ندرة وجود الأسلحة . ويوحى هذا بالاضافة الى النقص فى الأدوات ذات الطابع الميزوليتى فى مساكن العصر النيوليتى ، بأن كلا من المسـتوطنين وسكان البلاد الأصليين كانوا يتجنبون بعضهم بعضا . وكانوا يستخدمون المقاليع أما القوس فلم يعرفوها على الأرجح . وكان القدوم هو الأداة المفضلة والأكثر شيوعا فى صناعة الخشب . أما الفخار فكانوا يصنعونه باليد وكانوا يزخرفونه بأشكال حلزونية ذات خطوط انحنائية وذلك بالضغط على الفخار وهو لايزال لينا لم يجف . وكان هناك نوع ما من التجارة منذ أقدم العصور. كانت الأصـداف تنقـل من شـواطىء البحـر الابيض المتوسـط حتى

تشيكوسلوفاكيا كما كانت القواديم الحجرية والأدوات الفخارية تنقل الى مسافات بعيدة . ويوحى ما ظهر من آثار بأنه كان هناك بوجه عام مجتمع مسالم من الزارعين يعمل بجد ، وكانت هناك اختلافات ضئيلة فى الثروة وفى المركز الاجتماعى .

مهدت المرحلة الأولى تدريجا لظهور المرحلة الثانية واتنقل الاهتمام بالزراعة الى تربية الحيوان ، وزاد اعتمادهم على صيد الحيوانات وصيد الاسماك كما تظهر الأدوات والاسلحة المختلفة مدى ازدياد أثر الحضارة الميزوليتية . ويبدو أن سكان القرى استعاروا من السكان الأصليين القوس والسهم ذا الرأس العريض ، وآلة تجمع بين الفأس والشاكوش تطورت من آلة أقدم منها كانت تصنع من قرن الوعل . وكانت القرى أكبر مما كانت عليه فى الأزمنة السابقة ، كما كان يسكنها أهلها لفترات أطول . وحصنوا بعض قراهم وأصبحت المنازل من ناحية أخرى أصغر مما كانت عليه ، وهو الأمر الذى يوحى بأن الضعف فى صلات القرابة أخذ يدب بين تلك الجماعات عما قبل . وزاد الاتقان فى صنع الأوانى الفخارية ، وتعددت أشكالها، كما أن الزخارف القديمة ذات الخطوط المنحنية كانت غالبا ماتلون بدلا من عملها بواسطة الضغط على طين الاناء . وكان لديهم أيضا تماثيل كثيرة صغيرة الحجم كانوا يصنعونها من الطين وأكثرها يمثل النساء وحمام القمرى والثيران وكل هذه التماثيل ذات صلة بعبادة الالهة الأم التى انتشرت عبادتها فى جنوب غربى آسيا مما يدل على أنها كانت تعبد فى هذه المنطقة .

وبالرغم من أن مستوى العيش كان مرتفعا عما كان عليه فى المرحلة الأولى فانه لم تكن هناك على ما يبدو طبقات اجتماعية بينها فوارق واضحة . ويكاد يكون مؤكدا أنه كان يوجد رؤساء قبائل وكهنة أو كاهنات ولكن لم تكن العلاقة بين هؤلاء وبين زملائهم من رجال القبائل علاقة استغلالية .

وفى كل أنحاء وسط أوروبا ابان العصر النيوليتى كان يوجد ميل واضح

نحو الاكثار من التنقل ، ولسنا نملك مايدل على أن الشعب الذى استوطن وسط أوروبا قد أصبح شعبا من الرحل الحقيقيين ، ولكنهم كانوا يتحركون كما يحلو لهم ويرجع ذلك الى تحولهم المتزايد من الزراعة الى الاقتصاد القائم على تربية قطعان الماشية . وليست هذه الحالة الا رد فعل لانتشار الأرض التى تنبت فيها الحشائش والأشجار الى الشرق منهم ، وكان وجودها يعود الى ازالة الانسان للغابات من ناحية والى الظروف المناخية التى استمرت بضعة قرون وجعلت المناخ أكثر دفئا وأكثر جفافا من ناحية أخرى . وقد صاحب هذه القدرة على التنقل توسع مطرد فى العلاقات التجارية وازدياد عظيم فى الحروب لأن الباعث على الحرب قد زاد دون شك بسبب الاقتصاد الجديد القائم على تربية الماشية لأن الحيوانات المستأنسة يمكن سرقتها بسهولة فكان عليهم أن يحموها من الأعداء سواء أكانوا من البشر أم من الحيوانات .

وكانت هناك أوجه عديدة للتشابه بين حضارات وسط أوروباوالحضارات الايجية ، ويمكن تفسير أوجه التشابه هذه بأنها نتيجة للعلاقات المتبادلة بين كل من هاتين المنطقتين وبين منطقة أخرى اتصلت بهما وكانت على الأرجح بلاد الأناضول . وفى جميع عصور ماقبل التاريخ ، كان هناك انتشار منتظم فى أواسط اوروبا للاساليب الحضارية التى نشأت فى الأصل فى منطقة الشرق الادنى ، ومن أعظم الأمثلة على ذلك ظهور سلاح جديد فى نهاية العصر النيوليتى ، وهذا السلاح هو فأس حجرية تستخدم فى الحرب وكانت ذات حدين وفيها ثقب لتثبيت يد فيه . وقد أدى وجود هذا الثقب الى اضعاف ذلك السلاح وجعل من السهل كسره الى قطعتين اذا ضرب به صاحبه ضربة عنيفة ، ولكن السلاح كله كان تقليدا أعمى لفئوس الحرب البرونزية التى كانت مستخدمة فى بلاد ما بين النهرين وفى الأناضول فى نفس الوقت . وحتى النتوءات التى كانت ظاهرة على الفئوس البرونزية بسبب صبها فى قوالب

السبك ، كانوا فى أكثر الحالات يقلدونها عند صنع الفئوس الحجرية .

كانت الفئوس الحجرية من هذا الطراز مستخدمة فى جنوب ووسط أوروبا، وبمرور الزمن ظهرت أشكال محلية مختلفة يظهر فى بعضها تأثير الفأس — الشاكوش المصنوع من قرن الوعل فى العصر الميزوليتى القديم . هذا وقد أراد كثير من علماء أوروبا أن يروا فى الشكل الاصلى للفأس ذات الحدين دليلا على وجود حضارة مستقلة أطلقوا عليها اسم « حضارة فأس الحرب » وأن تلك الحضارة جاءت الى أوروبا من الشرق مع واحدة من سلسلة الغزوات الكثيرة التى وفدت من اقاليم الاستبس الأوروبية — الأسيوية ، ولكننا لانستطيع فى الوقت الحاضر أن نعرف على وجه اليقين ما اذا كانت هناك مثل تلك الحضارة أو مثل ذلك الغزو . فقد عرفت فئوس القتال فى حضارات كثيرة تختلف فى نواح أخرى عن بعضها البعض ، ولو كان هناك حقيقة شعب يمكن تسميته باسم شعب فأس القتال فيجب أن نتصورهم جماعة «صغيرة» لها قدرة كبيرة على التنقل ومحبين للحرب الى أبعد الحدود وذوى حضارة بسيطة انتشرت بسرعة فى وسط أوروبا وأقام أفرادها من أنفسهم حكاما على قبائل مختلفة ومتباينة .

ويبدو أن التقدم فى الصناعات المعدنية فى وسط أوروبا يرجع فى أصله أيضا الى عامل الانتشار . فقد كانوا يستخدمون بعض أدوات قليلة وصغيرة مصنوعة من النحاس المحلى منذ أواخر العصر النيوليتى ، ولكن فنون الصهر والسبك قد عرفوها دون شك عن طريق الشرق الأدنى ، وقد ساعد بل وشجع هذا الانتشار دون شك ما يوجد فى بلاد الكرباتيين (Carpathians) من ثروة معدنية . ويعتبر معدن البرونز من المعادن النفيسة ، ولو أننا غضضنا الطرف عن الأدوات البرونزية التى كانت توضع فى المقابر نجد أنه لم يفقد أو يتلف من هذا المعدن الا القليل ، لأنهم كانوا يختزنون الكثير منه ، تماما كما فعلوا مع الذهب ، على مر الأجيال . وقد قيل انه من المحتمل أن بعض

احتياطى امريكا من الذهب المحفوظ فى فورت نوكس (Fort Knox) يحوى ذهبا مما كان يختزنه الملوك المصريون فى عام ٣٠٠٠ــ٤٠٠٠ قبل الميلاد، وذلك بالرغم من أنه سبك وأعيد سبكه على أشكال مختلفة فى السنوات التى تلت ذلك التاريخ . وبالمثل ساعدت كميات البرونز التى جمعت فى عصر البرونز على توافرها دائما وقد أدى هذا فى النهاية الى استخدامها فى صنع مختلف أنواع الأدوات الخاصة بما فى ذلك الآلات الزراعية .

وكان الناس المختلفون يفضلون أنواعا ونماذج معينة من الأدوات البرونزية فى المناطق المختلفة ، ولا يخالجنا شك فى أنه لم يكن هناك صناع للأدوات البرونزية فحسب ، ولكن كان هناك أيضا رجال يشتغلون فى صناعة الأدوات البرونزية وأنهم كانوا يتنقلون من قبيلة الى أخرى ويمكثون فيها بعض الوقت أينما كانت هناك حاجة الى خدماتهم . وكان مثل هذا يحدث فى أفريقيا الى ماقبل وقت قريب حيث تخصصت عشائر معينة فى صنع الأدوات الحدبدية يخدمون قبائل عديدة دون أن يعدوا تابعين ، أو من بين أفراد أى قبيلة من القبائل . وكان هناك أيضا تجار متجولون يقطعون المسافات البعيدة فى رحلاتهم ، ويحملون معهم قطعا من البرونز كجزء من بضاعتهم وما حل عام ١٥٠٠ ق.م. حتى كانت هناك طرق تجارية منتظمة من بحر البلطيق الى جزر بحر ايجه وكانوا يحملون البرونز المستخرج من منطقة البحر الأبيض المتوسط وأدوات الزينة والترف الأخرى الى الشمال ، ثم يعودون ببضائع أخرى من الفراء وكهرمان منطقة بحر البلطيق . وقد لعب التجار والمشتغلون بصناعة المعادن المتجولون دورا هاما فى نشر الأفكار ، بل والأدوات ، وذلك لالمامهم باللغات المحلية .

ودخل شيئان آخران على جانب كبير من الأهمية أضيفا الى ماكان لدى سكان وسط شمال أوروبا فى العصر البرونزى ، وهما المحراث والجواد فقد كان الأوروبيون فى العصر النيوليتى يستخدمون فى زراعتهم الفئوس

الحجرية التى كانت تصلح تماما لعملية عزق التربة الملأى بجذور النباتات التى تخلفت فيها بعد حرق الغابات . ويدل استخدام المحراث على أن الأرض لم تصبح صالحة للزراعة بالمعنى الصحيح فحسب ، بل انهم كانوا قد توصلوا الى معرفة طريقة من الطرق تسمح باستمرار زراعة الأرض بدلا من طريقة القطع والاحراق التى كانت تستخدم قبل ذلك . ومن المحتمل جدا أن عصر البرونز قد شاهد ظهور نظام الدورة الثلاثية فى الزراعة التى ظلت مستخدمة فى معظم انحاء أوروبا حتى بعد وقت اكتشاف أمريكا .
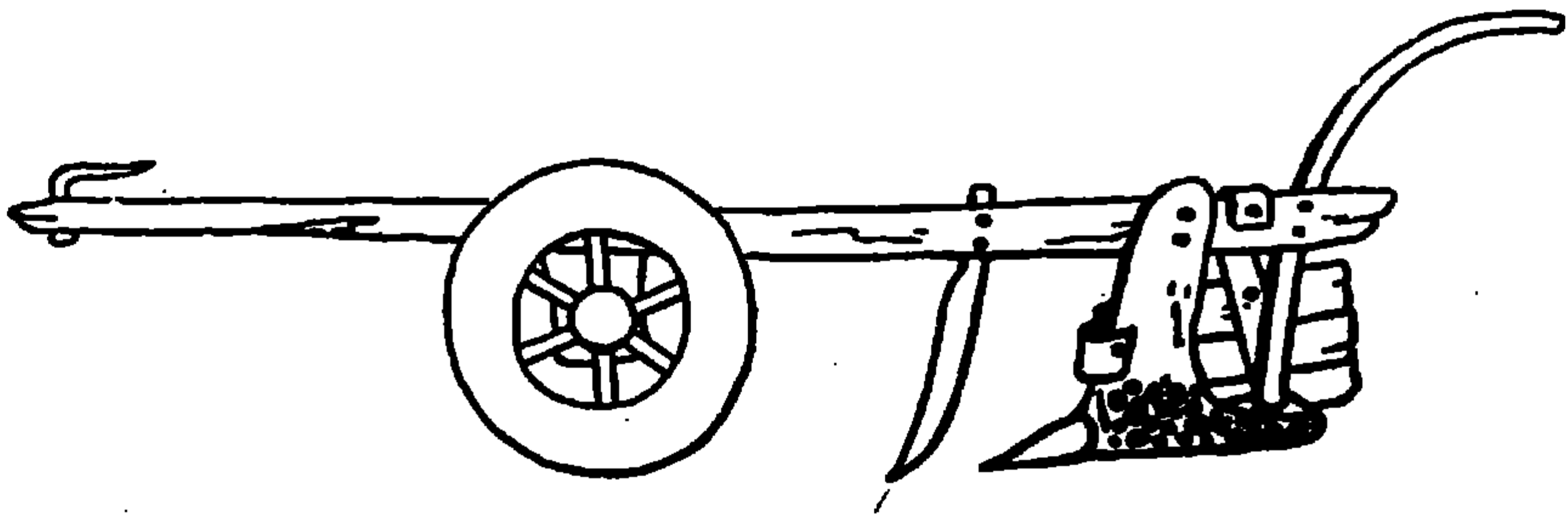
محراث ثقيل

ويقضى هذا النظام ، كما رأينا ، بأن تزرع الأرض حبوبا لمدة عام واحد ثم خضراوات فى العام الثانى ثم تترك بعد ذلك دون زرعها فى العام الثالث . وكانت الحيوانات ترعى طول الوقت فىالأرض التى لا يزرعون بها محصولات، ولم يكن المحراث المستخدم فى الشرق الأدنى القديم يصلح لتكسير التربة الصلبة أو لتقليب التربة الطينية الثقيلة والمتشبعة بالمياه فاخترعوا فى شمال أوروبا خلال عصر البرونز المتأخر أو فى أوائل عصر الحديد طرازا آخر من المحاريث وهو أثقل وزنا ومجهزا بدولاب . ولكن هذا المحراث أيضا كان غير كاف للتغلب على التربة الصلبة فى مناطق البرارى التىمضى عليها وقت طويل. ولم يستطع المهاجرون الأوائل الذين وفدو الى أمريكا وكانوا يستخدمون آلات شمال أوروبا الزراعية قهر البرارى حتى تم اختراع المحراث الحديدى

فى القرن التاسع عشر . ولهذا ، كانت أرض الحشائش فى المنطقة الأوروبية الأسيوية عقبة تحدث الزراعة فى تلك المنطقة أكثر من أى جزء آخر فى القارة، اللهم الا اذا استثنينا المنطقة التى تلى المنطقة القطبية . ولهذا بقيت تلك المناطق وقفا على الشعوب التى تعنى برعى قطعان الماشية والأغنام حتى العصور الحديثة .

ويعتبر دخول الخيل الى أوروبا حدثا على جانب كبير من الأهمية من الناحية الحضارية . فقد كان هناك من بين الحيوانات الأصيلة فىغرب أوروبا جواد وحشى يعيش فى الغابات وكان هذا النوع من الجياد ذا عظام غليظة قوية يصاد كما تصاد الحيوانات الأخرى . ولم يستأنسوا هذا الجواد على مايظهر خلال العصر النيوليتى بالرغم من أنه قد توالد من الأنواع الاخرى التى جىء بها الى تلك المناطق فيما بعد . ومن المحتمل جدا أن بعض دمائه مازالت تجرى فى عروق الخيول الضخمة التى نستخدم فى أعمال الجر حتى الآن فى شمال غربى أوروبا .

ظهرت الخيول المستأنسة الأولى فى وسط أوروبا فى أوائل عصر البرونز وكانت من سلالة سريعة الحركة وخفيفة العظام من أواسط آسيا . ولم تكن الخيول ذات فائدة خاصة للذين يربونها لأجل الحصول على اللبن أو اللحم ، وقد مضى وقت طويل قبل أن تتطور ألجمة الخيول حتى جعلتها صالحةلأعمال الجر العنيفة . ولا يخالجنا الا قليل من الشك فىأن الجواد قد وفد الىأوروبا كحيوان يستخدم فى الحرب، وأنه جاء كجزء أساسى من معدات الغزاة القادمين من الشرق . وعلى أى حال ، فيجب ألا نخلط بين شعوب الخيل فى عصر البرونز وبين راكبيها المدربين من الغزاة الذين أتوا بعد ذلك والذين أتوا أيضا من نفس المنطقة ، وأقدم دليل نملكه على ركوب الخيل فى أوروبا قد عرفناه من حضارة هولستات (Hallstatt) فى عصر الحديد المبكر .

كان استخدام الحصان لأول مرة كحيوان للجر تقليدا لاستخدام الثور

البطىء الأليف ، كما صنع اللجام القديم على نمط نير الثور . أما العجلة الحربية التى جاء ذكرها فى أشعار هوميروس او التى كانت تستخدم فى بلاد الغال ابان عصر الحديد ، فقد كانت عربة متقنة لم يكن يستطيع صنعها الا صناع مهرة يستخدمون أدوات متقنة الصنع . وبكل تأكيد لم تكن العربات قد أصبحت متقنة أو متقدمة الصنع فى عهد شعوب الخيل فى عصر البرونز الذين كانوا أول من أدخل الجياد الى وسط أوروبا . ولما كنا نعرف أن العربات التى تجرها الثيران كانت مستخدمة فى الشرق الأدنى فى عام ٤٠٠٠ ق . م . فمن المحتمل أن تكون العربات الحربية الأولى قد نقلت عنها . ونرى على راية أور الشهيرة ، ويرجع تاريخها الى أيام السومريين، رسما لعجلة حربية ذات عجلات أربع متينة مصنوعة من الخشب ولها جوانب من ألواح الخشب أو من النباتات المضفورة . ومن المحتمل أن بعض ماسموه بعربات نقل الموتى التى وجدت بقاياها فى مدافن زعماء عصر البرونز هى بقايا من تلك العربات الحربية . ومن غير المحتمل اطلاقا أنه كانت توجد أى فرق عسكرية نظامية مدربة فى أوروبا فى الوقت الذى دخل فيه الجواد. كانت جيوش عصر البرونز مثل الجيوش التى وصفها هوميروس مكونة من جماعات من السوقة يتزعمهم أبطال متنافسون ، وكان فى مقدور أى عربة حربية تجرى بأقصى سرعتها نحو هؤلاء السوقة أن تخترق أى خط حربى يمكن أن يشكلوه ، وعندما يتوقف هجومها تستطيع أن تجعل من هيكلها منصة يستطيع راكبوها أن يستخدموه ليقذفوا منه الحراب ، ويحسنوا القتال كما لو كانوا يقاتلون خلف أحد المتاريس .

ولم تظهر العربة الحربية الخفيفة ذات العجلتين التى يركبها اثنان من المحاربين فى وسط أوروبا الا فى النصف الأخير من العصر البرونزى ، ولكن ركوب الخيل لم يعرف الا بعد ذلك ، ولم يعثر فى مقابر عصر البرونز على أى أثر للسروج . وكان ركوب الخيل معروفا خلال العصر الحديدى كله

ولكن لم تظهر فرق من الفرسان المهرة فى أوروبا الا بعد ذلك بكثير . وحتى فى أثناء حروب يوليوس قيصر كان فرسان بلاد الغال والفرسان الجرمانيون من المشاة الذين يركبون الخيل . واستخدمت الخيول كوسيلة للانتقال السريع ولكن راكبيها كانوا يترجلون عادة عند الاشتباك فى القتال ، وذلك لأن عدم وجود السروج والركابات الملائمة جعل الجلوس فوقها شيئا لايمكن الاطمئنان اليه عند الالتحام فى القتال .

وطرأت تغيرات اجتماعية هامة فى معظم أنحاء أوروبا خلال العصر البرونزى المتأخر ، فقد ظهرت الممالك بل والامبراطوريات فى شرق البحر الابيض المتوسط بينما ظهرت نظم الطبقات الارستوقراطية فى معظم أنحاء القارة الأوروبية . وعاش فى شبه جزيرة اسكنديناوة شعب من المزارعين الموسرين الذين كانوا يملكون الأراضى بينما كان الفلاحون فى أى مكان آخر يحكمهم الزعماء أو صغار الملوك ، وركز هؤلاء الحكام الفائض من ثروة مجتمعهم فى أيديهم لينفقوه فى استخدام صناع مهرة من الأجانب وشراء السلع الأجنبية، وفى تجهيز أنفسهم بأشياء باذخة لتوضع معهم فى قبورهم عند انتقالهم الى العالم الآخر . ويبدو أن هذه التغيرات ترجع الى انتشار الأساليب السياسية والنظم الحكومية وذلك لأنه لم يظهر فيها على مايبدو أى تغيرات فجائية كبيرة فى الأساليب الفنية التى كانت معروفة فى الحضارات المختلفة التى ظهرت فيها . ومع ذلك فيبدو من المحتمل أنها ترجع الى وصول أقوام لهم خبرة فى الحرب والادارة الى أوروبا ولكن لم يكن لهؤلاء القادمين الا نصيب قليل من التقدم التكنولوجى ، وقد نجحوا فى تنصيب أنفسهم حكاما على الشعوب التى سبقتهم الى الاقامة هناك . وهذه المشكلة تشبه فى حقيقة الأمر تلك المشكلة الفرضية عن شعوب « فؤوس القتال » التى ناقشناها قبل الآن . لقد شهدت أوروبا غزوات كثيرة من شعوب « همجية » لدرجة أن الانسان لايستطيع الا أن يجد نفسه مسلما بالرأى القائل بأن تلك الغزوات قد بدأت

منذ عصر ماقبل التاريخ ، وأن يفسر الانسان التغيرات التى حدثت فى حضارات ماقبل التاريخ على هذا الأساس .

والخلاصة أن المرء يجد نفسه مضطرا لقبول الرأى القائل بأن طريق البركان أعظم أثرا فى تطور الحضارة فى أوروبا أكثر من البحر الأبيض المتوسط . ان معظم الاختراعات التكنولوجية والاجتماعية التى وصلت الى أوروبا من جنوب غربى آسيا ظهرت أولا فى شرق ووسط أوروبا ، أما موجات الهجرة المتعاقبة التى وضعت أسس المدنية الأوروبية التى ظهرت فيما بعد فقد جاءت كلها اما من وسط أوروبا أو من مناطق تقع الى الشرق منها. اما تفضيل مجىء أصول هذه المدنية عن طريق البحر الأبيض المتوسط وعن طريق الساحل فكان نتيجة لمصادفة تاريخية ، وذلك لأن دراسات التاريخ الأوروبى بدأت على طول الساحل الأطلنطى ، أما المناطق الأثرية فى وسط أوروبا وأهمية مافيها فانها لم تتضح الا منذ الأعوام الخمسين الماضية . لقد ألقت المدنيات اليونانية ــ الرومانية القديمة سحرها على العلماء الاوروبيين ولكن يجب أن نعترف بأن المدنية الآلية الحديثة فى أوروبا تدين لحضارات شمالى اوروبا ولأصولهم الهمجية بأكثر مما تدين به لحضارات اليونان أو الرومان .

الفصل التاسع عشر

الآريون والترك - التتار

انتشرت حضارة القرية من جنوب غربى آسـيا ولم تحمل معها نظمهـا الاقتصادية والاجتماعية غربا الى أوروبا فحسب ، بل حملتهـا أيضا نحـو الشمال الى أقاليم الاستبس الأوروبية الآسيوية ، وهنا واجـه المسـتقرون ظروفا لاتختلف كثيرا عما واجهته الطليعة الأولى من الأمريكيين عندماوصلوا الى منطقة السهول الكبرى .

ان أقاليم الاستبس الغربية غنية بمراعيها ولكن من الصعب زراعتها . لم تكن هناك غابات فيحيلوها الى أراض زراعية بطريقة القطع والحرق . ولم يكن فى مقدور المحاريث البدائية أن تهشم السطح الجاف المتماسك لمنطقـة البرارى التى مرت عليها الدهور . ومما زاد الأمور تعقيدا أن أقاليمالاستبس كانت لها دورات مناخية طويلة تشبه مثيلاتها فى مناطق السـهول فى أمريكا فكانت الأمطار تسقط عدة سنين متوالية يعقبها جفاف لبضع سنين أخـرى وهلم جرا ، وتحت هذه الظروف تحول المهاجرون أكثر فأكثر من الزراعةالى الاعتماد على قطعان الماشية . ولما كان الكلأ من الجودة بحيث جعل تربيـة الماشية أكثر ربحا وفائدة من تربية الأغنام ، فان الاتجاه العاطفى والاقتصادى لهذه الحضارة تركز فى الماشية ومنتجاتها ، والى جانبها الخيول التى كانت استؤنست على مايرجح فى مناطق أبعد منها شرقافاعتنوا أيضا بتربيتها ولكنها كانت فى المرتبة الثانية من ناحية الاهتمام بها .

وفى مثل ذلك المستوى الحضارى السابق لعهد استخدام الأساليب العلمية كان لتربية الماشية نتائج معينة لا يمكن تجنبها ، فليس فى وسع الرعاة الا أن يكونوا قوما محاربين . فقد كان من السهل سرقة الماشية وكان على أصحابها أن يحرسوها باستمرار ، وقد كانوا هم أنفسهم، معرضين دائما لنفس الاغراء ليضيفوا الى قطعانهم بعض مايمتلكه جيرانهم . ولا يمكن للرعاة أن يصبحوا أبدا من البدو الرحل بكل مايحمله ذلك من معنى . وكما يعرف كل من يشتغل بصناعة منتجات الألبان أن الابقار التى تتحرك وتنتقل بصفة مستمرة لايمكن أن تدر الا مقدارا ضئيلا من اللبن ، وأن القطعان يمكن أن تنتقل بين مختلف المراعى مع تغير الفصول ، ولكنها عندما تصل الى المرعى يجب أن تترك لترعى هناك دون ازعاجها .

وأخيرا ، فان الاقتصاد القائم على الماشية سرعان مايؤدى الى ايجاد نظم اجتماعية ارستوقراطية بالنسبة لملاك الماشية ، فالثروة تولد الثروة بطريقة آلية ، وكل مايحتاجون اليه هو الحماية الكافية للقطيع ضد اللصوص والحيوانات المفترسة .

أما العائلة التى لا تملك ماشية فمصيرها الى الفقر المدقع ، فالذى يملك ماشية يطمح على الأقل فى أن يصبح ذا ثروة . وفى نفس الوقت لابد من حدوث تغيرات اجتماعية كثيرة بين مثل هذا المجتمع ، فمن المحتمل أن عائلة من العائلات الغنية تجد نفسها بين يوم وليلة قد أصبحت فقيرة على اثر غارة ليلية يشنها عليها أعداؤها ، أو اذا ما انتشر مرض وبائى يقضى على الماشية ، وعلى العكس فان سرقة الماشية كانت فى نظر الشاب الطموح لها كل ما فى المضاربة فى السوق المالية الآن من لذة مثيرة ، ولا تعجب الجماعة بالفرد من الأفراد أكثر من اعجابها بلص الماشية الذى ينجح فى مغامرته . أما اذا لم يتيسر ذلك، فكانت العادة تحتم على الرجال الفقراء أن يلتحقوا بخدمة ملاك الماشية الأغنياء . وكان هؤلاء الأخيرون يفضلون أقاربهم ليساعدوا فى حراسة

قطعان السيد والعناية بها ، وفى مقابل هذا كان على السيد أن يقدم لهم الحماية وأن يعطيهم نصيبا من نتاج القطيع ، ولما كانت الأيدى العاملة قليلة عـادة ، فان الاقارب البعيدين أو حتى الغرباء كانوا على ثقة من أنهم سيلقون الترحيب.

ولم يخلف رعاة الماشية لعلماء الآثار أى شيء يساعدهم فى دراسة حياتهم اللهم الا فى المقابر وذلك لأنهم كانوا يفضلون الحياة فى محلات سكنية صغيرة تبعد كل منها عن الأخرى وتشبه الـ « كرال » (Kraal) بين قبائل البانتو (Bantu) فى جنوب أفريقيا .

وعلى أى حال فانا لا نجانب الصواب اذا قلنا انه لم يحل منتصف عصر البرونز حتى كانت حضارات رعاة الماشية قد أصبحت ذات طابع واحد عـام انتشر فى معظم المناطق الغربية لأقاليم الاستبس الأوروبية الاسيوية .

ولقد رأينا كيف أن الغابات قد اختفت وحـلت محلهـا الأراضى المزروعة بالحشائش فى أماكن كثيرة من أواسط أوروبا خلال العصر النيوليتى المتأخر وعصور البرونز ، وكيف أن حضارة رعاة الماشية قد انتشرت ناحيـة الشرق وعمت المنطقة الجديدة . ويرجع بعض ذلك الى عامل الانتشار العادى كمـا يرجع البعض الآخر الى الهجرة الفعلية . وحملتهم الهجرات كثيرا نحو الغرب حتى تجاوزوا حدود أرض الحشائش ، لأن رعاة الماشية وجدوا فى الفلاحين المشتغلين بالزراعة فى غرب أوروبا سلالة جديدة وافرة الربح من الحيوانات المستأنسة . فعندما كانوا يأسرون جماعة من الفلاحين ، وهو أمر لا تقف دونه صعاب كبيرة ، فان الخطر الوحيد الذى تنطوى عليه مثل هذه العملية هـو أن بعض العائلات الأخرى ممن تحتفظ بالفلاحين ربما حاولت أن تسرقهم منهم. وكانت الحالة خلال القرون القليلة الأولى بعد وصول رعاة الماشية ، تشـبه الى حد كبير تلك الحالة التى وصفها هيرودوت لحياة الاسكيذيين . فقـد احتفظت طبقة النبلاء من الاسكيذيين بحضارة الماشية الخاصة بهم ولكنهم دعموها باستغلالهم لعامة الشعب الاسكيذى الذين كانوا يزرعون الحبوب ،

وكانوا يقدمون مايزيد على حاجتهم بكل خضوع الى حكامهم .

وفيما بين عامى ١٨٠٠ و ١٥٠٠ ق.م. تقدمت القبائل التى ترعى الماشية نحو الجنوب آتية من أقاليم الاستبس على طول الجبهة الممتدة من الهند حتى البلقان . ونعرف مما خلفته لنا الجماعات المتمدنة التى هاجمتها تلك القبائل أن أولئك الغزاة كانوا يتكلمون جميعا لغات تنتمى الى أصل هندى ــ اوروبى .

فالقبائل التى غزت الهند كانت تسمى نفسها آريا (Arya) ، ومن هنا جاء لفظ آرى الذى أسىء استعماله ، اذ يمكن استخدام كلمة آرى للدلالة على قبائل حضارة رعاة الماشية والتى تتكلم لغة من اللغات الهندية ــ الأوروبية، ولكن لايجوز اطلاقا أن يستخدم هذا اللفظ ليدل على جماعات تنقصها احدى هاتين الصفتين . ويبدو من المحتمل جدا أن القبائل التى كانت تشترك فى حضارة رعاة الماشية فى اقليم الاستبس لم تتكلم كلها اللغة الهندية الأوروبية فقد شملت هذه المنطقة الحضارية على مايرجح بعض القبائل التركية ــ التتارية الذين كانوا يعيشون على حدودها الشمالية الشرقية ، كما يوجد ايضا مايدل على أن بعض اللغات الهندية الأوروبية كانت مستعملة خارج منطقة رعى الماشية منذ أقدم العصور . وفى مناطق مثل مناطق السهول الأوروبية الاسيوية حيث لاتوجد عقبات طبيعية تعوق التنقل يصبح من السهل انتشار لغة واحدة فى مساحة كبيرة . ويجب أن نذكر دائما أنه على الرغم من التحول التدريجى من أراض تنمو فيها الحشائش الى غابات عندما يتجه المرء نحو الغرب فان مناطق السهول نفسها تمتد من جبال تين شان (Tien Shan) الى بحر البلطيق .

وتدل كل من المخلفات الأثرية والمدونات التاريخية على أنه كانت توجد شعوب تتكلم باللغات الهندية ــ الأوروبية فى التركستان ، وفى حوض نهر التاريم (Tarim) الى ما قبل بداية العصر المسيحى بفترة قصيرة ، ومن الممكن أن

تلك اللغات قد امتدت بنفس القوة فى اتجاه الغرب . فان اللغة الـ « لتيه » (Lettish) ، وهى من أكثر اللغات الهندية ــ الأوروبية فى بساطتها ، كانت مستخدمة فى الغابات على حدود بحر البلطيق منذ أقدم العصور ، كما نعرف أيضا من السجلات الحيثية انه كانت توجد فى بلاد الأناضول مجموعة أخرى بدائية من اللغات الهندية ــ الأوروبية .

وكان بعض الباحثين يرى فى انتشار اللغات الهندية ــ الأوروبية فى أوروبا ظاهرة لايمكن تفسيرها . وكانت النظرية المقبولة تقول ان القارة الأوروبية فى العصور النيوليتية كانت آهلة بقبائل تتكلم لغات كثيرة من عائلات لغوية مختلفة ، وكان الباحثون يدهشون للسهولة الواضحة التى تخلت بهاالشعوب عن لغاتها الأصلية والتى تقبلوا بها لغة الآريين الغزاة . ويبدو من المحتمل أيضا أن ذلك العدد الكبير من اللغات القديمة كان من مميزات منطقة البحر الأبيض المتوسط وساحل الاطلنطى من الحدود للقارة أكثر من داخل القارة نفسها ، أما وسط وشرقى أوروبا فكان سكانها يتكلمون اللغات الهندية ــ الأوروبية منذ العصور النيوليتية نفسها . ولا توجد لدينا فى هذه المرحلة من البحث مايدل على نوع ذلك التنافس اللغوى الذى خلف لنا فى غرب أوروبا كثيرا من أسماء الأماكن التى لا تمت الى اللغات الهندية ــ الأوروبية بصلة ، كما تركت شعب الباسك (Basques) فى عزلة لغوية .

كانت كل القبائل الآرية تجهل القراءة والكتابة عندما ظهروا للمرة الأولى على مسرح التاريخ ، ومع ذلك فقد خلفوا لنا من ورائهم ما يمكننا من فهم حياتهم بدقة كبيرة .

لقد أشار مؤلفون عديدون الى أنه كانت هناك علاقة وثيقة على ما يبدو بين الاقتصاد القائم على رعى الماشية وبين كتابة شعر البطولة ، ولم تشذ القبائل الآرية عن هذه القاعدة . فقد كان للشعراء المنشدين مكانة هامة فى مثل ذلك المجتمع لانهم كانوا يجمعون بين عمل المكتبة التاريخية ورجل

الدعاية . كان المنشدون ينظمون ، وفى معظم الاحيان يحفظون عن ظهر قلب، قصائد منظومة عن الأحداث التاريخية وأعمال الابطال . وبالرغم من أن موضوعات هذه القصائد ملأى بذكر الدم ، ولحوادثها ضجيج كهزيم الرعد، فان القارىء الحديث لا يجد فى تلك القصائد الا أشياء مملة لايمكن احتمالها. كانت القصائد الجديدة تنظم عندماتحدث حادثة عظيمة أو عندما يقدم سيد ثرى للشاعر شيئا يحفزه على ذلك وكانت غاية ما يتمناه كل زعيم آرى هو أن يحيى الشعراء ذكراه بهذه الطريقة، ولاشك فى أن نماذج السلوك البطولى التى تضمنها هذه القصائد ، ورغبة كل انسان فى أن يذكر كبطل من الأبطال كان له تأثير حقيقى على سلوك تلك الشعوب . وكان الاعتقاد السائد بين الآريين ان الطريقة التى يكسب بها المرء أى شىء أو يخسره لا تقل بحال من الأحوال فى الأهمية عن الكسب نفسه .

وكان المنشد الذى يدس اسم جد المضيف أو قصة من القصص المحلية المتداولة فى احدى القصائد البطولية الذائعة الصيت يثق ثقة تامة بأنه سيجزل له العطاء المضاعف ، ولهذا فليست لهذه القصائد أهمية تاريخية كبيرة، ولكن فى الوقت ذاته يمكننا الاعتماد على الصورة التى يقدمونها للحضارة لأنهم كانوا يفعلون ذلك دون قصد .

ونستطيع من دراسة المدلولات العامة للقصائد البطولية الآرية التى بقيت محفوظة فى مناطق متفرقة كالهند وايران واليونان وايرلندا وشبه جزيرة اسكنديناوة أن نصور لأنفسنا حياة الآريين عندما كانوا يحاولون تهيئة أنفسهم لدورهم الجديد كحكام على السكان الفلاحين الذين غلبوا على أمرهم. أما عن العصر السابق على ذلك قبل أن يتركوا منطقة الحشائش فلدينا بعض الدليل الذى نحصل عليه من أصول الكلمات التى كانت مستعملة فى جميع اللغات الهندية ــ الأوروبية فيما بعد أو فى غالبيتها العظمى . ومع ذلك فان هذا الدليل اللغوى قليل جدا لدرجة انه يبدو من الأفضل لو أننا قصرنا هذا

الوصف على الوقت الذى تم فيه الغزو .

عندما هاجر الآريون من اقاليم الاستبس كانت حياتهم الاقتصادية قـائمة على صناعة الألبان ، ولكنهم كانوا أيضا يقومون بالزراعة من آن لآخر ، فلما استوطنوا فى المناطق الجديدة تركوا عن طيب خاطر أمر حرث الأرض وزراعتها لرعاياهم .

وكانوا ينظرون الى التجارة على أنها بديل عن السرقة بالاكراه ولا تختلف عنها الا قليلا ، بل وفيها شىء من المهانة ، ولهذا كانوا لا يمارسونها الا عند الضرورة ، وكانوا يعتبرون التسليف بالفائدة مساويا تماما للاختلاسات الطفيفة ، وانحصر اهتمامهم فى الحرب وتربية الماشية والخيول أو سرقتها . وبالرغم من أن الجماعات القروية المغلوبة على أمرها كانت تربى الاغنام والماعز فانها لم تذكر الا قليلا فى القصائد البطولية . وكانت الخيول ذات أهمية كبيرة فى حياتهم سواء للركوب أو لجر العربات ، ومع ذلك فلم يرد ذكر القتال على صهوة الخيول الا مرات قليلة حتى فى القصائد البطولية المتأخرة اذ كانت العربات الحربية هى وسيلة النقل المفضلة لدى الزعماء والأبطال الأولين .

أما الأسلوب الفنى لديهم فقد كان مطابقا لأسلوب جنوب غربى آسيا ، ولم يدخلوا عليه الا تعديلا قليلا أو لم يدخلوا عليه أى تعديل على الاطلاق ليجعلوه ملائما لحياة البداوة التى كانوا يحيونها . لم تكن للآريين مساكن يمكن نقلها مثل الـ « يورت » (Yurt) الذى كان يستخدمه الترك ــ التتار. وكانوا يشيدون ، حيثما يستقرون لأيام قلائل ، أكواخا من فروع الأشجار الملطوسة التى كان من السهل عليهم بناؤها وتركها . أما الملابس فكانت تصنع من الصوف المغزول على النول ، ولم يفصلوها بل كانت تلف حول الاجسام بالرغم من أن السراويل لم تلبث أن ظهرت بين قبائل شمال أوروبا . وكانوا يعرفون العجلة والمحراث وكانوا يصنعون الأوانى الفخارية . وكانوايعرفون صناعة كل المعادن ماعدا الحديد عندما غادروا أقاليم الاستبس ، ولم يلبثوا

الا قليلا حتى عرفوا أيضا صناعة الأدوات الحديدية . وكانت أنواع السلاح كثيرة ، ومنها الحراب والسيوف والفئوس المختلفة الأنواع ، ومنها القوس والسهم والخوذة والدرع . أما اســتخدام الزرد الكامل الذى كان يغــطى الجسم فليس هناك مايثبت استخدامه فى العصر المبكر . وكان الموسرون من الرجال والنساء يتزينون بالحلى الذهبية ، وكانت أكثر الهدايا تشريفا لمــن تقدم اليه الحلية ، ان صاحبها كان يخلعها وتعطى للمهدى اليه مباشرة .

وفى الفترة الأولى من تاريخهم كان هناك صناع آريون ، وبخاصــة من كانوا يشتغلون بأعمال الحدادة الذين كان لهم مركز اجتمــاعى لابأس به ؛ ولكنهم تركوا أمر الصناعة بعد ذلك الى الشعوب التى خضعت لهم .

لم يكن الآريون من البدو الرحل الذين لم تربطهم بالأرض الا صلة واهنة. كانوا لأى سبب من الأســباب يكومون أمتعتهم على عربات ثقيــلة تجرها الثيران ، ويحرقون أكواخهم ويرحلون الى أرض مجهولة جــديدة عليهم ، وكانت تنقص غزواتهم تلك السرعة الخارقــة والقدرة على التنقل اللتــان امتازت بهما هجمات قبائل الهون والمغول فيما بعد . كانت القبيلة كلها تتحرك كوحدة ثقيلة ومعها ماشيتها ، وكان النصر يعنى بالنسبة لهم احتلال أراض جديدة للرعى ، أما الهزيمة فكان معناها الفناء . ولكن هذه التحركات القبلية الجماعية أصبحت أقل شيوعا عندما لاءم الآريون أنفسهم لدورهم كنبــلاء قاهرين ، ولكنهم استمروا حتى العصور الكلاسيكية (اليونانية ـ الرومانية)، وكانوا مصدر رعب لســكان منطقة البحــر الأبيض المتوسط المتحضرين ، ولنضرب مثلا لذلك ما حدث من رد فعل عند الرومان فى أثناء الغزو الذى قام به الكمبريون (Cumbri) والتيوتونيون (Teutons) وهجــرة الهلفتيين (Helvetii) التى أدت الى غزو الرومان لبلاد الغال .

وتصور كل القصائد البطولية مجتمعا مكونا من ثلاث طبقات ، يتكون من طبقة النبلاء ومن طبقة العامة وكلتا الطبقتين من الآريين أما الطبقة الثالثة فهى

طبقة الخدم الذين يعملون فى زراعة الأراضى وكانوا من السكان المحليين المغلوبين على أمرهم . ولم يكن هناك ملوك بالمعنى المتعارف عليه لهذا اللفظ ، ولو أن الزعماء القادرين كان فى استطاعتهم أن يصبحوا زعماء لقبائل متحالفة . وكانت الأسر التى يخرج منها زعماء لعدة أجيال تصبح الطبقة الأرستوقراطية العليا ، وكان لأفرادها الاسبقية عندما كانت الحاجة تدعو الى وجود زعيم عظيم . أما الرقيق الذين كانوا يباعون ويشترون فكان وجودهم نادرا فى العصور المتقدمة . وكان من النادر فى حالة نشوب حرب بين الجماعات الآرية، أخذ أسرى من الرجال بينما تصبح النساء محظيات للمنتصرين ، ويصبحن فى النهاية من بين نساء قبيلتهم . وكان العامة والنبلاء متصلين بصلة القربى والفارق الرئيسى بينهم يكمن فى فوارق الثروة والمكانة الاجتماعية . أما خدم الأرض ، اذا ذكروا على الاطلاق فى القصائد البطولية ، فانهم كانوا يصورون فى مركز اجتماعى أقل من خيول وكلاب النبلاء . فقد كان الآريون يشعرون بعاطفة قوية نحو هذه الحيوانات ، وكانت أسماؤها وصفاتها الشخصية تظهر فى القصائد البطولية جنبا الى جنب مع أصحابها .

كان المجتمع الآرى مجتمعا يتبع نظام الانتساب الى الأب ، ولكن الأهمية العظيمة التى كانوا يعطونها لاستقلال الفرد وكفايته تجعل من الصعب علينا أن نقول عن ذلك المجتمع ان العائلة كانت تخضع لسلطة الأب . فقد كان فى مقدور الأبناء أن يتخلصوا من سلطة آبائهم متى شبوا عن الطوق . وكانوا يرتكنون على أواصر القرابة مع كل من عائلتى الأب والأم مادامت هذه القرابة قائمة وعالقة بالاذهان ، وكان هذا بدوره يفسح أمام الفقراء من الرجال وأبنائهم الشبان مجالا واسعا للاختيار بين مجموعات العائلات التى يفضلون أن يربطوا أنفسهم بها . وكان زعيم العائلة الأكثر كرما يجذب اليه معظم الأتباع لأن التقتير كان من أحقر الرذائل التى يمكن أن يوصم بها نبيل آرى . كانت أصول الضيافة مرعية بالنسبة للجميع ولا حدود لها، وكانت العلاقة بين الضيف

والمضيف تعقد رابطة يمكن أن تنتقل الى أحفاد الفريقين .

وكانت القبيلة الآرية تتكون من مجموعة من البيوت ، يتكون كل منهـا من رب البيت وزوجته أو زوجاته ومن الأطفال ، ومن اخوته الأصغر منه سنا وعائلاتهم الا اذا كان لهم من النشاط ما يجعلهم يشـقون طريقهم بأنفسهم ، وكذلك من الأقارب البعيدين الذين اختاروا ان يربطوا أنفسهم بهذه الجماعة. وكان رؤساء العائلات يكونون طبقـة النبلاء ، أما اقاربهم الفقـراء فكانوا يكونون طبقة العامة . وكان كل بيت من تلك البيوت يملك قدرا معينـا من الأرض يعيش عليه خدم الأرض . فمثلا فى ايرلندا فى العصـور القديمة اذا أراد المرء أن يعتبر من النبلاء كان عليـه أن يكون مالكا لعشرين رأسـا من الماشية أو خمس عائلات من خدم الأرض . أما رئيس القبيلة الآرية فلم يكن الا زعيم أغنى وأهم عائلة فى القبيلة . وكان بيت زعيم القبيلة ، كبيت أى رئيس عائلة ، فيما عدا أن بيته كان أكبر حجما وفيه عدد أكبر من الأتباع المتطوعين . وكان الكثيرون من هؤلاء الاتباع من بين الأقارب البعيدين للزعيم ، ولكن كثرة عدد الرجال كانت على درجة كبيرة من الأهمية ، ولهذا كانوا يقبلون أيضـا حتى الغرباء عنهم وكان هؤلاء الاتباع المتطوعون يعتمدون فى حياتهم على كرم الزعيم ، ويهبونه ولاءهم مقابل ذلك . وفى المعارك ، كانوا الحرس الخـاص للزعيم ، وكان المفروض أنه لو مات فى المعركة فانهم يموتون معه . وان المرء ليرى فيهم الصورة الأصلية لفرسان المائدة المستديرة أيام الملك آرثرو «اخوان الغصن الأحمر» فى ايرلندا القديمة وهم أقل شهرة من «فرسان المائدة المستديرة».

كان منصب الزعيم يحمل فى ثناياه مسئولية أكثر مما يدره هذا المنصب من منفعة اقتصادية . فلم تكن تدفع للزعيم أية ضرائب ، وكان يتوقع منه أن يقوم بمصروفات بيته من دخل ممتلكاته الخاصة . وكان ملوك أوروبا فى العصور الوسطى خاضعين لهذه القاعدة التى لايزال صداها حتى الآن فى بلاد أوروبا الشمالية وفى الولايات المتحدة ، حيث تعتبر المناصب الحكومية أمرا يجمع

بين الشرف والواجب أكثر منها مصدرا للدخل . وهذه هى الأماكن الوحيدة فى العالم حيث نجد أن قبول الرجل الشريف لتولى المنصب الحكومى يحمل فى طياته خسارة مالية كبيرة .

وبالرغم من أن تنظيم أماكن السكنى فى البيوت الآرية يختلف بعض الشىء من مكان لآخر ، فان ترتيبها الأساسى يكاد يكون واحدا فى كل مكان . فقد كان هناك مبنى رئيسى يسمى البهو تحيط به مجموعة من المنازل الصغيرة التى كانت تستخدم كحظائر للخيل ، والورش والمخازن ، ومساكن اقامة الخدم الذين يخدمون فى البيت. وكان رب العائلة وأقاربه يعيشون فى البهو حيث كانوا جميعا يتناولون طعامهم وينامون فيه . وكان رب العائلة وخاصة أقاربه وضيوفه المكرمين يحتلون جميعا مكانا يرتفع عن غيره فى آخر البهو . وعند كل وجبة طعام كانت تنصب الموائد ذات الحوامل الخشبية فتجلس كل جماعة بحسب مكانتها ، وأهمهم من كانوا أقرب الى المنصة العالية . فاذا ما حل الليل كانوا يرفعون الموائد وينامون على الأرض . أما رب العائلة وبعض الأفراد القلائل ذوى الشأن فمن المحتمل أنهم كانوا ينامون فوق مصاطب مبنية يستعملونها كمقاعد فى النهار ، وكأسرة فى الليل . أما الضوء والحرارة فكانوا يحصلون عليهما من المدافىء المبنية فى وسط المكان . وكان الدخان يخرج من فتحة فى منتصف السقف . ويشبه هذا النظام الى حد بعيد مثيله فى المنازل الهندية فى كولومبيا البريطانية فى أوائل القرن التاسع عشر . وحيثما كان عدد السكان المغلوبين على أمرهم كثيرا ومعتادين على العيش فى المدن ، كما كانت الحال فى مسينا فى اليونان ، فان مقر الأسرة الحاكمة كان محصنا تحصينا قويا ، ويصلح لأن يكون المركز الرئيسى لمحلة سكنية كبيرة . ومن ناحية أخرى فقد كانت كل عائلة فى شمال أوروبا تعيش فى عزلة عن غيرها لا يحميها شىء غير شجاعة أفرادها .

ولم تكن الحياة فى هذه البيوت حياة يسودها الملل ، فقد كانت هناك

الحزازات التى تكفى لجعل العائلات تعيش فى حذر ، كما كانت الغــارات التى يشنونها على ماشية جيرانهم مدعاة لسرورهم وللربح أيضا . وكان المنشدون المتجولون يأتون ويمكثون ماداموا يضمنون قرى المضيف لهم ، وكانت المقامرة من الأعمال العادية ، أما الافراط فى شرب الخمر فكان القاعدة المتبعة .

ولا نجد وصفا لموقف الآريين تجاه الجنس والزواج ، كما وضحته القصائد البطولية ، خيرا من قولنا انه كان شيئا عرضيا . فبالرغم من أنه لم يقف أحد على أثر لعادة التجربة الجنســية قبل الزواج ، كما كانت الحال فى جنــوب شرقى آسيا ، فانهم كانوا لا يعلقون أهمية كبيرة على « العذرة » . وجرت العادة بأن يصاحب الزواج تبادل الهدايا ، ولكن يبــدو أنه لم يكن هناك فى العصور المبكرة ثمن مقرر للعروس أو مهر لها .

ونظرا لذلك ، أى لعدم وجود ذلك الجانب الاقتصادى الذى يدعم الزواج، فقد كان الزواج بينهم مزعزعا يسهل فصمه . وكانت الروابط التى تربط المرأة بعائلتها أقوى من تلك التى تربطها بزوجها ، فاذا ماحدث شقاق كان المتوقع من المرأة أن تلوذ بجانب عائلتها الأصلية .

وكان لا يسمح عادة بالزواج بأكثر من واحدة كما هو الشأن فى كل مكان، ولكنهم يستثنون من هذه القاعدة الرجل الغنى أو الجميل الذى كان يسمح له باتخاذ زوجتين أو ثلاث . وكانت النساء هن اللاتى يقمن بالخطوة الأولى فى مثل هذه الحالة اذ تفضل الواحدة منهن أن تستأثر بنصيب جزئى من رجــل ممتاز خيرا لها من احتيازها على رجل أقل شــأنا . وكان اتخاذ المحظيات من طبقة خدم الأراضى من الأمور العادية وكانت المحظيات والزوجات يعشن فى لهو ، ويربى أولادهن جميعامع بعضهم . وموضوع أخى البطل غير الشقيق الذى يشبهه تماما لدرجة أنه يستطيع أن يتقمص شخصيته ويحل محله، وهى القصة التى كثيرا ما تتردد فى كثير من القصص الشعبية فى شمالى أوروبا ، ليس الا صدى وذكرى من الأيام الخوالى التى كان فيها الأخ غير الشقيق

نصف أخ فقط لأنه ابن محظيه .

وكانت المرأة تستمدمركزها الاجتماعى من مركزعائلتها ، ولهذاكثيرا ماكان مركز المرأة مماثلا لمركز زوجها ، ومثل هؤلاء النساء لم يسيطرن سيطرة تامة على العائلة وحسب ، بل كان لهن من الحرية ما للرجال فى منح عطفهن على من يشأن . وبالرغم من أن اتخاذ المرأة لأكثر من زوج واحد كان من الأمور التى يصعب قبول المجتمع لها ، فان اتخاذ عدد من المحبين لم يكن من الأمور التى تشين المرأة النبيلة .

وكان موقف الآريين تجاه الأمور التى هى فوق الطبيعة موقفاً عرضيا أيضا، ففى أقدم العصور كان رؤساء العائلات يقومون بوظائف الكهنة ، وهى عادة ظلت تمارس فى شبه جزيرة اسكنديناوة حتى ظهور المسيحية . أما فى غيرها من البلاد فقد ظهر مختصون بأمور ما فوق الطبيعة ولكن مركزهم الاجتماعى كان ضئيلا ، فقد كانوا يعيشون فى بيوت النبلاء ليضمنوا بوجودهم حسن أداء الطقوس الدينية ، ولكنهم كانوا يعاملون كما يعامل قسس العائلات

وكانت العبادة تتركز حول مجموعة من الكائنات التى لها قوى فوق القوى الطبيعية تعرف باسم « الكائنات المضيئة » . وفى الأزمنة المبكرة لم تتحدد الشخصيات الفردية للكثيرين منهم ولكنهم جميعا كانوا شبيهين بالانسان فى حاجاتهم ومقاصدهم . وكان هناك كائن ذكر يسكن السماء ، وكان أعظم من كل ما عداه ، ولكن من الأمور التى تلفت النظر أنه لم تكن هناك أم للارض تعادل فى أهميتها اله السماء الأب .

كانوا ينظرون الى كل كائن ذكر وكائن أنثى كزوج وزوجة، ولكن كان لكل منهما أوجه نشاطه الخاصة ، فلم يعمل الاثنان معا كوحدة ؛ وهذا انعكاس واضح للوضع الآرى المعتاد للزواج . وكان تحديد صفات الكائنات الأخرى — غير أب السماء — على درجة كبيرة من الغموض حتى أصبح من السهل أن تتجاوب مع النظريات الدينية التى كانت سائدة فى المناطق المختلفة التى غزاها

الآريون . وينطبق نفس الشيء على التنظيم الذى كان يشمل الآلهة كلهم . ولهذا نرى أنه بينما كانت الآلهة النورسية والكائنات الأوليمبية المذكورة فى الأساطير اليونانية والرومانية كانت منظمة على غرار نظام البيت الآرى فان الآلهة الكلتية والايرانية والهندية لا تسير على هذا النظام .

ويمكننا أن نذكر أيضا بعض المظاهر الأخرى فى ديانة الآريين . فلم يكن فى تلك الديانة آلهة من الحيوانات أو شياطين على صورة الحيوانات . وحتى تلك الكائنات مثل « روح الثور » (Ox Spirit) فى بلاد فارس القديمة فانهم كانوا يتصورونها ، على الأرجح ، فى شكل غير حيوانى .

وكان احراق الجثث هو الطريقة المفضلة للتخلص من الموتى . كانوا يعتقدون أن ذلك يحطم الروابط التى تربط الموتى بالأرض تحطيما كاملا وتحول دون رجوع الأشباح ، وكما هو متوقع فى مثل هذه الظروف فانهم لم يعرفوا عبادة الأجداد . وأخيرا ، كان جميع الآريين فيما يبدو يعتقدون فى وجود القضاء والقدر ويرون فيه شيئا غير مجسد ، يفوق كلا من الآلهة والبشر ولا يمكن أبدا أن يتأثر بتلاوة الصلوات أو بتقديم القرابين أو حتى بالسحر . وكان البطل الآرى بسبب هذا الاعتقاد يستسلم للحظ السيىء ، ولكنه جعله أيضا يؤمن بالفوز حتى ولو كانت الخصومة قائمة بينه وبين الآلهة .

كانت الحضارة الآرية بسيطة لدرجة انه لم يكن فى استطاعة أصحابها أن يسهموا بمجهودات مباشرة ذات أهمية . كانت هذه المجهودات من الناحية التكنولوجية متصلة اتصالا تاما بالأسلحة وأساليب الحرب ، أما فى الناحية الاجتماعية فكان أثرهم أبعد مدى . فقد أصبح نظام بيت النبيل ، بما فيه من حماية الأتباع واستغلال الفلاحين الذين يعيشون فى ممتلكاته الشيء الطبيعى فى حضارة الكلتيين وفى أوروبا الجرمانية . وبينما كان من المفروض أن هذا النظام اختفى من بلاد الغال ومن بريطانيا خلال فترة الاحتلال الرومانى ، فمن الصعب علينا أن نقول الى أى مدى ظل باقيا فى المناطق الريفية ، حتى خلال

تلك الأيام . وتوحى السهولة التى أعيد بها العمل بهــذا النظام بعد سقوط الامبراطورية الرومانية بأنهم كانوا يتذكرونه جيدا . وعلى أى حال فانالقبائل الجرمانية التى غزت غربى أوروبا ظلت محتفظة بهذا الأسلوب ، ونراه واضحا فى نظام الاقطاع . والكلمة الفرنسية « مين » (menes) التى كانت شــائعة الاستعمال فى العصور المظلمة ، والتى جاءت منها كلمة « ديمين »(desmenes) بمعنى مجموعة الممتلكات ، كانت هى الكلمة الدالة على البيت الآرى القديم ومشتملاته . وكانت النقطة الوحيدة المهمة التى اختلف فيها نظام الاقطــاع عن النظام القديم الذى سبقه هى ذلك المبدأ الذى غطى على كل شىء عداه ، وهو ثقة العائلات الضعيفة من معونة العائلات الأقوى اذا قطعت على نفسها العهد بالمساعدة فى الحرب . وفيما عدا تلك الخدمة الحربية فاننا نجد الواجبات المفروضة فى نظام الاقطاع كانت فىالعادة خفيفة جدا، ولم تكن أكثر من شىء رمزى فى قيمتها .

ولعل أهم ما قدمه الآريون للمدنية التى جاءت بعد ذلك هو تثبيت النظام الارستوقراطى الذى ظل فى أوروبا حتى العصور الحديثة . وأى حضارةتنتشر انتشارا واسعا بين أمة من الأمم لابد أن تكون مكونة من حضارات فرعيــة عديدة. وبينما كانت الحضارات الفرعية لطبقة الفلاحين والطبقة البورجوازية فى بلاد أوروبية عديدة تختلف عن بعضها البعض ، فان الحضارات الفرعيــة للطبقة الأرستوقراطية كانت متشابهة لدرجة أن أى ارستوقراطى من أى دولة كان فى استطاعته أن يتفهم طرق وأساليب أى أرستوقراطى آخر من دولةأخرى أكثر مما يستطيع أن يتفهم حضارات الطبقات الأقل شــأنا فى بلده نفســه . وكانت حياة الصيد فى الهواء الطلق امتيازا للطبقات الارستوقراطية منذ فجر التاريخ الأوروبى . وعندما أصبحوا فى غير حاجة الى الصيد لتدعيم مؤونتهم من الطعام ، واصلوه كرياضــة ورمز للدلالة على أنهم أعضاء فى الجمــاعة الأرستوقراطية . وكان على الرجل النبيل أن يكون فارسا ماهرا ، ويشير كل

من لفظ ريتر (Ritter) فى الألمانية وشيفالييه (Chevalier) فى الفرنسية ،وكلاهما يرمز الى الرجل النبيل ولكن معناه الحرفى « فارس » ، الى هذا المعنى . وقد قيل انه حتى فى القرن التاسع عشر فى انجلترا كان الشاب الذى ينتمى الى الطبقة الأرستوقراطية يفضل أن يطعن الناس فى أخـلاقه على ألا يطعنوا فى مهارته فى ركوب الخيل .

كانت مشاغل النبيل الأوروبى محدودة جدا . فلم يكن فى مقدوره أن يعمل فى الأرض بنفسه دون أن يتعرض للحط من قدره ، ولم يكن فى مقدوره أيضا أن يشتغل بالتجارة . وكانت الحرفة الوحيدة المربحة الباقية أمامه هى تربيـة الخيول والماشية . ومن الأمور الجـديرة بالذكر أنه فى الوقت الحاضر وقد فقدت الخيول أهميتها الاقتصادية فان فى مقدور الشباب الانجليزى الذى ينتمى الى طبقة عالية أن يتحولوا الى تجارة السيارات دون أن يخرقوا قانون التحريم (التابو) المفروض على التجارة كما يقول علماء الانثروبولوجيا. وكانوا ينظرون الى الأعمال العقلية والفنية بشىء من الاحتقار ، وهم يسيرون فى ذلك على الأسلوب القديم للحياة الآرية . وقد يهتم الرجل الأرستوقراطى بتشجيع الفنون والعلوم ، ولكن لم يكن مفروضا فيه أن يشترك فى عمل شىء منهـا بنفسه. وحتى العصور الحديثة جدا كان الارستوقراطيون الأوروبيون لا يتعلمون الا تعليما بسيطا ، وكانت المدارس المخصصة لهم تهتم بتكوين الشخصية أكثر مما تهتم بتقديم المعلومات النافعة الى الطلاب أو أن تربى مهارتهم العملية . ولقد قيل ان معركة « ووترلو » قد كسبت فى ملاعب كلية « ايتون »، ويمكن أن يضاف الى ذلك أن معركة سنغافورة قد خسرها الانجليز فى الفصول الدراسية لتلك الكلية .

وقد يذهب الرجل الأرستوقراطى الى الكنيسة ، خصوصا اذا كان الابن الأصغر لوالديه ، ولكنه كان يكره التدين ويفضل أن يفعل كل ما ينهى عنه الدين المسيحى أو يحرمه ، ولا يقبل على اتباع تعاليمه . أما عن موقفهم تجاه

الأمور الجنسية فان ذلك كان أيضا بالصفة العرضية التى كان يمتاز بها الآريون القدماء .

وكان المتوقع من الشخص الأرستوقراطى أن يتزوج من طبقته ليضمن المركز الشرعى الصحيح لنسله، ولكنهم لم يشترطوا درجة عالية من العفة سواء قبل أو بعد الزواج . وكانت الصلات العرضية مع نساء الطبقات الدنيا أمرا مسلما به ، وبهذه المناسبة يجب ألا ننسى أنه بالرغم من تحريم تعدد الأزواج الذى تفرضه المسيحية فان العائلات الملكية فى أوروبا كانت تمارس تعدد الزوجات الى ما قبل وقت قريب . فقد كانوا يتوقعون أن يكون للملك أو للنبيل العظيم عدد من المحظيات ينتسبن عادة الى عائلات أرستوقراطية متباينة ، كانت تأمل أن يزداد نفوذها السياسى عن هذا الطريق . وبالرغم من ان أبناء أولئك المحظيات كانوا محرومين من تولى العرش فقد كانت مراكزهم الاجتماعية معترفا بها فى الوسط الأرستوقراطى . ونظرا لأنهم كانوا محرومين من تولى العرش وكان حصولهم على الثروة رهينا بما تجود به مكارم أبيهم الملك ، فقد كانوا على العموم بوثق من اخلاصهم أكثر من الورثة الشرعيين ، وكان فى الامكان أن تسند اليهم مراكز هامة ، لو أن الوريث الشرعى تولاها لاستطاع أن يدبر ثورة للاستيلاء على الملك . ولهذا كان لقب « الابن العظيم غير الشرعى لمقاطعة بورجوندى » لقبا محددا محترما كلقب « امير ويلز » ، وكانت العادة تقضى بأن يكون صاحبه هو القائد العام للجيوش البورجوندية .

وكان الأرستوقراطى يستطيع أن ينغمس فى المقامرة ويفرط فى شرب الخمر دون أن يخشى شيئا على مكانته الاجتماعية، وكان الشىء الوحيد الذى يجب عليه أن يلتزم به هو الا يغش فى اللعب ، وأن يكون لديون المقامرة الأسبقية على كل ما سواها من الديون ، وربما كان السبب فى ذلك هو أن هذه الديون كانت ديونا لأشخاص مساوين له.ولهذا السبب أيضا كان الغش فى لعب الورق خطيئة لا تغتفر ، ولا تقل فى بشاعتها الا درجة واحدة عن الجبن المادى . وكان

المنتظر من الزعماء منذ أيام الغزوات الآرية القديمة أن يقودوا أتباعهم فى المعركة وان يخاطروا بأنفسهم مندفعين دون خوف أو رهبة ليضربوا المثل للآخرين ، ولما كانت سيادة الجماعة الأرستوقراطية تقوم على تقاليد الشجاعة والجرأة الفائقة فان كل فرد منها تعوزه هذه الصفات يعتبرونه خائنا لطبقته .

تحد جبال تيان شان والألتاى مناطق أقاليم الاستبس الأوروبية الآسيوية من ناحية الشرق، ويقع بينهما سهل دزنجريان (Dzingarian) الضيق الذى يؤدى الى الهضبة المغولية ، وتكون هذه الجبال عقبة طبيعية بين بيئتين مختلفتين وبين حضارتين تختلفان اختلافا بينا . كانت أقاليم الاستبس الغربية تحصل على الرى الكافى ، وكانت مراعيها الكثيرة مدعاة لوجود اقتصاد مختلط من صناعة منتجات الألبان وزراعة الحبوب ، مما سميناه قبل قليل باسم « حضارة الماشية » . أما السهول المغولية فهى أكثر جفافا ومستواها أكثر ارتفاعا ، وفيها مناطق واسعة مجدبة مثل صحراء جوبى (Gobi) ، وهى على وجه العموم أفقر من أن تكون تربية الماشية فيها شيئا يدر الربح . ولكن هذه المراعى فى الوقت ذاته كافية لرعى الأغنام والجمال والخيول . ولما كان الجواد من نواح كثيرة أهم تلك الحيوانات شأنا فى الاقتصاد المحلى ؛ ففى استطاعتنا أن نطلق على حضارة هذه المنطقة اسم « حضارة الخيل » كما أطلقنا اسم حضارة الماشية على الحضارة التى كانت سائدة فى الغرب .

وتختلف حضارات شعوب هاتين المنطقتين اختلافات بينة . فقد كان السكان القدماء فى معظم نواحى السهول الغربية ، ذوى مظهر قوقازى من الناحية الجثمانية ويتكلمون لغة من اللغات الهندو ــ أوروبية . ولسنا نعلم الى أى مدى كانت هذه الحضارة منتشرة نحو الشرق ، ولكن وجود احدى اللغات الهندية الأوروبية وهى اللغة التوكارية (Tokarian) فى حوض نهر التاريم جنوبى جبال تيان شان مباشرة يوحى بانه كان شعبا ذا طابع غربى وصل الى سهل دزنجريان . ولا شك أن حضارة الماشية التى كان يمتاز بها هذا الشعب لم تكن

الا فرعا من حضارة القرى التى كانت منتشرة فى جنوب غربى آسيا .

ولا يمكننا أن نرى بين عناصر حضارة هذا الشعب أى شىء من حضارة أخرى اللهم الا القليل . كان سكان الهضبة المغولية فى مظهرهم الجثمانى من النوع الذى يطلق عليه علماء الأجناس اسم أشباه المغول (Mongoloid) وذلك منذ أقدم العصور التى لا نعرف عنها شيئا ، وانهم كانوا يتكلمون لغات من عائلة اللغات التركية ــ تتارية . وبالرغم من أن فصائل حيواناتهم المستأنسة قد وفدت ، فيما يبدو ، من الغرب فان حضارتهم لم تكن مدينة الا بالقليل لحضارة القرى التى كانت منتشرة فى جنوب غربى آسيا . ونرى فى حضارة سكان الهضبة المغولية كثيرا من أوجه الشبه بحضارة المناطق المحيطة بالقطب الشمالى ، ولهذا فمن المستحسن أن توصف بأنها فى أساسها حضارة ميزوليتية شمالية دخلت عليها أساليب حضارية خاصة برعى الحيوانات .

ومن النادر أن يقدر الانسان مدى أهمية ظهور حضارة الخيل بعد أن أتمت تطورها . فلم يكن محتما على القبائل التى تمتطى صهوة خيولها أحيانا بدلا من أن تسوقها أمامها ، أن تفعل فى نواحى حياتها الأخرى ما كانت تفعله شعوب حضارة الخيل . فالفرس الأخمينيون الذين يعتقد فيهم الناس بصفة عامة أنهم كانوا شعبا من مربى الخيول كانوا فى حقيقة الأمر شعبا يرعى الماشية وكانوا يطلبون المعونة من « روح الثور » فى أناشيد زرادشت . كانوا فرسانا أمهر من الاغريق ، ومع ذلك فانهم كانوا من الناحية الحضارية أقرب الى الحضارة الآرية البدائية منهم الى حضارة السكان الرحل فى السهول الشرقية الآسيوية .

وخلال الفترة الأولى من الفتح الفارسى كان « الملك العظيم » يسير على قدميه على رأس جنوده . ولكن كان فيما بعد يركب العربة الحربية ، أما العشرة الآلاف الجندى الذين كانوا يسمون « الخالدين » وكانوا حرسه الخاص فانهم ظلوا يسيرون على أقدامهم . وحصل الاسكيذيون على عناصر

تجار منغوليون فى لهاسا Lhasa

آكثر من حضارة راكبى الخيل ولكنهم مع ذلك ظلوا رعاة للماشية يعتمدون اعتمادا كبيرا على صناعة منتجات الألبان ويمارسون الى حد ما مهنةالزراعة ، وكان يعوزهم الملاءمة الكاملة بين حضارة تربية الخيل وبين حياة الترحال. فاذا ما ذهبنا الى الطرف الشرقى من السهول الأوروبية الآسيوية فاننا نجد أن الخيول لم تدخل الى الصين الشمالية الا على يد مؤسس أسرة شانج ، وكان ذلك حوالى سنة ١٧٠٠ ق.م. على وجه التقريب ، ولكنهم استخدموها فى جر العربات الحربية ولم يستخدموها للركوب . وفى نقوش أسرة شانج نراهم يشيرون الى جيرانهم الغربيين بانهم قطعان من الأغنام، لأنهم كانوا على مايظهر لايقاومون مايقع على أراضيهم من هجوم الا مقاومة ضعيفـة . وتشير نقوش أسرة شانج الى تقديم قرابين كثيرةمن الثيران ومن الرعاة كما لو كان الاثنان على

قدم المساواة . ونعرف من الوثائق الصينية أن قبائل الهون (Huns) لم يعرفوا الخيول قبل عام ٥٠٠ ق.م. ويبدو ذلك أمرا غير محتمل لدرجة كبيرة ، ولكن من الجائز أن يكون هذا التاريخ أى ٥٠٠ ق.م. هو أول ظهور ذلك الاتحاد بين العناصر الحضارية التى حولت أقوام الهضبة المغولية من رعاة أغنام مسالمين نسبيا الى فرسان لهم أثر على غيرهم .

والسبب الرئيسى فى الحديث عن حضارة الخيل بين سكان هضبة منغوليا فى هذا المقام هو أن تاريخ منطقة الاستبس كان حلقة من سلسلة من الضغط المستمر نحو الغرب الذى كانت تقوم به الشعوب التى تستخدم الخيل على الشعوب التى تربى الماشية . ويرجع تاريخ بداية هذا الضغط الى القرن الثانى أو الثالث قبل الميلاد واستمر هذا الضغط اللهم الا باستثناء فترات قليلة حتى سنة ١٢٥٠ ميلادية عندما وصلت تلك الحركة الى تمامها بغزو المغول لبلاد الروسيا . وفى أثناء تلك الغزوات طرد معظم سكان حضارة الماشية الأصليين من مناطق الاستبس الغربية وحلت محلهم قبائل أكثرها من شعوب حضارة الخيل . ويبدو أن تلك الفترة شهدت اتصالات كثيرة واختلاطا بين الشعوب بعضها ببعض ، لأن القبائل المقهورة كانت تصبح بدورها من الجيش المحارب فى الغزوات القادمة . ونعرف مثلا أن فرسان أتيلا (Attila) كانوا من الجوت ولكن مؤلف الأغنية المعروفة باسم «نيبلونجن ــ ليد » (Nibelungenlide) يشير مع عظيم الدهشة الى الجماعات المختلفة التى كانت تعيش فى بلاط ذلك الزعيم .

ولقد توغلت جماعات مثل الهون ، والافار (Avars) والماجيار (Magyars) والمغول بعد ذلك ، حتى تجاوزت سهول أوروبا الغربية ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحتفظوا بحضارتهم الخاصة بهم فى بيئة كانت الغابات تغطى أكثر مناطقها، فلم يكن أمامهم الا أحد أمرين اما أن ينسحبوا عائدين الى مناطق الاستبس

أو أن يصبحوا جزءا من السكان المحليين . والماجيار وحدهم هم الذين استطاعوا أن يحتفظوا بوحدتهم الحضارية وتماسكهم الوطني، ويرجع ذلك على الأرجح الى قلة المناطق الأوروبية التي توغلوا فيها ، وانهم لم يبتعدوا كثيرا عن حدود منطقة الحشائش . وبالرغم من أن الترك قد وفدوا من اواسط آسيا فانه من الصعب أن نعتبرهم من بين موجات الغزاة الرحل . فقد تحضروا تحضرا كاملا أثناء تسللهم الى جنوب غرب آسيا لدرجة أنه يتحتم علينا اعتبار امبراطوريتهم وريثة لفارس وبيزنطة فى الناحيتين الحضارية والسياسية .

وتعتبر حضارة الخيل فى أقاليم الاستبس مثلا كاملا للاقتصاد القائم على تربية الحيوانات المستأنسة لدى البدو ، وهو أعظم مثل عرفه العالم فى هذا المضمار . كانت قبائلهم تنفر تماما من الزراعة ، ولكن فى بعض الأحيان كانوا يبذرون حبوب الدخن الذى ينمو دون حاجة الى عناية خاصة ، وهدفهم الرئيسى من ذلك هو أن يكون عملا احتياطيا ضد المجاعة . أما فى الظروف العادية فانهم لم يأبهوا للاطعمة أو المواد المستمدة من الزراعة، وكانت حيواناتهم المستأنسة هى الضأن والخيول والجمال البكترية (ذات السنامين) Bactrian والماشية ، لأهميتها الاقتصادية الكبيرة .

وكانوا يربون الضأن فى أعداد هائلة . ويذكر التاريخ أن قبيلة الكازاك (Kazaks) من سكان هذه المنطقة كانت تحصى قطعان الضأن لا بطريقة العد الفردى ولكنها كانت تحصيها بعدد الكلاب اللازمة لحراستها . وكانوا يحلبون الضأن أحيانا ، ولكن أهميتها الكبرى كانت محصورة فى لحمها وصوفها . كان لحم الضأن هو الوجبة الرئيسية اليومية وكانوا يفرطون فى أكله ، فالمعدل المناسب هو أن يأكل الرجل الواحد خروفا فى اليوم، أما الصوف فكانوا يستخدمونه فى صنع اللباد .

كانت الأهمية العظمى للجواد بالنسبة اليهم هى منفعته لهم كحيوان يستخدمونه

فى الحرب ، اذ كانوا يستخدمونه فى الركوب أو فى حمل المتاع ، ولكنهم لم يستخدموه أبدا فى أعمال الجر. وكانوا يأكلون دائما لحم الحصان، ويعتبرون لحم الفرس الصغير من لذائذ الطعام التى كانوا لا يقدمونها الا فى الأعياد ، واذا نقصت كمية الطعام كان الجنود يشربون دما يفصدونه من عروق مطاياهم. وكانوا يحلبون الأفراس ثم يخمرون اللبن ليصنعوا منه مايسمونه الـ « كوميس » (Kumiss) . ولبن الأفراس أغنى بالمواد السكرية من لبن البقر، وكان فى استطاعتهم اذا ما أحسنوا تخميره أن يصنعوا منه مشروبا روحيا قوى التأثير . وكانت شعوب الخيل بوجه عام تفرط فى شرب الخمر ، وفى نهاية أى حفلة ناجحة كنت ترى المدعوين وقد أصبحوا صرعى فاقدى الوعى.
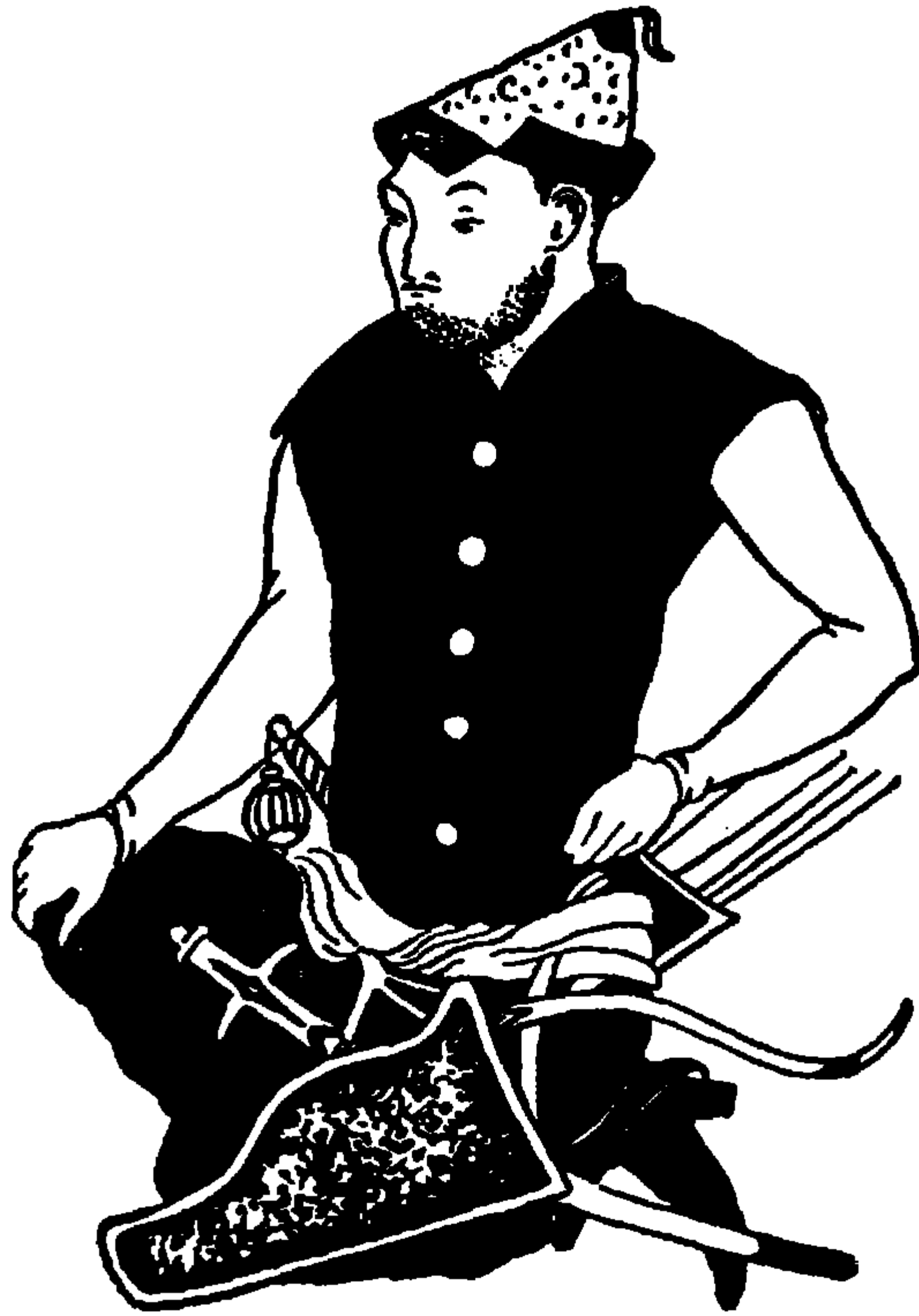
امير مغولى

ويروى عن جنكيزخان أنه قال : « ان الرجل المخمور كالرجل الذى يضرب على قمة رأسه ، لاتنفعه حكمته ولا مهارته . اذا أردت أن تسكر فاسكر ثلاث مرات فقط فى الشهر ، والأفضل ألا تسكر على الاطلاق ، ولكن من ذا الذى يستطيع أن يمتنع عن شرب الخمر امتناعا تاما ؟ »

وكانت الجمال تستخدم كدواب للحمل ولجر عربات الأمتعة ، وكان من النادر أن تحلب أو أن تؤكل لحومها . ولم تكن للماشية أهمية كبيرة فى الهضبة المغولية ولم تزد أهميتها الا عندما انتشرت حضارة الخيل نحوالغرب، أما الماشية فكانت تحلب وتؤكل لحومها ، كما استخدموا الثيران فى أعمال الجر .

واذا درسنا أصول الاقتصاد المغولى القائم على الحيوان المستأنس ، نجد بضع مشاكل شيقة . فقد ذكرنا أن أهم حيواناتهم المستأنسة أربعة ولكن اثنين منها فقط ــ وهما الضأن والماشية ــ كانا فعلا من الحيوانات التى جاءتهم بعد أن تم استئناسها فى جنوب غربى آسيا . ومن المحتمل ، فيما يبدو ، أنهما قد وفدا الى الهضبة المغولية من ناحية الغرب وان اول مظاهر الاقتصاد القائم على الحيوان المستأنس الذى تطور ونما فى هذه المنطقة قد قام عليهما .

والمعتقد بوجه عام هو أن الخيول قد استؤنست فى مكان ما فى أواسط آسيا وليس فى منغوليا لأن الجد الوحشى لكل السلالات المستأنسة التى نعرفها الآن كان فيما يبدو الجواد التاربى (Tarpan) الذى كان من أنواع أواسط آسيا وليس من بلاد المغول . ولا تتعارض المكانة العظيمة التى يحتلها الجواد فى الحضارة المغولية مع القول بأنه من أصل أجنبى فاننا نعرف من تاريخ السهول الأمريكية الهندية أن مدة لاتزيد عن ١٥٠ عاما كانت كافية لحيوان جديد مستأنس ليندمج فى حضارة قائمة ، وأن يكون لدخوله فيها نتائج ثورية .

وليس هناك من شك على الاطلاق فى أن الجمل الباكترى قد استؤنس فى

الهضبة المغولية ، ولكننا لا نعرف تاريخ استئناسه على وجه التحديد ، ويرجح أن يكون هذا الاستئناس قد حدث على الأقل بعد أن عرفوا الضأن والماشية .

ومن الأمور الطريفة أن موقف شعب الخيل تجاه الحيوانات المستأنسة ، كان على ما يبدو قائما على الانتفاع منها الى أقصى حد . فلم توصف فى قصائدهم البطولية أية خيول أو كلاب شهيرة ، فالحيوانات تولد بالجملة وتستهلك بالجملة .

كان المحارب المغولى يأخذ معه عددا من دواب الركوب التى لم يعط لواحدة منها اسما ليتركها أو ليذبحها اذا لم تستطع الاستمرار فى السير ، وربما كان السبب فى ذلك هو أن الحياة فى الهضبة كانت صعبة لدرجة لا تسمح بأى ارتباطات عاطفية مع الحيوانات الأليفة .

ويبدو أن راكبى الخيل قد حملوا معهم الى حياة المراعى أسلوب حياة الصيادين الذين كانوا لا يرون فى الحيوانات الا أنها مصدرا للحصول على اللحم . وحتى فى أيام الغزوات المغولية ظل الصيد فى هذه المنطقة عملا نفعيا أكثر منه عملا رياضيا . وكانوا من آن لآخر يقيمون حظائر كبيرة فى الخلوات يسوقون اليها الحيوانات، يصيبونها بسهامهم ثم يأكلون لحومها. ولم يمدهم الصيد وتربية الماشية بالطعام فقط بل أمداهم أيضا بالملابس . كان لباسهم العادى مكونا من سروال وحذاء ذى مقدمة مقلوبة الى أعلى ثم ثوب خارجى ذى أكمام يشبه القميص ، كان قصيرا للرجال وطويلا للنساء . وكانوا يضعون فوق رءوسهم طاقية أو « طرطورا » ، وفى أيام البرد الشديدة كانوا يلبسون فوق تلك الملابس عباءة . وكانت الملابس كلها تصنع اما من جلود الحيوانات أو اللباد ، ولا يشذ عن ذلك الا بعض الملابس التى كانت تلبس من آن لآخر فى الأعياد ، وكانوا يفضلون فى ملابسهم استخدام جلود الضأن يلبسونها مراعين أن يكون صوفها مما يلى الجسم . أما اللباد فكان على الأرجح من اختراع هذه المنطقة . ويستطيع أى انسان يشاهد الجمال عندما تغير شعرها

فى وقت الربيع أن يدرك من أين جاءت الفكرة لصانعى اللباد الأصليين. ولكى يصنع اللباد يجب أن يغلى الصوف ثم ينشر بعد ذلك بانتظام فوق حصير أو جلد أحد الحيوانات ، ثم يلفونه ، وتضرب هذه اللفة أو يركلونها بالأقدام ، جيئة وذهابا بين صفين من العمال الجالسين حتى يتلبد الصوف تماما. ويفتحون اللفة من آن لآخر ويضيفون بعض الصوف الى المواضع التى يكون فيها الصوف قليلا ، ثم ترش اللفة كلها بعد ذلك بالماء المغلى. ولا تتوافر فى اللباد قابلية التمطط أو الشد ، ولكنه يحمى من الهواء ويستطيع أن يقاوم الماء أكثر من القماش ، ولهذا كان اللباد مادة صالحة الى أبعد الحدود لصنع ملابس الشتاء كما انه مادة ممتازة لتغطية الخيام ، وعيبه الوحيد هو ثقل وزنه .

واستطاع أقوام شعب الخيل أن يلائموا أنفسهم مع حياة البدو الرحل ملاءمة كاملة على أتم مايكون ، ولكن يجب أن يكون مفهوما أن مثل هذا التلاؤم ليس بحال من الأحوال شيئا بدائيا ، فهو يمثل مرحلة من التجربة الشاقة والذكاء الخارق . فالمعدات المنزلية لحياة الرجل المتطورة تشبه المعدات اللازمة لحياة الاستقرار ، كماتشبه المنامة الحديثة التى تجرها السيارة وراءها ، الشقة التى تقيم فيها العائلة فى المدينة . كانت كل الأدوات التى يستخدمها الرحل الذين يربون الخيول أدوات خفيفة وغير قابلة للكسر بسهولة . وربما كانت الحياة المنزلية فى مساكن الـ «يورت» هى أتم ما اخترعه الانسان من المساكن التى يفكها أصحابها ويعيدون اقامتها . كانت جدران اليورت الجانبية مصنوعة من الألواح الخشبية التى تقام وحافة كل منها فوق جزء من التى تقام الى جانبها ثم تربطان معا مثل تلك البوابات الصغيرة التى نقيمها لحماية الاطفال من السقوط من سلم المنازل . كانت توضع هذه الألواح الخشبية المتشابكة على رؤوسها مكونة دائرة فيها فتحة واحدة لتكون بابا له ، ثم توضع بعد ذلك فوق القوائم الخشبية الرأسية ، عوارض ترتكز على حافة القوائم وتلتقى فى الوسط مرتكزة على حلقة دائرية وتصبح شبيهة

بأسلاك المظلة، ثم يغطون هذا الهيكل الخشبى كله ،سواء السقف والجوانب، بقطع من اللباد يربطونها ربطا محكما بالحبال لتثبيتها . أما الأثاث الداخلى فيتكون من طنافس مصنوعة من اللباد تفرش على الأرض وتستخدم للجلوس وللنوم ، ومن صناديق خشبية قليلة لحفظ الأشياء الثمينة . أما أوانى الطهى فكانت فى الأصل من الفخار ثم أصبحت بعد ذلك من المعدن، وكانوا يحصلون عليها اما عن طريق التجارة أو عن طريق النهب ، وكان لديهم أيضا قرب من الجلد لحفظ الألبان والكوميس وبعض الأدوات الخشبية أو المصنوعة من قرون الحيوانات .

منازل اليورت YURT HOUSES

وكانت المرأة هى صاحبة المنزل والمسئولة عن العناية به ، وكان فى استطاعتها أن تفكه وتحزمه كله فى ظرف ساعة أو ساعتين ثم تعيد اقامته بمثل هذه السرعة .

وفى العصور الأولى كانوا ينقلون كل متاعهم على ظهور الحيوانات عندما ينقلون معسكرهم من مكان لآخر ، ولكنهم استخدموا بعد ذلك عربات تجرها الجمال . ومن الأمور التى لها دلالتها أنهم قلما كانوا يستخدمون الخيل فى جر العربات اذا كانوا قد فعلوا ذلك على الاطلاق . وكانوا يستخدمون المنازل التى تقام على عربات حيثما تكون الأرض مستوية استواء كافيا كما فى منطقة الكرجس (Khirges) من أقاليم الاستبس فى وسط آسيا .وكانت أقاليم الاستبس هذه بعيدة بعدا كافيا نحو الغرب مما قلل من وجود الماشية

فيها ، ولكنهم مع ذلك كانوا يستخدمون الثيران فى أعمال الجر . والمنازل المقامة على عجلات وتسمى الـ « كيبتكا » **(Kibitka)** ليست الا اليورت ولكنها مقامة بصفة دائمة فوق منصات يبلغ عرضها أحيانا عشرين قـدما ، ويجرها زوج من الثيران . وقد قيل انه كان من واجب أكبر البنات سـنا أن تبقى فى الخارج وفى يدها سوط لتسـوق الثيران ، ويظل المنزل فى تحركه المستمر عندما كان المعسكر كله فى طريقه الى الانتقال الى مكان آخر .

ومن المحتمل ، أنهم كانوا يستخدمون الخيل فى أعمـال الجـر فى بلاد الهضبة المغولية حتى قبل ظهور العربات ، ويمكننا أن نقول ان أقدم السروج كانت سروجا لتحمل فوقها الأشياء المراد نقلها وان الركاب الأول للخيـل كانوا من الأطفال الصغار الذين كانوا يجلسون بين الحزمات عند تحـرك المعسكر. ولم يكن بين الانتقال من السروج الخشبية لنقل الأشياء الى سروج الركوب ، وهو أهم اختراع ظهر فى تلك المنطقة، الا خطوة قصيرة جدا . كان سرج الركوب مكونا من اطار قوى ترتفع كل من مقدمته ومؤخرته ، وكانوا يبطنون السرج كله ببطانة ملائمة لجعله أكثر راحة للانسان والحيوان عـلى السواء . ويبدو أن الركابات قد اخترعت فى هذه المنطقة أيضا بالرغم مـن أننا لانعرف تاريخ اختراعها على وجه التحديد . وعلى كل حال فقد ظهـر الركاب بعد اختراع سرج الركوب وليس لدينا أى دليل على اسـتخدامه قبل بداية العصر المسيحى بوقت طويل . وكان سرج الركوب ، وعلى الأخص اذا أضيف اليه الركاب ، يهيىء للراكب حرية وسيطرة على دابته لا تتيسران له بدونهما .

وحتى عندما جاء الوقت الذى ترك فيه خلفاء رعاة الماشـية استخدام الجياد فى جر العربات الحربية وبدأوا فى امتطاء صهواتها ، فانهم لم يستعملوا غـير الحشيات (البرادع) ولهذا كانت الكفاية تنقص فرسانهم . ونعـرف مـن دراسة علم الطبيعة ان لكل فعل رد فعل مماثل له ، ولهذا فلم يكن فى مقدور

الفارس القديم أن يهاجـم والحربة فى يده وهو جالس فوق جواده دون أن يقذف به الى مؤخرة دابته عندما يضرب هدفه . وبالمثل ، لم يكن فى مقدوره أن يستخدم القوس بمهارة لأنه كان مضطرا للاهتمام بالسـيطرة على دابته والبقاء فوقها . وقد كان الجمع بين سرج الركوب والقوس المركب (الذى وصل الى أقصى درجات اكتماله لدى شعب الخيل) والحربة ، داعيا الىخلق تكتيك جديد للفرسان ، وهو الأمر الذى مكن شعب راكبى الخيل فى نهـاية الأمر من السيطرة على منطقة السهول الأوروبية الأسيوية كلها . كانالفرسان تبعا لهذا التكتيك يمطرون الأعداء بوابل من السهام ، وكانت سهامهم قـوية تستطيع اختراق حلل الزرد المعدنية ، فاذا ما دبت الفوضى فى صفوف اعدائهم تركوا الاقواس وأمسكوا بالحراب هاجمين عليهم. وأضافوا الىهذا التكتيك فى أقاليم الاستبس الشرقية أمرا آخر وهو هجوم الفرسان المدربين فىصفوف متراصة وبين كل صف والصف التالى له مسافة .

وكان منتيجة هذا الاتحاد ، والنظام الدقيق مع القـدرة الكبـيرة على التنقل السريع بفضل استخدامهم للخيول المتراصة ، أن أصبحت جيوشـهم جيوشا لايمكن قهرها .

ولسنا نعلم متى ظهر هذا الاتحاد لأول مرة أو متى أدركوا أهمية القـوة الكامنة فيه ، ولكن يرجح انه ظهر الى الوجـود فى وقت متأخـر . ويوحى التوسع الفجائى لحضارة الخيل خلال القرون التى سـبقت وأعقبت بداية العصر المسيحى أن هذه الحضارة نمت وتطورت حوالى هذا التاريخ .

ونجد أن الصينيين الذين يعيشون على الحدود الغربية قد تحولوا فجأة من محاربين يستخدمون العربات الحربية ، ومن مشاة الى فرسان ، وكان هذا قبل بداية عهـد أسرة هان بوقت قصير (أواخـر القرن الثالث ق. م.) . حدثت أيضا فى ذلك الوقت هجرة واسعة النطاق للفلاحين الصينيين مـن بلادهم الى مناطق الاستبس ، لتستفيد على الأرجح من فوائد ذلك السلاح

الجديد فى الفتح والنهب . وفى رأى بعض الباحثين أن تشييد سور الصين العظيم قد أقيم لتحقيق غرضين وهما الحيلولة دون خروج الفلاحين الصينيين الى خارج بلادهم ، وكذلك لمنع الغزاة من شعوب حضارة الخيل من دخولهم الى الصين .

ويختلف التنظيم الاجتماعى لشعوب الخيل عن مثيله لدى الآريين القدماء فى نواح معينة . فقد كانت القاعدة المتبعة هى الزواج بأكثر من امرأة واحدة فى وقت واحد وكانوا يدفعون ثمنا للعروس عند الزواج . وفى نفس الوقت كانت المرأة تتبوأ مكانة عالية نسبيا ، ولكنها لم تصل الى مكانتها بين شعوب الماشية . وكان كل من الرجل والمرأة يرعى ويحلب الحيوانات المستأنسة . وكانت المرأة تركب الخيل كالرجل تماما ، كما كانت تحارب أيضا عند الضرورة ، وكان من حق الزوجات أن تكون لهن ثروة خاصة بما فى ذلك الحيوانات اما عن طريق الهبة أو عن طريق الوراثة ، ولم يكن للزوج أى سلطان على تلك الثروة . وكان لكل زوجة من الزوجات الـ « يورت » الخاص بها ، تعيش فيه هى وأولادها ؛ وكانت الزوجة الأولى على رأس المجموعة العائلية كلها بصفة عامة . وكانت أثناء غياب زوجها هى المسئولة عن رعاية البيت كله بما فى ذلك قطعان الزوج . أما سيطرة الزوج على عائلته فكانت سيطرة مطلقة أكثر مما كانت عليه الحالة فى العائلة الآرية .

ولم يضعوا قواعد خاصة تحدد الوقت الذى يجب أن يقضيه الرجل مع كل زوجة . وكان الأبناء يخضعون للآباء ، والاخوة الصغار يخضعون للاكبر سنا من اخوتهم ، وكانت الصلة التى تربط الابن بأمه صلة وثيقة بصفة خاصة وتستمر مدى الحياة .

وكانت الفوارق بين الطبقات تتمثل بصفة رئيسية فى الثروة ، رغم أن العشائر فى كل قبيلة كانت منظمة حسب أهميتها . ولم يكن لديهم خدم للأرض ، ولم يكن لديهم ارقاء اللهم الا القليل منهم لأن نظمهم الاقتصادية

جعلت اولئك الأرقاء عديمى الجدوى .

وكانت عادة المغول فى ذبح الأسرى عند نهاية أى حملة حربية غير مبقين الا على عدد قليل يختارونه عند عودتهم الى أقاليم الاستبس ، راجعة الى أنهم لم يعرفوا ماذا يفعلون بأولئك الأسرى بعد ذلك .

وفرض الاقتصاد المحلى على شعوب الخيل أن يعيشوا فى وحدات عائلية صغيرة بعيدة عن بعضها البعض فى معظم فصول السنة . ففى فصل الصيف كان الرجل وزوجاته وأولاده يعسكرون عادة بمفردهم ، وكانت المراعى وفيرة جدا فى الصيف لدرجة أن الأراضى الصالحة للمرعى لم تكن ذات قيمة ولم يعتبرها أحد ملكا خاصا له . أما مراعى الشتاء وبصفة خاصة مراعى الربيع التى لم تتجمد ، فقد كانت تملكها مجموعات من العائلات التى كانت تجمع بينها وشائج القرابة القوية ، وكانت هذه المجموعات وحدات مرتبطة من الناحية الاجتماعية ارتباطا وثيقا .

وكانوا يحاربون المجموعات الأخرى للسيطرة على المراعى فى فصول الشدة والجفاف وكانوا يعتبرون أنفسهم مسئولين عما يفعله أى واحد منهم فى تلك المنازعات . وتتكون العشيرة من بضع جماعات ممن كانت ترعى فى فصل الشتاء وتنتمى الى جد واحد من ناحية الأب . وكان كل من العائلة والجماعة التى ترعى فى الشتاء تتزوج دائما من عائلة أو جماعة أخرى . أما العشيرة فكان الأمر فيها مختلفا . ففى بعض القبائل كان الزواج من خاوج القبيلة ، وفى قبائل أخرى كانوا يتزاوجون فيما بينهم . وكانت العشائر بدورها تكون وحدات أكبر وهى القبائل التى يدير شئونها حاكم يختار عادة من عشيرة واحدة معينة . وكانت الوحدة التى تجمع القبيلة غامضة غير محددة اذ لا يربط بينها الا الخوف من هجوم الأعداء أو الرغبة فى النهب . وقد يستطيع الزعيم الناجح أن يجذب الى قبيلته عددا من العشائر والعائلات يتزايد عددهم مع مضى الزمن ، بينما يفقد الزعيم الضعيف أتباعه حتى من كانوا من عشيرته
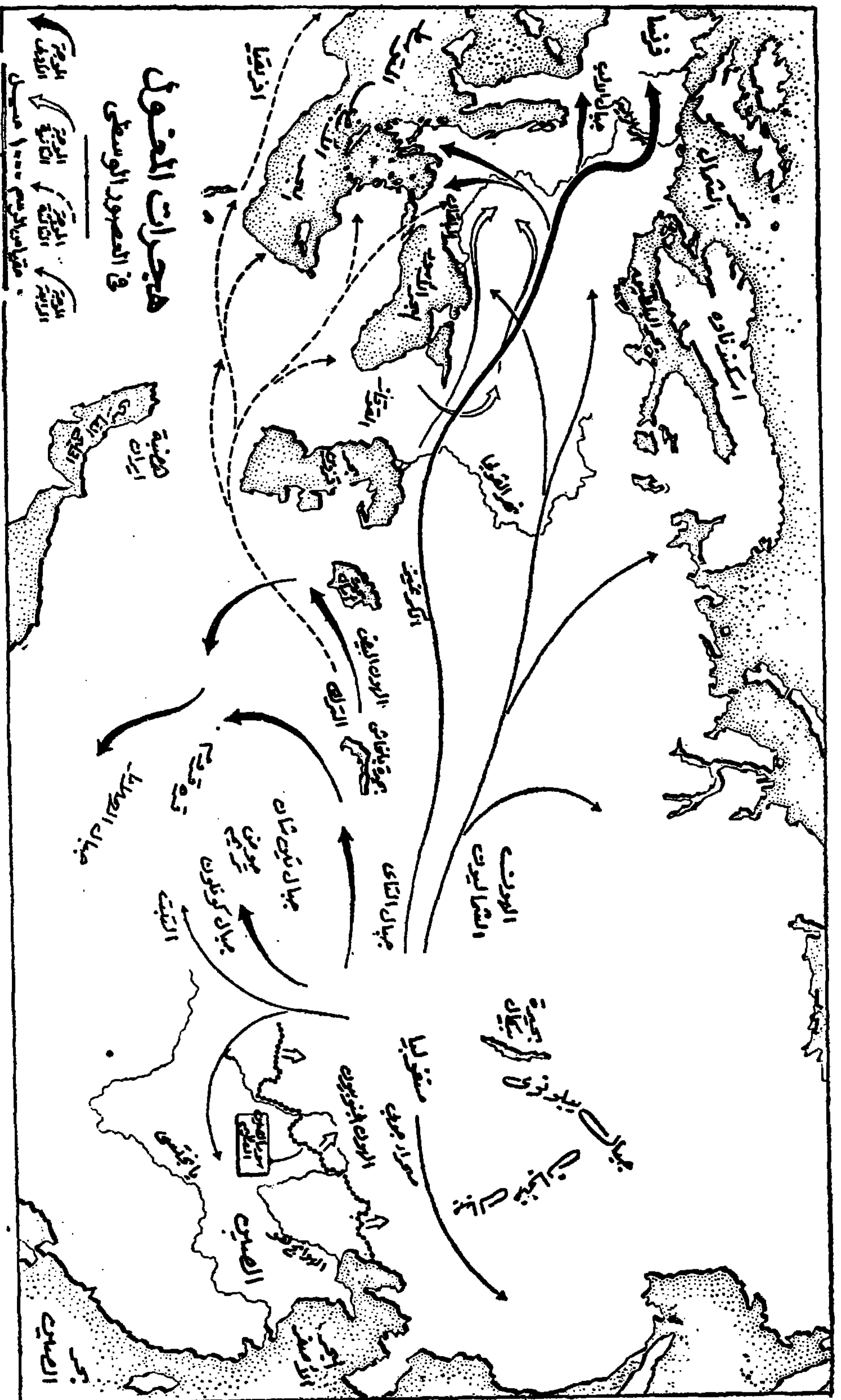
الأقربين .

وفى الشئون العادية ، كانت تسود بينهم درجة عالية من الديموقراطية اذ كانت جميع الامور التى تخص المصلحة العامة للعشيرة أو القبيلة تسوى فى مجلس عام . وفى قبيلة « ياكوت » ، التى مازالت تحتفظ حتى الآن بأساليبها التنظيمية القديمة نرى ترتيب الجلوس فى هذا المجلس خير مايصور لناالأهمية الاجتماعية لأعضاء القبيلة . كان يجلس رؤساء العشائر فى الدائرة الداخلية ، ثم يأتى بعدهم رؤساء مجموعات المراعى الشتوية ، ويليهم رؤساء العائلات . وكان من حق كل واحد منهم أن يتكلم فى أى موضوع ولكن كلمات الرجال الهامين دون سواهم هى التى كانت تؤثر فى اتخاذ القرارات .

ومن ناحية أخرى ، فقد كان النظام التام هو القاعدةالأساسية عند الخروج فى الحملات الحربية . فبعد أن يتم اختيار الزعيم كانت كلمته هى القانون الواجب اتباعه وكانت عقوبة العصيان ، بل حتى الاهمال ، هى الموت .

وكان هذا النظام ، الذى سهل لهم القيام بمناورات منظمة طويلة المدى مثل المناورات التى يقوم بها أى جيش حديث ، تختلف اختلافا بينا عن الأعمال البطولية التنافسية غير المنظمة التى كانت متبعة بين شعوب الماشية ، ومن المحتمل أن هذا النظام نشأ بينهم فى تلك الحملات الدقيقة التنسيق التى كانوا يقومون بها للصيد بطريقة حصار الحيوانات وجمعها ، وهى الطريقة التى يمكننا أن نجد مايماثلها فى قواعد الصيد ونظمه بين هنود السهول الأمريكية، اذ نرى نظمهم صارمة جدا عند الخروج الى الصيد.أما فيماعدا ذلك فتسودهم ديموقراطية أقرب الى الفوضى ويعتمد كل فرد فيهم على نفسه فقط .

ونستطيع أن نرى بجلاء أن حضارة الخيل مستمدة من الحضارة القديمة لصيادى المناطق القطبية اذا درسنا عقائدهم الدينية اذ نرى الشمانيه منتشرة بينهم ، وهى العقيدة التى يكون فيها لرجل الدين الذى يقوم أيضا بوظيفة المطبب المقام الأول ، وان الشمان وحده هو الذى يستطيع أن يغير الخير أو

الشر . فلم يقيموا المعابد أو التماثيل ولم يكن لديهم طبقة منظمة من الكهنة ، وكان رجال الشمان يتعاونون معا على اقامة بعض الحفلات الدينية ، وكانت مراكزهم بينهم تختلف حسب شهرتهم ولكنهم لم يعرفوا أى نوع من التنظيم الكهنوتى . وكانوا يقيمون بصفة منتظمة فى فصلى الربيع والخريف حفلات موسمية لتمثيل الصراع بين النور والظلام ولتعزيز قوى النور ،وكان يصاحب هذه الحفلات تقديم القرابين من الحيوانات ، وكانت الخيول أهمها وأعظمها جميعا . كانت تقام بعض الحفلات التى تقدم فيها القرابين العامة فى وقت الشدة لمصلحة العشيرة أو القبيلة كلها ، ولكن معظم الحفلات الدينية كانت تقام لمصلحة الأفراد .

وبالرغم من أنهم كانوا يعترفون بوجود اله واحد قوى يقيم فى السماء ، ويعترفون بأنه مصدر للقوة الا أن الكائنات ذات القوى الخارقة للطبيعةالتى كانوا يرجون استرضاءها ، كانت فى الغالب أرواحا محلية أو من الأرواحالتى لها أوجه نشاط خاصة . وكان الشمان هو الذى يستطيع الاتصال بهم وهو فى حالة غيبوبة يتوصلون الى احداثها بدق الطبول والغناء . وتغادر روح الشمان جسده وهو فى غيبوبة وتسافر الى أرض الأرواح حيث تستطيع مقابلة «الكائنات» والتحدث اليها ،ومعرفة مايجب أن يفعل لتحقيق الأغراض المطلوبة . وكان المفروض أن أرواح البشر العاديين تغادر أجسادهم أثناء النوم ، وينظرون الى الأحلام على أنها تجارب حقيقية للروح ، وأن لها مغزى عظيما . وكانوا يدفنون موتاهم مع كثير من القرابين التى تتضمن بعض الحيوانات المستأنسة ، ومن آن لآخر بعض القرابين الآدمية ، ولكن الأفكار الخاصة بتفاصيل الحياة المستقبلة كانت غامضة غير واضحة ، ولم يعرفوا الا القليل من الخوف من ظهور الأشباح ، ولم يعرفوا عبادة الأجداد .

وكانت الامبراطوريات التى أنشأتها شعوب الخيل بفضل الغزو والفتح قصيرة العمر على وجه العموم . فكانوا ينزلون على البلاد كالسياط ،

ويستولون على كل مايستطيعون فهم فائدته أو استخدامه ، ثم يدمرون ماعدا ذلك . وقد قيل انه بعد الغزو المغولى للصين فكروا تفكيرا جديا فى افنـاء الشعب الصينى كله وتحويل أراضيهم الى أرض للمراعى . وحيثما استقروا بين الشعوب المقهورة كانوا يحتفظون بنظام العشيرة والقبيلة ، يعيشون فى مجموعات مركزة ويتمسكون قدر استطاعتهم بنظم الحياة القـديمة للبـدو الرحل .

وكانت توجد فى حضارتهم بعض أساليب قليلة يستطيعون تطبيقها فى حكم الشعوب المغلوبة ، ولكن المستوى العظيم فى التنظيم الذى وصلوا اليـه فى امبراطورية لياو (Liau) فى الصين أو فى امبراطورية المغول التى جاءت بعد ذلك ، وكانت أعظم من امبراطورية لياو ، كان راجعا الى اقتباسهم للنـظم الصينية ، ولانه كان يشرف على تطبيقها فعلا موظفون صينيون .

وبعكس القبائل الآرية ، لم تستطع شعوب الخيل على مايبـدو أن تلائم أنفسها بنجاح مع حياة الغزو وربما كان ذلك راجعـا الى أن قيم حضارتهم القائمة على الترحال لم يمكن التوفيق بينها وبين الدور الذى يتحتم على حكام الجماعات المستقلة أن يقوموا به . وعلى أية حال ، ففى كل مرة كانوا ينبذون فيها حياتهم البدوية كانت تمتصهم الشعوب المغلوبة فى وقت قصير ،فأصبحوا صينيين فى الصين ، ومسلمين وفرسا فى أواسط آسيا ، وفى آخر هجرة هامة لشعوب الخيل نحو الغرب ، وهى هجرة الترك ، أصبحوا بصـورة جوهرية مسلمين وبيزنطيين .

وربما كان من الواجب علينا أن نقول كلمة أخيرة عن مصير شعوب الخيل بعد الغزوات المغولية . قلنا قبل الآن انهذه الغزوات اكتسحت البقيةالأخيرة من شعوب الماشية وأخرجتهم من مراعى الاستبس الغربية ، وأقامت فى جميع المناطق التى كانت تسكنها مجموعات مغولية وتركية .ومن بين القبائل المغولية قسم يطلق عليه اسم « القبيلة الذهبية » طردهم ايفان الفظيع وسلبهم حقوقهم
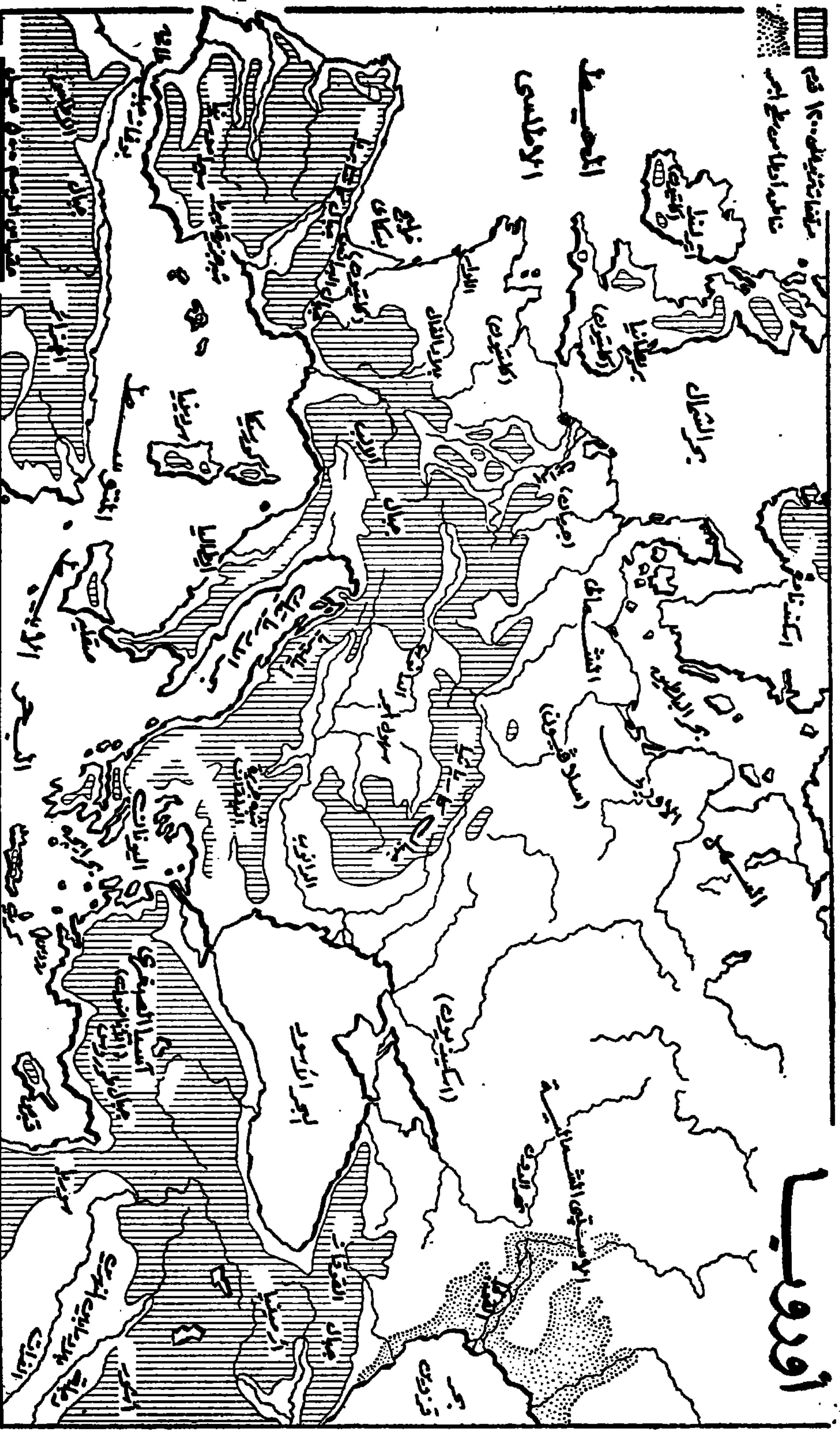
السياسية ، فظلوا فى جنوب روسيا حتى أيام الملكة كاترين العظيمة . ولكنهم تحت الضغط المتزايد من الحكومة الروسية ، اضطروا فى النهاية الى التقهقر متجهين نحو الشرق الى موطنهم الأصلى فى منغوليا ، وكانوا يقاتلون أثناء سيرهم فنقص عددهم لدرجة كبيرة . أما مراعى الاستبس الوسطى التى كانت تسكنها القبائل الرحل التركية الأصل ، قبل وبعد الغزو المغولى ، فقد ظلت مهدا للمحاربين الأشداء بل وأكثر من ذلك ، كانت أيضا مهدا للقواد العظام لعدة قرون .

وكان هؤلاء الترك يتسربون أفرادا أو فى جماعات صغيرة ، الى بلاد الحضارات المتقدمة فى المناطق الجنوبية حتى سيطروا فى النهاية على بلاد الشرق الأدنى ، ولكن بعد الغزوات المغولية لم يشن سكان اقاليم الاستبس أى هجوم عدائى ذى شأن أو أثر كبير .

ويرى بعض الكتاب أن السبب فى ذلك يرجع الى اعتناق المغول للديانة البوذية ، ولكن معظم سكان أقاليم الاستبس حتى الحدود الغربية لبلاد المغول قد اعتنقوا الاسلام وهو دين لايمكن أن نقول عنه انه يدعو الى الخنوع . وربما كان الجواب الحقيقى راجعا الى ازدياد الناحية الميكانيكية فى الحرب التى ظهرت باختراع البارودة ، والى التقدم فى انشاء قوات منظمة وظهور قادة محنكين فى التكتيك الحربى خارج منطقة أقاليم الاستبس .ولم يكن فى مقدور سكان اقاليم الاستبس بما لديهم من عادة التنقل السريع المستمر ، وما يسود بينهم من صناعات يدوية بسيطة ، أن ينتجوا الأسلحة التى يتطلبها الموقف الجديد . وقد أخذت الأسباب التى انتهت أخيرا بسقوطهم تظهر منذ أيام جنكيزخان الذى كانت ترافق جيوشه فى حملاتها الأخيرة فرق من المهندسين الصينيين الذين كان بين أدواتهم قاذفات اللهب وقنابل البارود . وكان فى مقدور سكان أقاليم الاستبس أن يعوضوا شيئا ما من عجزهم الفنى طالما كانوا على مستوى عال من النظام وحسن التدريب ، ولكن عندما أصبحت

الجيوش الأخرى حسنة التدريب كجيوشهم تقرر مصيرهم المحتوم .

وآخر مرة ظهر فيها فى أوروبا أى فريق من أولئك الرماة الفرسان المسلحين بالسهام والاقواس ، الذين كان يسميهم النـاس سـوط الله ، كانت فى أيام حروب نابليون عندما ظهرت فرقة من قبائل الكرجيز (Khirgiz) بين القوات الروسية .وكان وجودهم مدعاة لسخرية الجنود الفرنسيين الذين أطلقوا عليهم اسم فرسان «كيوبيد» ، وهكذا ينتقل المجد فى هذه الدنيا من قوم الى قوم آخرين .

الفصل العشرون

الساميون

منذ نهاية الزحف الجليدى الأخير ، وربما كان ذلك منذ حوالى عشرة آلاف سنة مضت ، كانت بلاد الشرق الأدنى وشمال أفريقيا فى طريقها المطرد نحو الجفاف .

وقد عثر فى جميع أنحاء هذه المناطق فى بقاع لا يمكن أن يعيش فيها أحد فى الوقت الحالى ، على أماكن أثرية يرجع تاريخها الى العصرين الپاليوليتى والنيوليتى ، ويبدو أن هذا الجفاف كان جزءا من تغير مناخى عام سيستمر على الأرجح حتى تصل فترة التوسط الحالية بين عصرى الجليد الى أوجها .

وعلى أى حال فما من شك فى أن العامل الانسانى كان له نصيب كبير فى تقدم هذه العملية بهذه السرعة فى بلاد الشرق الأدنى . لم يتيسر للغابات التى كانت قد قطعت أو حرقت أن تنمو ثانية كما كانت من قبل بعد أن أخذ المطر يتضاءل فى سقوطه ، وبعد تفتت سطح الأرض بعد زرع الحقول ، كما ساعد رعى الماعز والأغنام على ذلك أيضا فساعد ذلك كله على تسرب مياه المطر .

واستطاع مزارعو العصر النيوليتى الأوائل أن يزرعوا المحصولات فى معظم أنحاء الشرق الأدنى وأن يقيموا قراهم فى كل مكان فى المنطقة . وحوالى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد أصبح كثير من المناطق الجنوبية والشرقية من فلسطين ومعظم بلاد العرب والعراق وجنوب ايران وسيناء وبلوخستان أرضا قاحلة أو نصف قاحلة ، وأخذ سكان القرى يتقهقرون الى منحدرات الجبال ووديان

الأراضى المرتفعة حيث يكثر المطر أو الى وديان الأنهار والواحات . وترك مزارعو العصر النيوليتى القدماء بصفة تدريجية طريقتهم فى الزراعة المتنقلة ليواجهوا الظروف الجديدة ، فأقاموا القرى الدائمة حيث كان المطر كافيا لزراعة الحبوب أو حيثما كان الماء كافيا للرى. وساعدهم على ذلك الاستقرار أن تربة المناطق القاحلة تستطيع أن تحتفظ بما فيها من عناصر معدنية أكثر من التربة الموجودة فى المناطق الرطبة ، فالحقل الذى كانت تربته فى يوم من الأيام قاحلة لا تزرع يمكن أن يزرع بالحبوب لعدة سنين اذا زود بالماء .

وتسقط الأمطار فى معظم مناطق جنوب غربى آسيا فى الشتاء والربيع ، ويساعد الدفء الذى يأتى مع بواكير الصيف على نمو مساحات شاسعة من النباتات التى تمدنا بمراع غنية ولكن لأمد قصير . فاستفاد النيوليتيون من هذه الظاهرة بالانتقال فى هذا الفصل من السنة بقطعانهم الى المراعى البعيدة ثم يعودون بها عند سقوط المطر لترعى بقايا المزروعات فى الحقول المحيطة بالقرية . ويذهب مع الحيوانات بعض الشباب النشيط من أعضاء الجماعة ، وربما يرافقهم أيضا قليل من العائلات الفقيرة التى لا تملك أرضا ، أما باقى أهل القرية فكانوا يمكثون بها للعناية بالحقول . وهكذا صار للقرويين أسلوبان للحياة يتلاءمان مع حياة الترحال ورعاية الحيوان ، وكذلك مع حياة الاستقرار والزراعة. وكلما زادت الأراضى القاحلة تناقصت الأراضى المزروعة كما نقصت أيضا أراضى المراعى الجيدة وأصبحت متناثرة بعيدا بعضها عن البعض ، وفى النهاية هجرت بعض الجماعات الحياة القروية المستقرة هجرا تاما وأصبحوا بدوا رحلا طوال العام .

ومرة ثانية نرى تحقيق نظرية أخرى فى منطقة جنوب غربى آسيا وهى النظرية القائلة بأن المنطقة التى لايكون فيها الا عقبات طبيعية قليلة ، وتتلاءم فيها حياة السكان مع بيئتهم ، فان الحضارات واللغات تتجه أيضا نحو التوحيد . فجميع سكان الأراضى القاحلة فىجنوب غربى آسيا تقريبا يتكلمون

اللغات السامية، وكانوا متمسكين بنفس الأساليب التى تجعل كلا من المزارعين والرحل يعتمدون على بعضهم البعض . فنرى الملاءمة بين الحياة والبيئة السائدة فى مناطق جنوب غربى آسيا منتشرة أيضا فى مناطق شمال افريقيا ، كما نرى أيضا التشابه فى لغاتها وحضارتها. وبالرغم من أن لغتين من لغاتها وهما العربية والعبرية ، قد قادتا بعض العلماء الغربيين الى معاملة اللغات السامية كما لو كانت لغات من أصل لغوى مستقل ، فان البحث الحديث قد أظهر أن هـذه اللغات ليست الا قسما واحدا من عائلة لغوية كبيرة كان يتكلم بها السكان فى جميع أنحاء أفريقيا شمالى الصحراء الكبرى كما كانت منتشرة أيضا فى جنوب غربى آسيا . وربما لايوجد أى مثل آخر خيرا من هذا المثل لاثبـات الرابطة الوثيقة بين مجموعة لغات معينة وبين بيئة معينة . ومن الواضح أن الانتشار الواسع لبعض اللغات السامية فى أفريقيا كان ظاهرة حديثة نسـبيا يرجع الفضل فى بعضها الى ظهور الاسلام، ولكن الأقسام الأخرى من مجموعة اللغات الأفريقية الأسيوية قد توطدت أركانها فى الأراضى الافريقية القـاحلة منذ أقدم العصور ، ونحن نعلم أن واحدة من هذه المجموعة وهى ما يسميها البعض اللغة الكوشية (Kushite) التى كان يستعملها قدماء المصريين ، كانت موجودة منذ ٤٠٠٠ ق . م .

وهناك مشابهات حضارية عديدة بين الأجزاء التى أصبـحت الآن أراضى قاحلة فى مناطق جنوب غربى آسيا وبين مناطق شمالى افريقيا ، وان هذه المشابهات كانت موجودة حتى فى العصور الپاليوليتية العليا عندما كانت هاتان المنطقتان أرضا تغطيها الحشائش .

ويبدو من المحتمل أن المهاجرين الأسيويين قد احتلوا هاتين المنطقتين وكانوا مشتركين فى حضارة عامة واحدة وهى حضارة الصيد ، وتكلموا لغات ذات صلة ببعضها كانت هى الاصول التى جاءت منها عائلة اللغة الأسيوية الافريقية فيما بعد .

وزاد من سرعة انتقال بعض القبائل السامية الى حياة ترحال كاملةاستئناس الجمل ذي السنام الواحد ، وهو حيوان يصلح للعيش تحت الظروف الصحراوية الحارة تماما كما تعيش الجمال ذات السنامين تحت الظروف الصحراوية الباردة. وتستطيع الجمال أن تعيش فى مناطق لايستطيع أن يعيش فيها حتى الماعز وبخاصة فى بلاد العرب وأخيرا فى أفريقيا ، قد فتح استئناسها مساحات واسعة من الصحراء الحقة ليعيش فيها الانسان . ويبدو أن فم الجمل، مثل قناته الهضمية ، قوى الاحتمال كما لو كان مصفحا بالنحاس . يستطيع الجمل أن يمضغ وأن يهضم الحسك (الشوك) الذى يقترب فى رقته وليونته من ليونة الأسلاك الشائكة ، ويستطيع الجمل أن يعيش وأن يسمن حيث يموت البغل جوعا . ويقوم سنام الجمل بعملية تخزين الشحم ، وبذلك يستطيع ان يعيش مدى أسابيع كثيرة على كميات قليلة من الطعام ، بينماتقوم معداته المتعددة بخزن كميات كبيرة من الماء . فلهذه الاسباب أصبح الجمل ذا فائدة عظمى لساكنى الصحراء ، وكل من يعرف الجمل يعجب كيف أمكن استئناس مثل هذا الحيوان . فان اجمل الجمال فى الوقت الحاضر تبدو فى نظر الرجل الأوروبى حيوانات سيئة الخلق وعنيدة ، وذات رائحة كريهة ، ولكن يجب ألا ننسى أن العربى لا يقر الأوروبى على ذلك . فالعربى ينظر الى الجمل كمثال للنبل ورمز للوفاء ، والأدب العربى من العصر الجاهلى، أى قبل الاسلام ، ملىء بالقصائد الكثيرة التى تتغنى بفضائل هذا الحيوان .

وقد ترتب على انكماش المساحة المزروعة وانتشار الحياة البدوية التى تعتمد على الجمال خلق أسلوب خاص للحياة يتناسب تناسبا تاما مع الظروف المحليه، نستطيع ان نجد فيه مثلا أعلى للتعبير القائل « الشرق الذى لايتغير » وهو الأمر الذى كثيرا مايردده الناس ، ولكن من النادر أن يروه . وبالرغم من أن ظهور الاسلام قد أدخل بعض تغيرات معينة فان الحياة عند البدو الرحل الحديثين لا تختلف كثيرا عما كانت عليه عند العبرانيين قبل أن يستقروا فى

فلسطين كما يصفها كتاب العهد القديم . واستمر هذا الحال واستمر معه احتلال نفس القبائل لنفس المنطقة ، فمازالت بعض القبائل العربية التي ذكرها هيرودوت تعيش في نفس المناطق التي ذكرها ذلك المؤرخ .

وحيثما تيسرت الزراعة عاش الناس في قرى مستقرة أو في مدن . وكان التقدم الذي حدث في أساليب وطرق الري أحد الأعمال العظيمة التي أتمتها حضارات الشرق الأدنى . كانت هذه الطرق مستخدمة في عام ٣٥٠٠ ق . م . في كل من مصر وما بين النهرين ، ولابد أنها انتشرت في المناطق القاحلة منذ زمن مبكر . كانوا يسدون الوديان التي تجري فيها المياه لتصبح خزانات ، وفي المناطق التي كان يصعب فيها حجز الماء كان السكان يلجأون الى حفر الآبار . وكلمة « واحة » ترسم في ذهن الأمريكي صورة لثلاث نخلات قائمة الى جانب بئر في وسط كثبان أو غرود الرمال. ولكن معظم الأراضي القاحلة في منطقة الشرق الأدنى ليست في حقيقة الأمر الا أرضا شديدة الصلابة وصخرية ولكنها ليست أرضا رملية. وتشغل الواحة في العادة عدة أميال مربعة حول بعض العيون أو بحيرة تشوب مياهها الملوحة ، وقد أظهر أهالي هذه المناطق عبقرية نادرة في محافظتهم على الماء وفي توزيعه ، فقد أمكنهم توصيل الماء الى الحقول البعيدة جدا بحفر أنفاق تحت الأرض ليقللوا من الخسارة التي يسببها تبخر الماء ، وبعد ذلك يوزعونه على الحقول بعناية كبيرة . وترجع معظم نظم الري التي تستخدم في هذه المنطقة حتى اليوم الى عصر ما قبل التاريخ ، كما أن طريقة توزيعه تعود الى العصور القديمة دون شك .

وكانت المدن بما حولها من مناطق زراعية مراكز للسكنى، وفي الوقت نفسه مراكز للصناعة والتجارة . وقد تخصص كثير من السكان في انتاج سلع معينة للتصدير ، أما المناطق الواقعة بين المدن فكانت تقطنها قبائل من الرحل الذين يمثلون النصف الرعوي من الحضارة الأصلية المزدوجة . وبينما كان أسلوب الحياة في المدن صورة من حضارة سكان جنوب غربي آسيا ، فان أسلوب

حياة رعى الحيوانات كانت صورة من الحياة السامية . وأهم الحيوانات التى يربيها البدو هى الأغنام والماعز والجمال وكلها حيـوانات معتادة على المرعى الفقير . وكان القليل من الماشية يربى خارج المناطق المزروعة ، ولكن القيمـة الرئيسية لهذه الحيوانات انحصرت فى استخدامها كحيوانات للجر ، وكانت الجمال هى أهم الحيوانات التى تنقـل الاحمال على ظهـورها وكانت نادرا ما تحلب أو تؤكل لحومها .

أما الخيول العربية الشهيرة فكانوا يحتفظون بها فقط للقتال أو المباهاة، ولكنها لم تستخدم أبدا فى أعمال الجر ، ولم يكونوا يركبونها عندما تنتقل القبيلة من مكان الى آخر . ولما كانت المراعى عادة غير كافية فكانوا يطعمون الخيول حبوبا يشترونها من المناطق الزراعية ، وكانت الخيول تأوى الى خيمة صاحبها ، ومن الأمور غير العادية أنه كان من عادات العرب تفضيل الأفراس على الخيول الذكور لركوبها عند القتال . وللجواد العربى الخالص طريقتان فقط للمسير ، السـير العادى والركض . وبالرغم من أن البـدو الرحل قد أصبحوا فرسانا ممتازين فانهم لم يتعلموا كيف يصبحون فرسانا مدربين ،أو أن يكتسبوا مهارة كبيرة فى رمى السهام وهم على ظهور الخيل . كانوا يركبون الخيل اذا ما اعتزموا القيام بغارة سريعة على مكان بعيد ، أكثر من استخدامها للاصطفاف فى خطوط للقتال .

واذا فحصنا حضارة هؤلاء الأقوام الرحل يتضح لنا اعتمادهم الاعتماد التام على أهل المدن . وبالرغم من أن نساءهم كن يغزلن الأقمشة من شعر الماعز الخشن الأسود الذى كانوا يستخدمونه فى عمل الخيام ، وكان الرجال يعرفون كيف يصلحون سروجهم ومعداتهم الأخرى ، فان القبائل الرحل لم تكن لهـا صناعات تذكر . ويحصل البدوى الحديث على أثاث بيته كله عن طريق التجارة أو السلب ، ويبدو أن الحال كانت كذلك منـذ أقدم العصور . والطعـام السائد بينهم رغيف من العيش غير المختمر يصنع من القمح المزروع فى المناطق

الزراعية ، وليس هذا الرغيف الا قرصة رقيقة معجونة من الدقيق والماءتنشر فوق حجر أو رمل ساخن لخبزها ، ويوجد نوع طبى من هذا النوع من الخبز مألوف لدى كثير من الأمريكيين وهو رقاق عيد الفصح (Passover matzoh)

وتصور لنا العلاقات بين البدو وسكان المدن تلك القرابة الوثيقة الأصلية بين كليهما تصويرا واضحا . فكل من المجموعتين تتكلم نفس اللغات ، وكثيرا مايحدث أن نجد قبيلة واحدة مكونة من سكان المدن والبدو الرحل . ورجال القبائل فى العادة على استعداد للاستقرار متى سنحت لهم الفرصة ، ولكنا لانجد فيهم الا القليل من ذلك التعلق الشديد بالأرض ، ذلك التعلق الذى لايمكن زعزعته ، الذى يمتاز به الفلاحون الزراعيون فى كل مكان . والبدوى يقدس حياة الرعى ويعتبر نفسه فى مركز أعلى من مركزالفلاح ، وأينما تصبح الضرائب ظلما أفدح من أن يحتمل ، أو عندما لا تأتى الأرض بمحصول لمدة بضع سنوات فان سكان القرى يهجرون أراضيهم ويسوقون أمامهم قطعانهم الى البادية . ويتذكر القراء الذين درسوا الكتاب المقدس أنه فى تلك الأيام العصيبة التى تلت موت الملك سليمان قوبلت الاجراءات التعسفية من السلطة المركزية أكثر من مرة بصيحة : « الى خيامكم ، ياشعب اسرائيل ! » فاذا ما وجد الملك نفسه مهددا بفقد ما يجنيه من فائدة بعد مهاجرة عدد كبير من دافعى الضرائب ، فانه يعود دائما الى الاتفاق معهم .

وكانت هذه الحالة، وهى حالة وجود قرى أو أماكن مستقرة آهلة بسكانها تبعد عن بعضها لبعض مسافات كبيرة ، ويقيم بين تلك المحلات السكنية بدو رحل من الرعاة ، حالة ملائمة جدا لتقدم التجارة . وكان البدو ينتقلون من مرعى الى آخر ثم يعودون الى الأماكن نفسها عاما بعد عام ، وكان من السهل عليهم أن يحملوا معهم المنتجات التى تختص بها احدى المدن فى آخر مراحلهم ثم ينقلونها الى مدينة أخرى ، ثم يعودون ثانية الى المدينة الأولى بمنتجات المدينة الثانية التى حصلوا عليها عن طريق المبادلة . وليس بين هـذا العمل

الشخصى فى نقل المنتجات وبين تنظيم القوافل الا خطوة واحدة . وكان البدو الذين يربون الجمال ويملكونها خير من يصلح لمثل هذه المهمة لأنهم يعرفون مسالك الصحراء وموارد المياه ، ويملكون الحيوانات اللازمة للحمل ، ويعرفون كيف يقودونها ، فلم يأت عام ١٠٠٠ ق.م. الا وكان هناك رجال قوافل محترفون ودروب طويلة لسير القوافل .

وولى الساميون الذين عاشوا حول الخليج الفارسى (الخليج العربى) وعلى السواحل العربية للبحر الأحمر والمحيط الهندى وجوههم نحو البحر منذ أقدم العصور . ويشير كتاب بلاد مابين النهرين منذ عام ٢٥٠٠ ق.م. الى مملكة تسمى « مملكة البحر » تقع قريبا من مدخل الخليج الفارسى ، ومن المرجح جدا أن هذا التاريخ لا يشير الى بداية الرحلات السامية ولكنه يشير فقط الى الوقت الذى أقام فيه سكان بلاد ما بين النهرين علاقاتهم مع رجال البحر الساميين . فكل من البحر الأحمر والخليج الفارسى بحار هادئة نسبيا ، وكانت ندرة الطعام فى هذه السواحل القاحلة ، باعثا قويا لسكانها المحليين على الخروج لصيد السمك ، كما كانت الصعوبات التى يلاقيها المسافرون برا باعثا آخر على السفر بالبحر . وعندما وصل الفينيقيون الى شاطىء البحر الأبيض المتوسط فى وقت متأخر جدا وانتزعوا السيطرة على البحر من سكان جزيرة كريت ومن سكان الجزر الأخرى ، كانوا يتبعون التقاليد السامية التى مضى عليها زمن طويل .

ولم تدر تجارة القوافل التى تسير فى البر الربح على رجال القوافل وحدهم بل كانت تدر الربح أيضا على القبائل البدوية المختلفة التى تمر القوافل بأراضيها . وكانت هذه القبائل تسير على نظام مألوف مع الأسف الشديد لدى الأمريكيين الحديثين . كانوا يمدون القوافل ، نظير أجر معين ، بحراس من رجال القبائل هم فى حقيقة الأمر لصوص جشعون ، كانوا يرافقون القوافل أثناء سيرها فى أراضيهم ثم يسلمونها الى جماعة أخرى من قطاع الطرق عند

حدودهم . ويقوم هذا النوع من « الحماية » على أساس مؤكد من أن القافلة التى لا تدفع ستتعرض للهجوم عليها ، وكانت التكاليف تختلف باختلاف قوة وقرب المراكز التجارية التى تعتمد فى تجارتها على القوافل ، فعندما تكون المراكز التجارية قوية ومنظمة تنظيما محكما فلن يجد البدو الا القليل التافه ليجنوه .

وسارت العلاقات بين البدو والولايات المتحضرة الواقعة على حدود مناطقهم على طريقة ثابتة . كان البدو دائما على استعداد لأن يشتركوا فى الحروب التى يشتعل أوارها بين هذه الولايات ، يستخدمونهم للكشف عن الطريق أو كفرق خيالة خفيفة ، ومع ذلك كانوا لا يخلصون الا لمصالحهم الشخصية . فقد أتوا للسلب ، وعندما كانت تتحول دفة المعركة كانوا يتحولون معها ضد الخاسرين . وعندما تكون الولايات المتحضرة قوية ، كان البدو يلجأون الى الهدوء ، أما اذا كانت هذه الولايات ضعيفة وغير منظمة ، فكان البدو يغيرون عليها ويحملون معهم كل ما يقدرون على حمله . ويجب ألا ننسى أنهم كانوا يتبعون فى أساليبهم الحربية أسلوب المحاربين المهاجمين غير النظاميين ، وكانت معداتهم الحربية بوجه عام أقل فى مستواها من معدات الجماعات المستقرة التى كانوا يحصلون منهم على تلك المعدات . والى أن جاء الاسلام فوحد القبائل العربية وجعل لها هدفا مشتركا دائما كانت هذه القبائل مصدرا لمضايقة جيرانهم المتحضرين أكثر منها خطرا عليهم .

أما عن المعدات الحضارية التى كانت لدى البدو ، فقد قلنا قبل ذلك انها جميعا على وجه التقريب ، قد أتتهم من الشعوب المستقرة . وكانت الخيمة هى مسكنهم الذى يمتازون به ، وهى عبارة عن نصبة منخفضة من القماش الخشن المغزول من شعر الماعز الأسود تثبته أوتاد قصيرة متعددة ، وكانت وظيفتها الرئيسية توفير الظل فكانت فى حقيقة أمرها أشبه بالمظلة المنشورة أكثر من أى شىء آخر . أما المعدات الأخرى فكان من بينها بعض الأوانى

المعدنية لطهى الطعام والأدوات والأوانى الخشبية والسجاجيد وما الى ذلك .
وتتكون ملابس الرجال من رداء طويل يلبسون فوقه فى المناسبات عباءة من القماش الأغلى ثمنا تساويه فى الطول ، ويتركونها مفتوحة من الأمام. وفى حزام حول الخصر يثبتون خنجرا على الأقل . ويلبسون فى أقدامهم نعالا خفيفة ، ويغطون رءوسهم والجزء الخلفى من العنق بقطعة من القماش يثبتونها فى مكانها بحلقات مصنوعة من الحبال وهى العقال . أما ملابس النساء فتتكون من قطعتين مستطيلتين من القماش ، احداهما من الأمام والأخرى من الخلف ، تربطان مع بعضهما عند الكتفين والخصر ، وتخيطان معا فى جزء منهما على الجانبين . ويلبس النساء أيضا قماشا يوضع فوق الرأس (الطرحة) تستطيع المرأة أن تجذب طرفه لتغطى فمها ، ولكن نساء القبائل البدوية لا يتحجبن عادة . وكانت الملابس تصنع فى العادة من الأقمشة الصوفية الخشنة لتحميهن من برودة الليل فى الصحراء ومن حرارة شمس الصحراء فى أثناء النهار . وتتحلى النساء بحلى كثيرة ، وكانت الفتاة « تلبس » غالبا مهرها كله فى صورة عصبة حول الرأس وعقد وما يماثلها ، وكلها من نقود ذهبية .

كان التنظيم الاجتماعى والسياسى عند البدو يقوم على القبائل ، وهى جماعات تسير على نظام الانتساب الى الأب، ولا تتزوج الا من داخلها وتشغل مناطق معينة . ولم يكن للاتحادات السياسية التى تجمع أكثر من قبيلة واحدة أى أثر فعال ، وكانت هذه الاتحادات تنفض عندما تفقد القبيلة المسيطرة نفوذها . وتربط وشائج القرابة بين كل أفراد القبيلة ، ولا يجول بخاطر أحد أن عائلة من العائلات تحاول تغيير نسبتها الى قبيلتها . وتنحصر السلطة على القبيلة فى يد « شيخ » يكون منصبه فى العادة وراثيا فى فرع عائلى معين . وكانت الأفضلية للابن الأكبر المولود من الزوجة الأولى ، ولكن ذلك ليس قاعدة محتما اتباعها ، لأن هذه الوظيفة بين البدو ليست من الوظائف التى تجلب لشاغلها الربح دون أن يؤدى عملا، وكان يتحتم أن يشغلها أصلح رجل

بينهم . كانت علاقة الشيخ برجال قبيلته على نمط علاقة الأب السامى بأفراد عائلته ، وكان يوجه نشاط أفراد القبيلة ويباشر سير العدالة بين أفرادها . ومن المستحيل علينـا أن نعرف الى أى مدى كان البـدو يعترفون بالقوانين الرسمية فى عصور ما قبل الاسلام ، ولكنهم كانوا يتوقعون من الشيخ عند تطبيق القوانين أن يظهر حكمته فى معرفة المذنب الحقيقى ، وفى توقيع العقاب الذى يتناسب مع الجريمة . وكانت أحكام النبى سليمان كما سجلتها القصص الشعبية فى بلاد الشرق الأدنى خيرمثال يحتذيه كل من البدو الرحل والسكان المستقرين . وبالرغم من أن الشيخ عند تطبيقه لهذه الأحكام كان يتأثر بآراء رجال القبيلة ويبذل قصارى جهده فى أن ينفذها عن طريق الاقناع وليس عن طريق القوة ، فان سلطاته كانت استبدادية ، ومن الناحيـة النظرية سلطات مطلقة ، ولسنا فى حاجة الى القول بأن هذه النظم كان لها تأثيرها فى تطور نظم الحكومات الاسلامية .

كانت الحرب دائما مستعرة بين القبائل البدوية وبعضها ، ولكن نظرا لأن الدوافع الرئيسية لمثل تلك الحروب كانت السلب أو الأخذ بالثأر لأحد أفراد القبيلة ، فان الخسائر كانت فى العادة غير جسيمة . وحتى فى أشد الحروب مرارة كان الجانب المنتصر يكتفى بقتل جميع الذكور البالغين فى القبيلةالمغلوبة والاستيلاء على حيواناتها المستأنسة . أما النساء والأطفال فكانوا يتركونهم، واذا قدر لهم أن يعيشوا ، فانهم كانوا يعتمدون على الأطفال فى تجديدالعداوة عندما يشبون ، وكانت القبائل المغلوبة اذا أرادت أن تتجنب مثل هذا المصير ، تهرب بعيدا الى مناطق أجنبية .

وبالرغم مما كان بينهم من اختلافات ، فقد كان البدو العرب يعتزون بكل حقوق القرابة والصلة كل الاعتزاز . وقبل ظهور الاسلام بوقت طويل اتفقوا على أن يعقدوا فيما بينهم هدنة مدتها شهر حتى يستطيعوا الحج الى أماكن عبادة الآلهة المختلفة ، كما كانت تقام الأسواق وتعقد المباريات الأدبية فىذلك

الشهر . وساعدت هذه الاجتماعات على الاحتفاظ بحضارة مشتركة وقيم مشتركة ساعدت على ظهور الاسلام .

كان البدو يمتلكون كثيرا من الأرقاء ، ولكن هؤلاء الأرقاء كانوا ، من وجهة نظر الأوروبيين ، يحتلون مكانة من نوع خاص . فقد أتاحت مقتضيات الحياة البدوية ، وحياة الرعي فرصا كثيرة أمام الأرقاء للهرب ، مما حتم على أسيادهم أن يكتسبوا ولاءهم الحقيقى ، فكانوا ينظرون اليهم كأتباع ، أكثر من نظرتهم اليهم كشيء لهم حق التصرف الكامل فيه كاحدى السلع . وفى خلال العصر التاريخى كان اولئك الأرقاء يأتون بهم من أصل صومالى وحبشى ، ولهذا كان هناك اختلاف فى الجنس بين الرقيق والسيد . وكان البدو يتخذون لهم محظيات من العبيد ، ولكن نظرتهم الى الزواج من احدى الاماء كانت تشبه نظرة أهل الجنوب فى أمريكا الى مثل هذا الزواج . أما سكان المدن فكان لديهم رقيق من البيض ، ولهذا اختلف الموقف ، وخصوصا بعد ظهور الاسلام . وكان السادة يعتزون بمظهر عبيدهم ، وكثيرا ما كانوا يلبسون ويتسلحون ويعتلون صهوات الجياد أكثر مما يتيسر للفقراء من الرجال الأحرار وكانوا يحاربون الى جانب سادتهم ، وكان عنتر ، بطل أعظم القصائد البطولية العربية التى ظهرت قبل الاسلام ، ابنا لاحدى الاماء . واليوم ينظر الحكام العرب الى عبيدهم كجزء منهم بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى . فمن الأمور التى تضفى الشرف الخاص على الضيف فى وليمة من الولائم ، أن يأخذ أحد عبيد المضيف جزءا من الطعام المقدم ويقدمه للضيف بيده ، وكان مثل هذا العمل من الناحية الاجتماعية مساويا تماما كما لو قام المضيف بهذا العمل بنفسه . وعندما كان الحاكم يرسل أوامره لأحد عماله ، فاذا كان الذى يحمل الرسالة رجلا حرا ، ولو كان هذا الرجل أحد أقارب الحاكم نفسه ، فان المتسلم كان يدرك أن له القدر الكافى من حرية التصرف فى التنفيذ ، أما اذا حمل رسالة الحاكم أحد عبيده فكان هذا يعتبر كما لو كان الحاكم هو

الذى حضر بنفسه ويتحتم على المرءوس أن يطيع فى الحال . ولا شك أن الاسلام هم أبرز حضارة أنصفت العبيد الأرقاء فى التاريخ كله ، وجعلت لهم مركزا ، وقد استمدت هذه الحضارة الكثير من أصولها من تلك النظم .

وكان بين الرجال الأحرار فى القبيلة عائلات ، تقــل أهميتها أو تعظم عن غيرها ، وكانوا يولون تسلسل الأنساب نفس العناية بل والأهمية التىكانت لدى اليولينيزيين ، ولعل القراء يذكرون ذلك الاصحاح الشهير فى كتاب العهد القديم الخاص بالأنساب وعلى أى حال فان مجرد الانتساب الى القبيلة يضفى على كل فرد منها الكرامة والهيبــة . وكان الاحترام والتقــدير هما القاعدة الواجب اتباعها عند معاملتهم لكل فرد ســواء أكان من رجال القبيلة أم من الضيوف ، وأى انحراف عن هذه القاعدة كان جديرا بأن يعاقب بطعنة خنجر يعاقبون بها المعتدى .

ولم يكن البدو العرب يمارسون الزواج من جماعتهم أو قبيلتهم فحسب بل كانوا أيضا يقرون الزواج من أقرب الأهل . وكان العرب من بين الجماعات القليلة فى العالم التى لم تكن تسمح بالزواج من ابنة العم فقط بل كانوا يرون فى ذلك أنه أفضل أنواع الزواج ، وقد أقر الاسلام ذلك ولا يزال ساريا فى كثير من الأقطار الاسلامية . وكان الاقتصار فى الزواج على امرأة واحدة فقط هو الأمر المتبع على ما يبدو ، وان كان يسمح بتعدد الزوجات لمن يستطيع الانفاق ، وكان ذلك دون أى شك هو القاعدة المتبعة عند العبرانيين الأوائل وكان من الصعب أن يخضع الناس لغير ذلك فى بلاد العرب قبل الاسلام. ولكن يجب ألا ننسى أن محمدا كان من ســكان المدن ولم يكن بدويا ، وأن عادة الزواج من نساء كثيرات، وهى العادة التى هاجمها، كانت مما يمكن أن يظهر فى المدن المزدحمة بالسكان الذين كانوا يزاولون التجارة ، ويقيم بينهم عدد كبير من العابرين او الذين يقيمون فيها لمدد قصيرة . ولهذا فمن الأمور التى تدعو الى التساؤل ما اذا كان البدو الذين عاشوا فى عصر ما قبل الاســلام

كانوا يمارسون حقا عادة اشتراك أخوين فى الزواج بامرأة واحدة ، أو ذلك النظام الآخر الأغرب منه وهو أنه كان فى استطاعة المرأة البدوية أن تتزوج من الرجال بعدد أيام الأسبوع، فقد جاء ذكر هذين النوعين فى أقوال المفسرين وتحريم النبى العربى لهما .

ومن بين الأمور التى تلفت النظر فى جميع الحضارات السامية الاصرار الكامل على وجود البكارة عند الزواج ، ولا يزال عرض أدلة البكارة جزءا من حفلات الزواج المعتادة فى معظم الأقطار الاسلامية ، ويرجع الاهتمام بهذا الأمر وما يترتب عليه من قيم الى أيام ما قبل الاسلام بكل تأكيد . ولم يكن هذا التصميم الا مظهرا من سابق تركيز الاهتمام بموضوع الجنس والأعضاء التناسلية ، ذلك الاهتمام الذى نراه فى عملية الختان كأحد مظاهره ، وقد شاركهم فى هذا كل الأقوام السامية تقريبا . وكانت تجرى للبنات عمليات ختان مماثلة ، بلغت أقصى درجاتها فى بعض مناطق السودان حيث كانوا يقطعون كل الأجزاء التناسلية البارزة فى المرأة ، ويسدون فتحة المهبل بتخييطها فلا يتبقى الا فتحة ضيقة جدا تستحيل معها عملية الجماع ، وبذلك يكون العريس على ثقة من بكارة عروسه ، وكان عليه أن يكتسب رضاها وموافقتها على اتمام عملية أخرى قبل مباشرته للزواج نفسه . وجعلت مقتضيات الحياة البدوية عزلة المرأة شيئا مستحيلا اللهم الا بين عائلات قليلة غنية ، ولكن عقوبة الموت كانت توقع على كل من الفتاة غير الشريفة أو المرأة الخائنة وعشيقها . ولما كان عدم الوفاء عند الرجال لا يثير الاستياء ، فقد جعلوا أكثر زياراتهم للنساء فى المدينة حيث كانت قوة البدوى الجنسية تتعادل فى شهرتها مع شهرة البحارة عندنا . وفى العصور الوثنية كانوا يعنون بجزء من هذه الناحية من احتياجات الذكور بايجاد نظام عاهرات المعابد بصفة منتظمة ، وكان من نتائج ذلك أيضا تطور موضوع الاتصال الجنسى بين الذكور الذى مازال منتشرا فى بعض البلاد ، وكان يجرى بين الرجال المتزوجين وبعض الغلمان ،

ولكنه سرعان ما كان يختفي لتحل محله الصلة الطبيعية بين الجنسين عنـــدما يتيسر ذلك .

وكانت السلطة على العائلة تتركز في يد الأب فقط . كانت له السلطةالكاملة على زوجاته وأولاده خلال حياته وحتى بعد موته ، فقد كانت البركة التي يمنحها الأب تعتبر ثروة طائلة ، بينما كانت لعنته تحطم مستقبل ابنه ، مثلمــا نرى في قصة يعقوب وابنه عيسو . أما الفتيات فكن يعشن تحت سيطرة الأب حتى زواجهن ، ولكن السلطة تنتقل بعــد ذلك الى أزواجهن . وكان الأب السامي بوجهعام يفخر بشدته أكثر مما يفخر بعدله، وكان سلوك الابن نحو أبيه مزيجا من الخوف والاحترام ، أما في العائلات التي كان فيها الأب متزوجا من أكثر من واحدة فان الرابطة العاطفية القوية كانت بين الابن وأمه . كانت هناك عاطفة حقيقية بينهما وكثيرا ما كان الاثنان يدبران احــدى المؤامرات الودية لخداع الأب ومراوغته .

وكانت النتيجة لهــذا كله هو ما تتوقعه من تنمية السيطرة اللاارادية ، واحساس الفرد برفعة شأنه وسلطانه على غيره . والصورة العبرية لاله قوى لايمكن الحصول على رضاه الا بالخضوع التام والتوسل بالوفاء والاخلاص، مهما ظهر في أعماله من انحراف عن العدل ، ليست الا نتيجة مباشرة لماكانت عليه حالة العائلة السامية .

وكان من نتائج تلك السيطرة اللاارادية المبالغ فيها نشأة ذلك العدد من المحرمات في كل ناحية من نواحي السلوك ، وقد وصل الينا واحد من هــذا النوع كتبوه وجعلوا منه قانونا واجب الاتباع وهو ما نراه في شرائع موسى، ولكن هذه الشرائع لم تكن مثلا أو ظاهرة فريدة دون نظير لها . فقد كان لدى جميع قبائل السامية مجموعات مشابهة من التعاليم تختلف فقط فيمحتوياتها وقد أمدت هذه التعاليم من كانوا يتبعونها بشعور من الطمأنينة نستطيع أن نقارنه بشعور ذلك الطفل العاقل الذي يتذكر كل شيء يأمره والده بألا يفعله ،

و..نع تماما عن فعله . كان الاله « يهـوه » العبرى صورة للاب السـامى .. ..ه الأبوية المستبدة ولكن فى صورة مجردة وأعظم . وترك ذلك الجمع بين القمع الأبوى والحرمان الجنسى أثره فى أسس الشخصية السامية ، فقد ملكت الخطيئة وموضوع الجنس على الساميين زمام تفكيرهم منذ أن ظهر موسى حتى ... فرويد ، فقد نبع الدين السامى مباشرة من تلك الأساليب الحضارية التى تؤمن بقوى خارقة للطبيعة وهى الأساليب التى كان مركز تطورها فى جنوب غربى آسيا . وحيثما تيسرت الحياة المستقرة تركزت العبادة حول معبودات أو الهة محلية كانوا فى نفس الوقت مظاهر للقوى الطبيعيـة . أما بين القبائل التى كانت تتبع نظم البدو الرحل فقد استعاضوا عن المعبودات المحلية بمعبودات القبيلة ، كما حـل حبهم للوحدة الاجتماعيـة محل حبهم للارض وارتبـاطهم بها . والفرق الرئيسى بين هاتين النظـريتين هو أن قوة المعبودات البدوية لم تعد مقيدة بمسافات ، فقد كان فى مقدور الآلهـة أن يساعدوا أو أن يعاقبوا شعبهم أينما كان هذا الشعب . وكان للمستقرين من الناس أماكن مقدسة . يفضلون اقامتها فوق قمم الجبال ، حيث كانوا يقدمون القرابين ، وكثيرا ما كانوا يمثلون معبوداتهم بتماثيل لها . ومن ناحية أخرى ، فقد مثلت الجماعات البدوية معبوداتها برموز سهلة الحمل ومن أنواع مختلفة ، ومن بينها تماثيل لها . وكانت القبيلة تحمل معها هذه الأشـياء فى تنقلاتها ، وغالبا ما كانوا يأخذونها معهم الى الحروب حتى تؤثر ما فيها من قوة «المانا» على أعدائهم وتساعد على هزيمتهم ، ولم يكن تابوت العهد الا واحدا من هذه الرموز . ونعرف مما ذكر فى الاصحاح الرابع من سفر صموئيل الأول ماحدث للعبرانيين من نكبات بسبب أخذهم لذلك التابوت الى ساحة القتال عندحربهم مع الفلسطينيين .

ولم ينكر رجال القبائل وجود آلهة أخرى غير آلهتهم ، تماما كعدم انكارهم لوجود قبائل أخرى غير قبائلهم ، وكل ما هناك انهم كانوا لا يلقون بالا الى

« الكائنات » التى لا تهمهم . ولم تذكر الوصايا العشر أن « يهوه » هو الاله الأوحد فحسب ، ولكنها ذكرت أنه يجب أن يكون الاله الأوحد دون سواه الذى يتحتم على العبرانيين أن يعبدوه . وقد انعكس هذا الاتجاه بوضوح فى التفكير فى الأسفار الاولى من كتاب العهد القديم ، حيث أصبح ارتداد العبرانيين بعد وصولهم الى « أرض الميعاد » مصدرا مستمرا لمتاعب انبيائهم . أخذ العبرانيون فى الاستقرار والتمدن عندما اتصلوا بقبائل أكثر تحضرا منهم ، وهى القبائل الكنعانية ، التى تنمتى الى العنصر السامى أيضا . ونظرا لأن العبرانيين أصبحوا الآن فى مناطق الآلهة الكنعانية المحلية فقد بدا أمرا منطقيا لهم أنه يتحتم عليهم أن يقوموا بالواجبات المطلوبة والتى جرت عليها العادة منذ أزمان طويلة نحو تلك الآلهة ، وهذا هو السبب فى أننا نرى فى أقدم الوثائق السامية المدونة عددا كبيرا من الآلهة ، ولكننا لا نرى الا تنظيما غامضا يربط بينها . وهناك فقط فى حضارات المدن فى بلاد ما بين النهرين ، نجد الآلهة الكوبية المتعددة وقد جمع بينها نظام شبه منطقى ، وكانت علاقة كل واحد منها بالآخر علاقة محددة المعالم . وحتى فى مدن بلاد ما بين النهرين كانت كل مدينة منها ترفع من شأن الهها على حساب الآلهة الأخرى ، وتضفى على الهها أو الهتها كثيرا من نفس الأساطير التى كانوا ينسبونها لآلهة أخرى فى أماكن أخرى .

وتنج من تركيز الاهتمام فى الاله القبلى أو المحلى اتجاه عاطفى ، لم يكن معروفا فى معظم الديانات القديمة الأخرى . لم يصل الساميون الى تكوين عقائد لاهوتية متقدمة ، وذلك لأن صلتهم بمعبودهم كانت صلة تقوم على الشعور أكثر من قيامها على التفكير ، ومع مضى الزمن تطور هذا الشعور والاحساس الدينى الى هذا الاعتقاد العميق فى الوحدانية الذى نلمسه فى الديانة اليهودية والديانة الاسلامية ، وذلك الاخلاص المتفانى فى اله واحد ، لاحد لسلطانه وقوته . ووصلت المسيحية ، التى استقت أصولها من وحدانية اليهودية ، الى أيدى الفلاسفة الأغريق غير الساميين والفرق المتصوفة من

بينهم ، وخرجت الى العالم بلاهوت معقد لا يتفق فى نقط معينة مع وحدانيتها الصريحة .

كانت الآراء السامية الأصلية عن الحياة الأخرى غامضة غير واضحة . وبالرغم من اهتمامهم بتسلسل أنسابهم ، فلم يكن هناك مايوحى بأنهم كانوا يعرفون عبادة الأجداد . واعتقد الساميون ، كما اعتقدت كل الشعوب تقريبا، فى وجود نوع مامن البعث والحياة بعد الموت، ولكنهم كانوا ينظرون الى العالم الآخر الذى كانت تذهب اليه الأشباح كعالم غير واضح المعالم ولم يكن فيه ما يبعث على الاهتمام . ويبدو أنه لم تكن لديهم فكرة عن وجود جزاء وعقاب بعد الموت ، بل كان هذا الجزاء أو العقاب يوقع على الفرد اما فى أثناء حياته أو يوقع على نسله ، ويعكس الوضع الأخير بدون شك تلك الفكرة القوية التى كانت سائدة بين الساميين عن الوحدة التى تجمع بين الفرد السامى وأقاربه . أما تلك الأوصاف الخلابة للجنة والنار التى يؤمن بها المسلمون والمسيحيون فقد استمدت أصولها من مصادر غير سامية ويرجع جانب منها الى المعتقدات المصرية عن محاكمة الموتى واهلاك الأرواح الشريرة، كما يرجع قدر أكبر الى الفرس الزرادشتيين .

والبحر الأحمر بحر ضيق ، ويبدو أنه وحد كما فرق بين شعوب بلاد العرب وشعوب الساحل الأفريقى المقابلة لبعضها البعض. وتتشابه البيئة على شاطئيه الى الحد الذى جعل فى مقدور المهاجرين الذين ينتقلون من شاطىء الى آخر أن يعيشوا هناك دون أن يدخلوا تغييرات مهمة على طرق معيشتهم ، وكان أى أسلوب حضارى يستجد على الحضارة العربية يتقبله الجانب الأفريقى بسهولة، وقد سبقت لنا الاشارة الى المشابهات اللغوية ، ولكن المشابهات الحضارية لاتقل عنها فى قوتها . فالنهضة الحبشية ، التى ترتفع أراضيها فى شمال شرقى الصحراء الأفريقية ، تشبه فى نواح كثيرة ذلك الجزء من جنوب شرقى بلاد العرب الذى أطلق عليه القدماء اسم بلاد العربية السعيدة . ففى كل منهما

يتسبب الارتفاع فى تكوين الأمطار الكثيرة والمناخ المعتدل . وتكاد تكون الدراسات الأثرية المفصلة عن بلاد الحبشة معدومة تقريبا ، ولكن اذا صدقنا ما يقوله علماء النبات الروسيون ، فقد كان هناك مركز مستقل لأقلمة النبات فى هذا المكان يمكننا مقارنته بالمركز الأصلى فى جنوب غربى آسيا من حيث تعدد فصائل أنواع النبات التى استطاعوا تدجينها للزراعة . ولكن معظم هذه الفصائل تشبه مثيلاتها فى جنوب غربى آسيا وكان الطراز الحضارى الذى ظهر فيها شبيها فى جوهره بالطراز الحضارى لجنوب غربى آسيا . فقد نشأت دولة حبشية ، كانت فى نظام الحكم فيها ، وفى تنظيمها ، أقرب الى النظم الآسيوية منها الى النظم الأفريقية .

كانت الصلات بين الحبشة وبلاد العرب صلة وثيقة فى جميع العصور التاريخية ، ولم تكن تلك الصلة من جانب واحد على الاطلاق . لقد لعبت الحبشة دورا مهما فى السياسة العربية منذ أقدم العصور ، وكادت فى فترة من الفترات تخضع شبه الجزيرة لحكمها . ولم يغير اعتناق الأحباش للدين المسيحى فى القرن الثانى الميلادى الا القليل من نظمهم الحضارية السامية، بينما ساعدت الأهمية التى أضفاها الاسلام على بلاد العرب ، على تمسك الأحباش بتراثهم السامى . وليس ما يدعيه الملوك الأحباش من أنهم من سلالة ترجع الى الملك سليمان وملكة سبأ الا حقيقة حضارية وجنسية بغض النظر عما يحتمل أن يكون فى ذلك من عدم انسجام مع الدقة التاريخية . ويكشف مظهر الحبشى الحديث عن أصله السامى من ملامح وجهه الدقيقة وفى لون جلده البنى الفاتح كما نرى وضوح ذلك فى حضارته ولغته .

والصوماليون ، وهم أهم الشعوب التى تتكلم اللغة السامية فى شمال شرقى الصحارى الأفريقية ، أقل تقدما من الناحية الحضارية ، وأغمق لونا من كل من الأحباش والعرب ، ويمكننا أن نفهم سبب ذلك الاختلاف اذا وضعنا فى أذهاننا عوامل البيئة . فقد وصل الى الصوماليين شىء من الدم الأفريقى
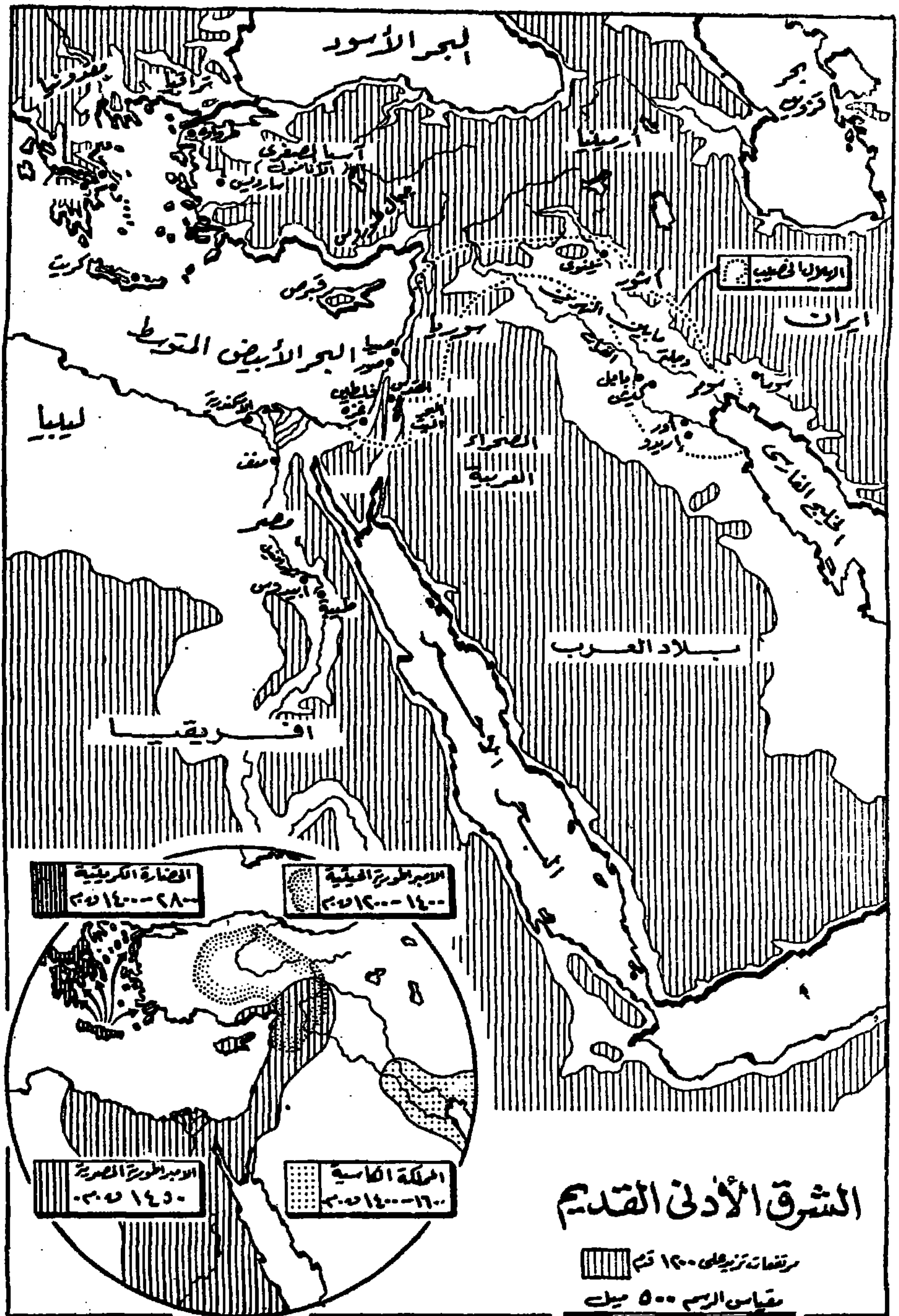
الزنجى والحضارة الزنجية ، ومع ذلك فان تأثيرهما قليل الى حد الدهشة لو راعينا العلاقات الطويلة التى كانت بين الصوماليين والزنوج الأفريقيين . ومن الناحية الجثمانية جمع الصوماليون بين انتظام الملامح السامية وبين اللون الداكن ، ونوع عجيب من الشعر لا يشبه شعر الزنوج ولا شعر سكان منطقة البحر الأبيض المتوسط من البيض . فشعرهم خشن شديد التجعيد ويشبه منظره فوق الرأس منظر شجيرة لم تشذب أطرافها وترتفع حو قدم أو أكثر . ومن السهل أن نفهم سبب هذا اللون الغامق للجلد لو راعينا الظروف المحلية، فالصحراء التى على الجانب الأفريقى من البحر الأحمر من أجف وأحر صحارى العالم ، وكان للون الغامق الشديد دون شك فائدة ذات قيمة تساعدهم على البقـــــاء .

كانت الحضارة الصومالية تمثل فيما يبدو محاولة يائسة للاحتفاظ بالنماذج السامية البدائية أمام بيئة معادية لا يمكن التغلب عليها ، وتختلف حضارتهم اختلافا بينا عن حضارات رعاة الماشية من الزنوج الذين يعيشون الى الجنوب والغرب منهم . ويقوم الاقتصاد الصومالى على تربية الأغنام والماعز والجمال الى جانب تربية القليل من الماشية، وفى الحقيقة فان معظم المراعى المحلية فقيرة جدا لدرجة أنه يصعب عليهم أن يجنوا فائدة كبيرة من وراء تربية الماشية . وهم يربون أيضا الخيول ولكنها ليست ذات أثر هام من الناحية الحضارية بينهم ، وموقفهم تجاه الحيوانات المستأنسة موقف غير أفريقى بكل تأكيد . فالنساء يقمن بمعظم أعمال الحلب ، وهــذا أمر غير معروف فى حضـــارات الماشية بين الزنوج . وحسب قانون تحريم الدم بين الساميين منذ العصــور القديمة فالحيوانات الحية لا تفصد عروقها أبدا للحصول على طعام ، ولكن ذلك من الأمور العادية لدى الزنوج . وكغيرهم من القبائل البدوية الأخرى التى تنتسب الى الأصل السامى يتحول الصوماليون الى الزراعة والحياة المستقرة بسهولة حيثما يتيسر ذلك . وتوجد فى منطقتهم مدن تجارية عديدة ،

وحيثما يتوافر الماء للرى ، تستقر الجماعات عادة تحت زعامة رئيس دينى ، تعطيهم قداســته نوعا من الحماية من غارات المعتــدين . ويعيش الناس فى مجموعات محلية تتكون كل منها من رجال ينحدرون من جد واحــد ومعهم زوجاتهم وأولادهم ، ويشترك أفراد المجموعة فى أرض الرعى ، فهى مشاع بينهم ، أما الحقول التى يستطيعون زراعتها فهى ملك لأصحابها .

ولكل مجموعة محلية رئيس ، ينتقل منصبه من بعده الى أكبر أبنائه سنا . وتتكون القبيلة من عدد من المجموعات المحليه التى تربطها وشائج القرابة، ويتزعم القبيلة رئيس يتقلد منصبه بالوراثة ، ولــكنه فى الواقع ليس له من السلطة الحقيقية الا قدر ضئيل . والصوماليون منــذ قرون كثيرة مسلمون متعصبون لدينهم متمسكون بتعاليم نبيهم ، ولهذا يتحتم على الرجل أن يقتصر على أربع زوجات ، يدفع لكل منهن مهرا غير قليل . وينتقل معظم هذا المهر عادة الى يد الزوجة عن طريق أبيها ، وتتبع كل قبيلة فى العادة نظام الزواج الداخلى من بين أفرادها ، أما المجمــوعات المحليــة فانها تتزاوج من خارج المجمــــوعة .

وللصوماليين سمعة اكتسبوها عن حق وجدارة بأنهم محاربون ممتازون ، وفى بعض القبائل لا يمكن لرجل أن يتزوج حتى يقتل أحد الأعداء ويحضر الى قبيلته أعضاءه التناسلية كتذكار يؤكد انتصــاره . ومهما ظهــرت بعض العادات الصومالية بأنها عادات متوحشة فى ظاهرها فانها تشبه كثيرا العادات السامية الآسيوية منذ بضعة آلاف من السنين .

كان موقع الساميين الأسيويين ملائما بنوع خاص للتقدم الحضارى ، فقد كانوا على صلة وثيقة ومستمرة بأقدم مركزين للمدنية فى العالم ، وهما بلاد ما بين النهرين ومصر . وما حل عام ٢٣٠٠ ق.م. حتى كان الســاميون قد

تغلبوا على بلاد ما بين النهرين واقتبسوا حضارتها (١) وأوصلهم انهماكهم فى التجارة الى الاتصال بكثير من الشعوب وجعلهم على علم تام بالاختلافات التى بين الحضارات ، وكانوا دائما على استعداد لاستعارة الأدوات الجديدة أو الأساليب الفنية عندما يجدون فى ذلك فائدة لهم. وفى نفس الوقت أظهرت الحضارات السامية استمرارا فى أسسها ، وهو استمرار ربما لا يشاركها فيه حضارات أى مجموعة أخرى . وأى شىء استعاروه من حضارة أخرى كانوا يعيدون تفسيره بما يتفق مع ما لديهم من قيم خاصة ومايتفق مع مصالحهم، وقد استمرت هذه الأشياء باقية بينهم لم يكد يطرأ عليها أى تغيير .

وأهم ما قدمه الساميون وساهموا به فى المدنية كان فى ميدانى العلوم الرياضية والفلك من ناحية ، وفى ميدان الدين من ناحية أخرى. ومن الحقائق التى تلفت النظر أننا ندين لهم بكل من نظرية آلية الكون والنظرية التى تقول بأن الكون ليس الا وحدة تخضع خضوعا مطلقا لمشيئة اله واحد قوته فوق كل شىء . وقد تطورت النظرية الأولى من ملاحظات الكهنة الذين عاشوا فى بلاد ما بين النهرين فترة طويلة من الزمن للافلاك السيارة فى السماء . أما النظرية الثانية فقد نشأت عن الاخلاص والفناء الكاملين فى الاله القبلى ، وكان هذا الاخلاص على درجة من القوة جعلت كل « الكائنات » والقوى الأخرى تتلاشى أمام المتعبدين . كان الساميون يجرون دائما وراء الأشياء المطلقة ، وكان من سوء حظ ورثة حضارتهم أن وجدوا أمامهم هاتين النظريتين وكل منهما على طرفى نقيض . ويمكننا أن نتتبع جميع العقائد التوحيدية التى عرفناها فنرى أنها ترجع الى أصول سامية ، وقد واجهت كلها نفس الأحجية ، وهى وجود اله قادر على كل شىء فى كون يحكمه ويسيره قانون لا يمكن أن يحيد عنه .

(١) لقد تغلب الساميون على بلاد مابين النهرين فى تاريخ اقدم من ذلك التاريخ بوقت طويل ، ونحن نعرف أن بداية حكم سرجون الأول وهو مؤسس الدولة الأكدية السامية فى بلاد ما بين النهرين ، وهى اقدم الامبراطوريات السامية فى التاريخ ، كانت حوالى عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد « المترجم »

الفصل الحادى والعشرون

بلاد مابين النهرين

تشير كل الدلالات الى أن نظم الحياة القروية التى نمت وتطورت فى جنوب غربى آسيا قد انتشرت فى بقية المنطقة الأوروبية الأسيوية وفى شمال أفريقيا بسرعة عظيمة . وقد سبق لنا فى فصول مختلفة مناقشة التعديلات التى طرأت عليها لتجعلها ملائمة للظروف البيئية المختلفة . ولسنا نستطيع أن تفسر ظهور المدنيات القديمة بأنها سارت فى نفس الطريق فلم تكن تلك المدنيات ضرورية لأجل حياة الانسان فى المناطق التى ظهرت فيها ، ولكن الظروف فى تلك المناطق يسرت ظهورها . وهناك أوجه معينة للمقارنة بين نتائج انتشار الحضارة القروية فى جنوب غربى آسيا فى مناطق العالم القديم المعتدلة وبين النتائج التى يحصل عليها المرء لو أنه سحب عقدة خيط مغموسه فى محلول مملوء بالبكتيريا فوق سطح طبق من الجلاتين (الهلام أو البالوظة) ، فبعد مرور بعض الوقت ستظهر مجموعات كثيفة من البكتريا تبتعد عن بعضها البعض فى مواضع مختلفة . وبنفس الطريقة ظهرت بقاع مزدحمة بالسكان فى أماكن مختلفة من المنطقة التى وصلت اليها الحضارة القروية ، وقامت المدنيات فى تلك المناطق التى اتحد فيها عامل ازدحام السكان مع عوامل أخرى خاصة بالحضارة والبيئة ، فسهل اتحاد تلك العوامل ظهور حياة المدن .

وقد سبق لنا فى الفصل العاشر مناقشة أهمية المدينة كنموذج جديد وواضح للتكتل الاجتماعى ، كما ناقشنا الظروف التى يجب توافرها حتى تستطيع تلك

المدن أن تستمر فى البقاء ، اذ أنها ليست فى حاجة الى مجموعة كبيرة العــدد من السكان ومستقرة فحسب ولكنها فى حاجة أيضا الى المعدات التكنولوجية اللازمة لنقل الطعام والمواد الخام الأخرى الثقيلة الوزن الى مكان المدينة ، ثم توزيع البضائع التى ينتجها العمال المحترفون المهرة من أهلها . ويبدو أن الحياة فى المدن قد قامت من تلقاء نفسها فى عدة أماكن فى العالمين القديم والحديث حيث توافرت هذه الظروف . وفى جهات أخرى كان انتشار نظم الحياة المدنية التى تطورت فى أماكن بعيــدة عنها باعثا على ايجاد الظــروف المحلية اللازمة .

كانت أقدم المراكز الحضارية فى العالم القديم ، التى يمكن أن نقول عنها انها تماثل الحياة فى المدن ، كانت كلها فى وديان الأنهار العظيمة . ففى هذه الوديان ساعدت التربة الغنية على اعالة جماعات عديدة من السكان المزارعين ، بينما ساعدت طرق النقل المائية على سهولة تموين المدن . وبعد أن تم تنظيم الحياة المدنية فى هذه المراكز ، انتشر الى الداخل من كل مركز منها الى مناطق أبعد وأبعد ، وقد ساعد على انتشارها وجود الحاجة الى المواد الخام وتطبيق النظم الفنية فى الرى التى تم تطورها فى وديان الأنهار العظيمــة على المناطق المحلية التى تقل عنها . ولا حاجة بنا الى اعادة التأكيد بأن المراكز الحضارية الأولى قد نشأت مستقلة عن بعضها البعض، واذا كان هناك تشابه بينها فان ذلك راجع الى أنها جميعا قد استمدت أصولها من حضارة قرى جنوب غربى آسيا وراجع أيضا الى المشاكل المتشابهة التى واجهتها جميعا ازاء ذلك النوع الجديد من الاندماج الاجتماعى .

لقد شيدت المدن الأولى بجانب النيل ، ودجلة ، والفرات ، ونهر السند، ونهر الهوانج هو ، أما أوروبا فانها لم تعرف حياة المدن الا بعد ذلك بوقت طويل جدا . لم تكن المدن الاغريقية والايطاليــة الأولى الا بلادا صــغيرة فى

الواقع ، ولكنها حققت لنفسها الاكتفاء الذاتي من الناحية الاقتصادية . كانت حضارة أوروبا الأولى من التعقيد بحيث لا يمكننا أن نطلق عليها اسم «مدنية» كما أن حضارة جزيرة كريت لم تكن حضارة مدن . فقد كان سكان الجزيرة، بالرغم من كثافتهم النسبية ، موزعين فى بلاد صغيرة كثيرة ، الأمر الذى قلل من الحاجة الى نقل البضائع على نطاق واسع ، أما الصناع المحترفون المهرة ، الذين كانوا ينتجون البضائع التى كانت تصدرها جزيرة كريت فقد كانوا يقيمون فى أماكن قليلة على الساحل ، حيث كان فى مقدور السفن أن تحمل معها البضائع التى انتجوها . ولم تظهر مدن حقيقية فى بلاد اليونان الا بعد ظهور الأوليمبياد الأول (فى عام ٧٧٦ ق.م.) ، كما أنها لم تظهر فى ايطاليا الا بعد أن تأسست فيها المحلات الاغريقية (بين القرنين السادس والسابع ق.م.) أو ربما المحلات الأتروسكية (القرن الثامن ق.م.) ولم تظهر المدن فى بقية أوروبا الا بعد ذلك التاريخ ، ولم تظهر فى شبه جزيرة اسكنديناوة حتى قاربت العصور الوسطى على نهايتها .

ومن المحتمل أن مصر وبلاد النهرين كانتا أقدم المراكز التى انتشرت فيها حياة المدن . ويبدو أن بدايتهما فى هاتين المنطقتين كانت مستقلة كل منهما عن الأخرى وفى وقت واحد فى الواقع (حوالى ٤٠٠٠ ق.م.) . وبالرغم من أنه كانت هناك علاقات عارضة بين مصر وبلاد النهرين منذ عام ٣٥٠٠ ق .م. على الأقل ، فان الاتصالات الحقيقية بين الحضارتين لم تبدأ الا عندما أصبحت مصر قوة حربية ولها سلطة ونفوذ فى آسيا (عام ١٥٠٠ ق.م.) . أما تحديد بداية مدنية وادى السند ، فهى من الأمور التى يصعب علينا اعطاء رأى حاسم فيها ، وذلك لأنه لايوجد الأساس الذى نستطيع أن نقول عنه انه صالح لاجل التاريخ المحلى هناك . وعلى أى حال ، فان هذا المركز الحضارى يقع بالقرب من نقطة الأصل فى حضارة القرى فى جنوب غربى آسيا مما يجعلنا نرجح أن تكون حياة الاستقرار سائدة هناك منذ وقت مبكر جدا . وتثبت السلع التى

جلبت عن طريق التجارة انه كانت هنـاك علاقة مع بلاد النهرين حـوالى عام ٣٠٠٠ ق.م. ولا جدال فى أن بداية المدنية هناك ترجع فى تاريخها الى أبعـد من ذلك . أما مدنية وادى هوانج هو (النهر الأصفر) فى شمال الصين فقـد بدأت فى وقت يتأخر كثيرا عن المدنيات الأخرى ، وحتى اذا أراد الانسان أن يطلق اسم « مدنية » على حضارة « الفخار الأسود » التى سبقت عصر أسرة شانج فى هذه المنطقة ، فان أقدم تاريخ لتطورها لا يمكن أن يسبق عام ٢٠٠٠ ق .م. بوقت طويل .

لقد أثرت بلاد ما بين النهرين على المدنية الأوروبية أكثر من أى مركز آخر من مراكز المدنيات المبكرة ، وقد بدأنا فقط منذ وقت قريب ندرك مدى الدين الكبير الذى تدين به الحضارة الاغريقية القديمة لهذه المنطقة . كما أن دين الحضارات الهلينيستية أكثر وأعظم لأن النظم الاقتصـادية والسياسية التى تضمنتها هذه الحضارات قد أخذت مباشرة من هذه المنطقة بعد أن لعبت كل من المدنيتين الأشورية والفارسية دور الوسيط، ثم انتقلت هذه النظم عن طريق الحضارات الهلينيستية الى الامبراطورية الرومانية وأصبحت جزءا من تقاليد غرب أوروبا .

أما فضل المدينة المصرية على مدنية أوروبا فانها تليها فى الأهمية ،وان كانت أقل منها كثيرا . فقد اقتصرت هذه الأفضال بصفة رئيسية على الميادين الفنية والالهية ، وقد صفتها ونقتها المدنية الهلينيستية قبل أن تصل الى الغرب .لقد كانت الحضارة المصرية تتبع فى تطورها اتجاها مختلفا وتقوم على قيم الأشياء وفائدتها وهو اتجاه يصعب علينا تقديره ، كما أن تركيز اهتمام الحضارة المصرية فى الحياة الأخرى وتحمسها فى قبول فرعون مؤله ، تستمد الأمة سلامتها من سلامته ، كانا أمرين يصعب ادراكهما وفهمهما على الأوروبيين (١) .

---

(١) لاشك فى أن دين الحضارة الأوروبية لحضارة بلاد النهرين دين عظيم، ولاشك أن كثيرا مما وصل الى الاغريق كان مستمدا من تلك البلاد . واذا كان =

ونجم عن اتصال حضارة وادى السند بحضارة جنوب شرقى آسيا ابان العصر النيوليتى ، وكانت فيما يبدو معاصرة لها ، صـورة حضارية متميزة أضاف اليها الغزو الآرى لشمال الهند عناصر أخرى. وقد بولغ كثيرا فى الماضى فى أهمية ما أدخله الغزو الآرى على مدنية تلك المنطقة ، ولكن البحث الحديث قد أثبت أنه لم يكن له ذلك التأثير الكبير . لقد أسهم الآريون باعطاء بعض العناصر الحضـارية للهند كما أعطوا أوروبا لغة ، ولكنهم أخذوا عنهـم الحضارة . وبالرغم من العلاقة الطويلة التى ربطت الهند بالغرب فان المدنية الهندية لم تسهم الا بالقليل فى مدنية الغرب . ان ما يسمى بالأعداد العربية هى فى الحقيقة هندية الأصل ، ويبدو أن بعض نظريات فلسفية هندية معينة قد انتقلت بوسـاطة الهلينستيين ، ولكن المدنيـة الهندية شـأنها كشأن المدنية المصرية القديمة ، تختلف اختلافا بينا عن المدنية الأوروبية فى موضوع قيم الأشياء وفائدتها .

أما مركز الهوانج هو فقد كان المصـدر الذى نهلت منه المدنية الصينية العظيمة التى أمدت بل وأحدثت تغيرات أساسية فى الحضارة المبكرة فى كوريا واليابان وقلبتها رأسا على عقب ، وتركت طابعها فى حضارات الهند الصينية والتبت . واذا كانت هذه المدنية لم تسهم الا بقدر ضئيل فى مدنية أوروبا فان ذلك راجع على الأرجح الى عامل المصادفة بسبب الزمن والمكان . فما من شك فى أن قيم الأشياء وفائدتها فى المدنية الصينية مفهومة تماما للأوروبى الحديث ، وكان للصـناع الصينيين العباقرة فضـل كبير ، وذلك عن طريق

= دين المدنيتين اليونانية والرومانية لمدنية مابين النهرين دينا كبيرا ، فان دين اليونان لمصر بنوع خاص كان كبيرا ايضا ولا يقل عن دينهم للمركز الحضارى الآخر . ويكفى ان نرجع الى ماكتبه واضعو اسـاس القـانون أو الطب او الموسيقى وغيرها من العلوم فى بلاد اليونان فانهم يفخرون جميعا بأنهم أقاموا فى مصر وتلقوا علومهم من الكهنة المصريين . ولاشك أن المؤلف قد قلل مـن فضل مصر على حضارة الغرب ، وهو ما لا يقره عليه المؤرخـون الغربيون ، ولكنه محق دون شك فى قوله بأن اليـونان لم يفهمـوا الديانة المصرية على حقيقتها . « المترجم »

أقدم المدنيات
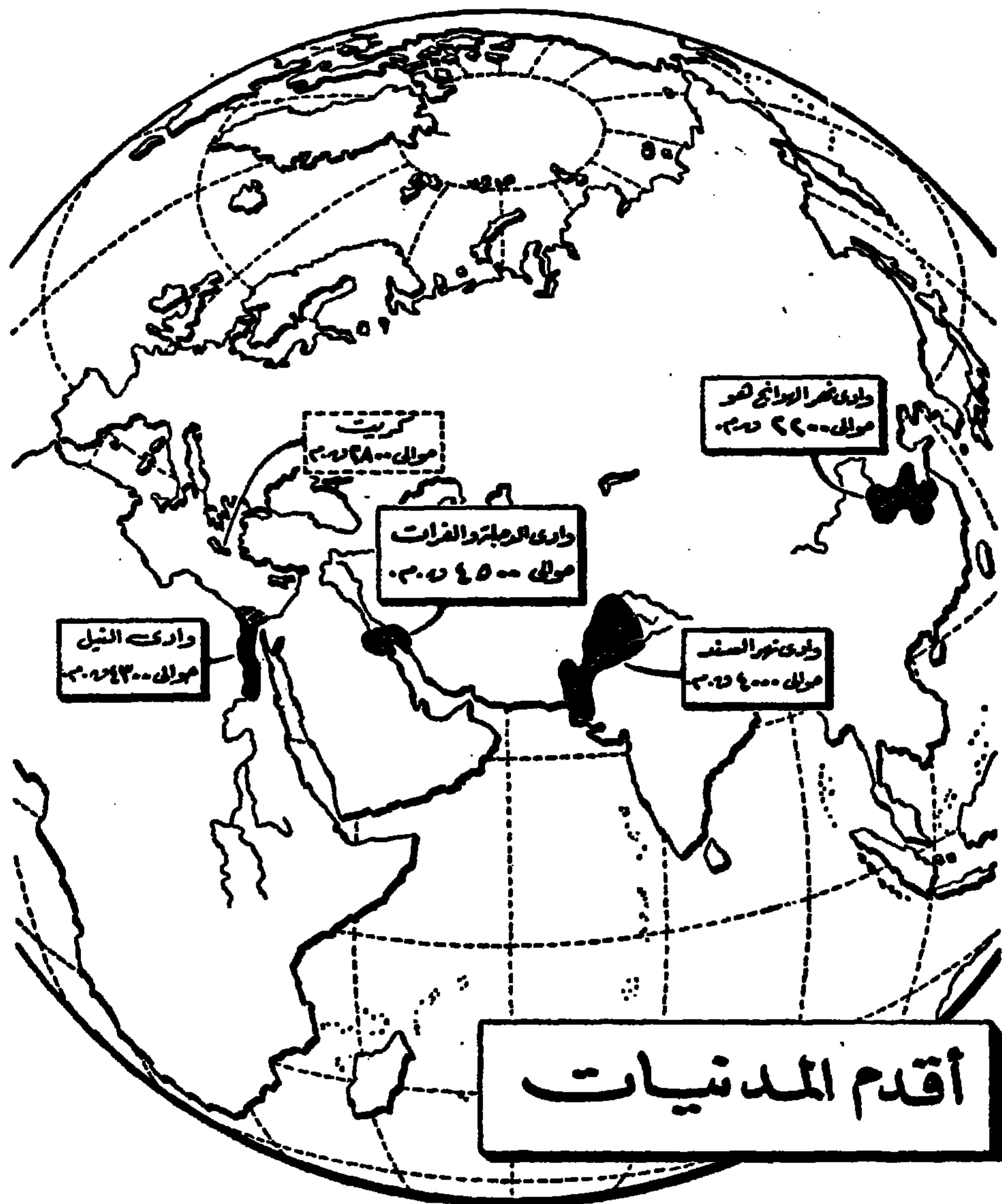
الوسطاء من ساكنى منطقة الشرق الأدنى ، فى المامنا ببعض المخترعات الهامة مثل الورق والطباعة والباروذ والحرير والخزف الصينى .

وعند محاولتنا لوصف الحضارات القديمة التى أسهمت فى تطور المدنيات الحديثة تعترضنا عقبة من أكبر العقبات وهى تقرير المستوى الزمنى الذى نختاره . ويزداد غموض مالدينا من معلومات عن هذه الحضارات ، وتصبح ناقصة كلما رجعنا فى الزمن الى الوراء . ويجب ألا ننسى أنه فى الوقت الذى تتضح فيه معالم أى حضارة منها ، ونعرف فيه شيئا كثيرا عنها فانه يجب أن يكون قد مضى على تطور أساليبها الأساسية وقت طويل . وبالرغم من أن حضارتين على الأقل من تلك الحضارات (مصر وبلاد النهرين) قد امتازتا بالتغير السريع جدا فى ابتدائهما ، مما يجعلنا نعتبرهما انقلابين عبقريين فى تاريخ الحضارة ، فان هذه الحضارات كلها يبدو أن كلا منها قد اكتملت فى وقت مبكر مع تعديلات طفيفة ، حتى تغير سير تلك الحضارة بغزو خارجى واتصالها بحضارات أخرى .

وفى مثل هذه الظروف يبدو من الأوفق أن نأخذ كقاعدة لنا عند وصفنا لها ، ذلك الوقت فى تاريخها الذى يتضح فيه المظهر الحضارى الخاص بها ، مشيرين الى ما سبق هذا الوقت من عصور اشارات عارضة اذا لزم الأمر . وسيكون ذلك الوقت بالنسبة الى بلاد ما بين النهرين هو عام ٢٠٠٠ ق.م. تقريبا ، وكذلك الأمر بالنسبة الى مصر ، أما بالنسبة للصين فانه العهد المتأخر من اسرة « تشو » (Chou) أى حوالى ٥٠٠ ــ ٤٠٠ ق.م. ، أما فيما يختص بالهند فان المخلفات الحضارية ما زالت غير واضحة ومرتبكة ، بل وتسبب الارتباك الى أن يحل الوقت الذى أعقب الفتوح الاسلامية فى القرن التاسع الميلادى (١) . وسنتحدث عن كل من الهند والصين ومصر فيما بعد ، أما الآن

---

(١) وصلت المدنيـــة المصرية الى ذروتها فى الدولة القديمة اى قبل عام ٢٥٠٠ ق.م. ولاشك انها استكملت كل مقوماتها قبل هذا التاريخ بوقت طويل . أما عام ٢٠٠٠ ق.م. فهو يوافق الدولة الوسطى ولايمكن لأحد أن يقول انه

فسنتحدث أولا عن بلاد ما بين النهرين كأول مثل للمدنية ، من ذلك النـــوع الذى نعرفه ونستطيع أن نفهمه . فكثير من النظم الاقتصادية والاجتماعية التى ما زالت سارية فى المجتمع الغربى الحديث يمكن أن ترد أصـــولها الى هذه المنطقة . وقد قيل انه لو رجع الزمن بجورج واشنطون فوجد نفسه يعيش فى بلاط حمورابى فى بابل فيما بين عامى ٢٠٦٧ و ٢٠٢٥ ق.م. لشعر بأنه فى موطنه الذى يرتاح اليه أكثر مما يشعر به فيما لو رجع الى العاصمة الحديثة التى تحمل اسمه (١) . فلو ضربنا صفحا عما يلاقيه من صعوبة التفاهم لعدم المامه باللغة ، فانه لن يقابل الا أشياء قليلة فى امبراطورية حمورابى ليست مفهومة أو مألوفة له . بينما لو بعث الآن وعاش فى مدينة واشنطون فقد يحس بالحيرة والارتباك ازاء تلك التغيرات التكنولوجية الهائلة التى حدثت خلال المائتى العام الأخيرة ، كما ستحيره وتربكه تلك الجهود المضـــنية التى يبذلها المجتمع الامريكى ليلائم بين تلك التغيرات التكنولوجية وبين العناصر الأخرى من حضارته .

ان بلاد ما بين النهرين هى المنطقة التى كونها نهران عظيمان ، هما نهـــرا دجلة والفرات، وفى الوقت الذى بدأت فيه مدنية تلك البلاد كانا يصبان ماءهما فى الخليج الفارسى فى عدة فروع منفصلة عن بعضها . كانت بلاد ما بين النهرين

كان أهم عصر فى التاريخ المصرى أو أن مظاهر المدنية المصرية فى ذلك العهد لم تقل عما كانت عليه فى الدولة القديمة فى مختلف النواحى . اما فيما يختص بعام ٢٠٠٠ فى تاريخ بلاد مابين النهرين فهو يمثل فترة مزدهرة فى تاريخ تلك البلاد ، وربما لايجد اعتراضا كبيرا من المختصين بدراسة الحضارة البابلية ولكن يوجـد من بينهم ايضا كثيرون ممن يعتقدون أن الحضارة السومرية ، وهى الحضارة الاساسية لبلاد مابين النهرين، قد نضجت ووصلت الى قمة ازدهارها قبـل ذلك التـاريخ بعدة قرون . أما حضارة الهند فاننا نعرف الكثير عنها فى العصور القديمة السابقة للغزو الآرى حوالى عام ١٩٠٠ — ١٧٠٠ قم كما يمكن اعتبار عصر ازوكا فى القرن الرابع قبل الميلاد العصر القياسى لحضارة الهند بعد أن استقرت الأمور واتخذت مدنيتها اتجاها معروفا قبل ان تؤثر عليهـــا الحضارة الهليستية بعد ظهور الاسكندر

(١) هذا التاريخ المذكور لحكم حمورابى قديم ولا يمكن الاخذ به، والبحوث الحديثة تحدد عام ١٧٢٨ ق.م. لبدء عهده (المترجم)

القديمة تقرب فى الحجم من ولاية ماساشوستس فى الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت المستنقعات تغطى كثيرا من أرجائها . كانت هناك محلات سكنية كثيرة يعيش فيها قوم لهم حضارتهم النيوليتية ولكن حدث تغير مفاجىء بين عامى ٤٥٠٠ و ٣٥٠٠ ق.م. بظهور حياة المدن وقيام الحضارة السومرية . ويميل أكثر الباحثين الى القول بأن السومريين أتوا كقوم مهاجرين ، ولكن ازاء السرعة التى تتقدم بها الحضارات تحت ظروف مواتية ، نرى من سداد الرأى أن نمسك عن الحكم حتى نستطيع أن نربط بين الحضارة السومرية وبين حضارة أخرى أقدم منها خارج منطقة بلاد ما بين النهرين . ونحن نعلم أن المدن السومرية كانت تشيد على أماكن من الأرض المرتفعة التى كانت أعلى من مستوى المستنقعات وأن كثيرا من القرى التى انتشرت فيها الحضارة النيوليتية الأقدم عهدا ظلت مستمرة فترة من الزمن فى منطقة المستنقعات .

وحدث حوالى عام ٣٥٠٠ ق.م. فيضان عظيم ، وربما كان هذا الفيضان هو الأساس الذى قامت عليه أسطورة طوفان نوح وسفينته التى وردت فى التوراة . كان ذلك الفيضان عظيما عارما ، ويدل على ذلك تلك الطبقة السميكة من الرواسب الطينية التى عثر عليها فى نفس المستوى فى مناطق متعددة من البلاد القديمة التى كشفت عنها التنقيبات الأثرية . كان هذا الفيضان مهما الى درجة أنه أصبح فى نظر السومريين حدثا تاريخيا فى نظام التوقيت السومرى ، فقد قسموا قوائم الملوك التى جمعوها فى عصور تالية الى قسمين أحدهما عصر قبل الطوفان والقسم الثانى بعد الطوفان . دمر ذلك الطوفان بعض المدن السومرية ، وكانت وطأته أشد على الجماعات الأقل تقدما التى كانت تعيش فى المستنقعات، وهم الذين قضى ذلك الفيضان العظيم على معظم قراهم . ولكن بعد أن انتهى ذلك الطوفان لم يكتف السومريون باعادة بناء بلادهم فحسب بل انتشروا وحلوا فى جميع المناطق الجنوبية من الوادى . وتوصلوا فى وقت مبكر جدا الى معرفة طرق فنية فى شق القنوات

اللازمة للرى أو للصرف ، وقد ساعدت هذه القنوات على تحويل كثير من أراضى المستنقعات الى تربة سميكة وغنية يمكن أن تنتج محصولين وافرين فى العام دون حاجة الى استخدام السماد . وزاد عدد السكان زيادة سريعة، ومنذ عام ٣٠٠٠ ق.م. حتى الوقت الذى دمر فيه الغزاة المغوليون فى القرن الثالث عشر الميلادى قنوات الرى فأعادوا البلاد مرة ثانية الى مستنقعات ، كانت بلاد ما بين النهرين منطقة من أعظم المناطق المزدحمة بالسكان فى العالم وأكثرها تقدما فى المدنية .

ويبدو أن سكان بلاد ما بين النهرين كانوا من أجناس مختلفة ، حتى فى أقدم العصور . فأشكالهم الرئيسية ، كما نعرفها مما تركوه من آثار ، تمثل جنس سكان البحر الأبيض المتوسط ذوى الرءوس المستطيلة ، وتمثل كذلك ذلك الجنس ذا الأنف الكبير والرأس المستدير الذى نطلق عليه اسم الجنس الأرمنى . ويبدو أن هذا النوع الأخير كان هو النوع الأرستوقراطى الذى يعجبون به ، لانه كان النوع الوحيد الذى كان يظهر بانتظام فى أقدم التماثيل القديمة ، وفى النقوش التى يظهر فيها المثل الأعلى لهم . ولكن هذا الطابع لم يظهر دائما على نطاق واسع فى صور الأشخاص التى قصد منها أن تكون صورا شخصية لأصحابها . فاذا كان أحد الجنسين قد جاء الى البلاد نتيجة لغزو كبير، فيكون هو الجنس الأرمنى بكل تأكيد، ويمكن أن يوافق النظرية المفترضة فى الهجرة السومرية .

أما معلوماتنا عن لغة بلاد مابين النهرين القديمة فهى أكثر من معلوماتنا عن شكلهم الجثمانى ، ويرجع الفضل فى ذلك الى تطور الكتابة المسمارية والى عادتهم فى الكتابة على ألواح من الطين ، التى كانت تصبح بعد وضعها فى النار لحرقها مادة غير قابلة للفناء بسهولة . وبالرغم من أن بلاد ما بين النهرين تقع فى وسط منطقة سامية ، فان اللغة السومرية نفسها ليست لغة سامية بكل

تأكيد . ونستطيع أن نقرأ الآن النقوش السومرية دون صعوبة ، وذلك لأن علماء سكان بلاد ما بين النهرين فى العصور المتأخرة كانوا يدرسون اللغة السومرية على اعتبار أنها لغة ميتة حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م. ؛ وخلفوا لنا مجموعة كبيرة من المعاجم وكتبا سجلوا فيها جملا وتعبيرات سومرية وما يقابلها فى لغتهم السامية . ولا نستطيع أن نقول عن اللغة السومرية انها لغة قريبة من أى لغة من اللغات الحية ، وتشبه بعض تراكيبها النحوية بعض الشبه التراكيب النحوية فى اللغة التركية ، ولكن مفرداتها تختلف تمام الاختلاف عن مفردات اللغة التركية . ونجد بعض الكلمات السومرية القليلة فى أصول بعض كلمات فى مجموعة اللغات الهندية ـ الأوروبية ، مما يوحى بوجود اتصالات قديمة بين السومريين وبين شعوب منطقة الاستبس . وهناك دليل آخر على وجود هذه الصلة وهو مانراه فى أشكال بعض الأدوات المعدنية وحتى فى فئوس القتال المصنوعة من الحجر التى كانت تستخدمها شعوب الاستبس ، فمن الواضح أنها مأخوذة عن مثيلاتها من أدوات وفئوس سومرية الأصل .

أما فى النواحى التكنولوجية السومرية فانا نرى أن أساليبهم الفنية هى نفس الأساليب التى كانت سائدة فى مركز جنوب غربى آسيا فى العصر النيوليتى مع اضافات قليلة وزيادة ملحوظة فى المهارة الفنية . لقد عرف السومريون كل المعادن تقريبا واستغلوها فى الصناعة اللهم الا معدن الحديد الذى لم يوجد الا كحديد شهبى ، ولذلك كان نادر الوجود الى درجة كبيرة اذا ما أريد استخدامه فى الأغراض العادية . وعرفوا طريقة صب المعادن بطريقة الشمع المصهور (أنظر الفصل التاسع) ، وعرفوا صنع الأسلاك بطريقة جذبها من خلال فتحات ضيقة ، وكان فى استطاعتهم أيضا أن يلحموا قطعا من المعدن مع بعضها البعض . ونعرف من دراسة حليهم أنهم عرفوا صناعة الحلى على طريقة الفلجران المخرمة (الشفتشى) وكذلك طريقة تجزيع المعادن . وفى خلال

العصر السومرى المبكر ، كان الفرق فى القيمة بين المعادن المختلفة ضئيلا جدا، وكان معدنا النحاس والبرونز نادرين الى حد جعلهما مماثلين تقريبا فى قيمتهما لمعدنى الذهب والفضة . وكانت الحراب والخناجر والبلط الحربية والأسلحة المستعملة ، والأدوات التى لاتستخدم فى الطقوس ، تصنع من سبائك مختلطة من الذهب والنحاس أو من الذهب والفضة . وكانت هذه السبائك صالحة للاستخدام العملى . صلبة ولا تتآكل بسهولة . أما الأوانى الفخارية فكانت تصنع على عجلة الفخار ، وكان صانعو الفخار ، الذين كانوا محترفين بطبيعة الحال ، يصنعون كميات كبيرة منها ، وكان انتاجهم من أنواع خاصة محددة ذات فائدة عملية ، أما الأدوات الفاخرة فكانت تصنع من المعدن أو الحجارة أو الأصداف .

وأهم ما أحرزوه من تقدم نراه فى ظهور أنواع كثيرة من الصناع المحترفين المهرة الذين اعتمدوا على مهارتهم فى الحصول على ما يحتاجون اليه فى الحياة، وقد عثر بين الوثائق القديمة على عقود لتعليم حرف معينة ، ومن المحتمل جدا أن تكون النقابات المهنية قد ظهرت فى المدن فى بلاد ما بين النهرين حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م.

كان السومريون دائما مهددين بسكان القرى والبدو الذين يتكلمون اللغة السامية الذين كانوا يعيشون على حدودهم ، وأخيرا خضعوا لغزو سامى حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م. تقريبا (١) . واقتبس الساميون الغزاة كثيرا من الحضارة السومرية ، وخير ما يمثل تلك العلاقة بين الجماعتين ما نراه فى الرسوم والنقوش العديدة التى تمثل ملكا ساميا يرتدى رداء مطرزا ويحمل

---

(١) ربما كان عام ٣٠٠٠ ق.م. أقرب الى الصواب ، وقد سبق أن اشرنا الى تأسيس الامبراطورية السامية الاولى فى بلاد مابين النهرين على يدى سرجون الاكدى حوالى عام ٢٣٥٠ ق.م. (المترجم).

التاج المثلث ، وشعرا مستعارا طويلامضفرا ولحية ، كما يحتم عليهم ذلك المظهر الرسمى ، ويقوم على خدمته كاتب سومرى حليق الرأس ، ويرتدى عباءة ونقبة حول وسطه . ولم تمض أجيال قليلة حتى امتزجت هاتان الجماعتان ، وانتصرت اللغة السامية ولكن الحضارة السومرية ، التى كانت قد ثبتت أقدامها تثبيتا تاما قبل ذلك الغزو استمرت دون أن يطرأ عليها الا القليل من التغير ، اذ لم يدخل الغزاة الساميون بعد أن جاءوا الى تلك البلاد ، عنصرا واحدا من العناصر التكنولوجية .

كانت المدينة السومرية محاطة بسور ضخم مشيد من الطوب اللبن ، وواجهته مغطاة بطبقات قليلة من الطوب المحروق الآجر ، ونظرا لأن سكان المدن كانوا يعيشون فيها قرونا عديدة متتالية ، وكانوا يقوون ويدعمون هذه الأسوار من آن لآخر ، فان بعضها وصل الى حجم ضخم . فقد كانت أسوار بابل عند ما زارها هيرودوت تبلغ ثمانية أميال فى محيطها ، بينما كان ارتفاعها تسعين قدما ، وكانت من العرض بحيث كان فى استطاعة عربتين حربيتين أن تمرا معا كل منهما فى اتجاهها وهما تسيران فوق السور . ولم تستخدم هذه الأسوار فى وسائل الدفاع ضد أعداء المدينة فحسب ولكنها استخدمت أيضا كجسور لحمايتها من الفيضانات . ولم يكن فى داخل المدينة ، عادة ، غير طريق واحد عريض وهو الذى يمتد من البوابة الرئيسية الى حرم المعبد الواقع فى وسط المدينة . أما ما عدا ذلك من الشوارع فقد كانت ضيقة ، وكانت الحوارى متعرجة وتشيد ارتجالاً دون اتباع تنظيم أو تخطيط خاص. كانت المنازل تبنى من الطوب اللبن ويدعمونها بالأخشاب ، وكثيرا ما كانت هذه المنازل تنهار وخصوصا فى فصل سقوط الأمطار ، وعندئذ كانوا يأخذون ما يستطيعون أخذه من الأخشاب ثم يسوون الطوب اللبن ، ويبنون منزلا جديدا فوق انقاض المنزل القديم . ولما لم يكن لديهم مجار فانهم كانوا يلقون الفضلات فى الشوارع ، ولهذا السبب كان مستوى الشارع يرتفع باطراد

حتى يصل الأمر الى أن تعود المياه ثانية الى المنازل فى أيام الفصل المطر . فاذا ما حدث ذلك فانهم كانوا يعيدون بناء المنازل فى مستوى أعلى من مستواه ، ولهذا السبب كانت كل مدينة بعد مرور أجيال قليلة تقوم على ربوة صنعتها بنفسها ، وبلاد ما بين النهرين فى وقتنا الحاضر مليئة بالتلال الصناعية التى تكونت بهذه الطريقة . وعالم الآثار الذى يقوم بحفر أحد هذه التلال يكشف عن طبقة بعد طبقة من المساكن ، وعن عدد كبير من المدن المدفونة التى تمتد مساكنها الى أسفل حتى تصل الى مستوى الماء .

وكانت هناك طبقة متوسطة وفيرة العدد من السكان فى المدن السومرية، وكانت منازلها تشبه كثيرا المنازل الحديثة فى مدن بلادالشرق الأدنى أو فى مدن أمريكا الأسبانية ، ويحيط بالمنزل سور غير مزخرف له باب واحد كبير. وكانت الحجرات تبنى حول حوش فى وسط المسكن، وكانت المطابخ والمخازن تشيد فوق الأرض مباشرة ، أما الحجرات التى كانوا يقيمون فيها فانها كانت تشيد فى الطابق الثانى ويوصل بينها رواق يطل على الحوش ، ومن المحتمل أنه كانت توجد نوافذ فى الطابق الثانى تطل على الشارع . وفى العادة كان يوجد بالمنزل حمام تتصرف مياهه الى الخارج ، ولكن لم يكن هناك مرحاض ، ومن المحتمل أن الناس كانوا يستخدمون الشوارع عند قضاء حاجتهم كما هو الحال الآن فى كثير من القرى المتأخرة فى بلاد الشرق . وكانت السقوف تنحدر الى الداخل حتى تنساب مياه الأمطار الى الحوش حيث تصرف بوساطة أنابيب رأسية مدفونة فى الأرض وتنزل الى عمق كبير . أما أثاث المنزل فكان مشابها لأثاثنا الحديث . كات لديهم كراسى وأسرة وينامون فوق شرائط مستطيلة مضفرة من الجلد غير المدبوغ بدلا من «الملة» المعدنية ذات اليايات، الأمر الذى جعلها مريحة تماما كأسرة أى معسكر حديث . وكانت هناك سجاجيد مفروشة على الأرض ومعلقة على الجدران .

ومن المحتمل جدا أن العائلات السومرية الغنية كانت تملك منزلين أوثلاثة منازل ، كالعائلات الانجليزية فى عصر الملكة اليزابث ، وتنتقل من منزل الى آخر تاركة المنزل الخالى ليتجدد هواؤه . وقد شجعهم على ذلك عادة دفن أقاربهم من الموتى تحت أرضية المسكن ، فعندما تبدأ رائحة الميت العفنة فى الانتشار فتجعل البقاء فى المنزل أمرا غير مرغوب فيه ، كان الأحياء يغادرون المنزل ، يتركونه للاشباح حتى تختفى روائحهم العفنة المنبعثة من الأرض .

وكان يعلو ، فوق كل مدينة مسورة ، حرم معبد مسور أيضا وتبلغ مساحته عدة أفدنة ، وفى داخله توجد المساكن التى يعيش فيها كل القاطنين فى دائرة المعبد ، كما توجد فيه أيضا المخازن والمكاتب . وفى وسط حرم المعبد كان يقوم تل صناعى يسمونه الزقورة (Ziggurat) وفى قمته يشيدون هيكل اله المدينة، وكانت توجد هياكل أخرى لبعض الآلهة الأقل شأنا ولكنها كانت تبنى داخل حرم المعبد فوق سطح الأرض مباشرة .

أما الهياكل نفسها فكانت صغيرة ، حجرات ليس لها نوافذ ولا يدخلها الضوء الا عن طريق الباب فقط .وفى آخر الحجرة يضعون تمثالا للاله لايغمره الا ظل غامض ، وكان هذا التمثال فى العادة مصنوعا من الحجر ولكنه كان من صغر الحجم بحيث يمكن نقله من الهيكل وحمله فى الشوارع فى أيام الأعياد . ولانستطيع أن نعرف من النقوش ما اذا كانوا يعتبرون التمثال هو الاله الفعلى ، أى الجسد الذى يتقمصه الاله بعض الوقت ليوطد العلاقة بينه وبين عباده ، أو أنه يمثل الاله فقط ولا شىء أكثر من ذلك . ومن المحتمل أن سكان بلاد ما بين النهرين القدماء لم يشغلوا بالهم كثيرا بمثل هذه التمييزات الدقيقة . وعلى أى حال ، فان تمثال اله أى مدينة معادية كان يعتبر شيئا هاما جدا اذا أمكن احتيازه ، اذ كانوا يعاملونه كأسير يستحق التكريم وكان الجانبان يعتقدان أنه طالما بقى التمثال فى حوزة القاهرين فان فرص الثورة تصبح قليلة أمام المقهورين .

وكانوا يهيئون لاله المدينةالرئيسى منزلا لسكناه يؤثثونه مثل منزلالحاكم، بل وربما زاد عنه فى الفخامة . وكان له خدم من الكهنة من مراتب مختلفة ، كما كانوا يعدون له حريما على النظام المتبع لدى الملوك . وعلى رأس هـذا الحريم كانت الـ «انتو» (Entu) زوجة الاله الرئيسية . وكان المفروض فى هذه المرأة أن تكون مخلصة لزوجها الالهى وكانت تحرس حراسة قوية ولا تترك بمفردها ، وكانت ، عادة ، أختا أو ابنةلحاكم المدينة. وفى بعض الحالاتكانت تنام بانتظـام فى المسكن المخصص للاله ، وكانت دائمـا تنام هناك فى الليلة السابقة لاتخاذ أى قرار سياسى هام لأن الفكرة فى ذلك هى أن زوجها الالهى قد يزورها ويعطيها الجواب الصحيح عن الموضوع . وقد ينام الحاكم أيضا فى الهيكل عندما تواجهه مشكلة يصعب عليه حلها ، فقد يزوره الاله فى الحلم ويخبره بما يجب عليه عمله . ونظرا لأن الزوجة الرئيسية للاله كانت دائمـا قريبة لحاكم المدينة ، فقلما كان يحدث أى صدام بين أوامر الاله ومشـيئة الحاكم .

وكان يلى الزوجة الرئيسية فى المركز الاجتماعى زوجات الاله الأخريات ، اللاتى كن يعرفن باسم سال ـ مى (Sal-me) ويبدو أن أولئك النسوة كن يتزوجن الاله زواجا قانونيا ، وكن يجلبن معهن مهورهن . وكن فى العـادة يعشن داخل الحرم الملحق بالمعبد ، ولكن كان فى استطاعتهن الذهاب والمجىء بحرية تامة كما كان فى استطاعتهن أيضا الاحتفاظ بمنزل خارج دائرة المعبد ، وكان فى امكانهن امتلاك العقار والاشتغال بالتجارة . والعمل الوحيد الذى كان محرما عليهن الاشـتغال به هو افتتـاح الحانات . فالصراع بين الدين والخمر الذى لا يزال مألوفا لدينا ، يرجع على الأقل الى عام ٢٠٠٠ ق . م . اذ أن قانونحامورابى ينص على أنالسالـمى التى تمتلك محلا لشربالخمور يجب أن تحرق . ولم يكن الطهر من الأمور التى يجب أن يتحلى بها الزوجات

الثانويات ، وكان كل الأطفال الذين يحملن بهم يعتبرون أطفال الاله ، الأمر الذى يوضح لنا السبب فى انتشار ادعاء الأبطال فى الأساطير القديمة بأنهم من نســل الهى . وكان النص الأغرب من ذلك فى هــذا القانون هو السماح للسالــمى بأن تتزوج ولكن يحرم عليها انجاب الأطفال من أزواجها الآدميين. اذ أن ذلك يعتبر تعديا على حقوق الاله . واذا حدث أن حملت «السالــمى» من زوجها فانها كانت تقتل . ويلوح أن الزوجات الـ « سال ــ ميات » كن فى العادة يشــترين محظيات لأزواجهن ليحملن عبء انجاب الأطفــال . وان الانسان ليساوره الشك فى أن مثل هذه الزيجات كانت تعقدها فى العــادة نساء متقدمات فى السن كن يفعلن ذلك بقصد الأعمال التجارية أو للحصول على رفيق موافق .

وتلى السال ــ مى فى المرتبة الـ « زكرو » (Zikru) ثم الـ « كاديشتو » (Kadishtu) وهؤلاء هن محظيات وخادمات الاله . ووجود هذين الاسمين يدل على أنه كان هناك بعض الاختلاف فى المركز وفى الوظيفة ، ولكن النقوش لم توضح لنا كنه هذا الاختلاف . كانت هؤلاء النساء عاهرات يعشن فى حجرات داخل حرم المعبد وكانت مكاسبهن تذهب الى المعبد ، وكن يعتبرن جزءا لا غنى عنه من التنظيم الدينى حتى ولو كان المعبود الهة وليس الها ، وكانت أطفالهن تتبناهم عائلات لا صلة لها بموظفى المعبد أو كهنته. ولم يكن مركزهن الاجتماعى مغايرا للمركز الاجتماعى الذى تحتله بعض العاهرات من الطبقة العليا بيننا الآن ، وكثيرا ما كان الشبان يحذرون منهن ومن خداعهن. وعندما تتقدم بهن السن ويصبحن غير صالحات للقيام بذلك العمل كان يعهد اليهن بأعمال حقيرة فى المعبد ، كما كان يعهد اليهن أيضا بأعمال النسيج . وقد عثر على ألواح فيها قوائم بأسماء النساء اللائى كن يقمن بمثل ذلك العمل ، وكميات الطعام التى كانت تصرف لهن ، وكميات النسيج التى أنتجنها .

وفى كل مدينة كان يعبد عدة آلهة، ولكن الاخلاص الحقيقى كان دائما من

نصيب اله واحد ، الحارس العاص للمدينة وسيدها فى حقيقة الأمر . كان كهنته هم الفريق الأعلى بين الكهنة ، بينما كانت الالهة الأخرى تعبد فى معابد أقل شأنا ويشرف على عبادتها كهنة أقل مرتبة من كهنة الاله الرئيسى. فاذا ارتفع شأن مدينة من المدن وأصبحت امبراطورية ثم ظهرت غيرها فحلت محلها فان مركز الاله فى كل منهما يرتفع وينخفض حسب الظروف . وكان اله المدينة الامبراطورية يسيطر على كل آلهة المدن الأخرى ، وعندما كانت تهزم مدينة ويحيق بها الدمار يسقط الهها الى الحضيض فى نظام الآلهة . وفى فقرة من مسرحية كتبها لورد «دنسانى» (Dunsany) نراه يصور نبيا يتحدث الى أحد الملوك ويتنبأ بمصير المدينة ويقول : « ان آلهة السماء يتجنبون الهك ، لأنهم يعلمون مصيره ، فهم يرون النسيان يحيط به كالضباب » وكان هذا هو عين ما يحدث بين السومريين . فقد كانت الآلهة لا تكن الحب لبعضها البعض أو للناس . كانوا لا أخلاق لهم على الاطلاق فى معاملتهم لكل من الفريقين وكان اهتمامهم بالمخلوقات البشرية من أجل استغلالهم فقط .

وكان المعبد يهيمن على الحياة الفكرية والاقتصادية فى المدينة كما كانت الزقورة تهيمن على مبانيها وترتفع فوقها . كان المعبد أشبه بمؤسسة تجارية تستحوذ بمضى الزمن على ثروة السكان شيئا فشيئا . كان اله المدينة هو المالك لكل الأرض وكان يأخذ ١٠ ٪ من الانتاج كايجار لها . وكان الفلاحون والصناع يدفعون الضريبة عينا ، وكانت المواد الخام التى تجمع بهذه الطريقة تصنع فى مصانع المعبد وتصدر المنتجات وتباع بواسطة الوكلاء لاناس آخرين. واحتاجت هذه التجارة التى كان المعبد يمارسها الى هيئة كبيرة العدد من الكتبة والمحاسبين الذين كانوا يعدون من الناحية الرسمية كهنة ولكن من طبقة أقل . أما طبقة الكهنة العظام فانها كانت كلجنة دائمة من المديرين تدير أعمال المعبد وكانت تستمر فى عملها ما دامت الأسرة المالكة فى الحكم . أما الأموال والبضائع التى كانت تصل الى خزائن المعبد فانها لا تخرج منه بعد

ذلك أبدا . وفى الوقت ذاته كانت العادة المتبعة هى قيام المعبد باقراض المال بفوائد نعتبرها الآن أنها ربا فاحش ، وكانت هذه العادة واحدة من العوامل التى ساعدت على تركيز الثروة فى المعبد . ونستطيع أن نلاحظ الاتجاه لتجميع الثروة فى أيدى الهيئات الدينية فى كثير من الحضارات . ففى الوقت الذى قامت فيه حركة الاصلاح البروتستنتى كانت الكنيسة تملك نحو ثلث مساحة اوروبا وكانت تسرع الخطى للحصول على الباقى .

كانت المعابد هى مراكز التعليم الوحيدة ، وكانت بها مدارس ، وكان التعليم فى هذه المدارس من الناحية النظرية تعليما مختلطا ، بالرغم من أنه لم يذهب اليها الا عدد قليل من البنات . وكانت هذه المدارس تدرب التلاميذ ليكونوا فى يوم من الأيام كتبة أو أطباء أو محامين كما كانت تعدهم أيضا ليكونوا كهنة. وكان جميع الموظفين المحترفين يوضعون فى مراتب كهنوتية بالرغم من أن معظمهم كانوا يمارسون أعمالا مستقلة ولم تكن لهم الا صلة صورية فقط بمعبد أحد الآلهة . وكان هناك نوعان من الكهنة : الكهنة الطقسيون الذين كان عملهم ينحصر فى أن تؤدى المراسم الدينية بما فى ذلك تقديم القرابين اداء صحيا ، ثم العرافون الذين كانوا يجيبون على الأسئلة ويتنبأون بالمستقبل ، وكانت تنبؤاتهم تقوم على طرق مختلفة من التنجيم .

وكان العرافون يعتبرون أقل مرتبة من كهنة الطقوس ولكنهم ذوو أهمية خاصة بالنسبة لنا لأنهم فى الحقيقة كانوا أقدم المشتغلين بالعلوم ، لأنه حتى طريقة الانباء عن الغيب باستخدام أحشاء الحيوانات كانت تتبع قواعد محددة. كانت هناك نماذج من الطين المحروق على هيئة الكبد مع معانى العلامات المختلفة غير العادية مكتوبة عليها لاستخدامها فى تعليم العرافين الصغار ، وهناك ما يجعلنا نعتقد أن نتائج التنبؤات كانت تدون بقصد ادخال تحسينات على الطريقة التى كانوا يتبعونها . وكان أهم ما أسهم به هؤلاء العرافون من سكان بلاد ما بين النهرين نحو المدنيات التى جاءت بعدهم هى دراستهم

للنجوم . فبالرغم من أن المصريين قد درسوا أيضا الأجرام السماوية وعرفوا الطول الحقيقى للسنة واكتشفوا الدورة التى تزيد على الف سنة التى تفصل بين وقت ظهور نجم الشعرى اليمانية فى نقطة معينة من السماء ثم عودة النجم نفسه مرة أخرى الى نفس النقطة ، فان سكان ما بين النهرين قد أسهموا فى تقدم العلم بأكثر من ذلك . فنحن ندين لهم بنظرية دائرة البروج (Zodiac) كما ندين لهم أيضا بمعرفة الفرق بين الكواكب السيارة وبين النجوم الثابتة . ومن الأمور الطريفة الجديرة بالذكر أنهم كانوا يذكرون الأرض والقمر بين الكواكب السيارة . وقد احتفظ مراقبو النجوم من سكان بلاد ما بين النهرين على مر القرون بسجلات عن تحركات الكواكب وعن كسوف الشمس وخسوف القمر . ومع مرور الزمن تعلموا كيف يتنبأون على الأقل بخسوف القمر بدقة تامة وتمكنوا من أن يستفيدوا من معلوماتهم هذه فى تنبؤاتهم . وبالرغم من أن معلوماتهم عن الفلك قد وصلت الينا عن طريق الاغريق والعرب فانهم كانوا دون شك أول من أوجد ذلك العلم ، الذى لا يقوم على أسس علمية صحيحة وهو علم التنجيم ، الذى مازال موجودا بيننا حتى الآن . وهناك ما هو أهم من اكتشافاتهم الفلكية وذلك هو نظرية تحرك الكون تحركا آليا ، تلك النظرية التى توصلوا اليها من تقدمهم فى دراسة علم الفلك . وان بلدا يستطيع أن يتنبأ بحركات النجوم وبكسوف الشمس وبخسوف القمر قبل حدوثها بعدة قرون لا يمكن أن نقول عنه انه بلد تحكمه رغبات الآلهة العرضية . وعلى مثل هذه المعرفة قامت قواعد البحث عن الأشياء التى تحدث بانتظام وعن قوانين الطبيعة التى تعد النشاط الأساسى للباحث المتخصص فى العلم .

كانت المدينة السومرية محكومة بحكومة دينية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى . كانوا يعتقدون أن المدينة تقع تحت السيطرة الالهية تماما لدرجة أن المعاهدات القديمة التى كانت تبرم بين المدن كانت تكتب دائما كما لو كانت اتفاقات بين آلهتها ، وكانت أسماء الحكام البشر لا تذكر فى الغالب .

وكان الحاكم يلى الآلهة وكان ينظر اليه كما لو كان وكيلا لدولة مقدسة يتلقى أوامره من الاله . وفى خلال العصر السومرى المتأخر بدأ الانقسام بين الكنيسة . (المعبد) والدولة فى الظهور ، وبعد الغزو السامى ظهر الملوك كقوة محركة لها كيانها الخاص ، كانوا يحترمون اله المدينة ولكنهم لم يكونوا ممثليه المباشرين . وكان العرش وراثيا فى أى عائلة ملكية ، وكان الابن الأكفأ وليس الأكبر فى العمر من أبناء الزوجة الرئيسية ، هو الذى يرث العرش . أما اذا لم يعش أحد من أبنائها فكان الوريث يختار من بين أبناء الزوجات الثانويات أو حتى من بين أبناء المحظيات . ولم يأخذ الملك مرتبه دون قيامه بواجبات معينة ، فقد كان يتوقع منه أن يحقق العدالة وأن يدير الأشغال العامة ، وأن يقود الجيوش وقت الحرب . فاذا لم تؤد هذه المهام بنجاح فان الأسرة الحاكمة تسقط وتجلب بسقوطها الخراب والشقاء على عامة الشعب وهى الطبقة التى يرتبط اسمها دائما بأى ثورة .

وبعد أن أخذت دول المدن الصغيرة تتحد لتكون امبراطورية ، بدأت مهام الملك فى الزيادة لأنه لا يستطيع رجل واحد تصريف أمورها ، ولهذا ظهرت فى بلاد الشرق الأدنى الوظيفة المعروفة باسم « الوزير » . كان الوزير رئيسا اداريا يعينه الملك ويمارس سلطة مطلقة ولا ينقض قراراته الا عدم موافقة الملك نفسه . ولما كان رفض الملك للموافقة يكون مصحوبا فى العادة بأمر اعدام الوزير فان المنصب كان يجمع بين التشريف والخطورة . ولم تظهر فى أى مرحلة من مراحل تاريخ بلاد ما بين النهرين أية هيئة متطورة تشبه هيئة تشريعية نيابية (١) . ويبدو أن أقرب المحاولات للوصول الى ايجاد مثل هذه الهيئة كان فى أيام العصر البابلى او العصر الاشورى المتأخرين عندما اصبح للمدن الداخلة فى الأمبراطورية مجالسها .

---

(١) اقرأ ما يناقض ذلك ؛ وهو طبعا ادق وأصح ، فى كتاب كريمر — من الواح سومر (الترجمة العربية ١٩٥٨ ص — ٨١) (المترجم)

ويبدو أن السومريين كانوا أول الشعوب التى جعلت للرق نظاما رسميا ، وبقيت النظم التى ابتدعوها فى بلاد الشرق الأدنى الى وقت قريب جدا . كانت الغالبية العظمى من الأرقاء من أسرى الحرب يضاف اليهم بعض المجرمين وأرقاء الديون . كانت الشعوب القديمة تقتل أسرى الحرب ، ولكن السومريين ، الذين كانوا يعيشون حياة مستقرة وكان لديهم كثير من الأعمال الشاقة التى تتطلب الانجاز ، أدركوا أن العدو يمكن الانتفاع منه حيا أكثر منه ميتا . وكثيرا ما أساء الناس فهم الرق بسبب الجريمة او الدين ، فاسترقاق المجرمين لم يكن يقصد منه العقاب بقدر ما كان يعتبر وسيلة لضمان حسن سلوك الأفراد المشاغبين ولم يكن يطبق فى أكثر الحالات الا على الذين يقترفون الجرائم الصغيرة ولا يقلعون عن فعلها . فالسيد الذى كان يشترى عبدا من هذا النوع يصبح مسئولا عن أى جريمة يرتكبها ، ويصبح مسئولا أيضا عن مراقبته وكان يضربه اذا ما أذنب .

أما الرق بسبب الديون فقد كان النتيجة الأخيرة لتصرف بعض الناس الذين يستدينون مبالغ أكبر مما تتحمله مقدرتهم . فلهذا السبب كان المدين يضع نفسه ضمانا لسداد الدين ، فاذا لم يستطع أن يسدد ما اقترضه فى خلال الوقت المتفق عليه من الطرفين ، فانه يصبح عبدا لدائنه ، وعندئذ يمكنه أن يعوض بعمله عنده ما تكبده من خسارة . ولم يكن الرق السومرى شاقا مرهقا وذلك لأن الأرقاء كانوا يؤسرون من المدن المجاورة أو كانوا من أهل الجماعة نفسها فلم يكن هناك فرق فى المظهر الجثمانى بين الرقيق والحر . وكان فى استطاعة الرقيق امتلاك العقار ، وكان يستطيع أيضا أن يقترض المال اذا قدم الضمانات الكافية ، ويستطيع أن يشترى حريته . وكان للعبد أيضا أن يحتج على بيعه أمام المحكمة بأن يثبت لها أن الرجل الذى يرغب فى شرائه يحمل ضغينة ضده ، وأنه سوف يسىء معاملته . أما الأرقاء الذين كانوا يهربون من سادتهم فكانوا يعاقبون عقابا شديدا ، هم ومن يساعدونهم على الهرب . أما

الاماء فكن يصبحن بحكم الواقع محظيات لمن يملكهن ، ومع ذلك تصبح المحظية وأولادها عند موت السيد أحرارا . ويعوض مالك العبد اذا ما لحق عبده أي ضرر مثلما يحدث عند حدوث أي ضرر أو خسارة لأي شيء يمتلكه الانسان ، كما كان على سيد العبد أن يدفع تعويضا عن أي خسارة يتسبب فيها عبده . وتعلو طبقة العبيد مباشرة فى المستوى الاجتماعى الطبقة الاجتماعية التى يمكننا أن نسميها باسم العامة الأحرار. وقد عرف هؤلاء باسم موشكينو (Mushkinu) وكانوا مزارعين وعمالا وصناعا فنيين وصناعا للادوات وأصحاب حوانيت وتجارا . وكان كثير من هؤلاء الموشكينو متعلمين وكان بعضهم أعظم ثروة من بعض أفراد الطبقة العليا . وكان الموشكينو يقومون بمعظم النشاط بين الجماعة وقت السلم ، كما كانوا يقومون وقت الحرب بدور الجنود المناوشين الذين يستخدمون أسلحة خفيفة .

أما الطبقة العليا ، وكانت تعرف باسم اويلو (awilu) [١] فانها كانت تشمل موظفي الحكومة والكهنة والجنود. وفى العهد السومرى ـ الاكدى [٢] يتضح من دراسة أسماء هذه الجماعة من السكان أنهم كانوا غالبا مزيجا متعادلا من الساميين والسومريين . ومن المحتمل أنه عند مجيء الغزاة الساميين وجدوا نظام الطبقات ساريا فى البلاد ، فنسبوا أنفسهم الى الطبقة العليا فيهم . ويميز قانون حمورابى بين « الأويلو » وبين « الموشكينو » فى نقاط كثيرة . ولكن هذا التمييز لم يكن دائما فى مصلحة الطبقة الأولى . كان الوضع القانونى للطبقتين واحدا فيما يختص بجميع الأمور التى لا تتضمن ضررا للجسم . فاذا وقع ضرر جسمانى على أحد الأفراد من طبقة « الأويلو » فان عقاب ذلك أشد

---

(١) وردت فى الاصل الانجليزى اميلو (Amelu) وتكررت مرات ومرات وهذا خطأ دون شك ربما كان مصدره الخلط بين حرفى m و w فى مذكرات المؤلف . (المترجم)

(٢) يبدأ العصر الاكدى فى بلاد مابين النهرين فى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد ، وقد تلا العصر السومرى القديم (المترجم)

من عقاب ضرر مماثل له يصيب أحد أفراد طبقة «الموشكينو». وعلى العكس من ذلك فان أفراد طبقة « الأويلو » كانوا يدفعون غرامات أكثر مما يدفعها أفراد طبقة الموشكينو اذا ما صدرت منهم بعض الذنوب . كانت الغرامات الشديدة تفرض على أساس المقدرة على الدفع ، ولكن فى حقيقة الامر كان كثير من أفراد طبقة « الأويلو » من صغار المزارعين الـذين كانوا يحتفظون بأراضيهم نظير خدماتهم العسكرية التى يجب أن يقوموا بها شخصيا . وكانت هناك مادة فى القانون تحرم الحجز على ممتلكات أحد أفراد طبقة « الأويلو » أثناء اشتراكه فى حملة بالخارج وكان لوجود هذه المادة دون شك فائدتها بينهم.

وخير تفسير لهذه التمييزات القانونية هو الذى وضعه العالم الأثرى وولى (Wooley) بأنه انعكاس للنظام العسكرى الذى ورثته الأمبراطورية السومرية ـ الاكدية عمن كان قبلهم من السومريين . كانت غالبية أفراد طبقة « الأويلو » جنودا مدربين ، لذلك كان الضرر الجثمانى الذى يصيب أحدهم يقابل عندهم بعقوبة أشد لأنه يعنى خسارة للدولة التى انفقت الشيء الكثير فى تدريبهم . ولكن فى الوقت ذاته نرى أنه نظرا لأن أفراد طبقة « الأويلو » كانوا خاضعين لنظام عسكرى ، فان العقاب الذى كان يوقع عليهم يجب أن يكون أشد من العقاب الذى يوقع على غير العسكريين ، ومثل هذه الفروق بين القانون العام والقانون العسكرى ، مازالت متبعة حتى فى مجتمعنا الحاضر .

كان السومريون أقدم الشعوب فى التاريخ التى عنيت بتنظيم وتدريب القوات المسلحة . كانت الحروب فى العصور القديمة أمورا ذات طابع محلى ، كانت منازعات بين دويلات المدن حول الحقول أو حق واحدة منها فى الحصول على المياه ، ولكن عندما اتسعت دويلات المدن بعد ذلك، بدأت سلسلة طويلة من حملات الغزو . وما حل عام ٣٠٠٠ ق.م. حتى نجد المدن السومرية تحارب بعضها البعض للسيطرة على طرق التجارة ، ونرى على أقدم ما وصل الينا من الآثار عربات حربية ذات أربع عجلات تجرها الحمير . ومع ذلك ، فلابد أنه

كان من الأمور الشديدة الصعوبة أن يصولوا ويجولوا بمثل هذه العربات أو أن يدفعوا بها فى وسط القوة المهاجمة. فالحمير ، بعكس الخيول ، عنيدة تميل الى استخدام رأيها الخاص فى مثل هذه المناسبات . وما جاء العصر الأكدى حتى كانت الخيول معروفة فى بلاد ما بين النهرين وكانت العربة الحربية ذات العجلتين معروفة هناك ، وهى أفضل من سابقتها ولكن ليس هناك ما يدل على استخدام العربة الحربية فى تكتيكات ذات أثر فعال .

وتركزت قوة الجيش السومرى فى مشاته المدربين ، فقد كان السومريون أول الشعوب التى عرفت تنظيم الصفوف المتراصة فى الحرب، وهو الأمر الذى ينسبه معظم المؤرخين الى «ابامينو ندوس الطيبى» (Epaminondos of Thebes) الذى عاش بعد أيام السومريين بألفى سنة . وفى هذا التنظيم كان الصف الأمامى يحمل دروعا مربعة كبيرة تحميهم من الرقبة الى أسفل الركبتين ، ويحملون سيوفا قصيرة أو بلطا حربية ليحاربوا بها يدا ليد . كانوا يتقدمون جنبا الى جنب حاملين دروعهم ، بينما يسير خلفهم ثلاثة صفوف من الجنود حاملى الحراب التى كانت رءوسها تبرز من بين الدروع مكونين جبهة متماسكة . وكانت هذه الصفوف المتراصة جهازا حربيا قويا جدا ، وخصوصا اذا كانت تحارب فوق أرض مستوية ، ولكن صلاحيتها كانت تتوقف على تدريبها المستمر ذلك التدريب الذى يكاد يشبه فى دقته التدريب البروسى. كان رجال الصفوف مدربين على المشى فى خطوات منتظمة وعلى الاستدارة أو الالتفات السريع فى وقت واحد عند صدور الأمر بذلك . ويبدو أنهم احتفظوا بهذا النظام كوحدات عسكرية تستمر عدة أجيال ، وهى تشبه عندنا الفرق العسكرية ، وكانت لها أسماء وعلامات خاصة ، كما كانوا يميلون الى جعل عضويتها وراثية . وكانت عقوبة الموت توقع على أفراد الفرقة الذين لا يتقدمون لتأدية الخدمة عند طلبهم أو يحاولون ارسال بديل عنهم . وكانوا فى نظير تمرينهم الطويل وتغيبهم المستمر عن منازلهم يحمون من الحجز على ممتلكاتهم

ويحتفظون بأرضهم معفاةمن الضرائب ، وكانوا يعتبرون من أعضاء أعلى طبقة اجتماعية، وكان المزارع الفقير من طبقة الـ «أويلو» يفوق من الناحية الاجتماعية تاجرا من الـ « موشكينو » ثروة وغنى .

ونرى على الآثار التى يرجع تاريخها الى العصر الواقع بين عامى ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ ق.م. هذه الفرق وهى تسير فى خطوات منتظمة الى المعركة يتقدمها الملك الذى يسير بشجاعة يحمل فوق رأسه خوذة ذهبية ، ويحمل بيده سيفا قصيرا مقوسا أو دبوسا للقتال . ولا بد أنه كان يقفز الى الجناح قبل أن تلتقى الفرق . وكانت الصفوف المدافعة تسير فى حربها على نظام يشبه بعض الشيء نظام الاسفين السريع ، أو الاسفين الطائر المألوفه لدى خدم النوادى الليلية . كان الجانبان المتحاربان يتقدمان وهم يسرعون الخطى حتى يصطدموا ببعضهم وجها لوجه ، ثم يتبع ذلك تدافع فى الصراع مستعينين أيضا بالقتال الذى يدور بين فرد وفرد بين حملة الدروع حتى يسلم أحد الفريقين للآخر . وفى العادة ، كان أفراد الفريق يهربون مذعورين، وتحدث معظم أعمال القتل أثناء المطاردة . وكانوا يعودون برءوس الأعداء المهزومين الى مدينتهم ويكومونها داخل حرم المعبد لعرضها ، ولكن عادة اصطياد الرءوس لم تكن معروفة لديهم كما أنهم لم يحتفظوا بهذه الرؤوس كتذكار لانتصارهم . ووجد الفاتحون الساميون الذين غزوا بلاد سومر أنفسهم وهم يواجهون المشاكل التى يبتلى بها الفاتحون دائما منذ ذلك الوقت حتى الآن . كان أولئك الغزاة أنفسهم قرويين ورجال قبائل من البدو ، ومنذ اللحظة التى استولوا فيها على البلاد السومرية المتحضرة ، أدركوا أن تسيير دفة امبراطورية ليس بالعمل الذى يأتى بربح يوازى ما يبذل من أجله من مجهود . فمن السهل على البدو أن ينهبوا قطرا ، ولكنهم عندما يبدأون فى جمع الضرائب أو عندما يحاولون الاحتفاظ بمستوى الانتاج والاستفادة حقيقة من غزوهم، فانهم كانوا يجدون أنفسهم مضطرين الى الاستعانة بالذين يعرفون شيئا عن الادارة الحكومية .

واســتخدم الفاتحون فى الســنوات التى تلت الغزو الاكدى نظام الدواوين السومرى حتى تسير الأمور فى مجاريها ، ولكن لم تمض الا أجيال قليلةحتى استطاع الكتاب السومريون، حليقوالرءوس الذين كانوا يرسمون وهم يسيرون فى خضوع وراء الملوك الأكديين المنتفخى الأوداج، أن يسترجعوا معظم السلطة الحقيقية ويركزوها فى أيديهم ، وهكذا يثبت القلم دائما أنه على مدى الأيام سلاح أشد فتكا من السيف .

وكانت حضارة بلاد ما بين النهرين أقدم الحضارات التى أولت الأعمــال التجارية اهتماما رئيسيا خاصا . فالتجارة ضرورة لازمة لأى نوع من أنواع الحياة المتحضرة ، وذلك لأن المواد الخام الوحيدة التى كان الوادي يستطيع تقــديمها بكميات وفيرة هى الطين والبــوص والحبــوب . وكان عليهم أن يستوردوا حتى كتل الخشب اللازمة لبناء المنازل والأحجار التى تصنع منهــا تماثيل الآلهة . ولما كثر استخدام السومريين امتدت الطرق التجارية الى مسافات أبعد وأبعد . ونشأت مراكز تجارية كان يشرف عليها التجار السومريون فى أماكن بعيدة مثل آسيا الصغرى وفلسطين . ويبدو أيضا أنهم استخدموا للتجارة عن طريق البحر طريق الخليج الفارسى اذ نعرف من احدى الوثائق التاريخية ان احدى البعثات التجارية رحلت لمدة تزيد على ثلاث سنوات ثم رجعت ثانية محملة بالعاج والقــرود والطواويس . أما البضــائع التى كانوا يجلبونها من المناطق الواقعة فى أعالى النهر ، وهى المناطق التى كانت الموارد الرئيسية للأخشاب والمنتجات الحيوانية ، فقد كانت تحمل الى المدن السومرية بطريقة لا تزال مستخدمة الى الآن . فالقوارب التى تستخدم عبارة عن سلة مســتديرة كبيرة مصــنوعة من صفصاف الســلال المتشابك يغطونه بجلود الحيوانات يملؤونها بالمنتجات ويعومونها فوق الماء . وكانت هذه القوارب من السعة بحيث تحمل رجلين أو ثلاثة رجال بالاضافة الى حمار أو حمارين ، ثم الحمولة الأخرى . وعندما يصل القارب الى المدينة يفكونه ويبيعونه مع

ما كان فيه من حمولة ، أما البحارة فكانوا يضعون أمتعتهم الخاصةومشترياتهم فوق ظهور الحمير ويعودون بها سائرين على الأقدام الى بلدهم .

وتوصل السومريون الى معرفة كل ما يلزم للأعمال التجارية المتقنة حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م. فكان لديهم فى ذلك العصر وحدات معلومة للموازين والمقاييس ومن المحتمل ان هذه الوحدات كانت تختلف فى بادىء الأمر باختلاف المدن كما حدث فى أوروبا فى العصور الوسطى ، ولكن ترتب على اتساع الامبراطورية تعميم وحدات ليتعامل بها الجميع . كانت أقدم الوسائل المستخدمة فى التبادل كيلا محددا من الشعير ، وكان هذا الكيل فى أحوال كثيرة منحوتا من الحجر ويضعونه فى السوق ، حتى اذا ما ظن أحد المزارعين أنه قد غبن فى التبادل فقد كان فى مقدوره أن يكيل حبوبه . وحوالى عام ٣٠٠٠ ق.م. بدأت العملة المعدنية تحل محل عملة الشعير ، وبدأ القلق يساور الحكومة من العجز فى النقود . وحاول قانون حمورابى أن يثبت القيمة النسبية بين الشعير والمعدن ونص على عقوبات خطيرة لمن يحاول التلاعب بالوحدة المعترف بها . فالتاجر الذى كان يرفض أن يأخذ الشعير ثمنا لبضائعه يدفع حياته ثمنا لهذا الرفض ، وهو نفس ماكان يحدث لأى شخص يرفض أن يبادل النقود المعدنية بالشعير على أساس السعر المحدد .

كان المعدن يقطع ويوزن عند كل عملية تبادل ، لأنه لم يكن لدى السومريين نقود فى ذلك العهد . وكانت الصعوبة بطبيعة الحال تكمن فى تقدير نقاء المعدن ، وقد حدث فيما تلا ذلك من عصور أن بعض البنوك الخاصة كانت تختم السبائك المعدنية بختمها الخاص كضمان ضد التزييف . ولم تكن هذه « الشكلات المختومة » (جمع شكل وهو الاسم القديم لوزن خاص) الا الأصل الذى انحدرت منه نقودنا الحالية ، وفى العصر السومرى ــ الاكدى كانت نسبة الفضة الى الذهب هى ١٢ الى ١

ولدينا وثائق مكتوبة باللغة المسمارية عن معاملات مالية كاملة ، وقروض

بفوائد محددة قد ترتفع الى مائتين أو ثلاثمائة فى المائة فى حالة ما اذا كان الفرد المستدين لا يملك ضمانات كافية ، وكانت أقل نسبة هى ٢٥ ٪ فى السنة . وكانت هناك رءوس أموال وعملاء ومشروعات مشتركة تماثل ما عندنا الآن من الشركات المساهمة أو المؤسسات التجارية . ومن الأمور الطريفة ما ورد فى القوانين التى تنظم رءوس الأموال والعملاء ، اذ نرى نصا على أن العميل الذى يغش صاحب العمل يعاقب بنصف العقوبة التى يعاقب بها صاحب العمل الذى يغش عملاءه . وربما كان السبب فى ذلك ما دأبت عليه البيوت المالية الكبيرة من محاولتها الضغط على الضعفاء من الناس وابتزاز أموالهم ولهذا أراد القانون أن يحمى هؤلاء الضعفاء من الممولين الكبار ، وبخاصة من المؤسسات المالية التابعة للمعابد .

وبفضل عادة السومريين فى ابرام عقود لجميع المعاملات التجارية الهامة أصبحت لدينا صورة كاملة لحياة هؤلاء الناس . فلم تصل الينا الوثائق والعقود فقط ولكن وصلت الينا أيضا مجموعة كبيرة من المراسلات الخاصة . ففى لوح يرجع تاريخه الى ما قبل ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد نقرأ ذلك التباكى المألوف لرجل متقدم فى السن على انحطاط أخلاق الجيل الجديد . وفى وثيقة شخصية أخرى نرى شكوى أخرى مازالت مستمرة الى الآن ، وهى خطاب صبى فى احدى المدارس كتبه الى والديه يشكو من الطعام .

ومن دراسة الوثائق القانونية والمراسلات الخاصة نستطيع أن نكون لأنفسنا صورة واضحة عن الحياة المنزلية لدى السومريين . كانت الأسرة السومرية تشبه كثيرا أسرتنا الحالية. فلم تكن هناك عشائر أو مجموعات كبيره تربطها وشائج القرابة ، ومن المحتمل جدا أن ذلك كان انعكاسا للحياة فى المدن، لأنه من الصعب جدا الاحتفاظ بنظم عائلية على نطاق واسع فى مدينة مزدحمة يميل من فيها من السكان الى حياة يكون فيها كل فرد غير مسئول عن غيره . ونتيجة لذلك تكون العائلة الصغيرة التى تحتفظ فقط بالرابطة التى لا تزيد على رابطة

الوالدين والطفل هى أقوى وحدة اجتماعية .

ولم يكن مسموحا بتعدد الزوجات ، اللهم الا فى حالة الرجل الغنى ذى المركز الهام الذى يستطيع امتلاك عدد من المحظيات . وكان الآباء هم الذين ينظمون الزيجات على أساس دقيق من التعاقد . ولم تكن هناك حفلاتدينية أو نظام يقضى بضرورة التصديق عليه . كان الزواج عقدا مكتوبا يذكرون فيه بدقة حقوق وواجبات كل من الطرفين ، وينصون فيه أيضا على أسباب الطلاق ومقدار النفقة التى يجب أن تدفع . وعند تحرير عقد الزواج يهدى العريس الى حماه المرتقب هدية من المال تضيع عليه فى حالة ما اذا فصم هـو عرى الخطبة . أما اذا انسحبت الفتاة فليس يتحتم على والدها أن يرد ما أخـذه فحسب ولكن عليه أيضا أن يدفع كمية مماثلة كغرامة للخطيب الذى أعرضت عنه . أما فى حالة اتمام الزواج فان ما يدفعه العريس بالاضافة الى ما يساهم به والد العروس يصبح مهرا للفتاة وهو حق لا ينازعها فيه أحد . وينتقل هذا المال الى أولادها أما زوجها فلا يستطيع أن يأخذ منه شيئا .

وكان رأس المالالذى تمتلكه العائلة، أى ما يمتلكه الزوج والزوجة، يجمع الى بعضه ويستغل . وكانت المرأة تستطيع أن تدير دفة الأعمال ، وأن تقرض المال للناس وتبرم العقود القانونية فى غيبة زوجها ، وبالاختصار كانت النساء يتمتعن بمراكز اقتصادية تعادل مراكز الرجال . وفى حقيقة الأمر كانت مراكزهن القانونية أحسن بكثير من مركز المرأة الانجليزية قبل قانون « أملاك النساء المتزوجات » الذى صدر فى عام ١٩٢٦ . كانت الزوجة غير مسئولة عن الديون التى استدانها زوجها قبل الزواج كما كان الرجل ايضا غير مسئول عن ديون زوجته قبل اقترانه بها . ولكن بعد الزواج، كانت الديون التىتتراكمعلى أحد الطـرفين تعتبر دينا على العائلة ، وكان كل من الطرفين يعتبر مسـئولا عن سدادها . وكان فى استطاعة الزوج أن يبيع زوجته تحت ظروف خاصة ، ولكن برضاها فقط . فاذا فضلت أن تصبح محظية فى بيت رجل غنى على كونها زوجة

تشقى فى عائلة فقيرة فانها كانت تطلب من زوجها أن يبيعها . كما كان فى مقدور الزوج أن يرهن زوجته كضمان لقرض يستدينه لمدة لا تزيد على ثلاث سنوات. وكما كان الحال مع كل الضمانات ، كان الدائن يستخدم رهينته حتى يستردها صاحبها . وبالرغم من أن حقوق النساء كانت مكفولة جيدا ، فان القوانين قد قدمت أيضا بعض الحماية للأزواج . ففى فقرة من قانون حمورابى نقرأ الآتى :

« اذا انتقلت المرأة من منزل الى آخر وتكلمت بدون احترام عن زوجها ، وأهملت منزله ، فان عقوبتها هى الموت غرقا » .

وكان السومريون يرغبون بشدة فى انجاب الأطفال، ولكن نسبة الوفيات بين الأطفال لابد وأنها كانت مرتفعة جدا . وكانت العائلة التى يعيش لها أكثر من ثلاثة أو أربعة أطفال تعد نادرة جدا ، وكان ذلك على الأقل بين الطبقة التى تركت وصايا أو عهودا مكتوبة . واذا تصادف أن كانت المرأة عاقرا فقد كان لزوجها الحق فى تطليقها ، ولكن يتحتم على الزوج أن يحصل على موافقتها على الطلاق ، وفى هذه الحالة أيضا كانت الزوجة تحتفظ بمهرها وتأخذ تعويضا ماليا كذلك . ولكن اذا أبت الزوجة الموافقة على الطلاق كان القانون يخول للزوج أن يتخذ له زوجة ثانية ، ولكنهم كانوا ينصون فى العقد على احتفاظ الزوجة الأولى بمركزها الأدبى كما كان يتحتم على الزوجة الثانية أن تغسل أقدام الزوجة الأولى وأن تحمل لها مقعدها عند ذهاب العائلة الى المعبد . ولكن الطريقة التى كانت أكثر اتباعا هى أن تشترى الزوجة العاقر لزوجها محظية ، تشترى له فتاة من الاماء لتقوم بدلا عنها بانجاب الأطفال ، وكان الأطفال الذين تنجبهم مثل هذه المحظية يعتبرون كأبناء شرعيين انجبتهم الزوجة نفسها . والمرأة العاقر التى توافق على شراء محظية لزوجها لا يمكن تطليقها .

وكانت سومر أول بلد فى التاريخ تطورت فيه نظرية القانون ، واعلان مجموعة القوانين تطورا كاملا . ونحن لا يمكننا أن نحدد التاريخ الذى توصل فيه

الأندونيسيون لمعرفة قانون الـ « أدات » (Adat) ولكنه يجب أن ينسب الى وقت متأخر على أية حال . وأقدم مجموعة قانون كامل فى بلاد ما بين النهرين هى قانون حمورابى الذى وضع فى عام ١٩٤٠ ق.م. [١] وعلى أية حال ، فقد عثر على أجزاء من عدد من القوانين القديمة ، التى كانت قبله وان جمع تلك القوانين القديمة عمل شبيه بقانون نابليون وقصد به تبسيط وتوحيد النظام القانونى الذى كان قبل ذلك سائدا فى عدد كبير من المدن. وقد استلزم وجود مثل ذلك القانون اتساع الامبراطورية البابلية التى كان حمورابى حاكما لها.

كان حمورابى رجلا ساميا ، ولو حكمنا مما بقى من شـذرات القوانين السابقة لعهده نرى أن الغزو السامى قد أدى الى تشديد ملحوظ فى تطبيق العقوبات كما حط من مركز النساء [٢] .

أمر حمورابى بكتابة نسخ من قانونه على أعمدة تقام فى الأسواق فى المدن المختلفة من امبراطوريته . وقد كتبت هذه القوانين باختصار وبدقة لا تكاد نجدهما فى قوانيننا الحالية . وكان للملك سلطات قضائية مهمة ، وكان يمثل سلطة أعلى محاكم النقض ، وقد سار على هذا النظام بعض حـكام الشرق الأدنى حتى أيامنا هذه ، ويبدو أنه نظام امتاز به الساميون ويمهد السبيل أمام الملك ليأتى اليه رعاياه ويكسب حبهم . وكان الملك الذى يصدر أحكاما عادلة ويستطيع أن يوازن بين الأدلة المتعارضة ، وأن يكتشف الشهادات الزائفة يحوز مكانة وتقـديرا عظيمين . وكان سليمان يعقد محكمتـه على النظام

---

(١) ١٧٢٨ ق . م . هو التاريخ الأصح لبدء حكم حمورابى كما ذكرنا قبل الآن . (المترجم)

(٢) ذكر المؤلف فى الفقرة التالية ، وقد حذفتها من الترجمة ، أن حمورابى ذكر على آثاره أنه وجد فى سلة من الغاب عائمة فى النهر وان بستانيا تبناه ، ولكن الأمر اختلط على المؤلف فى هذا الموضوع لان القصة التى يشير اليها انما هى قصـة الملك سرجون الأكدى مؤسس الدولة الاكدية ، أول فاتح عظيم ظهر فى الجنس السامى وقد حكم سرجون عام ٢٣٥٠ ق . م قبل حكم حمورابى بأكثر من ستمائة سنة . (المترجم)

السومرى الكامل ، وما زالت أحكامه ذائعة الصيت .

كان كبار الموظفين الذين يعينهم الملك فى المقاطعات المتطرفة ، ينوبون عنه فى القيام بسلطاته القضائية فى تلك البلاد ، وكانت هناك محاكم دينية وأخرى مدنية أقل منها ، ولكن اختصاص كل منها غير محدد تماما . ويلوح أن النظام الاصلى كان يميل الى الاعلاء من شأن الجانب الدينى كباقى مظاهر الحضارة السومرية ، ولكن المحاكم المدنية أخذت تحصل على سلطات اضافية لنفسها كان فى مقدور المحاكم الدينية فى عهد حمورابى أن تصدر احكاما فى الأمور التى تختص بالمعبد ، ولكن هذه الأحكام أيضا كانت خاضعة لتصديق الملك، أما القضايا المدنية العادية فكانت تنظر أمام المحاكم المدنية ، أمام قضاةيعينهم الملك .

وفى الاجراءات القضائية كان المدعى يتقدم أولا بطلب الى موظف يدعى الـ «مشكين » (Mashkin) الذى كان يقوم بدور الحكم ، ويحاول أن يسوى المسألة خارج أبواب المحكمة . فاذا فشل فى ذلك تحول القضية الى المحكمة التى كان يرأسها قضاة محترفون يتراوح عددهم بين قاضيين وأربعة قضاة . وكان الحكم الذى ألم بحقائق القضية الماما تاما يجلس مع القضاة فوق المنصة . وكان طرفا الخصومة والشهود يدلون بشهاداتهم بعد أن يؤدوا اليمين ثم بعد ذلك يتقدمون بالمستندات التى تفحصها المحكمة ، وكانت الأحكام تصدر قياسا على السوابق . وفى القضايا الهامة كان من الممكن أن يمثل المتهم مستشار ينوب عنه . وكان القاضى الذى يحكم ضد العدالة يغرم ويعزل ، اذ المفروض أنه فى مثل هذه الحالة قد ارتشى ليصدر مثل هذا الحكم . وعلى أية حال ، فقد كان يمكن استئناف القضية أمام محكمة اعلى اذا كان الحكم ليس مرضيا ، أو اذا ظهرت أدلة أخرى جديدة . وكان كتبة المحكمة يسجلون كل القضايا على ألواح مكتوبة بالمساومة ، يضعونها فى الرمل داخل أوان فخارية كبيرة . وكانت العقوبات المشددة توقع على كل من

يحاول أن يجرح المحكمة أو يحقرها . وفى الواقع ان جميع اجراءات أمثـال تلك المحاكم مألوفة كلها للمحامى الحديث .

ومن أهم الأقسام فى ذلك القانون القسم الخاص بالمسائل الاقتصـادية . كانت الاسعار ترتفع باستمرار ، وكان مالك الارض الفقير يعتصر ماله دائما، ولهذا صدر تشريع يقضى باعادة توزيع الاراضى الزراعية التى لا يزرعهـا أصحابها . ونسـتطيع أن نلاحظ فى هذا القانون اولى المحـاولات لتحديد الأجور والايجارات وساعات العمل ... الخ وقد ترجم حديثا لوح من العصر السومرى وفيه موضوع نزاع حول دفع أجرة حمل بعض الأشياء من باب بيت الى باب بيت آخر ، وقد وصل هذا النزاع الى ساحة القضاء وحكم فيه لصالح العامل ، وهو أمر لم يكن نادرا فى المحاكم السـومرية . ومع ذلك ، فبالرغم من الجهود التى بذلت لتحديد الأسعار والأجور فى خـلال عصـور تاريخ بلاد ما بين النهرين فاننا نسـتطيع أن نتتبع ارتفاعا منتظما فى أثمـان الحاجات ، وهو أمر يمكن مقارنته بما هو جار منذ ذلك التاريخ حتى الآن .

وحتى سومر كان لها أيضا اصلاحاتها التى تبدأ فيها عهدا جديدا ونظاما جديدا . وقد بدأت مثل هذه الاصلاحات التى تناولت جميع النواحى كبيرها وصغيرها منذ عهد الملك أوروكاجينا حاكم مدينة لجش حوالى عام ٢٦٣٠ق.م ولا يذكر اوروكاجينا فى نقوشه شيئا صريحا عن أجداده ، الأمر الذى يوحى بأنه كان من عامة الشعب واستولى على السلطة لنفسـه ، وكان من أوائل أعماله تخفيض الضرائب وتخفيض الأجور الباهظة التى كان الكهنة يفرضونها على الناس مقابل الخدمات الضرورية مثل الجنازات والتنبؤات. وفى الحقيقة، حاول أن يدخل الاشتراكية الى مهنة التنبؤ بالغيب اذ وضع للعرافين مرتبات ثابتة كمرتبات موظفى الحكومة ومنعهم من أن يأخذوا أجرا اضافيا . وحاول أيضا ان يشرع قانونا للاصلاح الزراعى وذلك بتحطيم الملكيـات الكبيرة واعادة توزيع الأرض على الفلاحين . ولقد أكسبه هذا بطبيعة الحال عداوة

جميع الأغنياء الذين التجأوا الى حاكم مدينة مجاورة طالبين معونته . وقتل « أوروكاجينا » فى تلك الثورة اليمينية التى ترتبت على اصلاحاته ، ورجع كل شيء الى ما كان عليه . ذكر هذا الحادث فى وثيقة من أهم الوثائق الشخصية القديمة التى وصلت الى ايدينا ، فقد عثر على لوح من الطين غير المحروق مدفون فى كومة من المهملات خارج أسوار مدينة « لجش » ، وعلى هذا اللوح ذكر أحد صغار الكهنة ، الذى لابد أنه كان صديقا ومن الحزب المخلص لأوروكاجينا كشفا عدد فيه الهياكل التى هدمتها ونهبتها قوات الحلفاء الأجانب الذين أتوا لمؤازرة فريق المحافظين ، وقد أراح هذا الكاهن ضميره باستنزال اللعنات الكثيرة على رءوس الخونة .

الفصل الثاني والعشرون

الشـرق الأدنى

وحوض البحر الأبيض المتوسط

عمل الجفاف المتزايد فى الشرق الأدنى ، والـذى أدى الى تطور أنواع الحضارة السامية ، على تركيز السكان فى أودية الأنهار وعلى أطراف سلاسل الجبـال ، وأهم هذه السـلاسل هى سلسلة جبـال زاجروس (Zagros) التى تحد بلاد ما بين النهرين من الشرق ، والبورز (Elbruz) الى الجنوب من بحر قزوين ، وجبال طوروس (Taurus) فى جنوب شرقى آسيا الصغرى زد على ذلك أن كردستان كلها وأغلب مناطق أرمينيا وآسيا الصغرى عبارة عن هضاب متكسرة تتخللها بعض سلاسل جبلية صغيرة وأودية خصبة. ومما يدعو الى الأسف أن هذه المناطق الجبلية لم تدرس آثارها دراسة علمية حتى الآن ولكن وجود كثير من التلال وأكوام الأنقاض المرتفعة تثبت وجود أمكنة أثرية من العصر النيوليتى والعصر البرونزى . وتدل الحفائر القليلة التى تمت خارج بلاد ما بين النهرين على تطور منتظم للحضارة طوال عصر ماقبل التاريخ مع انتشارها الى الغرب حتى جزر بحر ايجه وأوروبا ، والى الشرق خـلال التركستان . ويدل العثور على الفخار الملون فى مقاطعة كانسو (Kansu) فى بلاد الصين والذى يرجع تاريخه الى العصر النيوليتى ، ويشـبه الفخار الملون الذى عثر عليه فى الطبقات القديمة من مدينـة سوسا فى ايران ، يدل على مدى سعة هذا الانتشار .

ومع ازدياد معلوماتنا نرى أن الأناضول فى منطقة جنوب غربى آسيا قد بدأ الآن فى الظهور كمركز مهم لنمو الحضارة ، ويمكن أن تتتبع معظم العناصر النيوليتية التى ظهرت فى وسط أوروبا فنرى أصل نشأتها فى هذه المنطقة . ويبدو بوضوح أنه من المحتمل أن هذه المنطقة كانت مصـدرا أصليا لأفكار وصناعات جديدة ، أكثر من أن تكون ناقـلة عن حضارات أكثر تقـدما فى الجنوب . وبالرغم من أن سوريا والأناضول لا يمكنهما تحمل كثافة السكان أو انشاء حضارات مدن مثل ما كان فى بلاد ما بين النهرين ، فـان وديانهـا وهضابها كانت من الخصوبة بما يسمح بنشوء الكثير من القرى وبأن يتخلف بعد ما يستهلكه السكان فائض اقتصادى يستحق الذكر . وقد نمت عدة بلاد متوسطة الحجم فى أماكن كثيرة كانت أساليبها الفنية ، وبخاصة فى صناعتى الفخار والمعادن ، لا تقل عن مثيلاتها فى بلاد ما بين النهرين .

وفى بلاد الأناضول ، كان موضوع السكان واللغات التى كانوا يتكلمون بها من الموضوعات المعقدة الى أبعد الحدود ، فقد كانت الظروف المحليـة ، كما هو الحال فى جميع البلاد الجبلية ، تدعو الى العزلة وما يستتبع ذلك من اختلاف فى مظاهر الحضارة واختلاف فى اللغة . وبالرغم من أننا لا نكاد نعرف أى نقوش عثر عليها فى هذه المنطقة قبل قيام الامبراطورية الحيثية حوالى عام ١٨٠٠ ق.م. فان أقدم الوثائق المكتوبة تدل على أن الحالة السائدة هناك لم تختلف كثيرا عما هو سائد فى القوقاز فى العصر الحديث . فما من شك فى أنه كان يوجد عدد كبير من اللغات المختلفة والحضارات التى تعيش جنبا الى جنب فى مساحة قليلة من الأرض . ومن دراسة الألواح التى عثر عليهـا فى وثائق بوغاز كوى نرى أنها مكتوبة بسـبع عشرة لغة على الأقل ، بعضـها لا يمكن معرفة صلته بأى لغـة من اللغات المعروفة . ولم تصل الى أيدينـا معلومات عن شكل أجسامهم ولكن نظرا لأن جماعات القبائل كانت صغيرة وكانت تتزاوج فيما بينها فربما كان لكل منهـا بعض المظاهر الجثمانيـة التى

تميزه عن غيره ، أى بعبـارة أخرى نرى فى كل قبيلة ما نسميه الشـبه بين الأقارب . وفى أقدم المنحوتات التى عثر عليها فى الأناضول ، وفى سـوريا ، نرى ذلك الشكل الأرمنى ذا الأنف الكبير والرأس المسـتدير الذى ما زال منتشرا فى تلك المناطق . ونظرا لأن هذا النوع كان هو المثل الأعلى الفنى فى رسوم السومريين ، وذلك بالرغم من قلة وجوده بين الهياكل العظمية السومرية، فان تلك الحقيقة تنير موضوعات طريفة أخرى . لما كانت الرسوم السومرية أقدم من الرسوم الحيثية بألف عام على الأقل فان نسخ أى أمثلة أو محاكاتها فى الفن يجب أن يكون قد أتى من الجنوب نحو الشمال ، ومن المحتمل أن جماعة قليلة من الجنس الأرمنى قـد غزت بلاد ما بين النهرين من ناحيـة الشمال وأصبحت الطبقة الارستوقراطية التى بقيت حتى تركت طابعها فى هذا الأسلوب الفنى .

وبالرغم من الاختلافات المحلية فانا نرى فى الحضارات المتأخرة من العصر النيوليتى والعصر البرونزى فى سوريا والأناضول بعض وجوه الشبه الأساسية. كان الفخار متقن الصنع ، وتعددت أشكاله وزخارفه المتعددة الألوان ، وكان أفخم من أى فخار صـنع فى بلاد مابين النهرين طوال العصرين السـومرى والأكدى . وقد وصـل تجار بلاد ما بين النهرين الى سوريا حوالى عـام ٣٠٠٠ ق.م. ، وكانوا يحصلون على المعادن من المنطقة الواقعة الى الشمال منها . وكان هناك تبادل كبير فى الأدوات المعدنية ، ومن المحتمل جدا أنه كان هناك عمال متجولون لصناعة المعادن مثل أولئك الذين سبقت الاشـارة اليهم وكانوا فى وسط أوربا . ويوجد فى بلاد الأناضول عدد كبير من خامات المعادن هيأت لأولئك الصناع الفرصة للتجربة وتحسين الصناعة. وانتقل عمال المعادن المحليون من العمل فى النحاس الى صناعة البرونز عن طريق صهر الخـامات الممزوجة ، وأتقنوا صناعة أشكال جديدة من الأدوات البرونزية ، ثم أصبحوا حسبما نعرف حتى الآن ، أول الصناع الذين صهروا وطرقوا الحديد . وأقدم

دليل على استعمال الحديد المصهور ، وليس حديد الشهب ، جاءالينا من المنطقة الحيثية فى سوريا الشمالية بين عامى ١٥٠٠ ، ١٨٠٠ ق.م. ففى ذلك الوقت كانت كل المدنيات العظيمة مازالت تستعمل البرونز . ويجب أن نعتبر الحديد اختراعا من الاختـراعات التى توصـل اليها شعب خارج عن حـدود تلك المدنيات . ويبدو أن الحيثيين حاولوا الاحتفاظ باحتكار المعدن الجديد فقد أعرض ملك الحيثيين عن اقتراح الملك المصرى لتبادل الذهب مع الحديد (١) واستعاض عن ذلك بارسال هدية من خنجرين ذوى مقبضين من الذهب وسلاحين من حديد مطروق وليس من الصلب ، ويبدو أن واحدا منهما حفظ كتـذكار عائلى وقد عثر عليه فى مقبرة توت عنخ أمون .

ومما يدعو الى الأسف أن معلوماتنا عن آسيا الصغرى ناقصة الى حد كبير . فالنقوش التى عثر عليها فى هذه المنطقة قليلة ، وأكثرها لم يتمكن العلماء من فهم محتوياته . وعلى هذا فان لغـة الحيثيين ، ولو أنها معروفة لنا من كثير من النقوش المسمارية، الا أن كتابتهم الأصلية مازالت فى حاجة الى حل رموزها . وعلى أى حال فيبدو أن الامبراطورية الحيثية التى ظهرت حوالى ١٨٠٠ ق . م . كانت اتحادا ضم مجموعة من القبائل المختلفة فى اللغـة وفى الثقافة ، وأحسن ماوصل الينا عن هذه الامبراطورية هو ماتركه لنا أعداؤها المصريون اذ كانت حدود الامبراطوريتين تتقابل فى شـمال فلسـطين وكانت الحرب بينهما سجالا لعدة قرون (٢)

---

(١) ليس لهذا الامر صحة على ماأعلم، وربما لايعدو أن يكون من باب الاستنتاج فقط اذ لم يرد فى أى نص مصرى معروف (المترجم)

(٢) ذكر مؤلف الكتاب بعد ذلك بعض الأسماء للشـعوب وخصـوصا طروادة وقدم وصفا للملابس والأسلحة التى كان يستخدمها الحيثيون ، ولكـن يظهر أن الأمر قد اختـلط عليـه بين الحيثيين وشعوب البحر الذين حاربهم رمسيس الثالث وترك لنا على جدران معبده فى مدينة هابو تفاصيل المعارك ، ولكن هذه المعارك وتلك الشـعوب لم تحدث الا بعد زوال دولة الحيثيين بوقت غير قصير . (المترجم)

ولاشك فى أن اللغة الحيثية هى احدى اللغات الهندو ـ أوروبية كما نرى فى بعض اللغات التى حفظت لنا فى وثائق بوغاز كوى وكانت أسماء معظم رؤساء القبائل هندو ـ أوروبية أيضا . ويبدو أن أول غزو قامت به القبائل المتكلمة باللغات الهندو ـ أوروبية لبلاد اليونان حدث بعد وقت قصير من تأسيس الامبراطورية الحيثية . ويبدو من المحتمل أن كلا الهجومين ليس الا جزءا من هجرة واحدة نشأت أصلا فى آسيا الصغرى . ومن المحتمل أن الامبراطورية الحيثية الأولى لم تكن منظمة تنظيما اتحاديا كاملا بل كانت مجموعة من القبائل تحكمها طبقة ارستوقراطية من أصل واحد ، وقد كانت الجماعات اليونانية التى اتحدت لتشن الحرب على طروادة متحدة على أساس مماثل . ولسنا ندهش لوجود هذا العدد من اللغات القبلية مستخدما داخل نطاق الامبراطورية الحيثية اذا راعينا أن التوسع الهندو ـ أوروبى كان حديثا نسبيا .

ومعلوماتنا عن التنظيمات القديمة للحيثيين قليلة ، ويبدو أن الامبراطورية الحيثية فى عصرها المتأخر كانت منظمة على غرار امبراطوريات بلاد ما بين النهرين، ومن دراسة النقوش نرى أنه كان يوجد فيها بيروقراطية تامة التنظيم. وأهم من ذلك كان لديهم قانون يذكرنا بقانون حمورابى ، ومن المحتمل أن يكون قد وضع على غراره . ومن الطريف أن نلاحظ أن العقوبات فى هذا القانون الحيثى كانت أخف بوجه عام من مثيلاتها فى قانون حمورابى ، وأن الذنوب التى تقترف ضد النساء كانت تعامل بالكثير من الرأفة .

ومن الثابت أن الدولة الحيثية سواء أكانت اتحادا أم امبراطورية كانت ذات أثر فعال سواء فى الهجوم أو فى الدفاع . وقد استمرت هذه الامبراطورية نحو ٥٠٠ سنة لم يتخللها الا فترة واحدة من فترات الضعف . وقد بسطت حكمها على سوريا ، وعلى جزء كبير من آسيا الصغرى ، ثم اتجهت نحو الجنوب حتى التقت حدودها فى النهاية مع الحدود المصرية فى فلسطين. ولفترة قصيرة أوشك

الحيثيون أن يهجموا على مصر ويسيطروا عليها كما فعل أسلافهم الهكسوس الذين جاءوا عن طريق سوريا .

وربما يكون اسم توت عنخ أمون معروفا لدى الأمريكيين أكثر من اسم أى فرعون آخر . ولكن لايوجد الا القليل من الناس الذين سمعوا باسم زوجته الشابة التى يحتمل أن تكون شخصيتها أقوى من شخصيته . فعندما يموت أحد الفراعنة كان يجب أن يمر أربعون يوما حدادا عليه لايقومون فيها بأى عمل سياسى . وأدركت الملكة أن الأسرة فى طريقها الى الزوال وستذهب معها اصلاحات اخناتون الأخيرة فكتبت الى ملك الحيثيين راجية منه أن يرسل اليها ابنه لتتزوجه وبذلك يستطيع الجيش الحيثى الاحتفاظ بالعرش لها. وهناك روايتان لما حدث بعد ذلك . أولاهما أن الملك الحيثى أجاب بحذر : « لنر ما يقوله قواد الملكة أولا » . أما الرواية الثانية فتذكر أن أميرا حيثيا كان فى طريقه فعلا الى مصر ولكنه وقع فى كمين وقتله المصريون فى الطريق . وعلى أية حال فبعد انتهاء أيام الحداد استولى على العرش أحد القواد واختفت هى من التاريخ . (١)

وفى أوائل القرن الثانى عشر وأواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد انتهت قوة الحيثيين . فقد تحارب الحيثيون والمصريون حتى انتهى الامر بانهزام الحيثيين فى معركة قادش على نهر العاصى فى سوريا فى عام ١٢٨٨ ق.م. وانهارت الامبراطورية الحيثية وتفرقت كلمتها وعجل بنهايتها هجمات قامت بها قبائل بربرية جديدة نزلت عليهم من الشمال . وقد قال الاغريق ان الهجوم

---

(١) ليست هناك روايتان بل هى رواية واحدة . فقد ارسلت الملكة تطلب من ملك خيتا أن يرسل أحد ابنائه لتتزوجه ولكن الملك الشيخ كان حذرا وأراد قبل أن يتورط فى ذلك أن يعرف حقيقة ماحدث فى مصر وسأل الملكة عما جرى لابن الملك فردت عليه قائلة انها لم تخف عنه شيئا وطلبت منه الاسراع قبل فوات الفرصة فاقتنع ملك الحيثيين وأرسل أحد أبنائه فقتل فى الطريق واتهم الحيثيون مصر بانها هى التى دبرت قتله ، وذلك كله مفصل فى بعض الوثائق التى عثر عليها فى الأناضول . (المترجم)

الدورى (Dorian) قد حدث بعد ذلك بوقت قليل ومن المحتمل أن ذلك كله كان نتيجة لموجة من موجات الهجرة التى قامت بها الشعوب التى تتكلم باللغات الهندو ــ أوروبية . ومن الجائز أنهم كانوا من الآريين الذين كانوا يربون الماشية ، والذين أخذوا فى ذلك الوقت يشقون طريقهم نحو الجنـوب ونحو الغرب . وبدأت عدة شعوب من غير المتكلمة باللغات الهندو ــ أوروبية تجلو عن آسيا الصغرى وجزر بحر ايجه هربا منهم . ولو أن الوثائق المصرية تشير الى هذه القبائل اجمالا تحت اسم شعوب البحر أو شعوب الجزر فان الأدلة تشير الى أن موطنهم كان فى أرض القارة وبخاصة الساحل الجنوبى لآسـيا الصغرى . وما من شك فى أن البعض منهم جاء من جزر بحر ايجه ، ولكن من الصعب أن نصدق أن هذه الجزر الصغيرة المجدبة نسبيا يمكن أن يقطن فيها مثل هذا العدد الكبير من القبائل المختلفة . ويبدو أيضا أن بعض هذه القبائل جاءت الى الجنوب عن طريق البر فى عربات تجرها الثيران ، وهو أمر لايمكن أن يتيسر لشعب يسكن فى الجزر .

وكانت هذه القبائل الغازية معروفة منذ عـدة قرون لكل مـن المصريين والحيثيين الذين استخدموهم كجنود مرتزقة ، وتغلبوا على الساحل السورى والفلسطينى وشنوا هجمة كبيرة على مصر نفسها غير أن هجومهم لم ينجح . ويبدو أنهم عند هزيمتهم اتجهت قبيلتان منهم نحو الغرب وبسطتا نفوذهما فيما كان أرضا بربرية فى ذلك العهد . ونستطيع أن نؤكد أن القـوم الذين سماهم المصريون « شردن » هم أنفسهم السردينيون . والرسوم المصرية لهذا الشعب تتفق فى تفاصيل ملابسهم غير العادية والأدوات التى كانت لديهـم مع ماعثر عليه فى جزيرة سردينيا من تماثيل صغيرة . وعلى أية حال ، فلا يمكن أن تكون سردينيا هى موطنهم الأصلى ، فمن غير المحتمل أن يحصل المصريون والحيثيون فى القرن السادس عشر قبل الميلاد على جند مرتزقة من جـزيرة واقعة بين ايطاليا وأسبانيا فى حين أن جوالى البحر من أهل كريت لم يصلوا

غربا الى هذا المكان البعيد . ويبدو أكثر احتمالا أن الشردن بعد اخفاقهم فى الهجوم على مصر أقلعوا نحو الغرب وقهروا السردينيين القدامى واستوطنوا الجزيرة وأطلقوا اسمهم عليها . كان شعوب البحر يستخدمون فى ذلك الوقت أدوات من الحديد والبرونز ، وربما ساعدتهم خامات الحديد الكثيرة فى سردينيا على المعيشة هناك .

وهاجر فريق من التيرهنى (Tyrrheni) احدى قبائل شعوب البحر الى ايطاليا ، وأصبحوا يدعون هناك « الاتروسكيين » . وعلى أية حال فان هذه الموجة من الهجرات قد استمرت مدة قرنين من الزمان على الأقل ، وكانت تسلسلا تدريجيا أكثر من كونها غزوا بأعداد كبيرة مرة واحدة . وقد أسهم الاتروسكيون بالشيء الكثير فى نمو الحضارة الرومانية كما سنرى فيمابعد.

وهناك جماعة ثالثة لها أهميتها الخاصة لنا ولو أنها لعبت دورا صغيرا فى التاريخ، وهؤلاء هم الفلسطينيون الذين نزلوا على طول الساحل الذى يعرف الآن باسم فلسطين وأعطوا اسمهم لهذه المنطقة. استوطن الفلسطينيون ذلك المكان فيما بين ١٣٠٠ و ١٠٠٠ ق . م . تقريبا . وقد وجد بنو اسرائيل الذين وصلوا فى نفس الوقت تقريبا من الاتجاه المضاد ، وجدوا أن الفلسطينيين كانوا قد استولوا على كل الأراضى الساحلية ، ووقع الكنعانيون الساميون الذين كانوا فى تلك المنطقة بين القادمين الجدد من الفلسطينيين والعبرانيين .

كان العبرانيون عند مجيئهم الى فلسطين مازالوا فى عصرهم البرونزى بينما كان الفلسطينيون يستخدمون الحديد . وقد يتذكر قارىء التوراة أن الأثمان التى كان يطلبها الفلسطينيون لسن أدوات العبرانيين الحديدية كانت أثمانا باهظة . ومن المحتمل أن سن تلك الأسلحة كان باعادة عملها من جديد أو باصلاح الأجزاء المتآكلة ، وكلا الأمرين يتطلب مهارة حدادين متمرنين.وبعد صراع طويل مذكور فى سفر القضاة فى التوراة تمكن العبرانيون فى النهاية من هزيمة الكنعانيين والفلسطينيين ثم استوعبوهم فيهم . وحسبما ورد فى

كتب العبرانيين اتى الفلسطينيون من كافتور (Caphtor) وهى على الأرجح جزيرة كريت . وعلى أية حال فلسنا نرى فى الزخارف المينوية (الكريتية القديمة) أثرا لرسم غطاء الرأس الفلسطيني الذى يمتازون به ، وهو خوذة حربية ذات ريش مثبت فيها تكاد تشبه تلك التى يلبسها الهنود الأمريكيون من قبيلة البلاك فوت (Blackfoot) فى منطقة السهول . ولا تتفق آثارفلسطين ولا الاشارات القليلة الواردة فى التوراة عن أصل الفلسطينيين معمانعرفه عن المينويين . ويبدو أكثر احتمالا ، أن الفلسطينيين فعلوا مافعله السردينيون والتيرهينيون وكونوا مستعمرات فى كريت بعد اخفاقهم فى الهجوم على مصر حوالى عام ١٢٠٠ ق . م . بعد انهيار الحضارة المينوية العظيمة ، فمن الجائز أن مجموعة من الغزاة الأجانب قد ثبتوا أقدامهم هناك . وجدير بالذكر فى هذه المناسبة أن أحد الرموز فى قرص فيتوس (Phaetos) وهو لوحة فريدة منقوشة عثر عليها فى كريت ، يمثل رأس رجل وضع فوق رأسه ما يشبه الى حد كبير خوذة القتال الفلسطينية . وكان المصريون قد اعتادوا رؤية الكريتيين المينويين الذين تاجروا معهم قرونا عدة ، وكانوا يفرقون بوضوح بينهم وبين الفلسطينيين الذين كانوا يعتبرونهم جزءا من هجرات‌شعوب‌البحر. وفى العصور التالية اصطدمت شعوب وحضارات آسيا الصغرى بالقوى الآسيوية الكبيرة التى كانت الى الشرق منهم ، أولا بالآشوريين ثم تلاهم الفرس ، وبعد ذلك الحضارة اليونانية التى أخذت توسع حدودها . ولم تترك تلك الشعوب الا أثرا قليلا فى صفحات التاريخ ، ومع ذلك فمن الناحية الحضارية لايمكن أن نعتبر ماقدموه شيئا غير قليل . وكما ذكرنا قبل الآن ، يبدو أن هذه المنطقة كانت من أوائل مراكز صناعة المعادن ويمكن أن نقول عنها انه تم فيها اختراع البرونز وصهر الحديد ، وقد لعب الاتروسكيون دورا هاما فى تشكيل الحضارة الرومانية وبذلك تركوا أثرهم فى الحضارات الغربية التى ظهرت بعد ذلك .

وأخيرا ، لقد تركت الحوادث فى آسيا الصغرى أثرا خـالدا فى الأشـعار الهوميرية . كانت طروادة قريبة من الحيثيين وربما كانت على صلة بهم ، وطالما كانت امبراطويتهم مزدهرة لم يجرؤ اغريقيو أرض القارة على مهـاجمة تلك المدينة بالرغم من أنه ربما كانت لديهم أسباب للسخط عليها أكثر أهمية وأقل رومانتيكية من قصة اختطاف هيلين . كانت مدينة طروادة مدينة صغيرة وفى العصر الهوميرى كان مجموع المساحة التى تضمها أسوارها تعادل تقريبا المساحة التى تشغلها محطة الجراند سنترال فى نيويورك . وعلى أية حال فقد كانت فى مكان استراتيجى عند احدى النقط القليلة على الساحل الايجى التى يمكن للسـفن المبحرة شمالا الى الدردنيل (Hellespont) والبحر الاسود أن تحصل منها على الماء ، وأن ترسو أثناء الليل . فاذا لم ينتهز الطـروادیون فرصة الاستفادة من مكانهم لمحاولة السيادة على تجارة البحر الاسود فانهم يكونون فى مرتبة اقل من مرتبة البشر . وبعد معركة قادش وانهيار الحيثيين رأى الاغريق فرصتهم سانحة امامهم للتخلص من منافس لهم منذ عهد بعيد ، وقد فعلوا ذلك .

القسم السابع

شعوبُ البحر الأبيض المتوسّط

الفصل الثالث والعشرون

جزيرة كريت

يعتبر اكتشاف الحضارات المبكرة فى منطقة شرقى البحر الأبيض المتوسط من أعظم القصص الرومانتيكية التى عرفها علم الآثار . فالالياذة والاوديسة تتضمنان اشارات عديدة لأشياء تختلف تماما عن أى شىء عـرفه الاغـريق القدامى ، وتصفان مستوى من المهارة التكنولوجية التى كانت تعوزهم أيضا. ولنضرب مثلا واحدا بدرع ديوميد (Diomede) التى كانت مزينة بصور لرجال يقطفون العنب من أحد الكروم والتى كانت مصنوعة من معادن مختلفة الألوان، فان مثل هذه الدرع لم تكن فى مستوى يفوق مهارة الاغريق القدماء فحسب ولكن ، حتى القرن الماضى ، كان أعلى من مستوى أى شعب آخر فيما عـدا الشعب اليابانى . وبالرغم من أن الاغريق أنفسـهم قد نظروا الى قصـائد هوميروس البطولية على أنها تاريخ صحيح ، يضاف اليه مايتفتق عنه خيـال الشاعر من زخرف وتنميق ، فان العلماء الأوروبيين فى القرن التاسـع عشر نسبوا هذه القصائد الى مملكة الخيال وجعلوا من الأبطال وحوادثهم ، آلهة كونيين وأساطير شمسية .

ولكن رجلا واحدا رفض أن يقتنع . هذا الرجـل هـو هينريش شليمان (Heinrich Schliemann) الذى ولد طفلا فقيرا عام ١٨٢٢ لأب كان يعمل راعيا للكنيسة ، وكان هذا الطفل من النوع الألمانى المعروف أى رومانتيكيا تتملكه فكرة ثابتة لا تتغير . وكتب شليمان ترجمة لحياته على قدر كبير من

الأهمية أخبرنا فيها كيف أن عاطفته نحو الأدب الاغريقى الكلاسيكى قدبدأت وهو طفل صغير ، كان يقطن فى قريته التى نشأ فيها سكير فقير كان قد درس فى أيامه السابقة الدراسات الكلاسيكية (اليونانية ــ الرومانية) ، وكان هذا الرجل عندما يثمل يبدأ فى تلاوة قصائد هوميروس بأصلها الاغريقى . وكان شليمان الصغير يدخر دراهمه الى أن يتجــمع عنــده مايكفى لشراء الشراب اللازم لهذا الرجل ثم يستمع الى أبيات هوميروس المثيرة ، وبالرغم من أنه لم يكن يفقه منها كلمة واحدة ، فان دموعه كانت تنحدر على وجنتيه من شدة التأثر ، وصمم على أنه حينما يشب سيبحث وينقب عن مدينة طروادة وقد وعد أن يأخذ معه الى هناكفتاته الصغيرة التى كانت اولحبيبة تفتح لها قلبه. وبالرغم من أن الفتاة قد انتهى أمر حبها بعد قليل فقد احتفظ بهــذا الحــلم الطموح خلال سنى فقره ، وحتى فى الوقت الذى كان يعيش فيه كعامل متجول لا يستقر له قرار . وفى النهاية استطاع أن يكون ثروة عن طريق تهريب الشاى الى روسيا ، وهى مهنة كانت تضــارع فى ذلك الوقت من حيث احتــرامها وأرباحها ، أعمال التهريب غير المشروعة التى كان لها فى الولايات المتحــدة الأمريكية عام ١٩٢٠ سوق رائجة . وفى عام ١٨٧٠ عندما أصبح فى الثــامنة والأربعين من عمره أصبح قادرا على تحقيق آماله .

ولكى يعد نفسه لمهمة احياءمدينة طروادة علم شليمان نفسه اللغةالاغريقية كما تبحر فى دراسة هوميروس ورفض أن يقبل تحديد المكان الذى كان يظن فى ذلك الوقت أنه موقع طروادة لأنه كان يفتقر الى وجود بعض العيون المائية التى ورد ذكرها فى الالياذة . والى جانب ذلك ، كانت هناك أسباب أخــرى لهذا الرفض ، وهى أن هذا المكان كان يبعد كثيرا عن الشاطىء ، الأمر الذى يجعل من المستحيل على أشيل (Achilles) أن يتتبع أثر هكتور حول أسوار المدينة مالم يكن الاثنان قد انهمكا فى عملية تسلق شاقة للصخور . وأخيرا ، استقر رأيه على رابية كانت تقوم عليهاقــرية حصــارليك (Hissarlik) على

أنها الموقع الأكثر احتمالا ، وبدأ أعمال التنقيب بهمة عظيمة ولكن مع قليل من الكفاية الفنية. وفى أثناء عمله هناك ناضل دون جدوى، وكشف عن بقايا عدد غير قليل من طبقات المدينة المتراكمة فوق بعضها البعض ، والتى أثبتت أن هذا الموقع كان آهلا بالسكان ابتداء من العصر النيوليتى حتى العصور الرومانية.

اناء من العصر المينوى

وفى أحد المستويات الذى ثبت فيما بعد أنه أقدم من طروادة هوميروس بعدة قرون ، عثر على مجموعة من الأدوات المصنوعة من الذهب التى كان من الواضح أن أصحابها خبأوها على عجل واطلق عليها فى سرور اسم «كنز بريام»

وقد أغرت الشائعات التى انتشرت حول الكنز قطيعا جائعا من الموظفين الأتراك بشليمان ، ووجد نفسه مضطرا الى ترك العمل فى «حصارليك» قبل أن يقضى على الموقع قضاء تاما .

وانتقل بعد ذلك الى الأراضى الاغريقية حيث بدأ العمل عند قرية ميسين (Mycene) وهى المكان الذائع الصيت الذى كان يحتله الأتريديون ، وهو البيت الملكى الذى كان ينتمى اليه الملك أجا ممنون (Agamemnon) وقد قال عنه الكاتب الرومانى پوزانيوس (Pausanius) الذى كان قد كتب مايشبه الدليل السياحى عن بلاد اليونان فى ذلك الوقت ، ان مكانا معينا فى قرية ميسين كان أهل المدينة يرشدون اليه السائحين على أنه قبر أجاممنون وبالحفر فى المنطقة التى أشار اليها پوزانيوس فى كتاباته كشف شليمان عن عدد غير قليل من المقابر الملكية فيها أدوات نفيسة يصعب على العقل تصديقها . وعثر فى واحدة منها على هيكل عظمى لرجل طويل غطى وجهه بقناع من الذهب بأسفل لحيته وبجانبه سيف رائع من البرونز . وفى مقابر أخرى عثر على ثروة من الأدوات المعدنية كانت أكثرها روعة خناجر مجلاة بمناظر لرجال يصطادون الأسود ، وقطة متوحشة تتعقب طيورا بين أعواد الغاب ، وصفوف من نبات السوسن ، وكلها مزخرفة ومطعمة بمعادن ذات ألوان مختلفة . ومن المكتشفات التى أذهلت الناس اذ ذاك كأس من الفضة نقشت على مقابضها أشكال من الطيور ، واذا ما أطلقنا العنان قليلا للخيال فمن المحتمل أن يقول قائل ان هذه الكأس هى كأس نستور (Nestor) الحقيقية التى جاء وصفها فى الالياذة . وأبرق شليمان لامبراطور المانيا قائلا «قد اكتشفت قبر أجاممنون» ثم مات سعيدا بعد ذلك بوقت قصير .

ونعلم الآن أن هذا لم يكن قبر أجاممنون لأن تاريخه يرجع الى عصر لايقل عن ثلاثة أو أربعة قرون قبل أيام أجاممنون ، ولكن جهود شليمان قد كشفت عن فصل مفقود من التاريخ الاغريقى . ولو قدر لشليمان أن يعيش بضع

سنين أخرى لكان قد أكمل عمله باكتشاف مركز هذه الحضارة الايجية العظيمة لأنه قبل أن توافيه المنية كان قد وضع الخطط اللازمة للحفر فى جزيرة كريت. وكما حدث فعلا ، أجرى أعمال الحفر فى جزيرة كريت علماء آخرون للآثار أخصهم بالذكر السير أرثر ايفانز (Sir Arthur Evans) الذى كرس حياته للكشف التدريجى عن موقع مدينة نوسوس (Knossos) العظيمة حيث بلغت الحضارة الكريتية ، فيما يبدو ، أوج عظمتها . ولسوء الحظ ، اتضح أن اعادة بناء الحضارة الكريتية تتطلب الاستعانة بما خلفه الانسان من أدوات ومن مبان ومن رسوم على الجدران بالاضافة الى بعض الأساطير الاغريقية .وللتحقق من صحة هذا العنصر الأخير ، وهو عنصر الأساطير الاغريقية، يجب على المرء أن يتذكر أن الفترة التى تفصل بين الحضارة الكريتية وهى فى أوج عظمتها ، وبين حضارة أثينا وهى فى عنفوانها كانت تقريبا نفس الفترة التى تفصل بين انجلترا ابان الغزو النورماندى لها وانجلترا اليوم ، وان هذه الأساطير وصلت الينا عن طريق النقل من فم الى فم على مر العصور . استطاع الكريتيون القدماء أن يصلوا الى اختراع نوع من الكتابة كان من الواضح أنه مزيج من علامات المقاطع والعلامات الدالة على المعانى ، وحتى لو أمكن حلها فانها لن تساعدنا الا قليلا لأنهم لم يخلفوا وراءهم نقوشا طويلة . (١) وقد يكون هذا فى حد ذاته ذا دلالة ومغزى ، لأنه يدل على أن الكريتيين لم يتملقوا حكامهم كما كان الحال مع ملوك بلاد مابين النهرين وفراعنة المصريين ، اذ أن معظم أمثلة الكتابة الكريتية التى وصلت الينا حتى الآن ما هى الا بطاقات كانت تستخدم على مايظهر كعلامات مميزة لطرود البضائع .

والحضارة الكريتية قد استمدت أصولها من نفس المركز الحضارى فى

---

(١) أعلنت بعض المحافل العلمية منذ سنوات قليلة نجاح بعض علماء الدراسات الكلاسيكية فى الوصول الى مفتاح حل تلك اللغة واعطوا بعض الامثلة لتأييد ذلك ، ولكن الدراسات الكاملة لم تنشر بعد . (المترجم)

جنوب غربى آسيا ابان العصر النيوليتى ، وهذه جاءت بدورها من الحضارات القديمة الأخرى التى تحدثنا عنها قبل الآن . وعلى أية حال ، فانه يبدو انها قد تأثرت بالحضارة المصرية أكثر من تأثرها بأى حضارة أخرى فى آسيا . وتقع جزيرة كريت فى منتصف الطريق بين مصر والأراضى الأغريقية ، وهو موقع ذو فائدة عظيمة لهم ، اذ جعل فى امكان الكريتيين السيطرة على نقل التجارة بين هذين المركزين فيما بعد . وحدثت ، فيما يبدو ، أولى عمليات الاستقرار فى جزيرة كريت حوالى عام ٥٠٠٠ ق . م . ، ومن المحتمل أن الذين فعلوا ذلك أتوا مهاجرين من الأراضى الاغريقية . كانت حضارتهم نيوليتية بسيطة ، وكان الوصول الى كريت عن طريق التنقل من جزيرة الى أخرى دون حاجة الى عبور مايزيد على الخمسين أو الستين ميلا فى بحر مفتوح . وقد يكون هذا ممكنا جدا لو أن المهاجرين القدماء استخدموا قوارب صغيرة مصنوعة من جذوع الشجر وفى طقس هادىء . أما من ناحية الجنس ، فان هؤلاء المهاجرين الذين استقروا فى الجزيرة كانوا ذوى رءوس طويلة وشعر أسود ، كما كانوا ذوى قوام نحيف شأنهم فى ذلك شأن سكان منطقة البحر الأبيض المتوسط . وحتى فى العصور الكلاسيكية لم يتكلم سكان الجزيرة الذين كانوا يعيشون فى المناطق النائية اللغة الاغريقية . ونستطيع أن نحكم اعتمادا على هذه الحقيقة ، وعلى وجود النقوش المينوية (الكريتية القديمة)، بأن اللغة الأصلية التى كانت سائدة فى الجزيرة لم تكن لغة من اللغات الهندية ــ الأوروبية .

وتوثقت العلاقات مع مصر ، فيما يبدو ، قبل نهاية عصر ماقبل الأسرات فى مصر أى حوالى عام ٤٠٠٠ ق . م . على وجه التقريب ، ولهذا ظهرت عناصر مصرية كثيرة فى جزيرة كريت فى الألف السنة التالية لدرجة جعلت بعض المختصين يعتقدون أنه كانت هناك هجرة حقيقية من مصر . وفى العصر الكلاسيكى كان الكريتيون مشهورين بشيئين ، احكامهم للرماية بالقوس ،

وبراعتهم فى الكذب والخداع . ويبدو أنهم كانوا يستخدمون القوس المركب حتى فى العصور المينوية ، وربما عرفوه من صلاتهم التجارية مع آسيا الصغرى. أما الكذب والبهتان فقد كانا دون ريب تطورا محليا لم يأخذوهما عن غيرهم وهناك عبارة اغريقية كلاسيكية تقول « انه يكذب مثل الرجل الكريتى » وهى جملة تقر بتفوقهم فى فن لا يعتبر الاغريق فيه قوما ناشئين .

وحتى فى العصور النيوليتية ، كانت جزيرة كريت دون شك ، منطقة فقيرة نسبيا من الناحية الزراعية . ومع ذلك ، فقد كانت الجزيرة عامرة بالغابات وكانت هذه الغابات تمدها بالأخشاب اللازمة لبناء السفن ، كما أن شجرة الزيتون كان يناسب زراعتها تلك المنحدرات الحجرية التى تخلفت بعد قطع الغابات ، ويبدو أن الكريتيين كانوا من أوائل الشعوب التى دجنت زراعة هذا النوع من الأشجار . وليست غابات أشجار الزيتون ذات فائدة الا بالنسبة للسكان المستقرين تمام الاستقرار ، لأن هذا النوع من الأشجار يحتاج الى مايقرب من ثلاثين عاما قبل أن تتم الشجرة نموها وتأتى بأعظم ثمارها ، ثم تستمر على ذلك نحو مائة عام . وفى جميع عصور تاريخ جزيرة كريت كان زيت الزيتون أحد الصادرات الرئيسية للجزيرة . أما استخدامهم للفخار الدقيق الذى كان ينتج محليا للتعبئة الجميلة لهذا النوع من المنتجات فقد تحدثنا عنه قبل الآن .

ويبدو أن الحيوان الداجن الرئيسى فى جزيرة كريت كان الماعز ، أما الخيل فقد وصلت الى الجزيرة قبل انتهاء الحضارة المينوية ولكنها لم تلعب دورا كبيرا فى تلك الجزيرة . وكانوا يحتفظون أيضا بقطعان الماشية ، وكان للثيران صلة باحتفالاتهم ودياناتهم . ومع ذلك ، فلابد أن الكريتيين كانوا يحصلون على معظم الطعام الذى يحتوى على المواد البروتينية من السمك . وقد دفعهم فقر التربة الكريتية والقرب من البحر الى السفر بالبحر والى التجارة ، فكانوا أول شعب فى التاريخ يصل الى حضارة ذات طابع تجارى حديث . وفى خلال

العصر الذى كانت فيه جزيرة كريت دولة قوية ، كان الكريتيون يعيشـون تماما كما كان يعيش الانجليز فى القرون الحديثة ، أى عن طريق سـيطرتهم على التجارة فى البحار وعن طريق بيعهم لمنتجات بلادهم . ولابد أنهم كانوا يستوردون معظم طعامهم ، فقد كانت جزيرة كريت مزدحمة بالسكان حتى فى أيام هوميروس ، عندما كانت مدنيتهم فى حالة تدهور نسـبى . وتتحدث قصائد هوميروس كثيرا عن « كريت المزدحمة بالسكان » اذ دهش الاغريق فى ذلك الوقت دهشة شديدة عندما رأوا المدن الكثيرة وازدحام الطـرقات فى الجزيرة .

وما ان حل عام ٣٠٠٠ ق . م . حتى كانوا يأتون بالنحاس عن طريق التجارة مع جزيرة قبرص ، وقـد وردت الكلمة الانجليـزية الدالة على النحـاس (Copper) فى لغـات عـديدة ، وهى تعنى فى حقيقـة الأمر « معـدن قبرص » . أما معادن البرونز والفضة والذهب ، فقد كانت معروفة لهم منـذ حوالى عام ٢٤٠٠ ق . م . ، ولما كانت هذه الجزيرة فقيرة فى معادنها ، فلابد أن هذه المعادن قد وصلت اليهم عن طريق التجارة ، ولكن معـدن الحديد لم يصل الى جزيرة كريت الا بعد انتهاء المدينة المينوية ، ومن المحتمل أنه جلبه اليها أولئك الفلسطينيون الذين ذكرناهم آنفا. ونجح الفنانون الكريتيون حوالى عام ٢٤٠٠ ق.م. ، ولما كانت هذه الجزيرة فقيرة فى معادنها ، فلا بد يندر أن نجد مثيلا له، وجربوا جميع أنواع المزج بين المعادن المختلفة، وبرعوا فى عملهم حتى استطاعوا أن يرسموا — لو صح استخدام مثل هذا التعبير — ما يشاءون بالمعادن المختلفة الألوان . ولم يوجد الا القليل من أمثلة هـذا النوع فى الجزيرة نفسها ، وان الانسان ليعجب ما اذا كانت هذه المنتجات قد قصد بها قبل كل شىء أن تصل الى أيدى الأمراء غير الكريتيين الذين كانوا يعيشون فى أرض القارة نفسها حول شواطىء البحر الأبيض وأن الفنـانين من أهالى كريت كانوا ينتجون تلك الأدوات الفاخرة لأجلهم ، أو ربما كانت

الزخارف على المعادن زاهية اللون الى درجة لم يستطع الذوق الكريتى المرفه أن يتقبلها .

وعثر على أوان من الفخار فى أقدم القرى الكريتية ، وبالرغم من العلاقات الكثيرة التى كانت تربطهم بمصر ، حيث كانت الأساليب الفنية فى صناعة الفيانس (الأشياء المزججة الطلاء) متطورة جدا ، فان معظم أوانيهم غير مزججة السطح ، ولكن بالرغم من ذلك فان أشكالها بديعة ولم تكن زخارفها جميلة فحسب ، ولكنها كانت مرسومة بحرية وبمهارة تظهران مهارة صانعيها، ولا نجد أوانى فخارية تضارعها فى جمالها الفنى حتى جاء العصر العظيم الذى نبغ فيه الفنانون الاغريق الذين تخصصوا فى رسم الأوانى .

وكان المينويون أيضا صناعا مهرة فى حفر الخشب ، بالرغم من أنه لم يبق مثل من عملهم فى هذا الفن . ونعرف أنهم كانوا يصنعون العربات الحربية وكانوا يبنون السفن التى تمخر عباب البحر ، ويتطلب كل من النوعين رسما تمهيديا دقيقا ، ومهارة فى النجارة ، ومن الأمور الطريفة فى هذا الموضوع أنه من بين الأدوات المينوية الدقيقة التى عثر عليها توجد بقايا لما يبدو أن يكون منشارا كبيرا ذا سلاح قاطع من البرونز كان يستخدم على الأرجح فى نشر ألواح الخشب اللازمة لبناء السفن . وهناك أدوات مينوية أخرى تشبه الى حد كبير الأدوات اليدوية الأوروبية الحديثة أكثر مما تشبه مثيلاتها من أدوات بلاد ما بين النهرين أو مصر . وفى امكان الصانع الحديث أن يستخدمها مع قليل من التغيير فيما اعتاد عليه من مجهود عضلى .

وقد اعترف الاغريق المتأخرون بروح الابتكار وبالمهارة الفنية التى كانت للكريتيين وذلك فى اسطورتهم عن ديدالوس (Daedalus) ، رئيس الصناع الفنيين الذى صمم آلات عديدة ليستخدمها سيده الملك .وعلى الأقل فان واحدة من مخترعاته التى نال عليها الثناء ، وهى عمل كرة داخل فجوة تستقر فيها وبذلك تستطيع أن تتحرك حركة مستمرة هى احدى المخترعات

الكريتية . وكما تقول الأسطورة ، فعندما فقد ديدالوس عطف الملك هرب مع ابنه ايكاروس (Icarus) بوساطة أجنحة صناعية ولاتزال قصة ايكاروس ومصيره عندما غامر واقترب جدا من الشمس ، مثلا مألوفا على شدة الاعتزاز بالنفس التى تلقى بصاحبها الى التهلكة .

ويمثل الفن المينوى ازدهارا مبكرا فى قوة ملاحظة الطبيعة ومحاولة عمل نسخة منها مع الاحتفاظ بالاتزان والتجانس فى الرسم، الأمرين اللذين أصبحا ميزة للاغريق المتأخرين .

وكان الفن المينوى ـــ وهو فى ذلك مثل الفن الاغريقى فى العصر الكلاسيكى المتأخر ، زاخرا بحب الحياة ، فلم يرسم فنانوهم آلهة مخيفة تعيش بعيدا عنهم أو ملوكا مؤلهين ، ولكن رسموا أشخاصا سعيدين معتزين . كانت أوانى الفخار المينوية مزخرفة بأشكال الزهور وبأشكال متصلة بحياة البحر، وكانوا يرسمونها بصورة طبيعية تثير الدهشة . وهناك أشكال أخرى ، وخصوصا حيوان الدولفين ، استخدموها كحليات متكررة فى أفاريز جدران القصور المينوية .

وهناك ظاهرة تلفت النظر فى الفن المينوى وهى صغر الحجم الذى يميز معظم الأدوات التى كانوا يصنعونها . فقد عثر على تماثيل صغيرة من الواضح أنها صنعت لأجل الاحتفالات أو الطقوس ولكن لم يعثر على تماثيل بالحجم الطبيعى ، وهذا على عكس الأسلوب المستخدم فى زخرفة جدران قصر مدينة نوسوس (Knossos) حيث نجد كثيرا من الصور بالحجم الطبيعى. بل ان أحد الافريزات يحتوى على تماثيل لرجال أكبر من الحجم الطبيعى وتبرز من سطح الجدار ، ومصنوعة من الجبس . ونحن نعرف القصة الأسطورية الخاصة بالتمثال المصنوع من البرونز الذى صنعه ديدالوس ليكون حارسا للملك مينوس (Minos) كما أن هناك عددا قليلا من التماثيل البرونزية الصغيرة التى صبت بمهارة واتقان . وان المرء ليتساءل عما اذا لم يكن هناك تماثيل

مصنوعة من المعدن فى حجم الانسان الطبيعى أو أكبر منه وأنها قد زالت من الوجود واختفت خلال أعمال السلب العديدة التى تعرضت لها الجزيرة منذ عام ١٤٠٠ ق .م. وما بعدها . وسواء أكانت هناك تماثيل كبيرة أم لم تكن ، فان التماثيل ذات الحجم الصغير التى انتجها الفن المينوى تدل على مهارة غير عادية ، كما أنها طبيعية الأسلوب . والوجه الصغير لأحد التماثيل العاجية الصغيرة الذى يمثل احدى الكاهنات ، عمل فنى تملؤه الحيوية ويأسر النفس بعدم انتظام الملامح فيه مما يحملنا على الاعتقاد بأن هدا الرأس ليس الا صورة صادقة من صاحبته . وهناك قطعة أثرية أخرى لم يبق منها لسوء الحظ الا قطع من أجزاء من الموضوع المحبب اليهم وهو رياضة الثيران وهو جزء من تمثال من العاج لأحد الرياضيين وقد نحت بدقة كبيرة ، صوره الفنان وهو فى وسط وثبته ، ويبدو أنه كان مثبتا بسلك من الذهب فوق تمثال الثور .

وبفضل الرسوم التى على الجدران ، وبفضل التماثيل الصغيرة أصبح فى استطاعتنا أن نتخيل التفاصيل المختلفة للحياة الخاصة فى كريت وما كان يستخدمه أبناؤها من عتاد . كانت الملابس العادية للشبان عبارة عن ثقبة صغيرة من القماش تلف حول الوسط وحزام عريض لجعل الخصر يبدو نحيلا . وكان الرجال المتقدمون فى السن يرتدون ملابس طويلة ، كما كانوا على الأرجح يرتدون عباءات طلبا للدفء أو فى المناسبات الهامة . أما ملابس السيدات فانها تجعلنا نحس عند النظر اليها بأنها حديثة ، ومن العصر الحاضر . فقد كان الجزء الأعلى من الرداء يتكون من قرطق صغير (بوليرو ، صديرية) ذى أكمام قصيرة وترتدى فوقه أحيانا قميصا « بلوزة » من نسيج أبيض رقيق . ومع هذه الملابس كانت النساء يلبسن ازارا يشبه الناقوس فى جزئه الأسفل أو «بيجاما» فضفاضة ومزركشة بزخارف متداخلة زاهية الألوان ، لأنهن كن يحببن الألوان الكثيرة . أما أحذية كل من الرجال والنساء فكانت حديثة الشكل تماما ، وكان الرجال يظهرون ، فى بعض الأحيان ، وهم يحتذون نعالا «صنادل»

ولكنهم فى أغلب الأحوال كانوا يلبسون أحذية متينة الصنع تشبه تماماأحذية الجيش فى الميدان . أما السيدات فكن يلبسن أخفافا « شباشب » مصنوعة من السيور الجلدية وذات كعوب عالية تشبه تماما تلك التى تعرض فى محلات الشوارع الرئيسية فى المدن الكبرى فى أيام الصيف . وكن يرتدين أيضا قبعات كبيرة مزركشة بألوان زاهية تصلح لأن تكون من مصانع ليلى داشيه (Lily Daché) وكان كلا الجنسين يسرف فى التزين بالذهب والجواهر ، وتوحى الينا الأشكال المختلفة لتفاصيل الملابس التى نراها فى الرسوم والتماثيل الصغيرة، بأن السيدات المينويات، تماما مثل سيداتنا، كن يحببن تغييرأزيائهن حسب تغيير « الموضة » ، أما المحاربون المينويون فكانوا يرتدون خوذات مرتفعة من البرونز ، ولكنهم لم يلبسوا أى وقاية معدنية فوق الجسد . أما سلاح الدفاع الرئيسى لديهم فهو درع كبيرة تشبه رقم ثمانية فى الأعداد الأفرنجية 8 ، وتصميمه على هذا الشكل يتيح لمن يلبسه مكانا يستطيع منه أن يستخدم الحربة أو السيف ، ولكنها كانت دون شك نقطة ضعف فى صلاحيته للدفاع . وربما يتذكر القارىء ما ذكره هوميروس فى قصائده من

أن أكثر الأبطال كانوا يطعنون فى جنوبهم فى وسط الجسم وهو المكان الذى لم تستطع الدرع المينوية أن تعطيه الا القليل من الحماية . وكانت الأسلحة الرئيسية تتكون من الرمح والسيف ، أما البلطة ذات الحدين القاطعين التى لابد أنها كانت فى الأصل بلطة القتال الحقيقية ، فقد أصبحت فيما يبدو ، تستخدم فقط فى المناسبات الرسمية فى أيام العصر المينوى ، أما السيوف فقد كانت طويلة ومستقيمة ، وعرفوا أيضا نوعا آخر من السيوف البرونزية القصيرة التى كانت مدببة فى نهايتها ثم تتسع قليلا قليلا حتى تبلغ أقصى سعتها عند المقبض . وكانت مقابض السيوف تصنع من الذهب أو العاج أو البلور الصخرى وكانت تزخرف زخرفة كبيرة ، وقد تطورت هذه السيوف من الخناجر التى كانت أقدم منها ، والتى كانت تستخدم كثيرا فى الحرب .

ولسوء الحظ ، ليس لدينا الا معلومات ضئيلة عن صناعة بناء السفن فى جزيرة كريت، وكانت من أهم الصناعات التى تقدموا فيها فى الناحية التكنولوجية، ويلوح أنهم كانوا أول الشعوب التى قامت ببناء السفن الكبيرة التى تصلح للسفر فى البحار . ونستطيع أن تقول ، استنادا الى النقوش المحفورة على فصوص الخواتم والرسوم التى نراها من آن لآخر على الأوانى الفخارية ، أن هذه السفن كانت طويلة غير عريضة ، تسير بالشراع ولها صف واحد من المجاديف . وكان لهذه السفن سطح يغطى طولها بأكمله ، ولها صـــار واحد أو صاريان او ثلاثة صوار ذات أشرعة مربعة . وكان مقدم السفينة ومؤخرها مرتفعين ويستديران استدارة شديدة ، وكان الجزء الأوسط من مقدم السفينة يبرز الى مسافة كبيرة ، وربما كان ذلك التصميم لأجل اعـــداد تلك السفن للتغلب على غيرها عند الاصطدام بها اذا كان هناك قتال ، اذ لم يكد العصر المينوى يقترب من نهايته حتى كانت سفنهم الحربية مجهزة بكبش بارز غطيت نهايته بالبرونز فهم اذن مخترعو تلك الآلة التى أصبحت التكتيك البحرى الرئيسى فى جميع أيام اليونان والرومان . ومما هو جدير أيضا بالذكر أن المينويين كانوا أول الشعوب التى توصلت الى عمل الهلب بشكله الذى لايزال عليه حتى الآن، بما فى ذلك الجزء الذى يتشبث بالارض أو الحبال المتصلة به.

فاذا أحسن البحارة التجديف ، كان فى استطاعة السفن المينوية أن تكون سريعة وسهلة الحركة ، وقد مكنت هذه السفن أصحابها المينويين من تأسيس أول امبراطورية بحرية فى التاريخ . وليتمكنوا من الاحتفاظ بها ، أقاموا القواعد البحرية حول شواطىء شرقى البحر الأبيض المتوسط . أما قواعدهم فى دلتا النيل فقد استأجروها من مصر (١) ، ولكن القواعد التى أقاموها فى مناطق أقل تحضرا فمن الأرجح أنهم أقاموها بالقوة، وبذلك كانت هذه القواعد أول الأمثلة على الاستعمار العمد الذى وصل الى أقصى مراحله على أيدى المدن الأغريقية

(١) لست اعرف أى سند تاريخى يؤيد هذا القول .
(المترجم)

التى جاءت فيما بعد . وفى الوقت الذى كانت فيه هذه القواعد ذات فائدة رئيسية للتجارة ، فان ذلك لم يمنع المينويين من الانغماس فى القرصنة . وانى أشير هنا الى ما جاء فى الأوديسا عندما سأل الملك نستور تليماكس بن أوديسيوس متأدبا عما اذا كان تاجرا أو قرصانا ، فالحرفتان كانتا تعتبران محترمتين تماما فى ذلك الوقت كما كانت كل منهما مجرد وسيلة تحل مكان الأخرى للحصول على ما كان يريده المسافر .

أما الجماعات الكريتية فانها ، فيما يبدو ، كانت أكثر ازدهارا من أى حضارة من حضارات المدن القديمة . فمن المؤكد أن الفائض الاقتصادى كان يوزع بطرق أكثر عدلا فى المساواة . كانت المدن المصرية تتكون من عدة معابد عظيمة ومن قصور محاطة بكثير من المنازل الحقيرة . وفى بلاد ما بين النهرين كانت هناك طبقة وسطى أكبر من مثيلتها التى كانت فى مصر ، ولكن حتى فى بلاد ما بين النهرين فان نسبة عائلات الطبقة الوسطى كانت على الأرجح أصغر بكثير مما كانت عليه فى جزيرة كريت .

ومن الأرجح، أن أغلب سكان المدن المينوية كانوا من الطبقة البورچوازية، أما قراهم فكانت من نوع القرى التى لا تحيط بها أسوار وكان لكل منها هيكلها الدينى الذى كان بعيدا عن المنازل وكان مركزا لنشاط الجماعة . أما المنازل فكانت على ما يبدو تبنى من الخشب والجص ، وفيما عدا سقوفها المستوية ، فانها تشبه الى حد كبير الأكواخ الانجليزية من طراز عهد الملكة اليزابيث . كان هناك عدد وافر من النوافذ التى كانت ، اذا صح حكمنا عليها من دراسة الصور ، تغطى بمادة داكنة نصف شفافة ربما كانت من رقيق الجلد المدهون بالزيت . أما النبلاء والملوك فكانوا يملكون منازل واسعة ، ولكن لم يكتشف حتى الآن غير منزل واحد فقط من ذلك النوع المتسع الكبير حقا . ولم يكتشف حتى الآن أى مبنى يمكن أن يقال عنه انه كان مسكنا للارقاء فربما كان المجدفون فى السفن الكريتية ، مثل زملائهم فى السفن الاغريقية ، الى

وقت معركة سالاميس ، من الرجال الأحرار ، وكانوا من بحارة السفينة .وربما كان هناك بعض الأرقاء الذين يعملون فى المنازل وهو خير حل لمشكلة الخدم قبل العصر الآلى ، ولكن أولئك العبيد لم يكونوا فيما يبدو كثيرى العـدد ، وفى الوقت ذاته لم يكن وجودهم ذا أثر هام من الناحية الاقتصادية . وبالرغم من أن جزيرة كريت على ما يظهر ، لم تكن من الناحية السياسية موحدة الى ما يقرب من قرن من الزمان قبل انتهاء المدنية المينوية ، فان القرى الكريتية كلها كانت مدنا مفتوحة ، فقد جعلت سيطرة المينويين على البحر دفاعهم ضـد الغزو الأجنبى أمرا لا ضرورة له . ويبدو أنه لم يكن هنـاك أى نوع من التحصينات فى الجزيرة ، الأمر الذى يوحى بأنه لابد أنه كان بين المقاطعات المختلفة نوع من التنظيم التحالفى . ويبدو أن الكريتيين كانوا يعيشون فى سلام مع بعضهم البعض ، بغض النظر عن المنازعات العادية التى تحدث بين أفراد العائلة الواحدة . ومثل هذه الحالة كانت مناقضة تماما لما كانت عليه الأمور فى البلاد التى كانت فى أرض القارة .

واكبر المبانى فى جزيرة كريت هو البناء العظيم فى نوسوس الذى يسمى عادة قصر الـ « مينوس » ، ومينوس هو لقب الملوك ــ الكهنة الكريتيين ، كما كان اسم فرعون هو اللقب المصرى للملوك المؤلهين. وكان القصر يمثل مجموعة من المبانى عظيمة الاتساع نمت على ما يظهر مع مرور بضع مئات من السنين حتى وصل عددها الى أكثر من الف حجرة . لم تكن حجرة واحدة من هذه الحجرات واسعة جدا ، كما أن نوع البناء نفسه كان من ذلك النوع الذى يسهل تشييده دون حاجة الى استخدام جماعات كبيرة من العمال . وكان القصر يحتوى على حجرة للعرش وعلى حجرات للنوم والأكل لجماعة يتحتم أن يكونوا من أفراد أسرة حاكمة ، ولكن أكثر مبانى هذا البناء كانت مشغولة بالمخازن والحوانيت . ويبدو أنه كان مركزا للجماعة ومصنعا أكثر من كونه قصرا . وكان فى حجرة العرش عرش من الجبس وعلى جانبى الحائط رسم

أسدين مجنحين ولكل منهما رأس نسر (Griffins) كحارسين . وفى القاعات الخاصة بسكنى الملك كانت هناك الحمامات ودورات المياه وهى تظهر أكثر حداثة ورقيا من مثيلاتها فى معظم قرى جزيرة كريت فى العصر الحاضر .وكان هناك نظام جيد للمجارى تتصرف بوساطته مياه المطرعندما تسقطفوق السقف فتندفع بسرعة فى بالوعات المجارى وتدفع ما أمامها وتبقى البالوعات دائما نظيفة . وكان لمواسير المجارى فتحات تسمح للعمال بالنزول اليها لأعمال التنظيف والاصلاح ، لقد كان الكريتيون حقاأول مهندسين صحيين فى التاريخ.

ويتفق الجمع بين القصر والمصنع فى المبنى العظيم فى نوسوس مع أهمية التجارة والمصنوعات فى الاقتصاد الكريتى . فقد بدأت التجارة بين كريت ومصر فى عهد مبكر حوالى عام ٤٠٠٠ ق .م . ، وما حل عام ٢٠٠٠ ق.م. حتى كانت العلاقة أكثر توثقا . ورأى المصريون أن بعض القطع الفنية الكريتية أهل لأن تدفن فى مقابر الفراعنة المصريين ، كما نرى فى المناظر المرسومة على جدران المقابر المصرية مناظر تمثل وصول التجار الكريتيين بملابسهم وسلعهم التى امتازوا بها . وكان المينوس الكريتى نفسه يتاجر مع فرعون مصر ، بالرغم من أن هذا النوع من التجارة كان يطلق عليه اسم محترم وهو تبادل الهدايا . وقد عثر على نسخة من خطاب من أحد الفراعنة يشكو فيه للمينوس من أن الشحنة الأخيرة من زيت الزيتون لم تكن حسب المواصفات . ولابد وأنه كان هناك تجار آخرون كثيرون ، وان العثور على مايمكن أن يوصف بأنه منازل خلوية يوحى بوجود طبقة غنية ممن يسمون أمراء التجار .

ويبدو أن أرباح التجارة والمصنوعات الكريتية قد اتاحت للسكان المحليين فسحة من الوقت لممارسة الرياضة التى يشهدها الجمهور . وكان من بين مجموعة مبانى نوسوس مسرح صيفى فى الهواء الطلق كان يستخدم ، اعتمادا على الرسوم التى على الجدران ، لمناوشة الثيران ، ذلك النوع من الثيران المتوحشة التى كانت تعيش فى أوروبا فى ذلك العهد، وهى تشبه الى حد كبير الثيران

المقاتلة الأسبانية فى العصر الحديث، ولكنها كانت أكبر حجما وأكثر توحشا. ولدينا بعض الكئوس الذهبية من عصر متأخر بعض الشيء وعليها نقوش تمثل صيد الثيران المتوحشة بالشباك ، وتبين رسوم الجدران صور شبان وفتيات يرتدون ملابس تغطى الخصر فقط وأحذية ، وهم يحاولون مناوشـــة هذه الحيوانات الخطرة . ويبدو أن المهارة فى ذلك هى الوقوف أمام الثور الهاجم والقبض على قرنيه ثم الوثب على ظهره عند محاولة نطحه للرياضى ، وكان مثل هذا العمل يتطلب حسن استخدام اللحظة المناسبة لذلك ، مع مهارة رياضية فائقة . ولما كان الذين يناوشون الثور غير مسلحين فلم يكن يلحق بالثيران أى أذى ولكن الذين كانوا يناوشونه يتعرضون لاصابات كثيرة . ويبدو أنه كان للثيران صلة ما بالآلهة الاشتونية (Cthcnic) فى الديانة القديمة فى منطقة البحر الأبيض المتوسط . وكان لهذا النوع من الرياضة اذا صح للمرء أن يسميها بهذا الاسم ، صلة بالديانة على الأرجح .

ولسوء الحظ ليس لدينا الا الضئيل من المعلومات عن الديانة المينوية ، واذا صح الحكم اعتمادا على الرسوم ، فان أعظم الآلهة فى الأهمية كانت الهة أنثى وهى التى كانت تسمى « أم الأرض العجوز » التى نراها دائما ذات صلة بالأفعى وهى رمز الى عضو التناسل كما هو معروف . وكانت هناك حيوانات أخرى متصلة بعبادتها فى الفن المينوى وهى الأسد والحمام ، بينما يبدو أن الجبال والغابات ايضا كانت تتصل بطريقة ما بعبادتها . وربما كانت شبيهة فى صفاتها بالالهة السورية المسماة « الأم العظيمة » التى كان يرمز لها بهذه الأشياء . وكان يقوم بخدمتها كاهنات وليس كهنة . وليس هناك ما يدل على وجـــود قرابين آدمية أو حتى قرابين كثيرة من الحيوان ، اذ كانت قرابينها المفضلة ، فيما يبدو ، هى ثمار الحقول . ولسنا نرى فى الفن الكريتى أثرا للالهة الذكور ولكن أقدم الأساطير الاغريقية تذكر أن الاله زيوس (Zeus) قد ولد فى كهف فى جزيرة كريت ، ويستطيع أن يفهم الانسان من ذلك أنه ــ تماما مثل الأم

العظيمة السورية ــ كان هناك اله ذكر ولكنه كان فى المرتبةالثانية من الأهمية وكان فى نفس الوقت ابنا وحبيبا للالهة . ولم يكن هناك فيما يبدو معابد بالمعنى الحقيقى ولكن كانت هناك هياكل فى القرى ، وفى المبنى الكبير فى نوسوس حجرة صغيرة لابد أنها كانت نوعا من أنواع الهياكل .

وليس لدينا أيضا غير معلومات ضئيلة عن التنظيمات الاجتماعية والسياسية عند الكريتيين . ويدل العثور على المقابر الجماعية التى استعملت فى الدفن لعدة أجيال على وجود نوع من صلة القربى المستمرة ، وفى الوقت ذاته يدلنا حجم المساكن فى القرى على أن العائلة كانت وحدة بسيطة تماما مثل العائلة عندنا . ومن المرجح أنه كان هناك نوع ما من تنظيم العشائر ولهم قرى تتكون من الجماعات التى تربطها وشائج القربى المنحدرة من أصل واحد .

واحتلت النساء مركزا مرموقا بينهم ، وليس هناك ما يدل على استعمال الحجاب ، أو بقائهن فى عزلة ، وتصورهن الرسوم التى على الجدران يملأن مقاعد المتفرجين فى حفلات رياضة الثيران كما كن يشتركن فى مناوشة الثور ، ولكن ربما كانت النساء اللاتى يقمن بمناوشته من الأسيرات ، ويبدو أن النساء النبيلات كن يشتركن حتى فى الحرب . وفى أيام قيام الحروب اليونانية ــ الفارسية كانت احدى ملكات هاليكارناس (Halicarnasus) وكانت نصف كريتية وتسمى أرتيمسيا (Artemisia) ، كانت تقود أسطولها الخاص من السفن فى معركة سالاميس وقد كانت واحدة من المستشارين الحربيين الذين يعتد برأيهم عند الملك الفارسى . وقد جن جنون الاغريق عندما رأوا امرأة تقف أمامهم فى الحرب وقاموا بجهود يائسة لأسر سفينتها ولكنها هربت منهم بعد معركة عنيفة .

وهذا كله يرجح لدينا أن المجتمع المينوى كان مجتمعا ينتسب الى الأم ، وزعامته للنساء ، وكان ذلك منتشرا جدا بين القبائل التى كانت قبل القبائل الآرية فى منطقة شرقى البحر الأبيض المتوسط . وكل ما نعتمد عليه فى محاولتنا
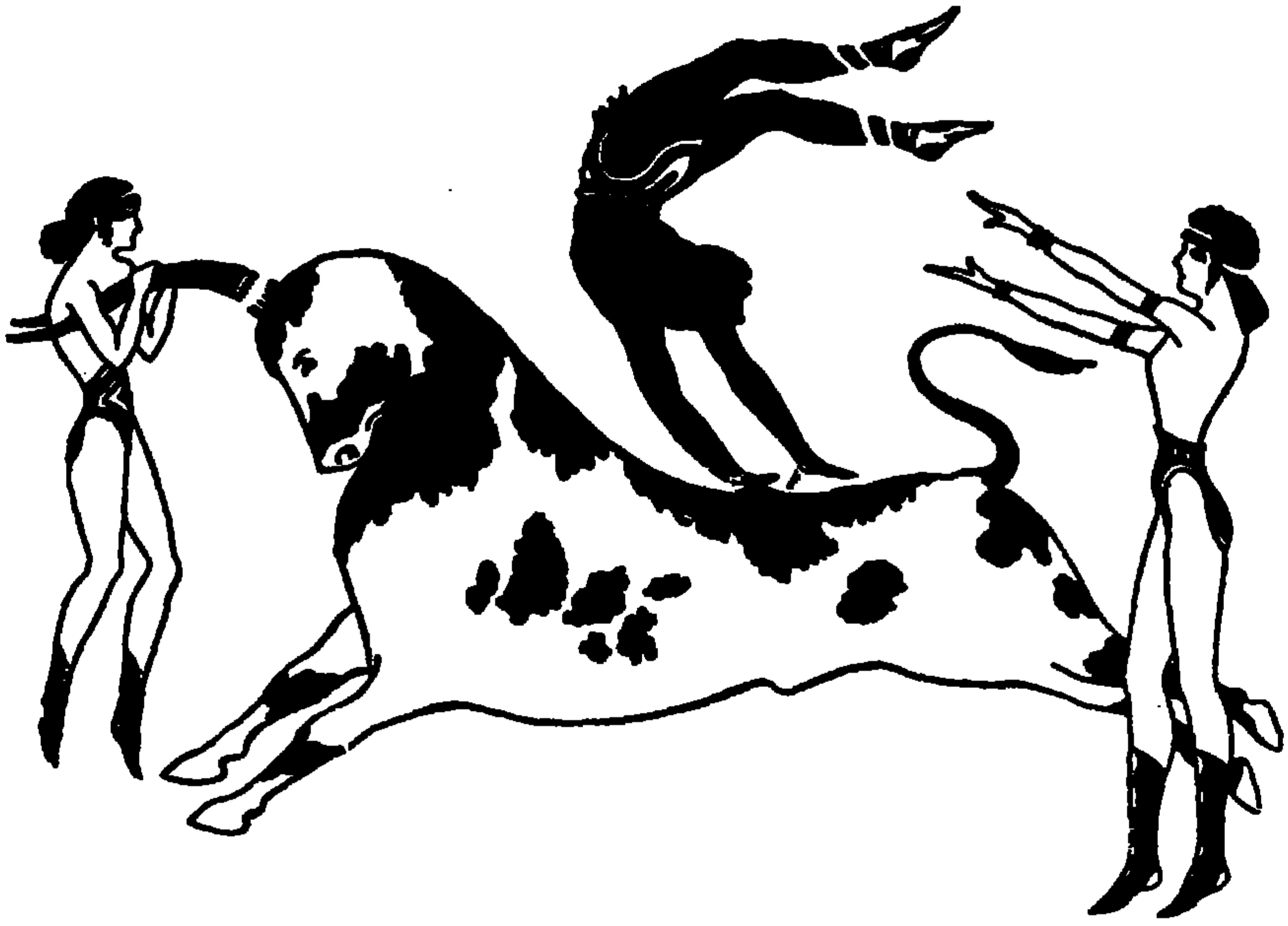
اغراء الثـور

لتصور النظام الحكومى الكريتى لا يعدو بعض الأساطير الاغريقية القليلة المشكوك فيها . وبناء على هذه الأساطير كان الحاكم ملكا . كاهنا يحمل لقب المينوس، وكان يتم اختياره حسب مشيئة الاله زيوس ومن المرجح أن ذلك كان يعنى انه كان يختار على أساس طريقة من طرق عمل القرعة ، وكان يظل فى الحكم لمدة تسع سنوات وفى نهاية هذه المدة كان عليه أن يدخل كهف ديكتايا (Dictaia) الذى قيل بأن الاله زيوس ، قد ولد فيـه ، وهناك كان يقـدم الحساب عن مدة حكمه . فلو أقر زيوس ادارته ، فانه يعود ويحكم تسع سنوات أخرى . واذا لم يقر زيوس ادارته فانه لا يخرج من الكهف . ويبدو أن المينوس لم يكن قائدا حربيا ، ولكنه كان اداريا وقاضيا يحكم بين الناس. ونحن لا نعرف شيئا عن القانون الكريتى ، ولكن من الأمور المحتملة أنه كان هناك نظام قانونى على قدر كبير من التقدم . اذ لا يمكن لحضارة تجارية مثل حضارة جزيرة كريت أن تنتظم أمورها دون أن يكون لها قانون . ولابد

أن هذا النظام القانونى قد أدهش البرابرة الهمج من الاغريق الذين كانوا يعيشون فى أرض القارة لأنهم فى العصور التالية جعلوا من المينوس القاضى الذي اكتملت له الحكمة والذى لا يعرف الفساد اليه سبيلا ، وكان هو الذى يقوم بالحكم فى العالم الآخر .

ولا تلقى الأساطير الأغريقية ضوءا على كريت القديمة فحسب ولكن الاكتشافات الأثرية فى كريت تلقى أيضا ضوءا على الأساطير الاغريقية القديمة. فمن أشهر هذه الأساطير أسطورة ثيسيوس (Theseus) والمينوتور (Minotaur) وهو حيوان خرافى له رأس ثور وجسم انسان . وطبقا لهذه القصة ، عندما عاد ثيسيوس ابن ملك الأثينيين ليطالب بحقه فى ميراثه وجد أن جزيرة كريت قد فرضت على أثينا جزية تتكون من سبعة شبان وسبع عذارى يجب أن يرسلوهم الى جزيرة كريت كلما حل العام التاسع ليطعموا بها المينوتور الذى كان وحشا مفترسا، وجاء الى الوجود نتيجة للصلة الجسدية غير الطبيعية بين أميرة كريتية وأحد الثيران . وقد انشأ ديدالوس ، الفنان الداهية مبنى اللابيرانت ، وكان بناء واسعا جدا وذا تصميم معقد ، كان يعيش فيه هذا الوحش ، وكانت ممراته المعقدة تجعل من الصعب على الضحية أن تجد طريقها الى الخارج اذا دخلت اليه . وأصر ثيسيوس على الانضمام الى أفراد الجزية ، وعندما وصل الى جزيرة كريت استطاع أن يكسب قلب اريادنه (Ariadne) ابنة المينوس . وقبل حلول الليلة التى يقدم فيها الشباب والعذارى للمينوتور ، أعطته سيفا وكرة من الخيط فربط الخيط الى أحد جانبى باب اللابيرانت وأمسك بطرفه الآخر ، وبذلك استطاع أن يجد طريقه الى الباب وأن يقود معه رفقاءه الى خارج اللابيرانت بعد أن التقى بالمينوتور وقتله . واستولى هو ورفقاؤه بعد ذلك على سفينة راسية فى الميناء وأبحروا بها الى أثينا حاملين معهم اريادنه . وفى جزيرة ناكسوس تركها ثيسيوس وهى نائمة على البر واستمر فى طريقه الى مغامرات أخرى .

ولا يكاد يساورنا الشك فى أن اللابيرانت لم يكن الا قصر المينوس ، وهو مجموعة معقدة من المبانى تكفى لتضليل أى رجل أغريقى من أولئك الذين كانوا يعيشون فى أرض القارة فى ذلك الوقت ، ويحتمل أنه لم يشاهد فى حياته أى مبنى يتكون من أكثر من حجرتين ، كما ان المينوتور المتعطش للدماء لا يمكن أن يكون غير الثيران التى كانت تستخدم فى رياضة الكريتيين . وهناك قصة اغريقية أخرى تقل عن الأولى شهرة ولها أساس من الحقيقة مثلها . فطبقا لما قاله كليديموس واقتبسه بلوتارك فى كتابه « حياة ثيسيوس » ، فان الاغريق الذين كانوا يعيشون على أرض القارة وافقوا على الايبنوا أى مركب يتسع لأكثر من خمسة رجال . وبعد عودته بنى ثيسيوس فى السر اسطولا ونزل الى جزيرة كريت وأحرق قصر نوسوس وقتل المينوس وعجل بنهاية تحكم الكريتيين فى رقابهم . ونحن نعلم أن نهاية عصر المينوبين كانت نهاية فجائية تدعو الى الدهشة ، فليس هناك أى دليل على أى نوع من الاستعداد للدفاع قبل أن تحل بهم النكبة وتهوى على رؤوسهم . كانوا يشيدون جزءا جديدا فى قصر نوسوس ، وقد عثر على أدوات العمال ومعداتهم حيث تركوها معدة للعمل فى اليوم التالى . ويبدو أنه أثناء الهجوم تصادف حدوث زالزال دمر بعض أجزاء من القصر ولكن هذا لم يمنع المهاجمين من أن يقوموا بأعمال السلب على أكمل ما يمكن أن يتوقعه الانسان . فانهم لم يتركوا شيئا ، وحتى الأوراق الذهبية التى كانت تغطى بعض الأشياء المصنوعة من الحجر فانهم نزعوها عنها . ويوحى ذلك التوافق بين الزلزال والهجوم بوجود عدو داخلى وربما كان ذلك الهجوم من جراء ثورة قام بها الارقاء ، وعلى أى حال فلا يكاد يساورنا أى شك فى أن ذلك الهجوم كان من عمل قوم من الأجانب. كان انهيار الحضارة المينوية انهيارا كاملا ، ثم طرأ بعد الهجوم تغير ملحوظ فى المظهر الجثمانى الكريتيين كما لو كان ذلك التغير قد نجم عن أن الغزاة قتلوا الرجال الكريتيين واستولوا على نسائهم .

وبعد سقوط نوسوس ، تضاءلت كريت بسرعة فى الناحيتين السياسية والحضارية وضاعت أهميتها ، ولكن جذور حضارتها كانت قد تأصلت فى ذلك الوقت على أرض القارة . ففى وقت ما قبل سقوط نوسوس ، وربما كان هذا بين عامى ١٧٠٠ ــ ١٥٠٠ ق.م. ، وصل غزاة ممن يتكلمون احدى اللغـات الهندية ــ الأوروبية الى شـبه جزيرة اليونان وجعلوا من أنفسـهم طبقـة ارستوقراطية بين القبائل التى كانت هناك فى ذلك الوقت . وكانت هذه القبائل ذات حضارات متنوعة ، وكانوا على مستويات مختلفة من التقدم ، ولكن الاغريق أطلقوا عليهم جميعا فيما بعد اسم « پلازجى »(Pelasgi) ومن الواضح أنهم ساروا على النمط المألوف فى الغزو ، فاستقرت كل عائلة نبيلة من الغزاة فى جهة وكونت لها مقاطعة مستقلة عن غيرها . واستولوا لأنفسهم على الفائض الاقتصادى للجماعات المغلوبة واستغلوه أولا فى بناء قلاع محصنة عظيمـة استطاعوا عن طريقها أن يسيطروا على البلاد المحيطة بها ، تماما كما سـيطر النورمانديون على الايرلانديين من قلاعهم . وكانت هذه القلاع مشيدة بأحجار ضخمة غير منحوتة ثبتـوها فى أماكنها الى جانب بعضها كما تثبت احجـار الفسيفساء ، وهـو نوع العمارة المسماة البناية السـيكلوپية (Cyclopian) وكانت فى العادة تقام فوق تلال صخرية وعرة ، وكانت الأصل الذى تطـور عنه الاكروبول فى المدن اليـونانية بعد ذلك . وكان القصر يشـيد داخـل التحصينات ، وكان بناء صغيرا نسبيا على نمط المنازل الاغريقية المعـروفة لنا من العصور التالية وكانت تسمى « مجارون » (Megaron) ويبدو أنه لم تكن هناك معابد فى ذلك الوقت ، فان مثل هذه المبانى لم تعرف لا فى التقاليد المينوية ولا فى التقاليد الميسينية .

وكان المزارعون الاغريق ، ابان الغزو الذى قامت به القبائل التى تتكلم اللغة الهندية الأوروبية ، متساوين فى الناحية الحضارية مع قاهريهم ، فقد كان الفريقان يعيشان تماما فى العصر البرونزى . وتزاوجت الجماعتان من

بعضهما البعض ، وفى بعض المناطق كان الحكام من العائلات الأصلية فى البلاد يبقون حاكمين فى مقاطعاتهم . ونشأ عن هذا الامتزاج مجتمع جديد تأثر أيضا بالصلة التى كانت لهم مع جزيرة كريت، وكانت نتيجة ذلك كله ظهور الحضارات الميسينية ، التى نرى المرحلة الأخيرة منها مسجلة فى قصائد هوميروس . وفى ذلك الوقت ، كان الاخيون (Achaeans) ذوو الشعور الفاتحة اللون ، والذين كانوا من سلالة الغزاة الفاتحين يقاتلون جنبا الى جنب ويستمعون الى نصيحة أوديسيوس الأسمر الداهية الذى يتمثل فيه العنصر البلازجى القديم .

وقد عثر على بعض أمثلة فاخرة للادوات المعدنية المينوية فى مقابر أرض القارة ، كما استوردوا أيضا الأوانى الفخارية المينوية وبعض أدوات الترف الأخرى . وقام الفنانون الكريتيون برسم جدران القصور فى أرض القارة ولكنهم رسموا عليها مناظر من حياة الموظفين الميسينيين ، ولم يرسموا مناظر الحياة الكريتية . ولهذا نرى النساء فى المناظر المرسومة على الجدران وهن يلبسن أثوابا تشبه مثيلاتها عند الاغريق فى العصر الكلاسيكى ، بينما كان الرجال يلبسون قميصا يصل الى الركبتين وله حزام حول الوسط . ونرى النساء وهن يقمن بأعمال الصيد ويقدن العربات الحربية ، ويقمن كذلك ببعض الأعمال التى كانت تعتبر عادة من اختصاص الرجال. وتوحى هذه الصور، هى وقصائد هوميروس، بالحرية العظيمة التى كن يتمتعن بها وهى حرية تفوق ما كانت تتمتع به المرأة الاغريقية فى العصور المتأخرة . وبالرغم من أنه يمكن أن يفسر بعض ذلك بأنه نتيجة لما ورثوه عن الهندو ــ اوروبيين القدماء ، فان هنـاك أسبابا وجيهة تجعلنا نعتقد أن كثيرا من القبائل البلازجية كانت تتبع نظام الانتساب الى الأم والاذعان لزعامتها ، وربما كانت الاتجاهات التى تولدت عن تلك العادة قد وجدت طريقها الى الحضارة الميسينية . وعلى أية حال ، فان الحد من سلطة النساء فى بلاد اليونان لم يأت الا فى عصر متأخر .

وقد ذهب بعض الباحثين الى القول بأن نظام حكم البنت بعد أمها يوضح

لنا الأهمية التى علقها الاغريق على اختطاف هيلين ، ويوضح لنا السبب الذى من أجله وقف الملوك الأخيون صفا واحدا الى جانب زوجها لمساعدته . كان الأخيون غزاة يتكلمون اللغة الهندو ـ الأوروبية ، هزموا القبائل المختلفة فى شبه جزيرة اليونان وحكموهم بطريقة تشبه تماما الطريقة التى حكم بها النورمانديون قبائل الساكسون فى انجلترا . وفى الحالات التى كانت فيها القبائل تتبع نظام تسلسل النسب من الأم والخضوع لزعامتها كان الغزاة يفرضون أنفسهم على المقاطعة بوساطة الزواج من النساء الوطنيات المنحدرات من أصل ملكى ، وبذلك كانوا يحكمون باسم زوجاتهم ، وكان أولادهم يعتبرون ورثة للمملكة دون منازع ، قد قيل بأن هيلين قد أخذت معها حقوق الوراثة للمملكة وأن « منلاوس (Menelaus) حكم عن طريقها. ولما كان هربها يعنى احتمال قيام ثورة عامة بمساعدة الطرواديين، فقد شعر كل الملوك الأخيين بأن مصالحهم قد أصبحت فى خطر واتحدوا معا ليعيدوها . وهذا طبعا ليس الا ضربا من التخمين ولكنه يبدو أكثر اتفاقا مع مانعلمه عن المبادىء والمثل الأخية أكثر من الرواية الرومانتيكية عن هرب هيلين التى ترويها الأسطورة اليونانية . ولم يترك الميسينيون أية نقوش ويمكن ، على الأرجح ، الحصول على أفضل صورة لمجتمعهم ودينهم من قصائد هوميروس . نرى أن مجتمعهم كان يحتوى على النبلاء وعلى العامة ثم خدم الأرض بالاضافة الى قليل من الأرقاء المملوكين . ولم تكن هناك سلطة عامة تحكم المقاطعات المختلفة ، بل كان هناك شعور قوى بالوحدة بين النبلاء الأخيين ومقدرة على توحيد قواهم تحت قيادة زعيم يختارونه عندما يشعرون بخطر عام يتهددهم . وكانت زوجات النبلاء يدبرون شئون العائلة بل ويقمن بالاشراف على المقاطعة عند غياب أزواجهن . وكانت العادة أن يقتصر الفرد من طبقة النبلاء على زوجة واحدة ، ولكن النبيل كان يتخذ له من الأسيرات ومن بعض النساء اللاتى يختارهن من رعاياه محظيات يعشن بصفة دائمة عنده . وكانت الحرب صراعا بين الأبطال ،

وكان الجنود العاديون يمكثون فى المؤخرة متهيئين للهجوم الى الامام أوللهرب تبعا لفوز واحد من البطلين . ولم يكن من عادتهم أخذ أسرى من الرجال ، ولكن النساء كن يؤخذن كجزء من أسلاب الحرب . وتفهم مما رواه هوميروس أن الأبطال لم يكونوا أبطالا حسب مقاييسنا الحالية ، كما كان الاذعان للنظام معدوما بينهم .

أما عن الدين ، فيبدو أن الأخيين قد اعترفوا بالمعبودات الأوليمبية ، ولكنهم كانوا يقدمون لهم القرابين على مذابح مقامة فى الهواء الطلق . وكان لديهم القليل من التماثيل ، ولكن يبدو أن الاغريق لم يأتوا معهم بشيء منها ، ومن الجائز أن قصة التمثال الحامى لطرواده وسرقته موضوع أسيوى أكثر منه اغريقى . وكانوا يمارسون عادة تقديم القرابين الآدمية بالاضافة الى القرابين الحيوانية . ولم تكن هناك بنايات للمعابد، ولكن الوحى والانباء بالغيب الذى وصل الى تلك الدرجة الرفيعة فى بلاد اليونان فيما بعد ، كان سائدا بينهم . ومن الأمور التى لها دلالتها ومغزاها أن من كانوا ينطقــون بالوحى كانوا فى الغالب من الكاهنات وليس من الكهنة ومن المرجح جدا أنهم نقلوا هذا النظام من البلاجزيين .

وهناك نقطة واحدة هامة لا تتفق فيها المكتشفات الأثرية مـع ما ذكره هوميروس ، وهى الخاصة بالعادات الجنائزية . فلم يعثر حتى الآن فى المنطقة الميسينية على أى مدافن حرق من كانوا فيها بالصورة التى وصفها هوميروس بالتفصيل . ويبدو أن النبلاء كانوا يدفنون اما فرادى فى قبور ينزل اليها عن طريق بئر وبجانبهم قرابين كثيرة ، أو يوضعون فى قبور مشيدة على شكل خلية النحل ، وكانت تستخدمها نفس العائلة لعدة قرون . ومع ذلك فان الطقوس الدينية التى وصفها هوميروس تشبه الى حد كبير مثيلاتها التى كانت تمارس فى وسط أوروبا خلال العصر الحديدى المبكر (عصر هلستات) .

ولسنا متأكدين مما اذا كان الميسينيون هم المســئولين عن نهب نوسوس

والقضاء على السيطرة البحرية لكريت ، وعلى أية حال فمن الأمور الجديرة بالذكر أن بعض الأدوات المصرية التي يرجح أنها وصلت اليهم كهدايا ملكية قد عثر عليها في مناطق ميسينية يرجع تاريخها الى ما قبل حدوث كارثة كريت بوقت قصير . ويبدو من المحتمل جدا أن المصريين كانوا يساعدون الميسينيين ، وأن أسطورة ثيسيوس السابق ذكرها لا تعـدو أن تكون احدى القصص الشعبية التي ظلت في ذاكرة الناس عن الهجوم الميسيني . فاذا كان الامر كذلك، فانهم لم يتمتعوا بثمرة انتصارهم الا لوقت قصير . فحوالي عام ١١٠٠ق.م. اجتاحت شبه جزيرة اليونان جماعات جديدة من الغزاة ، وهم أسلاف الدوريين اليونانيين الذين كانوا أميل الى الحياة الرعوية الكاملة من أسلافهم الأخيين . وفي الواقع، فان الأساطير تذكر أنهم لم يعرفوا أي نوع من الزراعة عند قدومهم. ومع ذلك ، فقد كان لديهم أسلحة وفيرة من الحديد وهذا ما اعطاهم ميزة كبيرة عند غزوهم . ويبدو أنهم كانوا مخربين الى درجة كبيرة وأنهم طمسوا ما تبقى من الحضارة الميسينية على أرض القارة .

وبغزوهم لليونان دخلت البلاد عهدا مظلما في تاريخها انتهى بظهور الأوليمبياد الأول عام ٧٣٢ ق.م. وفي خلال هذا العصر المظلم ، عاشت بقايا من الحضارة الميسينية بين الاغريق الأيونيين (Ionian) على الشاطىء الأسيوي ، ويمكننا أن نتتبع تأثير الفن الميسيني في أشكال الأواني الفخارية الأيونية . وبعد مضي فترة من الزمن وجد هذا الفن سبيله مرة أخرى الى أرض القارة ، ويبـدو أنه لعب دورا هاما في تطور الفن الاغريقي الكلاسيكي ، وخصوصا في رسوم الأواني الملونة . وهناك فضل آخر للحضارة الكريتية . فمن المرجح جدا أن جزيرة كريت قد قدمت الينا أسطورة من أعظم اساطيرنا الخلابة وهي أسطورة الأطلنطيس (Atlantis) المفقودة . وهذه الأسطورة ، كما رواها أفلاطون ، وقد يكون أفلاطون قد عظم من شأنها لأغراضه الرمزية ، ولكن من غير المحتمل أن يكون قد اخترعها اختراعا وأنها من نسج خياله . وطبقا للاسطورة ، فان

المصريين ذكروا لسولون الأثينى (القرن السادس قبل الميلاد) أنه كان يوجد هناك جزيرة تسمى اطلنطيس ، سيطر أسطولها على البحر الأبيض المتوسط وأجبرت أثينا على دفع الجزية ، وتاجرت على قدم المساواة مع مصر ، وأن زلزالا عظيما دمر الجزيرة تدميرا تاما فى احدى الليالى . وفى الوقت الذى خرج فيه الاغريق من العصور المظلمة كان الناس قد نسوا الحضارة المينوية نسيانا تاما . وعندما واجهتهم ضرورة العثور على مكان الاطلنطيس ، كانوا فى موقف لا يختلف عن موقفنا اذا لم تكن لدينا أى وثائق مكتوبة ، وقال لناالاثيوبيون انه كان يوجد ، منذ بضع قرون قليلة مضت ، دولة عظيمة أجبرت كل دول شرقى افريقيا على دفع الجزية لها ، وأنها استولت على مدن فى الهند ، وغزت جزر التوابل وحاربت انجلترا محاربة الند للند ، فانه يصعب أن يخطر على بال الرجل الأمريكى الحديث أن هذه الدولة ليست الا البرتغال الحالية ، وبالمثل لم يخطر ببال الاغريق أن جزيرة كريت هى الاطلنطيس القديمة . ولما كانوا يعرفون جيدا جغرافية البحر الأبيض المتوسط فى ذلك الوقت ، لم يكن هناك مكان واحـد يطابق فى رأيهم ما ورد فى القصة ، فقـد وضعوا موقع الجزيرة خارج أعمدة هرقل (بوغاز جبل طارق) فى المناطق الشاسعة التى لم تستكشف على ساحل الأطلنطى . وفى الواقع ، فان الشذرات البسيطة من المعلومات التى قدمتها لنا الأسطورة عن عادات الأطلانطيين تتفق مع ما نعرفه عن الكريتيين ، وقد تكون الكارثة الأخيرة ذكرى بقيت فى أذهان الشعب عن الزلزال الذى يرجح أنه هز أركان قصر نوسوس وهدمه .

الفصل الرابع والعشرون

بلاد اليونان

انتقلت أوروبا من عصر ماقبل التاريخ الى العصر التاريخى ببزوغ المدنية اليونانية، ولكن من المفيد للاوروبيين أن يتذكروا أن كلا من مصر وبلاد النهرين قد قامتا بهذه الخطوة قبل ظهور المدنية اليونانية بما يقرب من الفى سنة. وبعد القرن السابع قبل الميلاد يتوافر لدينا عدد كبير من الوثائق المكتوبة الكاملة عثر عليها فى مناطق كثيرة فى أوروبا تكاد تشمل القارة كلها . وحيثما تتيسر هذه الوثائق يصبح فى الامكان تطبيق المناهج الفنية فى كتابة التاريخ للتأكد من صحة ما فيها وتحديد تواريخ بعض الحوادث. وليس فى نيتى أن أتعدى فأتكلم كثيرا عن هذه الموضوعات التى درست بمعرفة المختصين دراسة تامة ، بل أشعر بتردد عظيم كلما عالجت الحضارات اليونانية الرومانية من وجهة نظر الانتروبولوجيا. فقد شغلت دراسة هذه الحضارات عددا كبيرا من أعظم العقول المفكرة فى أوروبا قرونا عدة ، وهنالك كتب لا حصر لها تعالج الفلسفة عند الاغريق والرومان ، وقيم الأشياء عندهم ، كما ظهرت كتب أخرى حديثا تعالج نظمهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وأقصى ما سأحاوله هو أن أعطى وصفا مقتضبا لظواهر معينة فى الحضارة الكلاسيكية وهى التى أعتقد أنها لم تعالج معالجة كافية فيما ظهر من مؤلفات بالرغم من أنها كانت ذات أثر قوى على التقدم الحضارى فى أوروبا فيما بعد .

والحقيقة الأولى التى يجب أن يتذكرها القارىء العادى هى أن العصور العظيمة لكل من المدنيتين اليونانية والرومانية لم تكن معاصرة لبعضها على الاطلاق، فان الفترة التى تفصل عصر بركليس (Pericles) عن عصر أغسطس (Augustus) تبلغ فى طولها تقريبا تلك الفترة التى تفصل بين اكتشاف امريكا والوقت الحاضر . وفى الوقت الذى كانت فيه أثينا فى أوج عظمتها كانت روما مجرد قرية صـغيرة ، وكان الرومان أقل بكثير من الناحيـة الحضـارية من الأسيويين الذين اعتاد الاغريق أن يطلقوا عليهم اسم البرابرة غير المتحضرين . وفى الوقت الذى أتم فيه الرومان اخضاع جيرانهم الاتروسكيين(Etruscans) والايطاليين (Italic) وبدأوا يشنون الحرب على المدن الاغريقية فى صقلية كان الاسكندر قد أتم اخضاعه لبلاد الفرس ، وأخذت الحضارة التى كانت مزيجا من الحضارات الاغريقية والآسيوية والتى نطلق عليها اسم الحضارة الهلينيستية تسرع فى استكمال شكلها . وعندما أصبحت روما فجأة وبدون سابق انذار قوة دولية ، كانت هذه الحضارة ثابتة الجذور فى معظم أنحاء العالم المتحضر، وهى الحضارة التى قبلها الرومان لأنفسهم فى تحولهم من برابرة متوحشين الى قوم متمدنين . وبين الحضارة الاغريقية الكلاسيكية من وجوه الشبه الكثيرة أو القليلة وبين الحضارة الهلينيستية مثلما يوجد بين حضارة أسلافنا فى القرن الثامن عشر وبين حضارتنا اليوم . كانت الحضارة الهلينيسنبة هى المسـئولة عن جعل الاغريق والرومان قادرين على الاتحاد مع الأسيويين والمصريين والاقامة معا فيما سموه « اويكومينى » (Oikoumène) التى أصبحت لأول مرة شيئا أكبر من مجرد منطقة جغرافية .

واتسع نفوذ الحضارة الهلينيستية الى درجة تضطرنا للكتابة عنها على حدة. كان الاغريق والرومان فى العصر السابق للحضارة الهلينيستية يختلفون فى نواح كثيرة ، لدرجة أن أى محاولة للحديث عنهما فى وقت واحد لن ينجم عنها الا الارتباك والالتباس . ومن الواضح أن الحضارة الاغرقية هى نقطة البداية لأى

دراسة تتعلق بتطور الحضارة الأوروبية فى العصر التاريخى . ومع ذلك ، فان نفوذ اليونان الكلاسيكيين يأخذ طريقه خلال هذه الحضارة كخيط واحد ذى لون براق أكثر منه خيوطا متشابكة عريضة . ان خيوطها الكبيرة تمتد من روما ، بل حتى الى أبعد من ذلك ، انها تمتد من البرابرة الشماليين الذين استمدوا هم الآخرين حضارتهم من وسط أوروبا .
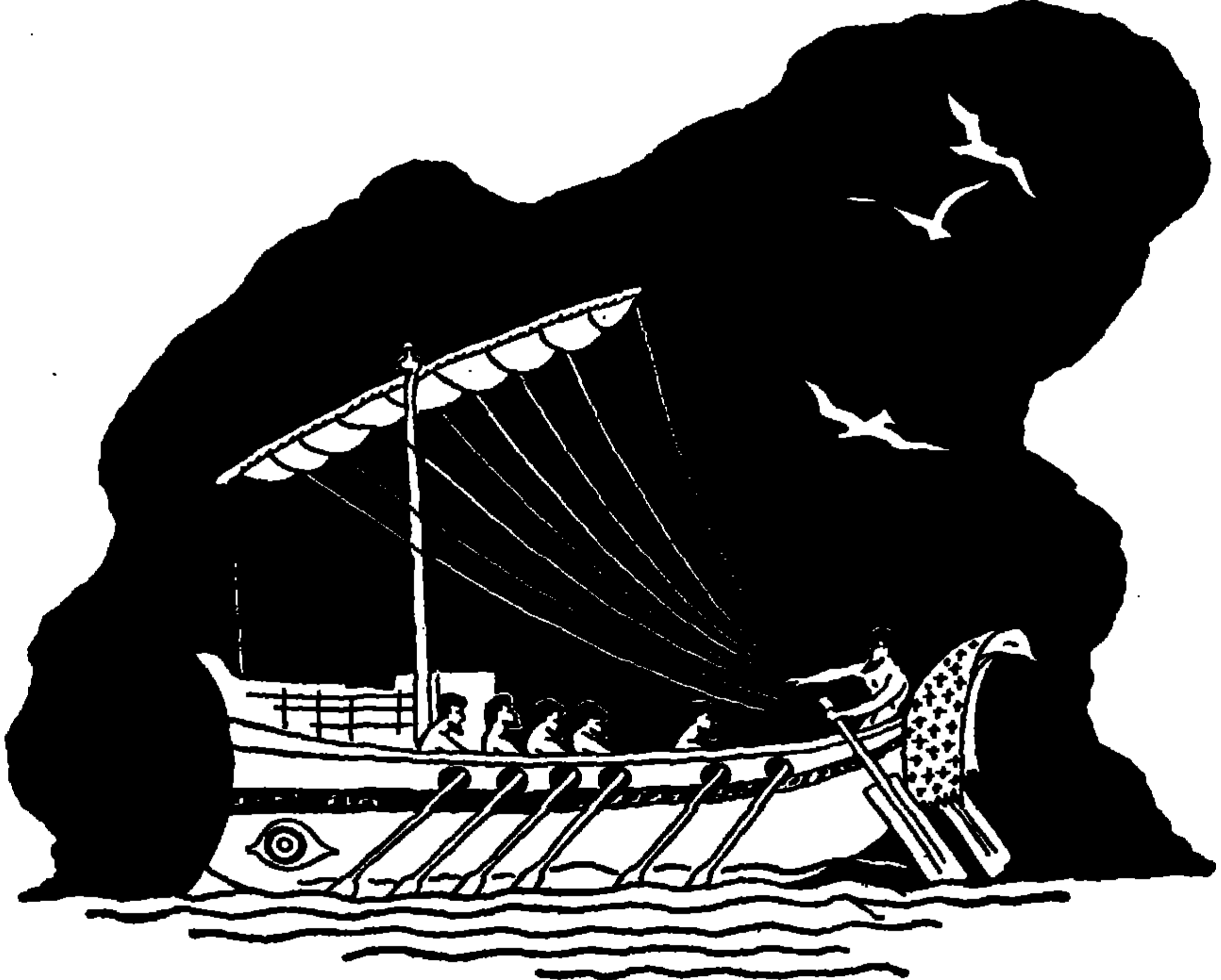
سفينة اغريقية مطوية الشراع

وكما هى الحال دائما ، لا يمكن فهم الحضارة الاغريقية دون الرجوع الى ماضيها وأصلها . وقد تحدثنا قبل الآن وناقشنا موضوعات الشعوب الايچية والكريتيين والغزاة الذين يتكلمون لغة من اللغات الهندية الأوروبية وهؤلاء هم الذين امتزجت دماؤهم وحضاراتهم ثم خرج اليونانيون منهذا الامتزاج. ومع ذلك ، فهناك عنصر آخر أسهم فى عملية المزج هذه بالرغم من أنه تصعب معرفة قدر أهميته . فبعد تدمير قوة المينويين سيطرت على البحر الأبيض

المتوسط قوة بحرية أخرى ، وهى الفينيقيون ، ذلك الشعب السامى الذى تحدثنا عنه قبل الآن . كانت مدنهم الأولى تقع على الساحل السورى ، ولكنهم كأسلافهم المينويين سرعان ما شعورا بالحاجـة الى قواعد بحرية ، فأسسوا مستعمرات فى نقط مختلفة فى غربى البحـر الأبيض ، وكانت احدى هـذه المستعمرات وهى مدينة قرطاجنة مقدرا لها أن تلعب دورا هاما فى التاريخ فى العصور التالية . ففى شرق البحر الأبيض المتوسط كانت المنافسة محتـدمة دائما بينهم وبين الاغريق والمصريين ولكنهم سيطروا على البحار فيما يقع وراء جزيرة صقلية وربحوا كثيرا من استغلالهم للثروة المعدنية فى أسبانيا ، كما قاموا أيضا باستكشاف شمالى وجنوبى الساحل الاطلنطى حتى وصلوا الى الجزر البريطانية .

وانحصر اهتمام الفينيقيين فى التجارة والربح ولم يهتموا الا قليلا بالادماج السياسى ما لم يتدخل احد فى شئون التجارة ، ولم يعترضوا على أن يصبحوا جزءا من الامبراطوريات العظيمة التى ظهرت واحدة بعد الأخرى فى غـرب آسيا. ولم يترك الفينيقيون الا القليل من الوثائق، كما أن المعلومات التي ذكرها الرومان عن حضارة قرطاجنة لا يمكن الاعتماد عليها لأنها لا تعدو أن تكون دعاية عدو كانوا فى حرب معه. وكان دورهم الرئيسى فى تطور حضارات اليونان وبلاد منطقة البحر الأبيض المتوسط لا يعـدو أن يكون دور الوسـطاء بين آسيا وأوروبا ، وكان أعظم ما أسهموا به فى الحضارة الاغريقيـة هى الحروف الأبجدية ، وهى اختراع سامى . وكرجال أعمال مهرة سرعان ما أدركوا الفوائد التى تعود عليهم من وجود نظام بسيط للكتابة يجعلهم يستغلون عن وجـود الكتاب المحترفين . فقد اختفت من الوجود معرفة الكتابة المينوية فى اليونان ابان عصور الظلام التى تلت سقوط جزيرة كريت ، وطبقا للاساطير الأغريقية، فان كادموس (Cadmus) الفينيقى هو الشخص الذى أدخل اليهم هذا الفن . وهذا ثابت كل الثبوت فان الحـروف الأبجدية الاغريقية مأخوذة من الحروف

الأبجدية الفينيقية .

وفى اليونان ، وجدت الكتابة بالحروف الأبجدية وسطا ملائما جدا فقد استطاع التجار الاغريق أن يقدروا الفوائد المباشرة لهذه الطريقة ولكنهم جمعوا الى اهتمامهم بمصالحهم فى التجارة اهتماما آخر بعدد كبير من الأشياء الأخرى فضلا عن حب الاستطلاع الذى كان يعوز الفينيقيين . كان الاغريق يحبون البحث عن الأشياء الجديدة وأن يخبروا أكبر عدد ممكن من الناس عن هذه الأشياء . زد على ذلك ، أن دينهم كان بسيطا وغير منظم نسبيا ، ولم تكن لديهم طبقة قوية من الكهنة حتى تستولى لنفسها على تلك المهارة الجديدة .

وفى اليونان أفلتت الكتابة أخيرا من قبضة كل من المتجر والمعبد وأصبحت وسيلة للتبادل وحفظ الأفكار . ولم تكن الحضارة الاغريقية مختلطة فحسب، ولكنها احتوت على ما قد يسميه البيولوجيون قوة التهجين ، وقد أخذ الاغريق من كل حضارة كما أعطوها أيضا . وتدين كل الحضارات ، بالكثير مما فيها للاستعارة ، وليس من العار على الاغريق أن يستفيدوا من الفرص غير العادية التى أتاحها لهم كل من الزمان والمكان . فقد قضى قيام الامبرطوريات الأسيوية على النظم القديمة التى كانت تسمح بالعزلة القبلية فى مساحات واسعة ، وترتب على ذلك ظهور رغبة لا تنقطع فى الحصول على الجنود المرتزقة . وفى عصور الظلام التى مرت بهم ، كان الاغريق يتجولون فى جميع أرجاء الشرق الأدنى وخدموا فى الجيوش المصرية والجيوش الاشورية، وجيوش دول أقل من المصريين والأشوريين شأنا . وما جاء العصر الكلاسيكى حتى كانوا يسافرون ليشبعوا فضولهم فقط ، تماما كالسائحين فى عصرنا الحاضر ، بينما كان فلاسفتهم ، الذين كانوا أيضا رجال العلم فيهم ، يوثقون بحماسة شديدة علاقاتهم مع الأشخاص الآخرين الذين يهتمون بالعلوم التى يهتمون بها فى كل البلاد التى كانوا يزورونها . ويمكن للانسان أن يعقد مقارنة للتشابه بين هؤلاء الرحالة المبكرين من الاغريق وبين ما كان يفعله رحالة

اليابانيين فى القرن التاسع عشر وفى بداية القرن العشرين . وبينما كانوا يؤمنون تمام الايمان بتفوقهم على سائر الناس فانهم كانوا يدركون تمام الادراك أنهم كانوا أقل من غيرهم فى بعض النواحى ، وكانت عندهم رغبة ملحة للتعلم فاقترضوا من غيرهم دون خجل ، ولا يكاد يوجد شىء فى الحضارةالاغريقية الكلاسيكية لا يمكن ارجاعه الى أصول خارجية . والعنصر المميز للاغريق هو طبيعة المرونة وسعة الخيال فى العقلية الاغريقية ، ولهذا فان الأفكار التى كانت تتجمع الى بعضها البعض فى عقلهم يمزجونها ويخرجون منها بنتائج جديدة وغير متوقعة .

وأسهمت كل حضارة من الحضارات القديمة بنصيبها . فقد أدهش المصريون رحالة الاغريق بعظمة مبانيهم ، وأدهشوهم قبل كل شىء بما قالوه من أن مدنيتهم أزلية فى قدمها . كان المصريون ينظرون الى الاغريق على أنهم قوم حديثو النعمة ومسلون ، وقد وافق الاغريق الذين نسوا اسلافهم المينويين دون خجل على هذا الرأى . وفى نفس الوقت لم يكن للآلهة الذين على هيئة الحيوانات، وذلك الاضطراب الحتمى وغير المنطقى الذى تتسم به الديانة المصرية، الا نصيب قليل من اهتمام الاغريق الذين كانوا يمتازون بأنهم منطقيون ممتازون ولم يتأثروا كثيرا بمزاعم الكهنة المصريين بأن هذه الأشياء تخفى أسرارا عميقة، كما أن النظام السياسى المصرى وملكهم المؤله لم يتفق هو الآخر مع القيم الاغريقية . وبالرغم من أنهم قد تعلموا ما استطاعوا أن يتعلموه من علماء الفلك ورجال الرياضة المصريين فان الزمن قد أظهر أن هذه العلوم أقل من علوم بلاد ما بين النهرين ، بينما تجاهلوا الناحية التكنولوجية التى تفوق فيها المصريون على اعتبار أنها أمور أقل من أن يلتفت اليها الرجل المهذب . ومن ناحية أخرى لقى الفن المصرى ، بما فيه من قوة فى رسم الأشخاص والحيوانات ونجاحه فى تصوير الحركة ، قبولا كبيرا منهم وأثرا فى نفوسهم ، ويمكننا أن نتتبع الأثر القوى للفن المصرى فى تطور الفن اليونانى وخصوصا فى فن النحت .

وفى بلاد ما بين النهرين وجد اليونانيون أحد العلوم التىاستطاعوا تقديرها بالاضافة الى نظرية آلية الكون التى كانت تتفق تماما مع نظرتهم التشككية فيما يختص بمدى وطبيعة التدخل الالهى فى أعمال الانسان . ورجعوا من علاقاتهم مع بلاد ما بين النهرين بمعلومات متقدمة كثيرا فى علم الفلك والعلوم الرياضية ، وقد كان كل منها محررا من قيود لكهنة وسيطرتهم . وأدت هذه العلوم الى اتساع كبير فى آفاق الفكر الاغريقى ، وعندما اقترنت بميل الاغريق العظيم الى الظواهر الطبيعية والسلوك الحيوى أمكنهم أن يقدموا لنا الفلسفة اليونانية بما فيها من تشكك ضرورى فى خضوع الكون لرغبة الآلهة ، وما فيها من المبالغة فى فضل الاغريق على العلوم فيما تلا من عصور .

والسبب فى نسبة المقدرة العلمية العظيمة للاغريق يرجع قبل كل شىء الى أن دراسة الفلاسفة الاغريق تكشف فى مكان أو فى آخر عن تخمينات تشير الى معظم المكتشفات فى العلوم الحديثة . ومع ذلك ، يجب أن تتذكر أن هذه كلها مجرد تخمينات وانهم توصلوا اليها كأجزاء من نظم منطقية ، ولم تستند بالمرة الى ما يمكن أن نعتبره دليلا علميا . ولو أخذ المرء مجموعة النظريات « العلمية » التى رأى الفلاسفة المختلفون أن يضمنوها ما حاول كل واحد منهم أن يجعله تفسيرا شاملا للكون ، لوجد أن نصيب اليونان نصيب ضئيل . لأن كل اقتراح أثبت العلم فيما بعد أنه اقتراح صحيح ، يوجد فى الوقت ذاته على الأقل اثنا عشر اقتراحا ثبت فيما بعد أنها خاطئة .

وكانت الحاجة التى شعر بها الآباء المسيحيون المبكرون لايجاد تفسير لنظام للكون ، والى علم اللاهوت والأخلاق ، احدى النتائج الفرعية المضادة لأولئك الفلاسفة اليونانيين . فبدون وجود بعض التفسيرات للكون ، كان المسيحيون يجدون أنفسهم فى موقف غير ملائم فى منافستهم للفلسفات التى كانت أعظم منافسيهم خطرا فى نضالهم لكسب الأقلية المتعلمة ، أى أن وضع الأسس الحديثة فى بحثنا عن العلوم يدين بوجوده لنظام يقوم على العلوم الوثنية

غير الصحيحة .

وفى مدينة الاسكندرية فى نهاية العصر الكلاسيكى، توصل اليونانيون،فيما يبدو ، الى بعض الخطوات البسيطة فى الاتجاه العلمى الصحيح الذى يقوم على التجارب والملاحظة . ومع ذلك ، كانت طريقة التفكير اليونانى برمتـه تعانى من نقص واحد لا يمكن علاجه . فقد كان الرجل اليونانى العادى يفضل دائما الحديث أكثر من العمل ، وكان الفيلسوف اليونانى يعتقد أن الحقيقـة النهائيه فى أى موقف يمكن التوصل اليها عن طريق المحاورة الكلامية . ولم يستطع اليونان أبدا أن يقدروا التمييز بين الحقيقة الصريحة وبين رمزها اللفظى، وهو أمر يصعب علينا أنفسنا أن نقدره . واليونانيون هم مخترعو الطريقـة التحليلية ، التى تتحطم بمقتضاها ترتيبات الظواهر الطبيعية حتى يمكن لأجزاء معينة منها أو لبعض تلك التشكيلات أن تعزل من الناحية التصورية ، وأن تدرس على حدة . ولم يستطيعوا اطلاقا أن يدركوا أهمية تلك التشكيلات فى حد ذاتها أو أن يتفهموا ان العلاج المنطقى للافتراضات القائمة على قليل من هـذه العوامل ، قـد يقـود المنطقيين نظرا لعوامل متعددة فى نهاية الأمـر بعيدا وبعيدا عن الحقيقة . والباحث العلمى الحديث يجمع من المعلومات كل ما يستطيع ، ويتطور بنظرياته تطورا منطقيا على أساس هده المعلومات ، ثم يمحصها بعد ذلك بالطريقة التجريبية أو بأى طريقة أخرى يرى من الضرورى الاستعاضة بها عن التجارب . وقد كان الفيلسوف اليونانى يبدأ وليس لديه الا معلومات قليلة ، ثم يتطور بنظرياته بتطبيق المنطق وبعد ذلك يتوقف .

ولا شك فى أن هذه الترتيب كان مرضيا للفيلسوف الاغريقى لأنه كان يعتقد أن الحقيقة توجد على مستوى مختلف عن ذلك المستوى الذى نعترف به . ومما ذكره أفلاطون قوله بأن الحقيقة الخالصة ورمزها اللفظى متساويان تقريبا. ولسوء الحظ فان هذا الرأى عن الحقيقة لا يمكن تطبيقه عند تمحيص العالم المادى ، ولكن ذلك لم يزعج الاغريق أو يهتموا به . ان موقف الشخص المثقف

اليونانى تجاه التقدم التكنولوجى تمثله خير تمثيل الفقرة الآتية من بلوتارك(١).

« ان هذه الآلات التى صممها واخترعها أرشميدس ليس لها من أهمية كبيرة . ولكنها مجـرد تسلية فى علم الهندسـة واستجابة لرغبة ورجاء الملك « هيرو » (Hiero) قبل ذلك بوقت قصير فى أنه يجب أن ينفذ جزءا من تأملاته العجيبة فى العلم ، وأن يلائم الحقيقة النظرية مع الاحساس والاستعمال العادى وأن يقربها من تقدير الشـعب بوجه عام . كان ايودوكسوس (Eudoxus) وأرخيتاس (Archytas) أول المخترعين فى هذا الفن الميكانيكى ذى الشهرة الذائعة والتقدير العظيم ، وقد استخدماه كتصوير دقيق للحقائق الهندسـية وكوسيلة للوصول عن طريق التجربة لارضاء الحواس ، وللوصول الى نتائج بلغت من التعقيد حدا جعلها لا يمكن اثباتها بوساطة الكلمات والرسوم .. ولكن ماذا يقوله عن غضب أفلاطون وتهجمه عليها وقوله بأنها مجرد فساد وتحطيم للشىء الوحيد الحسن فى الهندسة التى أصبحت تدير ظهرها بازدراء للاشياء التى لا تشملها والتى تقوم على الذكاء الخالص لتعود للاحساس، وتطلب النجدة (وهى لا يمكن الحصول عليها دون اشراف منحط وفساد) من المادة، وهكذا انفصلت الميكانيكا عن الهندسة ، فلما رفضها الفلاسفة وأهملوها ، احتلت مكانها كفن عسكرى » .

وانعكس أثر هـذا الاتجـاه فى التـكنولوجيا اليونانية ، وحتى العصر الهلينيستى كانت تمتاز بالكمال المتزايد فى المهارة اليدوية . كما امتازت أيضا بعدم التوصل الى أى اختراع رئيسى بل انهم لم يضيفوا شيئا الى الاختراعات التى استعاروها والتى كان من الممكن أن تغير النظم الفنية الموجودة تغييرا

---

(١) Plutarch: "The Life of Marcellus" In the Lives of the Noble Grecians and Romans. Translated by John Dryden and revised by Arthur Hugh Clough. New York: The Modern Library; 1952, p. 376.

أساسيا . ولهذا لم يقتبس اليونانيون العقد والقبة اللذين كانا معروفين منذ آلاف السنين فى المبانى فى بلاد الشرق الأدنى ، بالرغم من ميزاتهما العمليــة الواضحة فى أغراض كثيرة . وأعظم ما أدخلوه من تغيرات ثورية فى فن العمارة عندهم منذ أواخر العصر الميسينى هو استبدال الخشب بالحجر فى مبانيهم العامة ، وحتى فى هذه الناحية احتفظ اليونانيون فى الغالب بالأشكال التى كانت معروفة فى المواد القديمة ، وكانوا يقلدونها تقليدا أعمى . وفى نفس الوقت بلغت مهارتهم فى العمل بالأساليب الفنية الموجودة لديهم درجة عالية تثير الدهشة . وهذبوا الاشكال الهندسية التى كانت فى أصلها بدائية الشكل حتى أصبحت ذات نسب كاملة التوازن ، وفيها كثير من تلك النعومة مثــل التى نشاهدها فى أعمدة البارثنون (Parthenon) التى تبــدو فيهــا الجوانب منحنية قليلا الى الخارج فتخدع بصر الناظر اليها ويعتقد أنها خط مستقيم مستمر من القمة حتى القاعدة .

وقد نسب بعض العلماء هذا النقص الرئيسى فى التغيرات التكنولوجية الى كثرة وجود الأرقاء الذين كانوا يقومون بمثل تلك الأعمال فى العصر الكلاسيكى لبلاد اليونان ، ولكن الكمال الذى بلغته التكنولوجيا فى داخل حــدودها لا يتفق مع مثل هذا الادعاء . فالمهندسون الذين صمموا الأبنية الاغريقيــة لم يكونوا بالتأكيد من بين الأرقاء ، وعلى الأقل فمنذ البداية حتى جاء عصر بركليس كان معظم الصناع الفنانين من الرجال الأحرار . ولو كان رؤساء الصناع المحترفين الذين صمموا النسب الكاملة للفخار الاتيكى (Attic) وقاموا بزخرفتها الرشيقة كانوا من الأرقاء ، فقد كانوا على أقل تقدير عبيدا يفخرون عن جدارة بحرفتهم ، كما كان لهم جمهور يقدرهم . والحقيقة هى أن اليونانيين كانوا يتجهون باهتمامهم نحو نواح أخرى . فالسادة المهذبون ، كان اهتمامهم الأكبر موجها على الارجح نحو الحرب والفلســفة ، بينما كانت الســياسة تملك على جميع اليونانيين مشاعرهم بصرف النظر عن الطبقة التى

ينتمون اليها .

ويجب أن تكون النظم الاغريقية السياسية ذات أهمية خاصة بالنسبة لنا ، لأن دويلات المدن اليونانية واجهتها بعض المشاكل التى تشبه تلك التى تواجه ادارات البلديات عندنا اليوم . وفى كلتا الحالتين فانأى حضارة نمت وتطورت تحت ظروف ريفية وقروية ، وورثت نظما تضفى قيمة كبيرة على الاستقلال الشخصى والروح الابتكارية للفرد ، فان هذه الحضارة نفسها تجابه مشكلات الحياة فى المدن والتغيرات البعيدة المدى فى الكيان الاقتصادى . لم تظهر المدن الحقيقية فى بلاد اليونان الا قبل العصر الكلاسيكى بوقت قصير ، وقد سبق أن قلنا ان اليونانيين الكلاسيكيين كانوا يعيشون بصفة رئيسية عن طريق تصدير كل من المصنوعات ومنتجاتهم الزراعية الخاصة من زيت ألزيتون والخمور ، وأن استبدال الزراعات اللازمة للاستهلاك الحيوى بزراعة محصولات لأجل التصدير كان دائما أمرا صعبا على المالك الصغير الذى كان يجد نفسه تحت رحمة الوسيط التجارى . وبالرغم من أن اليونانيين الكلاسيكيين لم يعرفوا المزارع الكبيرة التى كان العبيد يقومون بالعمل فيها كما فعل الرومان فيما بعد ، فان كثيرا من الزارعين فقدوا ماكانوا يملكونه من أراض . وكان هناك تركيز مستمر للسكان فى المدن وقد نتج عن ذلك تدهور صلات القربى التى كانت مرعية من قبل ، وزيادة احتمال عدم الاهتمام بالأفراد كما هو حادث بيننا الآن .

وحاول الاغريق أن يتغلبوا على جانب من هذه الصعوبة بسن قوانينهم الصارمة الخاصة بحقوق المواطن التى قصرت حق الانتخاب على الأفراد الذين ولدوا من أبوين مواطنين أو أولئك الذين منحوا حق المواطنين . وكان هذا نادر الحدوث فقد كانت كل مدينة تحتوى على عدد كبير من الاجانب الذين كانوا أشخاصا محترمين ولهم نفوذهم بين الناس ، ولكن لم يكن يسمح لهم بالاشتراك فى الحكومة . ولما كان عدد الأفراد من الكثرة بحيث

لايمكن للمواطنين أن يعملوا كوحدة وجها لوجه ، ومع ذلك ففى مــدن فى حجم أثينا وكورينث ، فان أى مرشح للمنصب كان معروفا شخصيا لعــدد كبير من الناخبين ، بينما كانت حياة المرشح معروفة جيدا للجميع . وجعــل تحديد حق الانتخاب مشكلة الحكومة النيابية بسيطة ولكن هذا التبسيط كان يقف فى سبيله انخفاض فى مستوى التعليم بين معظم الناخبين ،ويقف فى سبيله أيضا الشخصية السائدة لدى اليونانيين ، تلك الشخصية التى كانت تجمع بين فردية ذات عواطف عارمة وبين غيرة جارفة .

واعتبر نظامهم الحضارى أن الاشتراك فى السياسة ليس امتيازا أو حقــا خاصا فقط ، ولكنه فرض واجب على المواطن . ويبدو أن المواطن الاغريقى كان يمضى معظم وقته ونشاطه فى النقاش السياسى ، وفى تدبير المؤامرات التى لايمكن فصلها عن السياسة ، واقترنت بذلك حركة لبعث الولاء والعــاطفة القوية نحو الجماعة ، تلك العاطفة التى كانت تميز القبيلة البدائية ، ومحاولة ادخال هذا الولاء الى حياة المدينة . ولم يخطر ببال أى مؤلف للدراما اليونانية أن يفكر فى أن تمثل مسرحية جديدة له فى أى مدينة غير مدينته. وحتى الفنانون والكتاب كانوا يؤمنون بأن واجبهم يفرض عليهم أن يعطوا مدنهم الثمرات الأولى من عبقريتهم ، وكانوا لايذهبون الى أمكنة أخرى تكون أفضل لهم الا عندما تنبذهم مدنهم أو عندما تكون عبقرياتهم قد اعترف بها الجميع ، وانهم بذهابهم يضفون الشهرة على مدنهم الاصلية .

وبدأ تطور معظم حكومات المدن الاغريقية بالنظام الهندى ــ الأوروبى القديم الذى يتمثل فى وجود ملك ومجلس قبلى يحتــل الأماكن البارزة فيه رؤوس العائلات النبيلة . ولكن المناقشة فيه كانت حرة ، وكان لأى رجل من القبيلة الحق فى أن يقول مايريد . وكان الملك قبل كل شىء قائدا حربيــا وأداة لتنفيذ قرارات المجلس ، ولم يخطر على باله أن تكون له صفة الهية ، بل ان وظائفه الكهنوتية كانت غير هامة .

وبقيام الحضارة التجارية الجديدة فى المدن تبخرت سلطة الملك والنبلاء ، وأخلت السبيل أمام حكومة الخاصة (الاوليجارشية) التى سيطر عليها الذين أثروا حديثا (محدثو النعمة) . وجاء بعد حكومات الخاصة حكومات شعبية (ديموقراطية) سرعان ما سيطر عليها الزعماء من الشعب . وفى النهاية قد يقبض رجل قوى على ناصية الأمور ويحكم كملك ولكنه كان يتجنب دائما كما هى العادة ، كل المظاهر الملكية ويكون مركز مثل هذا الرجل مشابها تقريبا لمركز زعيم هيئة سياسية منظمة فى مدينة من المدن الأمريكية الحديثة . وبالرغم من أنه كان يحتفظ بكل المظاهر الخارجية للديموقراطيةعادة ، فانه كان يجمع كل السلطات فى يده . وأطلق الاغريق على زعماء هذه المدن كلمة « تيرانوس » (tyrannos) (وأصل معناها سيد) وهى الأصل فى كلمة طاغية ، بالرغم من أنها فى الأصل لم تكن تحمل فى معناها الظلم والقسوة التى تدل عليها الآن عند ذكرها . كان « الطاغية » الأول فى أى مدينة من المدن ، فى معظم الحالات ، حاكما قديرا رحيما ، ولكن بعد مضى فترة من الزمن قد يصبح أحد خلفائه قاسيا وظالما ، وعند ذلك يقوم العنصر الأفضل فى المدينة بطرده ويقيم حكومة من الخاصة (حكومة أوليجارشية) وهذه بمضى الوقت تترك مكانها لحكومة ديموقراطية ، والحكومة الديموقراطية تترك مكانها لطاغية آخر . وعرف الاغريق هذه الدورة واعتبروها نوعا من الظواهر الطبيعية التى يمكن تأجيلها ولكن لايمكن تجنبها .

والى جانب ذلك بدأ الاغريق يعملون دساتير مختلفة ولكن لم يستمر واحد منها ناجحا فى تطبيقه لمدة طويلة جدا . كانوا يعتبرون وضع الدستور جزءا من التخطيط المتقدم الذى كان جزءا من تأسيس مدينة جديدة ،وتمثل هذه الدساتير أقصى ماوصلت اليه النظرية السياسية الاغريقية . ولسوء الحظ ، كان من النادر أن يستمر العمل بها لأى فترة طويلة . فلم يكن أى واحد منها كافيا نضمان نجاح الأعمال المدنية فتكون ذات أثر فى استقرار

الأمور . وكان الاغريق شأنهم فى أى شيء آخر ، تزعزهم الخسارة وتربكهم ، وكان من السهل على المرشحين المنهزمين أن يشعلوا نيران الثورة ، وكان هذا هو السبب فى وجود قانون المنفى الذى كان يقضى بنفى المرشح الخاسر خارج المدينة لفترة قد تمتد الى أعوام .

وفى ناحية واحدة على الأقل ، كانت المدن الاغريقية أسعد حظا من المدن الرومانية التى أتت بعد ذلك . فلم يكن فيها رعاع أو عاطلون يمكن ان يكونوا تحت طلب وأمر أى سياسى يريد أن يخلق الاضطراب ، وفى العصر الكلاسيكى كان لابعاد المواطنين أثره فى منع ذلك . ولاشك أنه كان هناك عدد كبير من المواطنين الفقراء ، ولكنهم لم يكونوا من الكثرة بحيث يكونون مصدرا للمتاعب كما كانوا فى عهد الرومان . وقبيل العصر الكلاسيكى وخلال معظم أيام العصر الكلاسيكى ، كانوا يعنون بأمر السكان الفقراء الزائدين على الحاجة الذين اجتذبتهم المدينة من القرى المجاورة ، وذلك بتأسيس مدن جديدة . وكان معظمهم يسكنون فى غرب البحر الأبيض المتوسط وخصوصا فى جنوب ايطاليا وهى المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم اليونان العظمى (Magna Graecea)

ولم تكن القدرة على انشاء مستعمرات فى أماكن صالحة فى حد ذاتها ، عملا حضاريا قليلا ، ومن الواضح أن وحى دلفى (Delphi) كان مركزا لتحليل الأنباء عن الأماكن الميسورة . فاذا رغبت مدينة من المدن فى تأسيس مستعمرة جديدة فانها كانت تستشير الوحى ، وكان الكهنة يحصلون على المعلومات الفياضة من العملاء الآخرين ويقترحون أفضل مكان ، وكان المستعمرون الجدد ينتخبون من بين المواطنين الذين يتطوعون للذهاب ، وكانوا يزودونهم بالأدوات والمؤونة اللازمتين لمساعدتهم الى أن يستطيعوا أن يزرعوا ويجنوا حاصلاتهم ، كما كانت المدينة الأم تساعدهم الى أن يستطيعوا أن يسدوا حاجتهم بأنفسهم . وبالرغم من أنه لم يكن هناك رباط دائم بين المدينة

الابنـــة وبين المدينة الأم ، فانه كانت هنـــاك عاطفة قوية تربط بينهما . وكرمز لاستمرار تلك السلطة ، كانوا يحملون النار المقدسة عادة من المدينة الأم ، ويشعلون النيران الأولى فى المحلة الجديدة . وأصبحت بعض هـــذه المـــدن الجديدة أكثر ثروة وأكثر سكانا من المدن الأصلية فى الأراضى الاغريقية ، ولكن كان ينظر اليهم ، كما كانوا ينظرون هم الى أنفسهم فى النواحى الفنية والفـــكرية ، كريفيين ، وكان أى اغريقى مشـــهور يقوم برحلة الى تلك المستعمرات على ثقة من الربح كأى أديب انجليـــزى شـــهير يزور الولايات المتحدة الأمريكية .

ومن الصعب علينا تتبع تطور النظام الاستعمارى الاغريقى ولكن ممـــا لا شك فيه أن وجود قبائل غير متحضرة ولكن غير معادية الى الغرب منهم ، كان مصدرا لارباح عظيمة للتجار الاغريق . وعلى أى حال فان نقل بضـــع مئات من السكان واسكانهم فى مكان آخر عند تأسيس المدينة الجـــديدة كان أمرا مختلفا تمام الاختلاف عن مجرد انشاء مراكز تجارية ، لأنه كان يتطلب عناية كبيرة فى الاعداد ، كما نعرف ذلك من الفشل الذى لاقـــاه تأسيس كثير من مستعمرات الهجرة الأمريكية . وكان الفينيقيون ينشـــئون أيضا مراكز لمستعمرات يهاجرون اليها فى الفترة مابين عامى ١٠٠٠ و٧٠٠ ق.م. بالرغم من أنهم ، فيما يبدو ، كانوا أقل نظاما عما كان عليه الاغريق ، ومـــن المحتمل أن الاغريق قد حذوا حذوهم .

ولكن الأكثر احتمالا هو أن كلا من الاغريق والفينيقيين قد تعلموا مايلزمهم من الطرق الفنية فى هذا الأمر من صلتهم بالمينويين الذين أشرنا الى قواعدهم البحرية فى فصل سابق . وكان الأشوريون أيضا يقومون بمشروعات كبـــيرة لاعادة اسكان الشعوب وقد فعلوا ذلك خلال فترة طويلة من تاريخهم كجزء من سياستهم التى كانت تهدف الى تكوين امبراطورية ، وربما استعار الاغريق منهم بعض طرقهم الفنية فى هذا المضمار .

وهناك نتيجة أخرى لعملية تكوين المدنية الاغريقية يتحتم علينا ذكرها لأنها أثرت تأثيرا هاما على نواح معينة من حضارتنا . فبالرغم من أن كل مدينة اغريقية فى ذلك العصر كانت تحتوى على معابد للآلهة الأوليمبية ، وأنها كانت تنتخب واحدا منها كحارس لها وتخصه بولائها فانهم اتخذوا عبادة هذه الآلهة كعذر لاقامة الاحتفالات الصاخبة التى أصبحت هى والشعائر الدينية مصدرا يمد المشتركين فيها والمشاهدين لها بالاحساس بالجمال أكثر من ارضاء الناحية الروحية فيهم . وقد قيل ، وربما كان ذلك صحيحا ، أن الآلهة الاوليمبية ماتت وانتهى أمرها بعد معركة سالاميس .

ومن ناحية أخرى أصبحت العادات الدينية ، التى كانت فى الأيام السابقة للهندو ــ أوروبيين ، أكثر تأصلا وأصبح لها معنى جديد عندما احتكت بالحياة فى المدينة . ان ماكان يسمى شعائر دينية وما كان يصاحبها من استهتار تهتك ، وهو ماكانت تمتاز به كثير من ديانات منطقة البحر الأبيض ، أعادوا تنظيمها من جديد ، واتخذت لها صورة جاوزت معناها الأصلى المحلى وأصبحت ديانات سرية غامضة . كان سكان المدينة وخصوصا أولئك الافراد الكثيرين الذين كانوا يعيشون فى مدن لم يكن لهم فيها حقوق المواطنين ، يشعرون بحاجة ملحة الى وسيلة من الوسائل يستطيعون بمقتضاها أن يقيموا علاقات مع غيرهم الذين يعيشون فى ظروف مثل ظروفهم ، اذ من الواضح أن الجنس البشرى فى حاجة ملحة لاقامة علاقات اجتماعية ، وأن يصبح الناس أعضاء فى جماعات مستقلة . ولو نظرنا الى الموضوع من هذه الزاوية ، نرى أن قيام تلك الأديان الغامضة التصوفية ليس الا نتيجة لنفس الفشل الذى أدى الى ذلك التعدد الكبير فى المنظمات على اختلاف أنواعها فى مجتمعنا الحالى ، وحيثما يتمكن التوسع وسرعة الحركة فى المجتمع من تحطيم الجماعات التى تربط بينها وشائج القرابة أو الروابط المحلية ، تظهر نظم أخرى لتحل محلها.

لايمكن تفسير قيام أديان التصوف تفسيرا مطلقا اعتمادا على هذا

الأساس ، فان انعدام الفرصة أمام الشخص فى اشتراكه دون وعى فى مجموعة اجتماعية أكبر زادت من اتجاهه نحو الفردية ، وهو الاتجاه القوى الذى كان سائدا بين الاغريق . فالفرد الذى لاتربطه رابطة بغيره ، والذى يعيش مجهولا ، لم يعد يستطيع أن يشبع رغبته فى أن يحيا مرة أخرى بعد المـوت عن طريق التأمل فى استمرار بقاء جماعته أو قبيلته . فقد بدأ يحن الى تأكيد خـلوده نفسه ، وظهر مع حنينه هذا رغبته الطبيعية فى حياة مستقبلة مفعمة بما يسره ويرضيه . ولابد أن عالم مابعد الموت لدى الاغريق كان يبدو فى عين أى ساكن لكوخ حقير فى المدينة أكثر كآبة مما كان يبدو فى عين القروى . وأخيرا لم تعد القيود الاجتماعية غير الرسمية التى كانت تفرض اتباع الخلق الكريم على القروى سارية فى المدينة . وكان ذلك التحلل فى نظر أولئـك الذين ولدوا ونشأوا فى جماعات صغيرة ، وهم دائما أغلبية البالغين من سكان المدينة ، وعندما لايكون هناك وجود لرأى عام مناسب للأشخاص أنفسهم تظهر الحاجة الى بديل عن ذلك الرأى العام . فقد كان الآلهة القدماء لايهتمون كثيرا بالفضائل ، وأصبح الآلهة الجدد مصدرا لعقوبات من قوى خارقة للطبيعة ، تكافىء من يحسن السلوك وتعاقب من يسيئه ، حتى ولو لم يلاحظ الذين يعيشون معه تلك الذنوب .

ونشأت بسبب هذه العوامل المجتمعة سلسلة من الفرق الدينية التى يجمع بينها ظواهر معينة . فكان الدخول الى كل هذه الطوائف يتطلب بعض الارشاد التمهيدى ، واحتفالا القبول يعدون فيه الفرد لما سيجد بعد ذلك من الاتحاد النفسانى للشخص بكل من الاله والشعائر الدينية ، وذلك عن طريق تكراره مع الآخرين لبعض الأمور التى حدثت للاله نفسه . ووعدت كل تلك العقائد كل من ينتمى اليها بالخلود والسعادة فى حياة أخرى ، كما اشتملت كلها على قيود معينة بالنسبة للسلوك الأخلاقى ، أو على الأقل ، نحو الاعضاء الآخرين المنتمين للعقيدة نفسها . وعلى ذلك لم تكن الديانات التصـوفية الغامضـة

ديانات فقط بل كانت أيضا مجتمعات سرية تفرض على متبعيها فروضا معينة ازاء المساعدة المتبادلة بين أعضائها ، كما تفرض عليهم وصاية أخلاقية سهلت على هؤلاء الأعضاء أن يشعروا بالاطمئنان فى صلتهم ببعضهم البعض .

وبانتهاء العصر الكلاسيكى فى اليونان ومجىء العصر الهلينيستى بما فيه من الاكثار من التركيز فى المدينة وازدياد الحركة والانتقال ، زادت أيضا ديانات التصوف فى عددها وأصبحت لها أهمية أكثر من ذى قبل . لم تقتصر الجمعيات المحلية على المواطنين والمستوطنين الأجانب فحسب ، بل كانت تشمل العبيد أيضا . ولما كان من عادة الاغريق بيع سكان مدينة برمتها كجزء من أسلاب الحرب ، فلا بد أنه كان هناك أرقاء تم قبولهم فى مثل تلك الجماعات الدينية قبل أن يسترقوهم، ولذا كان لزاما على زملائهم أن يتقبلوهم كاخوة اذا تيسر بقاء الأمر سرا . وضمنت الشعائر المختلفة وجودها المستقل بأن وضعت كل منها لنفسها نظاما يقوم على أساس درجات مختلفة يرتقى اليها العضو ، فالرجل الذى كان عبدا رقيقا خارج المحفل ربما اعتلى أرفع مركز داخله .

وازداد الميل الذى بدا نحو اعتناق أديان التصوف فى بلاد اليونان فى العصر الكلاسيكى زيادة سريعة فى العصر الهلينيستى ، لأن كل الظروف التى نشأت هذه الأديان كرد فعل لها ، أصبحت أشد من ذى قبل . ففى العصر الهلينيستى لم يكتفوا باحياء عبادة الآلهة والطقوس الدينية التى كانت قبل الديانات الهندية الأوروبية بل نراهم أدخلوا أيضا عبادة آلهة أجنبية وجعلوا عبادتها دولية ، ونظموا دياناتها على أساس الأديان التصوفية .

ولهذا السبب نجد فى العصور الهلينيستية المتأخرة ، عبادة الالهة المصرية ايزيس والاله الفارسى ميثراس ، ثم ظهرت بعد ذلك الديانة المسيحية ، التى بدأت كفرقة يهودية صغيرة فتحت أبوابها للوثنيين الذين اعتنقوها بفضل ارشادات القديس بولس ، ثم أعاد أولئك المهتدون تنظيمها على غرار النظام

التصوف المألوف .

ان فضل الاغريق على الحضارة الغربية فضل عظيم ومعروف جيدا، ويكفى ماذكرناه عن بعض النواحى التى لم تعالج كثير فى أثر تلك الحضارة . وأهم مايجب أن تتذكره هو أن حضارة الاغريق الكلاسيكية ، مثلها فى ذلك مثـل جميع الحضارات الأخرى التى نعرفها ، قد استعارت كثيرا من غيرها من الحضارات ، وفى نفس الوقت أعادت هذه الحضارة توحيد وتفسير مااستعارته الى درجة غير عادية ، وأعطوا للهيكل الحضارى الذى نشأ من جراء ذلك صفات يمتاز بها . ويجد المنقب عن أصل الحضارة الاغريقية أن جذورها قد امتدت بعيدا فى الماضى ، وتشعبت وامتدت تشعباتها لتأخذ من مصادر مختلفة كثيرة ، ولكن حب الاستطلاع الشديد والميل الى التحليل الذى يميز الاغريق عن غيرهم من الشعوب لم يأت اليهم من غيرهم ، وانما وصلوا اليـه بأنفسـهم .

الفصل الخامس والعشرون

البـــرابـــرة

فى ثنايا التاريخ الأوروبى كله يرن صدى جملة « الاتجاه نحو الغرب » ، وما ذلك الاتجاه نحو الغرب الا الضغط المتواصل للشعوب التى تشق طريقها الى قلب القارة من ناحية الشرق .

كانت سهول الاستبس معينا لاينضب لتخريج المحاربين ، وكانت تأتى منها القبائل البربرية فى موجات متعاقبة . ولسنا نعلم السبب المباشر لهذه الهجرات ، فقد يرجع بعض أسبابها ، كما اقترح السورث هنتنجتونى (Elsworth Huntington فى كتابه "The Pulse of Asia"! الى تغيرات تنشأ من جراء فترة طويلة من المطر الغزير والمراعى الجيدة التى تسبب زيادة فى عدد السكان ، تتلوها فترات من الجفاف تأتى على الفائض لديهم . ونحن نعلم أيضا أنه قبل بداية العصر المسيحى بوقت قصير ، وذلك بسبب تقدم المعدات والطرق الفنية الحربية بين شعوب المغول ، ترك عدد كبير من القبائل التى تتكون من محاربين أقل كفاءة من غيرهم ، تركوا أوطانهم متجهين نحو الغرب . ومع ذلك ، فلسنا بحاجة للبحث عن سبب واحد . وذلك لأن الهجرة بالنسبة الى القبيلة البدوية أو نصف بدوية ، تعتبر أسهل جواب تجيب به على أى نوع من أنواع الضغط بما فى ذلك جشعها فى الاستيلاء على مايمتلكه غيرها . فعندما اكتشف سكان أقاليم الاستبس مقدار الغنائم التى يمكن أن يحصلوا عليها اذا أغاروا على المناطق الأكثر تقدما والتى تقع وراء حدودهم ، لم تصبح هناك حاجة الى حدوث كارثة محلية لتدفع بهم الى

الحركة والمهاجرة .

وفى معظم عصر ما قبل التاريخ ، كانت الهجرات من ناحية الشرق تقوم بها على الأرجح جماعات صغيرة من السكان ، وكانت هجراتهم تتم على صورة تسرب تدريجي أكثر منه غزوا بجموع كبيرة ، ثم انتشر القادمون الجدد بين السكان الذين كانوا هناك قبلهم واندمجوا فيهم . ومنذ العصر البرونزى الى وقت وصول قبائل الهون المغولية وقبائل الأقار بعد سقوط الامبراطورية الرومانية كانت حضارات الغزاة البرابرة ، فيما يبدو ، لها نفس الطابع العام الذى وصفناه آنفا والذى كان سائدا بين القبائل الآرية القديمة . وانتقلت النظم التى كان الأرستوقراطيون من زعماء الصيادين رعاة الماشية يسودون بمقتضاها شعبا من الزارعين الذين يفوقونهم كثيرا فى العدد ، وكانت هذه النظم تنتقل مع تغيير طفيف من جماعة ظافرة الى أخرى . أما الخلافات التى كانت تنشأ بين القاهرين فكان أكثرها لا يعدو موضوعات سفسطائية نشأت من علاقاتهم بشعوب الجنوب التى كانت أكثر منهم تمدنا . أما فى حالة القبائل الجرمانية فقد زادت على ذلك بعض الاستعارات الضئيلة التى أخذوها من جيرانهم سكان المنطقة التى تحيط بالقطب الشمالى .

وقد تحدثنا قبل الآن عن موضوع ادخال استخدام البرونز الى أوروبا ، ولكن ادخال معدن الحديد ، الذى كان أبعد أثرا ، لا يمكننا أن نستقصى أثره فننسبه الى جماعة بعينها من الجماعات الغازية . وكما رأينا فى الفصل التاسع ، فان استخدام الحديد فى صناعة الأدوات نشأ بكل تأكيد فى منطقة جنوب غربى آسيا ، فقد عرف الحيثيون الطرق الفنية اللازمة لتلك الصناعة منذ وقت مبكر بين عامى ١٦٠٠ و ١٨٠٠ قبل الميلاد . وربما يعود انتشار هذه الطرق الفنية فى أوروبا الى الوقت الذى أعقب سقوط الامبراطورية الحيثية ، قام بذلك حدادون يتنقلون من مكان الى آخر ، ويشبهون أولئك الذين كانوا يقومون بمثل هذا العمل فى العصر البرونزى . أما حضارة هنستات وهى أقدم

حضارات عصر الحديد فى أوروبا ، فقد كانت فى حقيقة الأمر مكونة من عدد كبير من الحضارات المحلية ، وهى حضارات لا تجمع بينها الا عناصر مشتركة قليلة الى جانب استخدامهم للحديد . وخير تفسير يمكننا تقديمه هو أن قبائل شرق أوروبا التى كانت أول من حصل على الحديد ، استغلت ميزة الحديد الحربية وفرضت سيطرتها باطراد على جيرانها ، ولكن هذا لم يحدث أى تغير أساسى فى النظم الأوروبية ، وبعبارة أخرى لم تكن التحركات القبلية التى بدأ بها عصر الحديد أكثر من ذى قبل ، ولم تقطع شوطا أبعد مما فعلته القبائل الكلتية والجرمانية فى العصر التاريخى المبكر .

واتضحت مظاهر جديدة معينة فى غرب أوروبا فى بداية عصر الحديد حوالى عام ١٠٠٠ ق . م . ، وأهم هذه المظاهر هو استخدام سلاح جديد ، وهو سيف ذو حدين طويل ومستقيم وطرفه عريض ، ومن الواضح أنهم كانوا يستخدمونه للضرب بحده ، لا للطعن به . ومن المرجح جدا أن هذا السيف كان يستخدمه رجال يمتطون صهوة الخيل ، وقد عثر فى المقابر التى يرجع تاريخها الى هذا العصر على أدوات تصلح لأجل حصان واحد فقط . وأخذت هذه العادة تعم مع تقدم الزمن مما يوحى بأنهم كانوا يستخدمون جيادا للركوب أكثر من استخدامهم للعربات الحربية . وهناك ظاهرة أخرى جديدة ظهرت فى هذا الوقت نفسه وهى احراق الجثة ووضع الرماد المتخلف فى آنية . وكثيرا ما نقرأ أن التغيرات الأساسية فى عادات الدفن تدل على وصول شعوب جديدة ولكن لدينا الكثير من الشواهد على عدم صحة ذلك ، فان هذه العادات تعتمد على مايبدو اعتمادا كبيرا على مايظهر بين الناس من أساليب أو طرق جديدة (موضات) ، ومن السهل أن تتغير بسرعة غير قليلة .

وفى أقدم المصادر الكلاسيكية التى ورد فيها ذكر البرابرة نرى أنه كان يوجد منهم مجموعتان فى غرب أوروبا شمال حوض البحر الأبيض المتوسط ، وهما الكلت والجرمان . أما الغال الذين ذكروا كثيرا فى كتابات الرومان ، فقد

كانوا قسما من المجموعة الكلتية ، وكان مركز سكناهم فيما يعرف الآن باسم فرنسا . كانت غالبية الجرمان يقطنون شرقى وشمالى نهر الرين فى ذلك الوقت وكانوا أقل الجميع فى درجة تمدنهم لأنهم كانوا أكثرهم بعدا من المراكز الجنوبية للحضارة . وفى وصف تاسيتوس للجرمان ، وكان رومانيا معاصرا لهم ، نعرف أنهم كانوا قوما يعيشون على رعى الماشية . ويلاحظ تاسيتوس أنهم ، مثل قبائل الرعاة الحديثين فى افريقيا ، يقيسون ثروتهم بعدد الحيوانات التى لديهم ولكنهم لايبالون كثيرا بأنواعها . ولم يزرعوا الا القمح كما انهم كانوا ينتقلون بزراعتهم من حقل الى حقل فى كل عام ، وهذه الحقيقة تعنى أنه نظرا لأن الغابات الكثيفة كانت منتشرة فى معظم المنطقة فانهم كانوا يتبعون طريقة القطع والاحراق . ولم تكن هناك أى مدينة كبيرة فى المساحة التى شغلونها ، وحتى فى قراهم كانت العائلات تعيش متفرقة عن بعضها ويسكن كل منها على حدة . وكانت منازلهم تشيد من الخشب ، ويبنونها بطريقة بدائية ولكنهم كانوا يدهنونها بالطين الملون . وتتكون ملابس الرجال من عباءة طويلة ، تلبس فوق سروال ضيق جدا ، ويبدو أنه الأصل الذى نقل عنه السروال الطويل الذى كانت ترتديه الجماعات الأوروبية الشمالية فى العصور الوسطى . وكان الجزء الأعلى من الجسم عاريا ، وربما كانت هذه الطريقة فى ارتداء الملابس تجمع بين بعض النظم القديمة التى كانت تبيح للرجال أن يسيروا عرايا لا تسترهم غير العباءة وبين مقتضيات طقس الشتاء فى ألمانيا . أما النساء فكن يرتدين الملابس المستقيمة المألوفة التى تتكون من قطعتين من القماش تثبتان مع بعضهما عند الأكتاف ومرة ثانية عند الخصر . وكن يرتدين عباءات فى الطقس البارد وبعض الحلى البدائية الصنع الثقيلة الوزن والتى كانت تصنع فى بعض الأحيان من الحديد .

ولم يعلق الجرمان قيمة كبيرة على الأوانى المصنوعة من الذهب او الفضة التى كانت ترسل اليهم كهدايا من الرومان . وكانوا صناع معادن غير مهرة

ولا يكترثون لاجادة عملهم ، وحتى الحديد فانهم لم يستخدموه الا بكميات ضئيلة . أما أسلحتهم فكانت السيوف الطويلة من النوع الذى وصفناه آنفا ، ورماحا خفيفة ذات رؤوس صغيرة ودروعا . وكان القليل من الرجال يرتدون الخوذات التى كانت فى العادة من الجلد ، ولكن الدروع الزردية التى كانت تغطى الجسد لم تكن شائعة الاستعمال بينهم . وكان الشبان يمنحون الحق فى حمل السلاح فى احتفال مهيب يدل دون شك على بلوغهم مرحلة البلوغ الكامل ، وليست هذه العادة الا صورة من احتفالات العصور الوسطى التى كانوا يقيمونها لأجل رفع السيد الى مرتبة الفروسية ويعطى معها لأول مرة الحق فى حمل السيف .

وكانت العائلة تقتصر على زوجة واحدة ، وقد أعجب تاسيتوس بالمستوى الأخلاقى الرفيع لدى الجرمان وتمنى لو أن الرومان فى أيامه حذوا حذوهم . وكان الزوج يدفع ثمنا لعروسه، وكان هذا الثمن يرد ثانية الى العائلةالجديدة كصداق للعروس ، أما نوع الثروة التى كانوا يتبادلونها فيما بينهم فى ذلك الوقت فهى الأسلحة . وكانوا يعتبرون الخال (أخا الأم) قريبا عزيزا فى منزلة الأب ، وهو نظام يدل على أنهم ربما كان يسود بينهم فى عصور أقدم نظام الانتساب الى الأم ، ولكن الأكثر احتمالا هو أنه انعكاس لنظام الانتساب المزدوج لكل من عائلتى الأب والأم وهو المتبع بين معظم سكان المنطقة المحيطة بالقطب .

وكان كرم الضيافة عاما فياضا بينهم ، وفى أيام الشتاء تذهب الجماعات من منزل الى منزل وتمكث فى كل منها حتى ينفد مالدى صاحبه من مؤونة. وهذه العادة شبيهة بما كان فى العصور الوسطى اذ كان للملك أو للنبيل الحق فى الضيافة لمدة عدة أيام فى كل سنة هو وأتباعه كجزء من حقه الاقطاعى على المضيف . وفى الأوقات والعصور التى كان النقل فيها صعبا ، كان لمثل هذا النظام ميزة عظيمة وهى احضار الأفواه للطعام بدلا من العكس . وكان للزعماء

دولة كبيرة وكان كل منهم محاطا بشبان من رجال القبائل لم يكونوا حتما من أقاربه ، يقدم لهم الطعام والمأوى دون مقابل . وكان الواجب الرئيسى على الزعيم هو أن يقودهم فى الحرب ، وكان المتوقع منه أن يميز نفسه بشجاعته فى القتال ، وكان المتوقع أيضا من رفقائه أن يكونوا مثله فى شجاعته وكان من العار عليهم أن يعيشوا بعده اذا مات فى الميدان . وحتى الجنود العاديون كان يتحتم عليهم أن يرجعوا بدروعهم وألا يفقدوها ، وهى الحمل الأول الذى يريد الرجل الهارب أن يتخلص منه ، ولو فشلوا فى العودة بدروعهم أصبح ذلك عارا أبديا عليهم . وبالرغم من أنه لم يكن هناك فيما يبدو ، أى نوع من التدريب الاجبارى فان المحاربين كانوا يستخدمون طريقة الاسفين الطائر فى الهجوم وكانوا يجعلون حائطا من الدروع فى الدفاع. وكان النساء والأطفال يصاحبون الرجال الى الحملات ويؤدون خدمات غير مكلفين بها فى التموين والرعاية الطبية ، وفى حالة الهزيمة كان النساء يلعبن دورا فعالا فى القتال ، اذ كن يعتبرن الموت أفضل من الأسر والرق .

وكان للجرمان بصفة خاصة قدرة كبيرة فى التهام الطعام ، ويكثرون من شرب الخمر ، ومقامرين يحسب حسابهم . ويقول تاسيتوس ان المقامر الذى كان يخسر كل أملاكه قد يرهن نفسه أيضا فاذا خسر يصبح عبدا للفائز . ولكن مثل هذه الغنيمة كانت تسبب لصاحبها الحيرة ، وكان الفائز فى العادة يبيعه أو يتخلص منه بأسرع مايستطيع . وعندما كانوا يعدون أى حملة للحرب، كان الزعيم يقيم مأدبة لمحاربيه ويشجعهم جميعا عندما يثملون تماما ليصرحوا بآرائهم ويفصحوا عما لايعجبهم . وكان هذا العمل يصفى الجو ، ومن ثم كانوا يعيدون النظر فى الخطط فى صباح اليوم التالى بعد أن تكون قد هدأت سورة السكر .

وكان المجتمع الجرمانى مقسما الى الزعماء وعامة الشعب ورقيق الأرض وقد احتار المعلقون الرومانيون فيما يبدو ، من نظام الرق الجرمانى وقالوا

انه بالرغم من أن مثل هؤلاء الرقيق لايمكن أن يباعوا ، الا أن أصحابهم كانوا يستطيعون أن يقتلوهم وكثيرا مافعلوا ذلك دون أن توقع عليهم أي عقوبات .

وكان الطريق الوحيد للترقى هو الحرب ، تماما كما كان النهب هو الطريق الأوحد الموصل الى الثروة فى حالة عدم وجود التجارة وصنع الأدوات. وكان الرجل العامى الذى يثبت أنه محارب ناجح يقدرونه تماما كما يقدرون أى رجل من العائلات التى تتولى الزعامة . وفى نفس الوقت كانوا يعلقون أهمية كبيرة على النسب ، وكان أى طامح فى الوصول الى الزعامة دون انتسابه للعائلة ، ينظر اليه كمغتصب . ويقول تاسيتوس ان الجرمان كانوا يختارون زعماءهم عن طريق الوراثة ويختارون قادتهم فى الحرب عن طريق الكفاية

وكان رجال القبيلة يجتمعون فى مجلس لهم مرة كل شهر ، اما عندمايكون القمر وليدا أو عند اكتماله ، ويكون هذا المجلس برياسة كاهن القبيلة ، وقد جمعت مثل هذه المجالس بين القيام بالتشريع وبين قيامها بعمل محكمةللعدل. وكان الزعيم هو الأداة التنفيذية فكان ينفذ مايوصى به المجلس وكانمقيدا بقراراته . وكانت هناك مواد قانونية تميز بين الذنوب التى تقترف ضد الجماعة وبين تلك التى تقترف ضد الأفراد . وكانت أولاهما أى الذنوب التى تقترف ضد الجماعة تعامل كجرائم ، وكانت العقوبة توقع على المسيىء نفسه وغالبا ماكان يحكم عليه بالموت ، أما الثانية فكان يمكن دفعالتعويض فيها عما حدث من خسائر . وكان القتل يعتبر جريمة من المرتبة الثانية ويمكن التكفير عنها بدفع التعويض الى أقارب الرجل المقتول .

وليس لدينا الا معلومات قليلة عن الديانة الجرمانية القديمة ومن الخطر أن نحاول اعادة تصور هذه الديانة من المعتقدات النورسية ، لأن هذهالأخيرة قد دخلت عليها عناصر أجنبية كثيرة بل أن الديانة المسيحية نفسها قد أثرت عليها . كان الجرمان يعبدون عددا من الآلهة ، يشبهون كثيرا الآلهةالرومانية

بل من الممكن ايجـاد التوافق بينهـم . ولذلك يقول تاسيتوس ان الآلهـة الجرمانية الرئيسية هم مركيورى الذى كانوا يقدمون له القرابين الآدمية ، وهرقل ، وماوس . وكانت هناك غابات صغيرة مقدسة كثيرة العدد ، كمـا كانت هناك أيضا تماثيل يحتفظون بها فى هذه الغابات الصغيرة وتحملها معها القبيلة عندما كانت تذهب الى الحرب . وكانت المعابد ، اذا كان لها وجود ، أبنية صغيرة تستخدم كمخازن للتماثيل وبعص الأدوات الدينية الأخـرى ، وكانوا يقيمون كل الاحتفالات فى الهواء الطلق . كانت هـذه الاحتفـالات القبلية تعقد فى مواعيد محددة من السنة ، وكان لكل غابة صغيرة كاهن أو كاهنة ، كانوا يقومون بالشعائر الدينية فيها ، ولكن من عير المرجـح انهم كونوا هيئة كهنوتية منظمة . وعند تقديم القرابين بالنيـابة عن الأقارب كان رئيس المجموعة هو الذى يقوم بالشعائر الدينية . وكانوا يعتمدون كثيرا على العرافة وطريقتهم فيها هى القاء حزمة من العصى القصيرة فوق عباءة بيضـاء وملاحظة مواقع سقوطها . وكانوا يلجأون الى سلوك الطير والحيوانات لمعرفة الفأل ، وكانت بعض النساء يقمن بعمل الوحى فيجبن على الأسئلة وهن فى غيبوبة تامة . أما العادات التى تتبع فى حالة الوفاة فانها كانت تسير على غرار تقاليد العصر الحديدى القديم ، فكانت الاجساد تحرق ومعها القليل مـن القرابين ، ثم يدفنون الرماد فى آنية تحت كوم صغير .

واحتلت قبائل الغال (Gauls) المنطقة الواقعة جنوبى وغربى الجرمان ، كما أن المجموعات الكلتية الوثيقة القرابة بالجرمان كانت تقطن فى بريطانيا وايرلندا . وكان الغال على صلة بحضارات منطقة البحر الأبيض المتوسط منذ عدة قرون ، وكانوا يتاجرون معهم حينا ويغيرون عليـهم حينـا آخر ، وتشربوا الكثير من حضارة تلك المنطقة . وتدل البقايا الأثرية التى عثر عليها فى المنطقة التى تقع مباشرة غربى جبال الألب على أنه ما حل القرن الخـامس قبل الميلاد حتى كانت قبائل الغال على درجة غير عادية من المهارة فى صناعات

الحديد والبرونز والفضة والذهب . كانوا يزخـرفون الأدوات المعـدنية برسوم حلزونية متقنة وجميلة ومحلاة بالمينا الملونة ، بالمرجان والفصـوص . ونرى أن كثيرا من الأدوات التى أنتجتها الحضارة التى تسمى حضارة لاتن (La Tene) تعادل من الناحية الفنية مثيلاتها التى كانت تصنـع فى بلاد حوض البحر الابيض المتوسط فى ذلك الوقت . ومن الأمور ذات الدلالة أنه بعد الغزو الرومانى لبلاد الغال استمر الصناع الوطنيون يعملون على طريقتهم الخاصة لأجل التجارة الرومانية .

أما النفوذ الجنوبى الرئيسى الذى أثر على حضارة الغال فقد أتاهم مـن ناحية الاغريق . ففى عام ٤٠٠ ق . م استقر مهاجرون من الاغريق فى المنطقة التى تعرف الآن باسم مرسيليا ، وأخذ التجار الاغريق يتوغلون فى الأراضى الداخلية . وفى القرن الثالث قبل الميلاد ، أبحر أحد الجغرافيين والمكتشـفين الاغريق وكان يسمى پيثياس (Pythias) متجها نحو الشمال على طـول الساحل الاطلنطى حتى وصل الى شبه جزيرة اسكنديناوة وسمع اشاعات عن وجود جزيرة فى الشمال الغربى من المرجح أن تكون جزيرة ايسلاندة . ومن بين الاشياء الكثيرة التى أدخلها الاغريق الى تلك البلاد استعمال النقود، ونرى فى النقود التى صكها الزعماء المحليون فى الغـال عـددا كبـيرا من التبسيطات التى أدخلوها على النماذج الأصلية الاغريقية .

واتصل الغال أيضا بالاتروسكيين الذين ثبتوا أقدامهم عند رأس بحر الأدرياتيك فى عام ٨٠٠ ق . م ، وربما كانت العربة الحربية الخفيـفة التى استخدمها الغال المبكرون على نطاق واسع قد تطورت عن أصول اتروسكية وقد انتهى استخدام تلك العربات على الأراضى الأوروبية فى عصر يوليوس قيصر ، ولكنه وجد أن البريطانيين الكلتيين كانوا لايزالون يستخدمون العربات الحربية المسلحة بالمناجل الكبيرة ، وفى ايرلندا ظلت تلك العربات الحربيـة مستخدمة الى زمن أطول من ذلك .

وتنحصر المعلومات التى خلفها الكتاب الكلاسيكيون عن الغال فى ذكر مقدرتهم الحربية والهجوم المدمر الذى كانوا يقومون بهضد جيرانهم الجنوبيين. فقد غزوا ايطاليا مرات متعاقبة ، وعند ما قام يوليوس قيصر بغزو بلاد الغال لم يفرح الرومانيون بضمهم الى بلادهم مثل فرحتهم بزوال ماكانوا يعتبرونه تهديدا مستمرا يجثم على صدورهم .
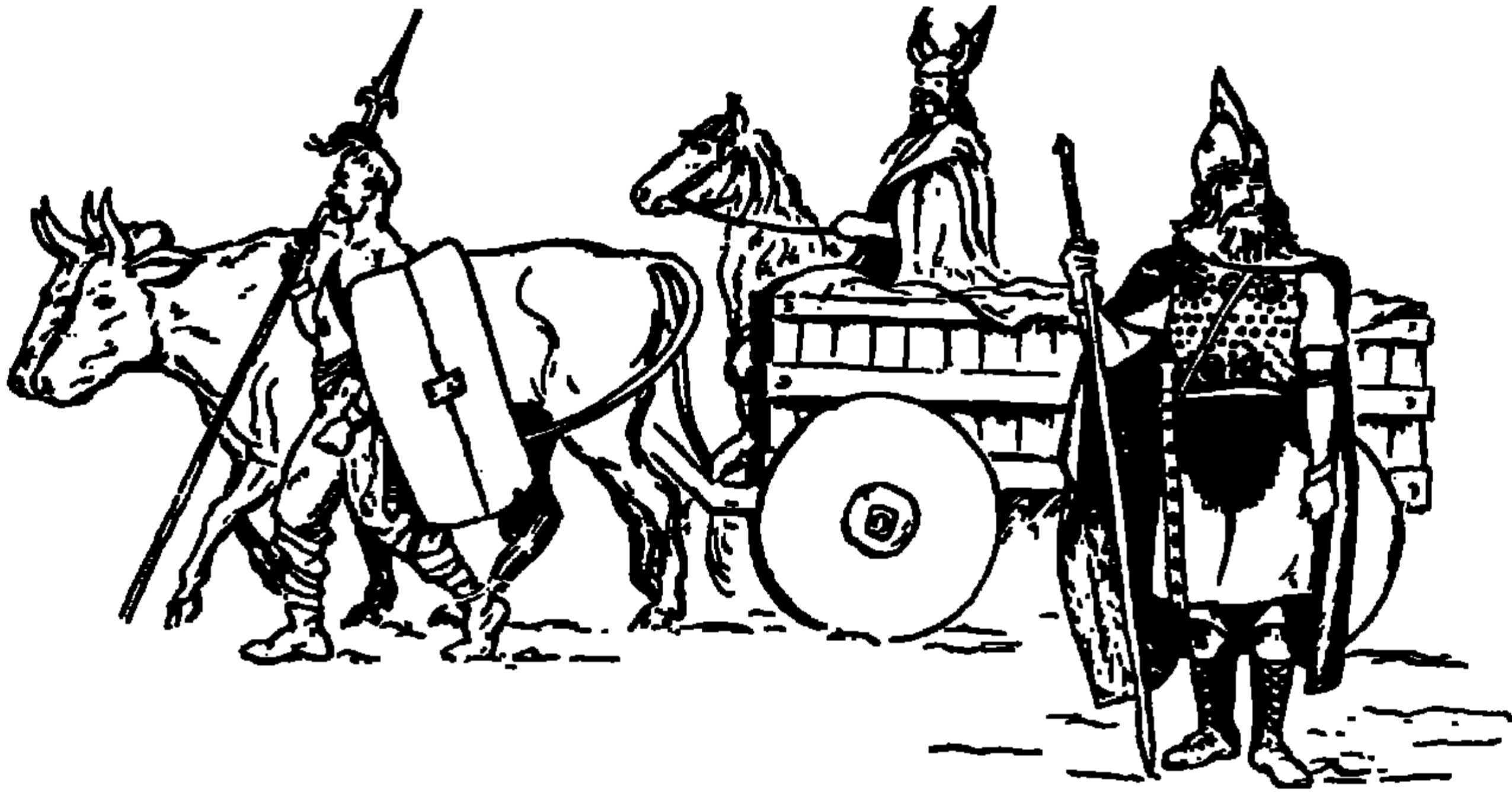
رجال من قبائل الغال

وأغار الغال أيضا على بلاد اليونان وعلى آسيا الصغرى . والتمثال المشهور الذى عثر عليه فى برجاموم (Pergamum) المعروف باسم المصارع المحتضر انما يمثل فى الحقيقة أحد الغاليين وهو يحتضر ، وقد أقيم تذكارا للتغلب عليهم عند قيامهم باحدى حملاتهم الحربية .

وترتب على الغزو الرومانى للغال تدهور الحضارة المحلية ، وصبغ الذين بقوا منهم على قيد الحياة بالصبغة اللاتينية ، أما غزوهم لبريطانيا فقدحدث بعد ذلك . وبالرغم من أنه لم يكن غزوا تاما مثل غزو بلاد الغال ، فان ذلك الغزو الرومانى ألقى عليها بدثار كثيف حجب معالم ماكان فيها من حضارة وخير صورة للحياة الكلتية نجدها فى ايرلندا ، فقد نجح الكلتيون

فى الاحتفاظ باستقلالهم على مدى العصر الرومانى ولم يخضعوا تماما للسيطرة الأجنبية حتى عهد كرومويل . وحتى المسيحية التى تقبلها الايرلنديون بحماسة، فانهم أدخلوا عليها من التعديلات ماجعلها تتلاءم مع الحياة الكلتية .

كان الاقتصاد الايرلندى يقوم قبل كل شىء آخر على الحيوانات المستأنسة من الماشية والخيل والخنازير ، ولم يحلبوا الماشية فحسب ، بل كانوا يقصدونها من وقت لآخر ويغلون الدم ثم يأكلونه ، ولكنهم لم يأكلوا لحم الخيول أو يحلبوا لبنها ، بل كانوا يستخدمونها فى جر العربات الحربية ثم ركبوها بعد ذلك . ولعب الخيالةدورا صغيرا فى القوات الايرلندية الحربية، وربما كان هذا راجعا الى عدم معرفتهم للسرج المصنوع من خشب الأشجار وفى القرن الرابع عشر بعد الميلاد أصدرت السلطات الانجليزية قانونا يفرض غرامة على أى انجليزى يولد فى ايرلندا ويركب الحصان دون سرج على النمط الايرلندى . وكانت الخنازير ، فى ذلك العهد وفيما تلا ذلك العهد من عصور، هى الحيوان الذى يعول عليه أرباب العائلات الصغيرة . ويبدو أن فخذ الخنزير الصغير المملح (ham) ، وشرائح قديد الخنزير (bacon) من المخترعات الكلتية ، وكان الرومان يتكلمون باعجاب عن فخذ الخنزير المملح الذى كان يعده أولئك الغاليون .

وبالرغم من أنه كانت هناك تحركات موسمية لعائلات بأكملها ومعها ماشيتها بحثا وراء المراعى الجديدة ، فانهم لم يلائموا أنفسهم الا قليلا لحياة البدو الرحل . وفى مثل هذه الأسفار ، كان الايرلنديون يبنون لهم أكواخا من أغصان الأشجار شبيهة بتلك التى يبنيها أفراد قبيلة الاپاش (Apache) من الهنود الامريكيين . وبالرغم من أنهم كانوا يستهلكون كميات كبيرة من اللحم فان الوجبة الرئيسية للعائلات الفقيرة كانت تتكون من العصيدة واللبن يضيفون اليها لحوم الحيوانات التى كانوا يصيدونها .وتتمثل القيمة العاطفية التى كانت للحيوانات المستأنسة فى نفوسهم فيما نراه فى ذلك التقليد الغريب

الذى كان يقضى اعتبار الماشية ، وربما الخيل ولكن ليس الخنازير ، أنها كانت ملكا شخصيا للملوك أو النبلاء العظام يؤجرونها لاتباعهم مقابل دفع أجر سنوى . ولم تفرض مثل هذه الضريبة على استخدام الأرض فقد كانت الأراضى المحروثة تزرع بوساطة مجموعات صغيرة من العائلات التى تتعاون فيما بينها وكانت هذه المجموعات فى غالب الأحيان متصلة بصلة القرابة .

ولم يكن البناء بالحجارة معروفا فى ايرلندا حتى وقت متأخر نسبيا ، وعندما ظهر فيها كان ذلك راجعا الى تأثير صلتهم بالرومان . كان الغال الذين يعيشون فى أرض القارة يحصنون مدنهم بأسوار من الحجارة دوناستخدام « المونة » ، ولكن المدن والأسوار لم تظهرا الا فى وقت متأخر جدا . وكان أفقر الناس بين الايرلنديين يعيشون فى أكواخ مستديرة أو مربعة مصنوعة من أغصان الشجر المتشابكة ، أما الموسرون منهم فكانوا يعيشون فى منازل مستطيلة مصنوعة من الخشب . وكان حجم منزل أى رجل وعدد وحجم المبانى الخارجية المحيطة به التى يسمح له بتشييدها محددا تحديدا دقيقا حسب مركزه فى المجتمع . كان كل رب منزل يحكم الأرض التى تحيط بمسكنه لمسافة محددة ، وكان فى مقدوره أن يعاقب كل من يتخطى هذه المسافة وأن يضفى حمايته على أى غريب أو ضيف يدخل الى هذه المنطقة .

وتتكون ملابس الرجال فى العادة من قميص يصل الى الركبتين وحزام حول الخصر مثل ذلك الذى كان يرتديه الاغريق الكلاسيكيون والرومان ، كما كانوا يرتدون أيضا معطفا ثقيلا يخلعونه عندما يكونون داخل الدار . ولم يكن الايرلنديون يرتدون السراويل بوجه عام بالرغم من أن الغال من سكان أرض القارة كانوا يفعلون ذلك . وكانت النساء يلبسن رداء مستقيما مكونا من قطعتين يثبتنه بحزام حول الخصر يشبه ذلك الذى وصفناه آنفا عند حديثنا عن الجرمان . وكانت الملابس تصنع من القماش ، أما ملابس الطبقة العليا فقد كانت تصبغ بألواز زاهية وتطرز تطريزا رائعا ، وكان يقوم بذلك

التطريز نساء محترفات ذكرن فى القوانين القديمة كفئة لا غنى للمجتمع عنها .
وكانت المواد التى يصنع منهاالقماش عادة هى الكتان والصوف ، ولكن الحرير كان معروفا أيضا وقد ورد ذكره فى القصائد البطولية التى يرجع تاريخها الى ما قبل ظهور المسيحية ، وواضح أنهم كانوا يقدرونه تقديرا كبيرا . وكانت الحلى المتقنة المصنوعة من الذهب والفضة والمينا يعتزبلبسها كل من الجنسين ، وكانت مهارة الصائغ الايرلندى معروفة ومن النادر أن تفوقها مهارة أخرى . ويمكننا أن نرد الزخارف الايرلندية الى أصولها فىالفن الكلتى الذى كان منتشرا فى أرض القارة فى حضارة «لاتين» ولكن الايرلنديين هذبوا الأشكال وجعلوها أكثر جمالا . وبعد أن اعتنق الايرلنديون المسيحية، كانت نفس الرسوم تستخدم فى رسم الصور ، ولدينا منها بعض الكتب التى مازالت من بين عجائب العالم .

واختلفت أسلحة الايرلنديين عن كل من الغال والجرمان . فقد كانت الأسلحة المفضلة لديهم هى الرمح والبلطة الخفيفة . واستبدلوا السيفالقاطع الطويل الذى كان يستخدم فى القارة بسيف آخر متوسط الطول يصلح للطعن ، ويذكرنا هذا السلاح كله بأشكال العصر البرونزى ، بعد أن أعادوا صنعها من معدن الحديد ، أما أسلحة الدفاع فقد اقتصرتعلى درع مستديرة، وخوذة فى بعض الأحيان .

ويلقى التنظيم الاجتماعى الايرلندى أضواء كثيرة على تلك النظم التى كانت سائدة بين سكان أرض القارة من الكلتيين . كانت الوحدة الرئيسية هى الجماعة التى تربط بينها صلات قربى بعيدة وتتكون من عائلات متعددة يشتركون معا فى ملكية الأرض الزراعية ، ولكنهم كانوا يستأجرون الماشية من أسيادهم النبلاء كل منهم على حدة . وكانت معظم العائلات لاتؤمن بزواج الرجل بأكثر من زوجة واحدة ، ولكن كان يسمح له باتخاذ المحظيات . وفى ايرلندا الوثنية كانت مدة العلاقة مع المحظية تحدد بعام يبدأ فى مايو وينتهى

فى مايو التالى ، أى فى نهاية العام ما لم تجدد بعد ذلك . وكان الزوج هــو الذى يدفع مهر عروسه ، ولكن الزواج ، وخصوصا فى الطبقــات العليــا ، كانت تنفصم عراه بسهولة ، وكثيرا ماكانت النساء العظيمات يتمتعن بحرية كبيرة فى توزيع عطفهن على الرجال كما كان يفعل أزواجهن . وبالرغم من هذه الحرية ، يجدر بنا أن نذكر أن مهر العروس الذى يدفع للمرأة كان يقل كلما اتخذت زوجا جديدا .

ولم تكن هناك قرى ، بل مجموعة من العائلات التى تجمع بينها صلة القربى وكانت فى العادة تعيش متجاورة وتشترك فى زراعة الأرض المحــروثة التى يشترك الجميع فى امتلاكها . وكانت الوحدة السياسية عبارة عن « التواث » (tuath) التى كثيرا مايخطىء الناس فى فهمها ويظنون انها هى العشيرة . فبالرغم من أن كثيرا من أعضاء التواث قد يكونون أقرباء من أصل واحــد فقد كانت الجماعة تشمل رقيق الأرض والصناع الذين قد يكونون من أصل أجنبى ، وتشمل أيضا اللاجئين الذين سمحوا لهم أن يعيشوا داخل حــدود التواث . وكان على رأس التواث ملك ، وكانوا يشغلون المنصب فى كل جيل من عائلة معينة كل أفرادها يعتبرون أفرادا ملكيين . فاذا أضفنا الى ذلك أن كثيرا من الممالك الايرلندية كانت لاتزيد كثيرا على احدى مدن «نيوانجلاند» فى الولايات المتحدة الأمريكية نستطيع أن نفسر كثرة ورود لقب « ابن ملك ايرلندا » الذى لم يقتصر على القصص الايرلندية فقط بل نجــده أيضا فى قصص القارة الأوروبية . ويأتى « النبلاء » بعد الملك ثم يتلوهم « الوجهاء » وهم رجال أحرار لهم الحق فى الاحتفاظ بماشيتهم ويشــتركون فى الأراضى المحروثة ، ثم تأتى أخيرا طبقة « خدم الأرض » ، وأخيرا وفى أقل مكان من السلم الاجتماعى يأتى الرقيق الذين كانوا يشترون ويباعون ، أما الرقيق من النساء فكن فى مرتبة الماشية ،أى أشياء لها قيمتها المحددة . وكان النبــلاء والوجهاء يقسمون أيضا الى أقسام فرعية حسب ثروتهم ونسبهم .

والى جانب التقسيم المدنى الذى وصفناه الآن ، كان هناك تقسيم آخر يشمل الرجال المتعلمين والشعراء المغنين والكهنة والماهرين فى معرفة القانون أى جميع الذين أمدوا ايرلندا بوحدتها الحضارية . وبالرغم من هذا التقسيم الكثير فى أراضى البلاد ، والمعارك المستمرة بين الممالك وبعضها ، فقد كان لكل فرد ولكل وحدة اجتماعية مكانهما فى نظام واحد جامع شامل ، وكان لكل فرد نفس المرتبة فى كل مكان . ولأغراض تتعلق بالقانون ، كانت تلك المرتبة محددة بال « ديرى » (dire) الخاص به أى بثمن الشرف الذى يحدد مقدار التعويض الذى يأخذه عند وقوع ضرر على ممتلكاته أو على شخصه . وكذلك مقدار الغرامات التى يمكن أن توقع عليه . ومن الأمور الطريفة ما نلاحظه من أن القانون الايرلندى ، مثل قوانين أوروبا فى العصور الوسطى ، قد صيغ لذكر الامتيازات الممنوحة للاشخاص من مختلف الطبقات أكثر من ذكره للاشياء التى كانت تحرم عليهم . فمثلا الفرد الذى ينتمى الى أحط طبقة من طبقات الوجهاء هو : « الذى يملك أرضا كافية لاعالة السبع البقرات والثور الذى كان له الحق فى استئجارها من الملك ، وذلك بدفع واحدة من البقرات عند نهاية كل سنة مضافا اليها السبعة الأغنام وحصان للركوب . وله الحق فى أن يكون شريكا فى الأرض المحروثة ، وأن يمتلك ثوره وسلاح المحراث ومنخسه ورسنه ، ونصيبه فى قمين حرق الطوب وفى الطاحونة ، ومخزن المحصولات وآنية الطهى . ويسمح له بامتلاك منزل طوله تسع عشرة قدما مصنوع من أغصان الشجر المتشابكة عند عتب المنزل ، وله مدخلان أحدهما يستخدم كباب والآخر يوضع فيه حاجز ، وأن يعمل لهذا المنزل سور بسيط يدور حوله ، وأن يوضع لوح من خشب البلوط بين كل مسافتين . أما ثمن شرفه فهو ثلاث بقرات مملوكة وذلك نظرا لأن منزله لم يكمل بعد وهو لا يستطيع تقديم الضمان لثمن شرف كامل نظرا لقلة موارده المالية » .

وفى ظل نظام «ثمن الشرف» ، ارتبطت مرتبة الشخص وثروته معا ارتباطا

كاملا ولا يمكن التفريق بينهما ، وكانت العائلة تصعد وتهبط تبعاللمنزل الذى يمكنها المحافظة عليه ، وبذلك كانت العائلة الوجيهة التى حصلت على الثروة تعادل الأسرة النبيلة ، فاذا احتفظت بالثروة لمدة ثلاثة أجيال فانها كانت تعد من العائلات النبيلة . وعلى عكس ذلك ، كانت العائلة النبيلة التى لا تستطيع أن تحتفظ بمركزها الاقتصادى الذى يتفق مع مكانتها النبيلة تنزل الى طبقة الوجهاء بعد مرور ثلاثة أجيال وعند تطبيق مبدأ الأجيال الثلاثة على الملوك أصبح من أعظم النظم التى استكملت كل مقوماتها للابقاء على المشاغبة المستمرة، فالعائلة المالكة التى لم يحكم رئيسها حكما حقيقيا خلال الأجيال الثلاثة تنزل الى مستوى العائلة النبيلة وتفقد الحق فى الحكم فى المستقبل . ولما كان أبناء الملك وأحفاده يعدون جميعا من الأسرة المالكة (ملكيين) ، ولكن واحدا منهم فقط يستطيع أن يكون ملكا فى أى وقت وينقل اللقب الملكى لسلالته . كان هناك دائما مدعون كثيرون فى كل عرش ، وكان اغتيال الأخ لأخيه أسهل وأعم الطرق للوصول الى ذلك . وبعد أن اعتنق الايرلنديون الديانة المسيحية سكن الموقف بعض الشىء ، لأنه كان يسمح للملك أن يعين من يخلفه وان يشاركه فى الحكم ، ولكن الاغتيال وهجوم المطالبين بالعرش الذين يشعرون بأن حقوقهم قد تجوهلت ، ظــلا مستمرين .

وبالرغم من الشغب المستمر ، كان تنظيم ايرلندا كلها تحت حكم الملك الأعظم أكثر من قبول للوضع القائم لأنهم لم يروا أمامهم غيره . كان الملك الأعظم يقوم برحلات من وقت الى آخر ، وفى الحقيقة كان عليه أن يقوم بهذا حتى يثبت دعواه فى هذا المنصب . وفى هذه الرحلات كان يعقد الاجتماعات ويستمع الى القضايا التى تقدم اليه من المحاكم الابتدائية ، وكانت الاجتماعات المنتظمة لسماع القضايا القانونية تعقد فى أماكن مختلفة وفى أوقات محددة ، وكانت الأمور التى تتعلق بالسياسة تناقش أيضا فى هذه المناسبات .

أتاحت اجتماعات هذه المجالس الفرصة لقيام الأسواق التى كان يتم فيهـا

تبادل البضائع من كل الأنواع ، وكانت هناك شبكة واسعة .ن الطرق . وكانوا يمنحون مرتبة خاصة لهؤلاء الذين يملكون منازل تخصص للضيافة وكان هؤلاء المضيفون من الرجال الأثرياء ، وكانت المعدات اللازمة لاقامة مثـل هذا المنزل محددة تماما فى مجموعة القوانين . فكانوا يستقبلون المسافرين كضيوف ولكنهم كانوا ينتظرون منهم أن يقدم المسافر بعض الهدايا وعلى أى حال فان المنصب كان يضفى على صاحبه سمعة حسنة ويدر عليه الفوائد الاقتصادية .

ويرجع وجود التناسق والتشـابه الأساسى فى الحضارة الى الأسـواق والمجالس ، ولكن أهم من هذا وذاك يرجع الى الشعراء المنشدين المحترفين والكهنة ورجال القانون ، فقد كان الكلتيون يحترمون هؤلاء جميعا احتراما كبيرا .

وفى ايرلندا ، كان للشاعر المنشد الحق فى أن يجلس فى المقعد الذى على يسار الملك ، بينما كان رجل القانون يجلس فى الجانب المقابل له على يمين الملكة . وحسب القانون التنظيمى ، كان فى مقـدور الشعراء المنشـدين أن يلبسوا ثيابا فيها خمسة ألوان بينما كان الملك يلبس سبعة فقط . وكان الشعراء المشهورون يتجولون من بلاط الى آخر ، ونظرا لشهرتهم التى حازوها فقد كان فى استطاعتهم أن يقوموا بعمل بعض « المقالب » ويتسببوا فى احداث الشغب كما يفعل بعض الصحفيين الآن . فاذا فشل مضيفوهم فى اكرامهم كما يجب فانهم كانوا يعاقبونهم بالتهكم عليهم ، وكانوا يخشون مثل هـذا التهكم ، كما يبدو ، ويعتبرونه كنوع من أنواع السحر الضار أكثر وأعظم من خوفهم من السخرية التى تعقبه . أما الشعراء الأقل شأنا فقد كانوا يلتحقون ببلاط ملوك مختلفين ، وكان كل من الشعر وناظمه قويا متين البنيان . كان الشاعر الملكى ، كما تتوقع ذلك ، يأخذ مكانه الى جانب الملك فى صفوف القتال حتى يستطيع الاسهام بالقوة السحرية لتهكمه وحتى يستطيع أيضا أن يلاحظ

أفعال الملك وأن يمجدها التمجيد اللازم فى شعره .

ولسنا نعرف عن دين ايرلندا الوثنى ودين الكلتيين عموما الا شذرات قليلة، ويميل المشتغلون بهذه الدراسة الى افتراض وجود لاهوت أكثر تنظيما مما توحى به الشواهد التى لدينا . ويبدو أنه كان لديهم التنويع الهندى - أوروبى لآلهة من الذكور وآلهات من الاناث ، وكانوا يعتبرون هذين النوعين متساويين مثل الآلهة الأوليمبيين الذين ذكرهم الكتاب الكلاسيكيون . وفى كل من ايرلندا وأرض القارة ، نرى بعض الآلهة المنتمين الى حضارة أقدم ، مثل ذلك الاله المرسوم بقرون الوعل والذى عثر على رسوم كثيرة له فى بلاد الغال .

وكانت الاحتفالات تقام فى الهواء الطلق ، وحيثما توجد دوائر ميجاليتية ، أو أماكن أخرى محددة بأحجار ، وقد استمر عمل الاحتفالات فيها الى وقت قريب من بداية ظهور المسيحية . وكان الكهنة يشرفون على الطقوس الدينية، أما الـ « درود » (Druid) الذين يكثر ذكرهم فى المؤلفات فان عملهم كان ينحصر فى تقديم القرابين وبعض الطقوس الأخرى كما كانوا يقومون بالانباء عن الغيب وعمل السحر . وربما كان لهؤلاء الكهنة مركز خاص معترف به بين الدوائر القبلية ، ولكن من المستحيل علينا أن نعرف الى أى حد نظموا أنفسهم كجماعة لها كيانها . وبعد الغزو الرومانى لبلاد الغال فر كثير من الكهنة الوطنيين والرجال المتعلمين الى بريطانيا ، ومن هناك استمروا يدبرون الثورات الى أن غزا الرومان تلك الجزيرة أيضا .

ويرجع تاريخ الوثائق الايرلندية كلها الى وقت أحدث بكثير من الوقت الذى كان فيه سكان القارة من الكلت مصدر رعب لجيرانهم من سكان منطقة البحر الأبيض المتوسط ، ولكن من المحتمل أن النظام الاجتماعى الايرلندى قد أصبح أكثر تقدما مما كان عليه نظام الغال فى أيام يوليوس قيصر ومع ذلك ، فقد كان لدى الغال جماعات محلية من الـ « تواث » بعضها عن طريق الوراثة ، وكانوا يعرفون أيضا تنظيم الزعماء المحليين تحت رئاسة زعيم

أعظم كما عرفوا تنظيم الأفراد فى طبقات حتى فى التقسيم الثلاثى للزعماء والنبلاء والعامة . وكان لديهم نظام استرقاق يتسلم الرجال بمقتضاه الماشية من الزعيم ويدفعون له ايجارا لاستخدامها أكثر مما يدفعون للارض ،ولديهم نظام قانونى راقٍ ورجال قانونيون ، ولهم أدب فياض ينتقل من فم الى فم ؛ كما كانوا يسرفون فى احترام الرجال المتعلمين .

ويرى الانسان نفسه مضطرا للقول بأنه اذا طرحنا موضوع عدم معرفة الكتابة وندرة المدن جانبا ، فان الغال لم ينقصهم الا الشيء القليل فىالناحية الحضارية عن الرومان فى العصر الجمهورى . أما مقدار ما بقى من هذه الحضارة بعد الغزو الرومانى ، فهى مشكلة تحتاج الى دراسة أكثر مما تم حتى الآن . وفى المجتمع الجديد الذى ظهر فى غرب أوروبا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ، كانت العناصر الجرمانية واللاتينية هى العناصر السائدة ، ولكن النظم الاجتماعية الكلتية عاشت حتما فى المناطق الريفية بعد الغزو الرومانى واستمرت وقتا طويلا ، وهيأت السكان للنظام الاقطاعى .

الفصل السادس والعشرون

شبه الجزيرة الرومانية

درس العلماء الحضارة الرومانية دراسة وافية وكتبوا عنها اكثر مما كتبوا عن الحضارة اليونانية ، وذلك لأن فضل الحضارة الرومانية على المدنية الأوروبية واضح لأى شخص على صلة باللغات التى يتحدث بها مايقرب من نصف سكان القارة الأوروبية . فالحروف الأبجدية ، والعمارة الوقور الضخمة للمبانى الحكومية ، والاخلاص لنصوص القانون والأنظمة القانونية ، والنظام المعوق للشيكات والأرصدة فى الحكومة ، كل هذه ماهى الا أشياء قليلة ورثها الأوروبيون عن الرومان . زد على هذا ، تلك الأسطورة القائلة بأن روما هى دولة العالم ، وجالبة السلام العالمى ، وقد ساعد كل هذا على طمس الحقيقة وهى أنه حتى الوقت الذى أصبحت فيه روما قوة عالمية كان الرومان أنفسهم من البرابرة غير المتمدنين . وحتى بيرهوس (Pyrrhus) الايبيروتى الذى عاشرهم بعد فترة تقرب من مائة عام بعد أيام الاسكندر الأكبر ، فانه يعتبرهم برابرة ولكنه لاحظ بدهشة أنه ليس هناك شىء بربرى فى الطريقة التى نظموا بها جموع جنودهم . ولابد أن غزوهم للمدن الاغريقية التى كانت فى جنوب ايطاليا وتوسعهم السريع المدهش الذى ثبت سيطرتهم على شرق البحر الأبيض فى وقت قصير لا يعدو الخمسين عاما ، لابد أن ذلك قد جعل الشعوب المتمدنة التى كانت فى المنطقة تنظر الى هذا الغزو كنظرتها الى الغزو الذى قامت به قبائل الغال من قبل .

ومن الناحية الحضارية ، كانت ايطاليا متأخرة عن البلاد الايجية خلال معظم أيام تاريخها ، وليس ذلك الامجرد انعكاس للحقيقة المعروفة وهى أنه لابد لأى نظام حضارى من وقت كاف حتى يصل من نقطة الأصل . واذا تساوت الظروف ، فكلما زادت المسافة من نقطة الأصل الى منطقة معينة ، تأخر وصول الحضارة . أتى أوائل المستقرين فى العصر النيوليتى الى ايطاليا من ناحية الشرق ، اما بطريق البحر أو أنهم ساروا بحذاء الشاطىء ، وكانوا جزءا من جناح الهجرة الى البحر الأبيض المتوسط عندالاستقرار فى أوروبا فى العصر النيوليتى . كانت حضارة هؤلاء المستقرين بسيطة نسبيا ولم يتقدموا تقدما حضاريا ذا شأن أو يخترعوا شيئا هاما بعد أن وصلوا الى ايطاليا . وكان العصر النيوليتى فى ايطاليا أقصر مما كان عليه فى شمالى أوروبا ، وذلك لأن ايطاليا بنوع خاص كانت تحتوى على ثروة معدنية كبيرة جذبت اليها الأجانب المشتغلين بصناعة المعادن كما جذبت اليها التجار ، وقد جاء المتجرون من منطقة بحر ايجه ومن عشيرة القدح من اسبانيا الى ايطاليا حوالى عام ١٢٠٠ ق.م. ولكن يبدو أنهم لم يؤثروا كثيرا على الحضارات المحلية .

وحوالى عام ١٥٠٠ ق . م . استقر مستخدمو البرونز من الغزاة فى وادى الـ «بو» (Po Valley) ويبدو أن هؤلاء الناس قد أتوا من وسط أوروبا ، وعلى الأرجح من المجر ، وكانوا يتكلمون على ما يبدو لغة من اللغات الهندية الأوروبية ، وأسسوا قرى محصنة سيطروا منها على السكان النيوليتيين الذين كانوا قبلهم فى المنطقة ثم انتهى الأمر باستيعابهم لهم . وكان أولئك القادمون الجدد يظلون فى مكان واحد فى قراهم مدة طويلة ، وتتميز مواقع قراهم بأكوام من التراب الزلق الرمادى اللون يسمى «ترامارى» Terramare أى طين البحر ، الذى اعتاد الزارعون الايطاليون أن ينبشوه ويذروه فى حقولهم كسماد مخصب لها . وفى أثناء عمليات الحفر هذه اكتشفت أشياء كثيرة ولكن عمليات التنقيب المنظمة بدأت منذ عام ١٨٨٠ ، ولسوء الحظ كان علم الآثار اذ ذاك

لايزال فى طفولته عندما قاموا بتلك البحـوث ، ولم يحفر كوم واحد منهـا بالعناية وبالطرق الفنية التى نستخدمها الآن . والأدوات البرونزية التى عثر عليها فى تلك الحفائر تحمل طابع وسط أوروبا ، ولكن الأوانى الفخارية من ناحية أخرى ، تشبه فخار الحضارات الايطالية المبكرة . ويكاد تخطيط قرى حضارة الترامارى أن يكون صورة لتخطيط معسكر الفرق الرومانية ، فقد حصنوا القرية باقامة سور من التراب حولهـا وعمل خندق يحولون اليـه مجرى ماء ، وكانوا يدخلون القرية عن طريق جسر (كوبرى) واحد مقام فوق الخندق وممر ضيق خلال السور . ومن المدخل يبدأ طريق واسع يؤدى الى القرية . وفى طرفه الآخر كان هناك كوم مرتفع يحتوى على ثلاث حفرات عميقة لأجل القرابين ، ومن الواضح أن هذه المنطقة كانت المنطقة المقدسة فى القرية. ويقطع الطرق الرئيسى بزاوية قائمة طريق عريض آخر ، وكانت المنازل مشيدة فى صفوف منتظمة بينهما . وبنيت المنازل كلها فيما يبدو فوق قوائم (أعمدة) ويوحى التنظيم كله بأن قرية من قرى سكان البحيرات قد أعيـد تشييدها على أرض جافة .

ومثل هذه القرى الحسنة التخطيط ، والتى بذلوا جهودا كبيرة فى انشائها ، تبدو مطابقة لميول واتجاهات الحضارة الرومانية فى العصر الجمهورى . وتفسر لنا بعض الاتجاهات فى تخطيطها بعض العناصر المعمارية فى الحضارة الرومانية التى ظهرت فى العصور التالية وكانت غير مفهومة للباحثين ، وعلى الخصوص تركيز اهتمامهم فى الكبارى . فنظرا الى أن سلامة قرية الترامارى تعتمد على الكبارى ، فمن الطبيعى بالنسبة للقرويين أن يسموا كهنتهم باسم « بونتيف » (Pontif) ومعناها الحرفى صانع الكبارى وهو تعبير يصعب تفسيره بغير ذلك. زد على هذا ، أن كلا من الكوبرى والمدخل كان من الضيق بحيث يتمكن بطل واحد بمفرده من الدفاع عنه أمام جيش مهاجم. وقصة هوراشيو (Horatius) المثيرة عند الكوبرى قد تكون قصة من القصص التى وعتها ذاكرة الشعب

منذ أيام الترامارى .

ومنذ عصر الترامارى فصاعدا حدثت غزوات متكررة إلى شمال ايطاليا ، بدأت بقوم من حضارة الهلستات ثم بعد ذلك بقبائل كلتية . ولم يكن للغزوات الكلتية أثر كبير وذلك لأنه كان يحدث بعد كل غزو أن يتراجع معظم المغيرين الى ما وراء جبال الألب مع ما حصلوا عليه من أسلاب . أما الرومان أنفسهم فقد ظهروا لأول مرة فى التاريخ كمجموعة من التجار والمزارعين استقروا فوق عدد من التلال المنخفضة على الشاطىء الأيسر من نهر التيبر على بعد خمسة عشر ميلا من مصبه . وأصبح هذا المكان مركزا غنيا للتجارة ، وفى عام ٧٥٣ ق.م. أصبح دويلة صغيرة يحكمها ملك . ويبدو أن شعور الرومانيين نحــو الحكم الجمهورى ظهر بينهم فى عصر مبكر ، اذ أنهم فى عام ٥٠٩ قبل الميلاد خلعوا الملك ، الذى كان اترورياً (Etrurian) من الناحية الأخرى من التيبر ، وقضوا على الأسرة المالكة . وأمضوا المائة والخمسين من الأعوام التى أعقبت ذلك الحادث فى حروب مع جيرانهم ويخضعونهم ويضطرونهم لأن يدوروا فى فلك روما . وفى عام ٣٩٠ ق .م. غزت قبائل الغال روما ، ونهبوا وسلبوا المدينــة قبل أن يتم طردهم منها ، ومع ذلك ففى عام ٣٣٨ ق.م. أقامت روما من نفسها سيدة على منطقة اللاتيوم (Latium) كلها . وزاد سلطان الرومان زيادة سريعة بعد ذلك . فبعد عدد من الحملات الناجحة أخضعوا السامنيين (Samnites) لحكمهم وهم قبائل قوية كانت تسكن الأراضى المرتفعة فى وسط ايطاليــا وتمت سيطرة الرومان على اتروريا (Etruria) وبذلك تمكنت روما من الوصول الى الموانى الادرياتيكية وزادت تجارتها . وفى عام ٢٧٠ ق .م. نجحت روما فى عمل مالم تستطع عمله أى حكومة من حكومات المدن الاغريقية . فقد جمعت كل شبه الجزيرة الجنوبية فى اتحاد واحد يخضع تماما لسيطرتها . واستمر الغال فى مضايقتهم للرومان من الشمال ، الى أن حول يوليوس قيصر اتجاه تلك الهجمات عندما غزا بلاد الغال نفسها واعاد الهدوء الى الغاليين .

ولكن هناك مجموعة واحدة من الغزاة أتت لتمكث ، ولتترك طابعا عميقا دائما على الحضارة الرومانية . كان الاتروسكيون أول الشعوب التى وصلت الى ايطاليا، ويمكننا أن نسميها بحق أنها كانت متمدنة. لم يترك «الاتروسكيون» الا القليل من النقوش وهى فى الغالب نقوش قصيرة مكتوبة على لوحات القبور وتلقى شيئا من الضوء على حضارتهم وأصلهم . وأهم ما يمكن أن نستخلصه من هذه النقوش هو أنهم كتبوا لغتهم بحروف أبجدية من الواضح أنها اشتقت من أصل سامى أكثر من اشتقاقها من أصل اغريقى ، كما ان اللغة الاتروسكية لم تكن سامية ولم تكن هندية أوروبية . ولم يوضح لنا العلماء أصلهم حتى الآن ، ولكن الرومان الذين هزموهم وأخذوا الكثير من حضارة الاتروسكيين وأدخلوه فى حضارتهم لم يكن لديهم شك فى المكان الذى أتوا منه . فقد كانوا يعتقدون أن التيرهنيين (Tyrrheni) كما كان الاتروسكيون يسمون أنفسهم ، جاءوا من آسيا الصغرى . والى وقت متأخر جدا فى التاريخ الرومانى كان الرومان يقيمون احتفالا سنويا تخليدا لذكرى أحد الانتصارات الرومانية القديمة على الاتروسكيين ، يقوم به الماجنون المشهورون فيرتدون ملابس على النمط السامى ويجوسون بها خلال الشوارع بينما يصيح المنادون «سردينيون للبيع » .

ويبدو أن الاتروسكيين قد وصلوا الى ايطاليا فيما بين عامى ٨٠٠و٩٠٠ق.م. وقد تكون هجرتهم اليها هى آخر هجرة من هجرات « شعوب البحر » الذين أتوا من آسيا الصغرى . وأقاموا محلاتهم السكنية الأولى فى شمالى غربى

الحياة اليومية لدى الاتروسكيين

ايطاليا ، ويوحى ذلك بأنهم تتبعوا خطى الشردان (انظر فصل ٢٢) . وبالرغم من أنه لم يحل عام ٨٠٠ ق.م. حتى كان استخدام الحديد معروفا تماما فى الشرق الأدنى ، فان معدن البرونز كان لا يزال يعتبر معدنا نفيسا يزداد عليه الطلب بشدة لعمل كل أنواع أدوات الزينة ، ومرغوبا جدا عند القبائل التى تقطن وراء جبال الألب . وربما كان وجود طبقات غنية من النحاس والقصدير فى شمال ايطاليا هو السبب الأصلى فى استقرار الاتروسكيين هناك .

ويبدو أن هجرة الاتروسكيين لم تكن هجرة جماعية كما لم تكن استعمارا منظما، ومن الأرجح أنهم كانوا يفدون فى بعض سفن قليلة فى كل مرة، واستقروا أولا على الشاطىء واقاموا من أنفسهم طبقة أرستوقراطية سيطرت على السكان الاصليين . ويبدو أن كل مدينة اتروسكية قد أسسها جماعة متصلون فيما بينهم بصلة القرابة ، اذ نرى فى مخلفاتهم اختلافات حضارية هامة . وتكونت العلاقات بين القاهرين والمقهورين على نفس الأسلوب الذى كان يتبعه الآريون فى غزواتهم فى أى مكان آخر ، وذلك بالرغم من أن تنظيم جماعة النبلاء نفسها كان مختلفا تماما .

كان النبلاء الذين يحكمون المدن المختلفة يتنازعون فيما بينهم ، ولكنهم كانوا يتحدون جميعا لانقاذ أى حاكم اتروسكى اذا ثار عليه رعاياه ، ويفسر ذلك لنا بعض الحوادث فى التاريخ الرومانى. فقد نسبوا طرد تركوين (Tarquin) آخر ملوك روما القدماء الى قصة رومانتيكية وعزوها الى جريمة سكستوس (Sextus) أحد أبناء الملك الذى اغتصب احدى السيدات المتزوجات من
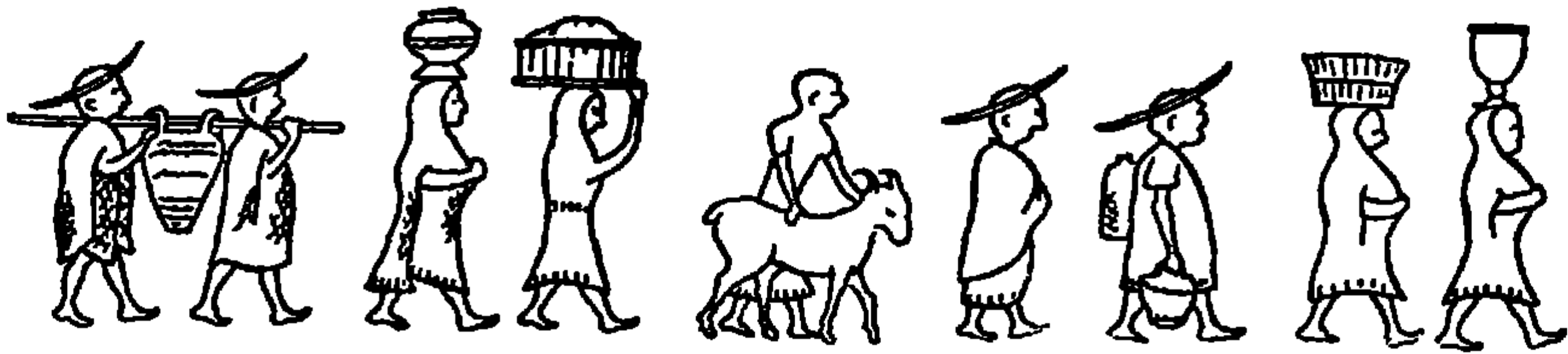
الحياة اليومية لدى الاتروسكيين

بنات روما وقادها الى الانتحار . ولكن أسرة تركوين كانت فى الحقيقة أسرة مالكة اتروسكية تحكم ما كان يعتبر فى ذلك الوقت مقاطعة اتروسكية صغيرة، وقد عثر على قبر العائلة بالقرب من المدينة القديمة « كيرى » (Caere) ولسنا نعلم السبب الحقيقى لثورة الشعب عليهم ، ولكن عندما طرد الشعب عائلة التركوين طلبوا معاونة أقاربهم الاتروسكيين الذين أرسلوا قوة مختلطةتحت قيادة لارس پارسينا (Lars Parsena) من كلوزيوم (Clusium) وهى المدينة الرئيسية فى الاتحاد الاتروسكى المفكك . وكل من يقرأ كتاب « أناشيد روما القديمة » يقفعلىالشىءالكثيرعماحدثبعد ذلكولكنمنوجهةالنظر الرومانية.

وكان التنظيم الاجتماعى للاتروسكيين تنظيما أرستوقراطيا . فعلى رأسهم كان ال « لوكومون » (Lucumones)وهم النبلاء الذين يجرى فى عروقهم الدم الاتروسكى ، ثم يليهم أفراد الطبقة المتوسطة البورجوازية الذين كانوا يتعاملون معهم ، وكانوا على الأرجح من أصل مختلط ، وكانوا يشملون الصناع المهرة والتجار ، وفى النهاية يأتى الفلاحون والصناع العاديون ، الذين كانوا من السكان الأصليين . ويبدو أن عضوية كل طبقة من تلك الطبقات كانت وراثية خالصة ، فليس هناك من طريقة يستطيع بها البورجوازى أو الفلاح أن يصل الى طبقة النبلاء . وكان النبلاء يفخرون كل الفخر بنقاء دمائهم ويحتفظون بسلسلة نسب طويلة ، وبعد سقوط الدولة الأتروسكية أصبح الكثير من العائلات الاتروسكية النبيلة رومانيين ، كما أن كثيرا من العائلات الرومانية النبيلة أصبحت تفخر بأنها من أصل اتروسكى .

وكانت كل الثروة ، فيما يبدو ، مركزة فى أيدى العائلات النبيلة ، وتوضح لنا مقابرهم العظيمة المقطوعة فى الصخر ، وتلك الأدوات الكثيرة التى وضعت فيها، اذا قارناها بأسلوب حرق الجثث البسيط الذى كان سائدا بين الطبقات الفقيرة ، توضح لنا مدى سيطرة النبلاء الكاملة على الموارد الاقتصادية فى مناطقهم . كانت هذه المقابر منازل حقيقية للموتى ، يضعون فيها جميع أنواع

الأدوات سواء ما كان منها ضروريا أو من أدوات الترف ، وكانت هذه المقابر تستخدم جيلا بعد جيل ويدل ذلك على وجود صلة قوية بين الأقارب ، وعلى وجود نوع من عبادة الأسلاف .

وفى العصور المبكرة كانت كل مدينة اتروسكية يحكمها « لارس »(Lars) وهو ملك ــ كاهن ، كانت سلطته دينية وسياسية فى وقت واحد . وكان عمله لا يقتصر على تطبيق العدالة فحسب بل كان يعمل أيضا ككاهن أعلى ويفسر النبوءات لرعاياه . ثم أصبحت المدن الاتروسكية بعد ذلك جمهوريات ارستوقراطية تحكمها حكومات وراثية من الاوليجارشية (حكومة الخاصة) تشبه تماما تلك التى كانت فى مدينة البندقية . وربما كان تنظيم روماالجمهورية بعد طرد التركوين منها ، وما كان فيها من تقسيم واضح للشعب الى اشراف وعامة ، وقصر جميع المناصب على الأشراف ، لم يكن الا اتباعا للاساليب الاتروسكية . وفى جميع عصور التاريخ الاتروسكى كان النبلاء يحتفظون دائما بالسيطرة على أمور الدين ، وكان الكهنة جميعا يختارون من بينهم ، وقد ساعدت القوى السحرية التى كانوا يدعونها على فرض سيطرتهم على العامة . وربما كان النظام الرومانى الذى يقضى بأن الكهنة الذين يشغلون المناصب العليا يعتبرون موظفين مدنيين وينتخبون لأسباب دينوية أكثر منها دينية ، ربما كان هذا النظام مستمدا من الاتروسكيين .

وكان للرومان نوعان من الآلهة . يتكون أحدهما من آلهة العائلة مثل « لارس (Lars) » و « پناتس (Penates) » اللذين كانا من أرواح الأسلاف وحراسا للمنزل . ومن المرجح أن هؤلاء كانوا من أصل اتروسكى ، وكانوا كائنات صغيرة وثيقة الصلة بعبادها . ومن الممكن لهؤلاء العباد أن يحبوها ويسيطروا عليها ، وهكذا نرى أنه اذا كانت العاطفة قد وجدت سبيلها الى الديانة الرومانية على الاطلاق فانها وجدت لها مخرجا فى الديانة العائلية ، أما المجموعة الثانية من الآلهة فانها كانت مجرد تجسيد للفضائل أو الصفات .

ومن ثم كان هناك الاله « ترمينوس «Terminus» اله الحدود الذى كان يمثله حجر الحـد ، والالهة « فستا Vesta » الهه الموقد ، وقـد مثلت بالنار المقدسة ، وعلى عـدد كبير من الآلهة غير الشخصية مثل الالهين المذكورين . وكان الاشراف على عبادة هذه الالهة من عمل الدولة ، وكان الكهنة الذين يشرفون على تأدية طقوس عبادتها موظفين حكوميين ، وكانوا يعرفون هذه الطقوس والشعائر معرفة حرفية كاملة . وكانت العلاقة بين الآلهة والدولة علاقة تعاقد بين طرفين ، وكان الآلهة يقومون بأداء ماعليهم اذا قامت الدولة بأداء ماعليها فاذا تأخرت عنهم المعونة الالهية فمعنى ذلك أن خطأ ما قد وقع فى أداء الطقوس . وقد حدث مرة أن الاحتفال نفسه قد أعيد سبع مرات لأنهم كانوا يقعون فى خطأ بسيط فى كل من المرات الست الأولى . وكنا نتوقع وجود مثل هؤلاء الآلهة ومثل هذه المواقف ازاءهم من شعب مثل شعب الترامارى ، فانها دون شك غريبة عن الطباع الاتروسكية .

ولما كان الأتروسكيون لم يخلفوا أى آداب وراءهم ، فاننا نستطيع أن نحكم على طباعهم من دراسة فنونهم . كانت مقابرهم ملأى بصور المآدب والحفلات الصاخبة التى كان يشترك فيها الرجال والنساء . وقد ذكر الرومان ، الذين كانوا يتزمتون فى الأمور المتعلقة بالأخلاق فى الفترة المبكرة من تاريخهم ، الشيء الكثير عن الفساد والانحطاط العام الذى كان يسود بين الاتروسكيين، ولكن لايوجد فى حقيقـة الأمر ما يثبت ذلك . لم تجر العـادة بين الرجال الرومانيين أن يتجردوا من ملابسهم فى حضور بعضهم البعض . بينمـا كان الاتروسكيون يتبعون التقليد الاغريقى وكانوا يرسمون صورا عارية فى أعمالهم الفنية . ومن الواضح أنهم كانوا يعرفون كيف يمتعون أنفسهم وكانوا يحبون حياة الترف ، ولهذا كانت الحلى الاتروسكية أحسن حلى فى العالم القديم. ونراهم فى الرسوم التى على الجدران يرتدون عباءات حليت أطرافها باللون الأرجوانى ، وهو اللون الذى أصبح فيما بعد علامة داله على وظيفة أعضـاء

مجلس الشيوخ الروماني .

وتدل الأدوات التى عثر عليها فى المقابر على صلات واسعة ، ويبدو من المرجح جدا أن النبلاء الأتروسكيين ، مثلهم فى ذلك كمثل النبلاء الايطاليين الذين أتوا بعد ذلك ، قد اشتغلوا بأنفسهم فى التجارة ، ولم يكن لديهم بكل تأكيد احتقار الاغريق للتكنولوجيا . كانوا زارعين مسالمين مجتهدين أدخلوا زراعة العنب والزيتون الى ايطاليا ومن المحتمل أنهم أدخلوا ايضـا استخدام المحراث ، وطريقة الدورة فى زراعة المحصولات . وربما كان ميل الرومان المتأخرين الى الزراعة واشتغال الأشراف بها راجعا الى أصل أتروسكى .وكان الاتروسكيون أيضا أمهر صناع البرونز فى عصرهم ، وقد اعترف لهم الاغريق أنفسهم بهذا التفوق .

وفى القرن السابع قبل الميلاد كانت المدن الاغريقية تقدم القدورالبرونزية الكبيرة التى كان يصنعها الاتروسكيون الى الأوليمب لا كأشياء غريبة ، أو كأسلاب حرب ، ولكن لأنها تمثل أعظم ما يمكن ان يرتقى اليه الفن فى هذه الصناعة .

ويكشف الفن الاتروسكى عن حالة غريبة . فالبرغم من تفوقهم الكبير فى الميدان التكنولوجى ، فانهم على ما يبدو لم يكونوا مخترعين سواء فى الطراز أو فى الأشياء نفسها . كانوا ينسخون الأعمال الفنية لمختلف الشعوب التى تاجروا معها ، من السوريين والمصريين والاغريق ، وأخرجوا منتجات فيها مزج عجيب كثيرا ما تظهر غير منسجمة فى فكرتها ان لم يكن فى التنفيذ أيضا ، والفن الوحيد الذى تفوقوا فيه كان فن عمل الصور للاشخاص ، وفى الوقت الذى لم تستطع فيه المحاولات الاغريقية أن تصل الى اسلوب تقريبى فى عمل صور الأشخاص ، كان الاتروسكيون يشتغلون من نماذج حية ويخرجون وجوها يتضح فيها تقاطيع وملامح وجوه الأفراد أنفسهم . وكانوا يصبون معظم صور الأشخاص من البرونز ، ولكن الأتروسكيين كانوا أيضا مشهورين

بتماثيلهم الفخارية الكبيرة التى كانت فى بعض الأحيان تتراوح فى ارتفاعها بين خمسة وستة أمتار ، ويلونونها بألوان متعددة . ولا شك أن صناعة واحراق مثل هذه التماثيل الفخارية الكبيرة الحجم كان يتطلب تفوقا تاما فى تلك الصناعة التى لم يتفوق فيها عليهم أحد . واول فنان ايطالى حفظ التاريخ اسمه كان يسمى ڤولكا (Volca) وهو نحات اتروسكى استخدمه الرومان لعمل تماثيل من الفخار للمعابد على تل الكابيتولين (Capitoline) عندما أرادوا اعادة بناء تلك المعابد بعد أن أحرق الغال مدينة روما .

وأخيرا نجح الرومان فى تحطيم قوة الأتروسكيين وضموا اليهم من بقى منهم ومن بقى من القبائل الايطالية المختلفة التى هزموها ، وجعلوا من ذلك كله دولة واحدة . ومما يستحق الذكر أن الرومان عندما قاموا بهذه العملية لم لم يحسنوا استخدام عبقريتهم المشهورة فى سياسة الدولة. فلم يعطوا للجماعات المهزومة أى نصيب فى ادارة الحكومة ، وبالرغم من أنه كان من المنتظر أن يجندوا منهم جنودا للجيوش الرومانية ، فانهم أساءوا استغلالهم من الناحيتين العسكرية والاقتصادية لدرجة أن معظمهم كانوا على استعداد لأن ينضموا الى جانب أى عدو يحارب روما . وبعد أن ثبت الرومان أقدامهم فى الجزء الشمالى من ايطاليا ، مدوا سلطانهم بالتدريج نحو الجنوب اذ قاموا بغزوات مطردة على المدن الاغريقية فى جنوب ايطاليا وصقلية . وكان أولئك الايطاليون الاغريق أعظم كثيرا فى تمدنهم من الرومان ، الذين كانوا ينظرون اليهم باحتقار الحاسد . وكان الآباء فى المدينة فى ذلك العهد يقومون بمحاولات كثيرة لمنع الجيل الناشىء من الاقبال على حضارة الاغريق ، ولكن جاذبيتها كانت أقوى من الرقابة والتشريعات التى كان يقصد بها منعهم من ذلك .

وترتب على اخضاع المدن الاغريقية أن الرومان أصبحوا وجها لوجه أمام القرطاجنيين ، وهم جماعة من الفينيقيين كانوا يسيطرون فى ذلك الوقت على غربى البحر الأبيض المتوسط من قواعدهم فى شمال أفريقيا وصقلية وأسبانيا .

وترتب على التدمير النهائى لقوة قرطاجنة بعد الحروب البونية حدوث فراغ فى توازن القوى فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، فتقدم الرومان لسد ذلك الفراغ . وعند دراسة الوثائق ، يشعر الانسان بأن الامبراطورية الرومانيةفيما وراء البحار جاءت فى الأصل عن طريق المصادفة أكثر منها عن طريق القصد. كان المؤمنون بالعزلة من بين الرومانيين ، وهم يشبهون أمثالهم اليوم بين الأمريكيين ، يحتجون على كل خطوة تخطوها الامبراطورية فى نموها المبكر ، وعندما وجدت روما نفسها فى النهاية قوة عالمية ولها صلة بمشاكل العالم . لم تكن لديها خطة انشائية لمواجهة هذا الموقف . ففى مدى خمسين عاما نهضت من دولة بربرية لا أهمية لها تقع على حدود البلاد المتمدنة الى دولة تسيطر على حوض البحر الأبيض المتوسط كله بما فى ذلك الشواطىء الأسيوية . ولم يكن لهذا التوسع مثيل فى الماضى الا غزوات الاسكندر الأكبر ، ولكن السلطة كلها كانت مركزة فى يد ذلك القائد القاهر نفسه . وأثبت النظام الجمهورى الرومانى ، بما فيه من نظم التدقيق والموازنة التى تشل سير العمل ، أنه غير كاف لمواجهة الأحوال الجديدة على الاطلاق . كانت الفضائل الرومانية هى فضائل الفقراء والفلاحين الكادحين ، ولم يكن فى روما الجمهورية طبقة متعلمة او طبقة لديها فراغ من الوقت ، وكان اشرافها الفقراء يشتغلون كزارعين فى أراضيهم ، ولم يكن فى مقدورهم ارتكاب معظم الخطايا التى يمقتونها . وعندما بدأت الثروة تتدفق على المدينة من الشرق ، أثبتت هذه الفضائل انها لم تكن قائمة على أساس ثابت ، اذ امتازت الأيام الأخيرة للجمهورية بالشره الشديد للحصول على المال ، وهو نوع من ذلك التفاخر الكاذب الذى نتوقعه من محدثى النعمة ، الذين يصيبهم التبلد وعدم الاهتمام بكل القيم الانسانية . وكان قواد الجيوش القاهرة والحكام الذين يرسلهم مجلس الشيوخ فى أعقابهم يركزون اهتمامهم فى السلب والنهب لدرجة لم يسبق لها مثيل . وكانت الثورات تنشب فى بلاد الشرق حيث كان الشعب يعامل

معاملة أسوأ مما يستطيع أن يتحمله حتى الفلاحون الأسيويون ، يضاف الى ذلك هذا الصراع على السلطة بين القواد المختلفين ، فكان ذلك كله سببا فى انهيار معظم النظم التى كانت سائدة فى الجمهورية الرومانية القديمة .

وكان النظام الوحيد الذى استطاع البقاء ، واستطاع تأدية وظيفته الأصلية بطريقة فعالة تحت هذه الظروف ، هو النظام العسكرى الرومانى . كان التقليد القديم للجيش هو أن يدين بالولاء للدولة ، ولكن الولاء للقائد أخذ يحل محله ، ومع ذلك ظلت دقة النظام فى الجيش على ثباتها ، كما أن الأساليب العسكرية الرومانية كانت تفوق مثيلاتها عند أى عدو من أعدائهم اللهم الا البارثيين حيث كان رماتهم ، الذين يمتطون صهوة الخيل ويلبسون دروع الحرب ، أكثر من ند للجيوش الرومانية . وباستثناء الجبهة البارثية فان الغزو الرومانى لم يقف الا ازاء الفقر المتزايد والتأخر الحضارى عند القبائل التى كانت تواجههم . وكشأنهم دائما كرجال أعمال مهرة ، أقام الرومان حدودهم عند الأماكن التى كانوا يدركون أن الدخل المرتقب من المناطق الجديدة كان لا يكفى لسد مصاريف الغزو والادارة .

ووصلت شرور عصر الغزو الى قمتها فى حروب ماريوس (Marius) وسيلا (Sylla) وهى الحروب التى مهدت السبيل لقيام الامبراطورية الرومانية تحت رئاسة أغسطس . وفى هذه الامبراطورية احتفظوا بمجلس الشيوخ الرومانى والنظم القديمة للجمهورية الرومانية من أجل التأثير السيكولوجى فقط ، ولكنهم جردوه من كل سلطة حقيقية . كانت الدولة التى نشأت تسير فى نظمها على الأساليب الملكية الهلينيستية ، تلك الأساليب التى تطورت منذ زمن بعيد فى بلاد الشرق الأدنى خلال قرون كثيرة من المحاولة والخطأ . ولم يتقبل الرومان عبادة الامبراطور ، التى كانت جزءا لا يتجزأ من النظام الهلينيستى الا مع كثير من التردد من الأباطرة الأولين الذين وجدوا أنها أمر يدعو الى السخرية . وتجنب أغسطس أى لقب من الألقاب القديمة التى كانت

تحمل معانى مؤذية لآذان الجمهوريين ، ومع ذلك ظلت له السيطرة المطلقة . كان الامبراطور يعتبر الامبراطورية ضيعة خاصة له ، ولم يفرق بين خـزانة الدولة وبين ثروته الخاصة . ونظرا لأنه كان أيضا قائدا للجيش،فقدكانقادرا على أن يحصل لنفسه على هذا الولاء الذى كان للدولة ، كما استطاع أيضـا أن يحصل على اخلاص الجندى لقائده .

واستلزم النظام الامبراطورى الرومانى خلق وظائف ادارية أمينة ومخلصة، وأصبحت سرقات الموظفين الرومانيين التى كانوا ينظرون اليها فى أيام الحكم الجمهورى كنظرة الأمريكيين فىالوقت الحاضر الىالسياسيين الذينيحصلون على المال بطرق غير شريفة ، أصبحت معتبرة اختلاسات لأموال الامبراطورية ومن الطريف أن سكرتيريى الامبراطور أغسطس، وكانوا بمثابةمجلس الوزراء، كانوا مع استثناءات قليلة من الاغريق ، بل كان بعضهم من الذين أصبحوا اغريقيين بعد تحريرهم وشبوا فى بلاد الشرق الأدنى ، وكانوا لهذا السبب ملمين بالنظم الهلينيستية سواء فى ادارة الحكومة أو فى ادارة الضياع الكبيرة، واستطاع أغسطس بمعونتهم أن ينظم الامبراطورية علىأساس سليم استطاع البقاء مدة قرون عدة بالرغم من وجود الأباطرة الفاسدين وغير ذوى الكفاية وكثرة الحروب التى كان يقوم بها المتنافسون الذين كانوا يطمعون فى ارتداء الثوب الارجوانى (ثوب الأباطرة) .

وبعد انتهاء الفترة الأولى من أيام الغزو ، وفى خلال الأوقات الطويلة التى لم تصل فيها المنازعات على الرداء الأرجـوانى الى حد الحروب الأهلية ، أضفت الامبراطورية الرومانية على أصحابها فوائد حقيقية . فقد حافظت على السلام بين رعاياها وحمتهم من هجمات البرابرة وأقامت طرقا جديدة للتجارة ، كما أصلحت الطرق القديمة. وقدمت لأعظم جزء متمدن فىالعالم الغربى القديم نظاما عاما للقوانين كما اعطته لغة مشتركة ، ولكن العنصر الأخير كان اغريقيا أكثر منه لاتينيا .

وأخيرا كان الرومان أول من استخدم استخداما دائما منح لقب المواطن بما يصاحبه من حقوق وامتيازات الى مجموعة منتخبة من الأفراد من بين رعاياهم، ولم يعط هذا التنظيم للرعايا الأمل فى المساواة الاجتماعية فحسب ، ولكنه نجح نجاحا مباشرا فى الحصول على كثير من أقدر قوادهم وضمهم الى جماعة الحكام .

وبالرغم من كل هذه الفوائد لم يتمكن الرومانيون ابدا من وضع سياسة مالية تدعو الى الرضا ، فمنذ قيام الامبراطورية فصاعدا كان هناك تدهور تدريجى فى مصادر الثروة الرومانية ، وحتى تحت حكم الأباطرة الاكفاء ، كان من الصعب جدا تمويل الحروب الدفاعية ضد هجمات البرابرة. ويجدر بنا أن نذكر أن النظم الهلينيستية للحكومة التى نسبها الرومان لأنفسهم قد تم تطورها فى الشرق الأدنى من منطقة كان فيها عدد كثيف من السكان الذين يعيشون فى القرى والمدن . كانوا يعيشون منذ الأزل على الرى ، وعلى اتباع طريقة الدورة فى انتاج المحصولات ، وتقدم سكانها تقدما عظيما فى التجارة وفى المصنوعات . وكانت أوروبا ، وحتى ايطاليا نفسها ، على نقيض ذلك منطقة متأخرة ، وكان سكانها من أهل القرى يعيشون متفرقين متباعدين عن بعضهم ، كما كانت أراضيهم آخذة فى الاضمحلال ولم يكن فى تلك المناطق غير القليل من المدن غير المهمة .

وفى رأى التاريخ انه يجب على المرء أن يتذكر أن الامبراطورية الرومانية لم تكن الا امتدادا غريبا للحضارة الهلينيستية التى نشأت فى الشرق الأدنى ، وقد ظل هذا الشرق مركزا يمدها بقوة الاستمرار . وكما نرى فى الحالات الكثيرة التى تمتد فيها الحضارات الى مناطق لا تصلح بيئتها لتلك الحضارة، نرى أن جذور المدنية الهلينيستية لم تجد لها تربة صالحة فى الغرب . ومع مضى الزمن استعادت الحضارات الكلتية والجرمانية مكانتهما وتقهقرت الحضارة الهلينيستية نحو الشرق حيث عاشت فى بيزنطة ، وهى ما يسمونها

الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وبقيت هناك حتى القرن الخامس عشر بعد الميلاد . وترك تقهقرها أمر السيطرة على أوروبا فى أيدى القبائل البربرية التى تقدمت فى حضارتها ، ولكن لم تتغير بسبب صلتها بروما الهلينيستية . ووجدت هذه القبائل أن كثيرا من عناصر الحضارة الهلينيستية لايمكن أن يتفق مع نظمهم التى وضعوها وارتضوها لأنفسهم منذ زمن بعيد . وبينما أرادت روما أن تحتم عليهم قبول النظم الشكلية للدولة الرومانية فانهم أعادوا تفسير هذه النظم بما يتفق مع ما لديهم من قيم .

وفى غرب أوروبا ، تبلورت الفوضى التى تلت سقوط الرومان وأنتجت النظام الاقطاعى وهو كما قال هـ . جـ . ويلز ، لم يكن نظاما بل فوضى لم تنظم الا قليلا . وعندما انهارت السلطة كانت الحاجة الماسة فى مجتمع العصور الوسطى هى حاجتهم الى الحماية اذ لم يعد هناك وجود للسيطرة الحكومية التى كانت عادة تحمى حقوق المواطنين . كان الفلاحون وصغار الملاك فريسة سهلة لأى عصابة متجولة من الغزاة الذين كانوا يهبطون عليهم ، ولذلك كانوا مضطرين للبحث عن الحماية حيث يجدونها ويدفعون كل ما كان يطلب منهم. وهكذا كان فى مقدور مالك الأرض القوى وبطانته من الرجال المحاربين أن يخضع جيرانه الضعفاء ويضطرهم الى أن يصبحوا أتباعا له فى مقابل حمايته لهم. وقد نجم عن ذلك نظام النبلاء الذين يملكون المقاطعة ، والفلاحين الذين يعملون معه كرقيق للأرض ويحاربون من أجله عند اللزوم .

كان أساس هذا النظام هو « الاقطاعية » التى كانت فى العادة مساحة من الأرض ، ولكن قد تكون هذه الاقطاعية فى صورة أخرى ، مثل الحق فى تشغيل طاحونة أو تحصيل الضرائب أو شغل منصب مربح آخر . وكان كل نبيل يحاول أن يحصل على كثير من « الاقطاعيات » على قدر الامكان ، وفى مقابل كل اقطاع كان المستفيد منه يقسم على الولاء لسيده الذى منحه له ، ويعنى ذلك ارسال العدد المطلوب من الرجال المحاربين ليكونوا تحت

أمر السيد عند اشتباكه فى الحرب ، وأن يكون مخلصا فى تنفيذ مايشاؤه سيده فى كل وقت . وكون النبلاء من أنفسهم طبقة ارستوقراطية عسكرية ، وكانوا مدربين على فنون الحرب . وأعظم هذه الفنون فى الأهمية هى مقدرتهم على القتال وهم يرتدون حلة من الدروع المصفحة الثقيلة ، وهى مهارة تتطلب مرانة كبيرة ، فان مثل هذه الحلة المصفحة قد تزن ١٥٠ رطلا . وكان النبلاء يعيشون فى مقاطعاتهم التى كانت من الناحية العملية محتوية على مايكفى لمن فيها ، تزودهم بالطعام وتصنع الأدوات وتقدم المنتجات للسيد وأتباعه وللفلاحين الذين يعيشون فى المنطقة أيضا .

ونظام الاقطاع فى جوهره مجتمع ريفى ، ويقيم فيه النبلاء فى مقاطعاتهم أما المدن فكان يقطنها عدد صغير من السكان الذين ينتجون الأشياء القليلة الخاصة التى لايستطيع الفلاحون انتاجها . ومع نشأة المدن انتهى نظام الاقطاع ، وفى المنطقة الواقعة حول البحر الأبيض المتوسط حيث ظلت نظم المدينة سارية بعد سقوط روما ، لم يصبح الاقطاع قويا على الاطلاق كما حدث فى الشمال .

ويمثل الاقطاع مجتمعا مرتبا ترتيبا طبقيا جامدا . وفى هذا النظام ، من الناحية النظرية على الأقل ، لم يكن فى استطاعة أى انسان أن يرتفع فوق المرتبة التى ولد فيها . ومع ذلك ، وكما كانت الحال فى معظم النظم الاجتماعية الكاملة ، فقد كان فيه مايشبه صمام الأمان ليجذب نشاط أعضاء الطبقة الدنيا من الأذكياء المشاغبين الذين لو لم يوجد مثل هذا الصمام أمامهم فانهم يقومون بالثورة . كان المنفذ الوحيد المؤدى الى التقدم الاجتماعى هو طريق الكنيسة . كان رقيق الأرض مرتبطين بالأرض ولا يستطيعون تركها ، وكانوا يباعون مع الأرض كما لو كانوا جزءا منها ، ولكن ابن رقيق الأرض ، اذا كان قادرا وطموحا ، كان يستطيع الالتحاق بالكنيسة . وعلى هذا الأساس كان يستطيع من الناحية النظرية ، أن يصل الى مركز البابوية وأن يقف على

قدم المساواة مع الامبراطور نفسه الذى كان الرئيس الدنيوى للحكومة . وبهذه الطريقة نجحت الكنيسة جيلا بعد جيل فى استخلاص أعظم العقول فى المجتمع وفى ايجاد أمل ومنفذ للقلقين والمشاغبين الذين كانوا أقدر الناس على خلق المتاعب فى ظل ذلك النظام الجامد .

واستطاعت الكنيسة ببعد نظرها أن تمنع رجالها من أن يصبحوا طبقة ارستوقراطية وراثية وذلك باصدارها قانونين رئيسيين. أولهما: منع القسيس من الزواج ، وثانيهما ، ألا يسمح لأى ابن غير شرعى من أن يحتل أى وظيفة فى الكنيسة . وترتب على ذلك أن طريق التقدم فى الكنيسة ظل مفتوحا دائما ، وكان يجتذب عناصر جديدة بصفة مستمرة من كل طبقات المجتمع . ولهذا السبب كانت الكنيسة ، بعد أن وضعت نظمها على غرار نظم الامبراطورية وأخذت كثيرا من مهام الامبراطورية الدينوية عند سقوط الامبراطورية الرومانية ، آخر حصن هلينيستى فى غرب أوروبا . ولكن عدم تجانسها وتوافقها مع حضارات البرابرة أدى الى مصادمات لا حصر لها بين الكنيسة والدولة الى أن وضع الاصلاح البروتستانتى حدا لذلك .

الفصل السابع والعشرون

الاســــــلام

عندما اضمحلت الامبراطورية الرومانية فى الغرب وانتهى أمرهـا ، ظلت الامبراطورية الشرقية مستمرة فى أداء رسالتها . وبزغت من الشرق الأدنى دولتان احداهما كانت تسمى الامبراطورية البيزنطية ، وهو أفضل بكثير من اسمها الآخر وهو الامبراطورية الرومانية الشرقية ، لأن لغتها الرسمية كانت اللغة اليونانية واستمدت أغلب حضارتها من اليونان وسوريا . ولم يستطع الرومان أبدا أن يغزوا بلاد البارثيين وهم الشعب الذى كان يسكن فى بلاد ايران الحالية ولكنه استطاع فى يوم من الأيام أن يمد حدوده الى دجـلة والفرات ، اذ ظهرت فى هذه المنطقة فى القرون الأولى بعد ظهور المسـيحية دولة قوية على درجة كبيرة من التمدن .

كانت المملكة الساسانية سليلة مباشرة للامبراطورية الفارسية التىاشتبكت فى حروب مع الاغريق ، ولكن مهما تغيرت الأسرات الحاكمة مع مرور الأيام فان النظم العامة فى البلاد تستمر باقية . فقد كانت ايران بلادا على درجـة كبيرة من التنظيم والمدنية ، وكانت الديانة الزرادشتية ، وهى الديانةالرسمية للدولة لفترة من الزمن ، هى المنافس الأكبر للديانة المسيحية . كانت الديانة الفارسية ديانة تقوم فى أساسها على التثنية ، كانت تقوم على الفكرة القائلة ان قوتين تسيطران على العالم ، وان هاتين القوتين تتصارعان دائما ، وهمـا الظلمة والنور أو الشر والخير . كان أهريمان (Orimon) اله الظلام وكان أهور امازدا (Ormuz) اله النـــور ، وكان الصراع بين هـذين الالهين

صراعا متكافئا ولهذا كانت النتيجة دائما موضع شك . لم يكن أحدهما الها له القدرة التامة على الكون مثل فكرة الاله فى المسيحية ، وكان واجب الرجل الطيب أن يقف فى صــف أهورامازدا ، وأن يكــون له نصيب فى الصراع .
واستعارت المسيحية من تلك الديانة شيئا هاما وهو الفكرة الخاصةبالشيطان وذلك الصراع المتكافىء بين الله والشيطان ، وهو صراع لم تكن نتيجته مؤكدة بل كانت موضع شك كما سبق القول .

وبقيت الامبراطورية البيزنطية ، وكانت تقع الى الغرب من بلاد الفرس ، ولكنها كانت تتطور مع مرور الأيام وأصبحت أشد وأصلب فى اتباعهاللتقاليد الجامدة ، ومع ذلك استطاعت أن تقوم بعمل شيء كان على درجة كبــيرة من الأهمية . لقد استطاعت أن تضم اليها شعوبا ذوى حضارات مختلفة ونجحت نجاحا مرموقا فى ذلك . واذا ألقينا نظرة على أسماء موظفيهاوأباطرتها وقوادها نجد أنهم كانوا رجالا من أصــول متباينة الى أبعد الحــدود . فمثلا كان بلــزاريوس (Belesarius) القائــد البيزنطى العظيم بن احــد الفــلاحين السلافيين من البلقان ، وكان عدد من الأباطرة من أصل عربى كما كان عــدد آخر من أصل سلاف أو من اليونانيين أو السوريين ، ومن المحتمل أنه لم يكن بينهم امبراطور واحد ينحدر من أصل رومانى خالص . ويبدو أن بيزنطة لم تكن تفرق فى المعاملة بين الأجناس أو بين أبناء الشعوب المختلفــة وكان فى استطاعة أى شخص أن يصبح أحد رعاياها ، فاذا كان حائزا على الصــفات الضرورية ، وأكثرها لا تقره الآن مثلنا العليا فى الأخلاق مثل القدرة عــلى الدس ومعرفة استخدام السم وأمثال ذلك ، ففى مقدوره أن يصــل الى مكانة كبيرة .

وبهذه المناسبة نذكر حقيقة طريفة ، وهى أنه بعد استيلاء النازيين على الحكم فى ألمانيا ، قبل قيام الحرب العالمية الثانية وانهيار المانيا ، أخذ بعض العلماء الألمان الجادين يقومون بدراسات كثيرة للنظام البيزنطى . فقد كانوا يعرفون

أنه لو تمكنت المانيا من التغلب على أوروبا فستضم اليها الشعوب المغلوبة، وكان يهم هؤلاء العلماء أن يعرفوا كيف تم ذلك على يدى الامبراطورية البيزنطية ، ولكن هذه البحوث لم ينته منها أصحابها أو يصلوا الى النتائج النهائية التى تفسر لنا تفسيرا كاملا كيف استطاع البيزنطيون النجاح فى ذلك الأمر .

ومما يدعو الى الدهشة انه كانت هناك صلة وثيقة بين بيزنطة وبلاد اسكنديناوة ، وقد حدث ذلك بمحض المصادفة . فقد وصل بعض الاسكنديناويين مخترقين الأراضى الروسية السهلة باحثين عن أماكن يستطيعون أن يحضروا اليها سفنهم الطويلة التى لا تغوص كثيرا فى الماء ويحضرون عليها حمولة قليلة . كان بعض هؤلاء الاسكنديناويين من التجار ، ولكن البعض الاخر كان يجمعهم أباطرة القسطنطينية ليجعلوا منهم حرسا امبراطوريا لهم ، وكان يسمى الحرس الڤرنجى (Varangian) على غرار الحرس البريتورى (Praetorian) القديم . وكان من الأمور اللائقة بالأمراء الاسكنديناويين وبخاصة الشباب المتحمس الذى قتل غريما له فى مبارزة وأراد أن يترك البلاد حتى ينسى الناس ذلك الحادث ، أن يذهبوا الى القسطنطينية وينضموا الى الحرس الڤرنجى لمدة بضع سنوات ثم يعودوا بعد ذلك الى بلادهم مع ما جمعوه من مال ، وقد عثر فى بلاد اسكنديناوه على عملة بيزنطية أكثر من أى بلد آخر فى العالم . ويبدو أن الاسكنديناويين كانوا يفضلون دفن مغانمهم التى أخذوها معهم الى الشمال بدلا من انفاقها . وأقدم ماكتب عن النورسيين الوثنيين هو ما كتبه باللغة العربية أحد العرب الذى زار موطنهم فى الروسيا ، لقد ترك لنا وصفا هاما واقعيا لطريقة الدفن التى كانت متبعة لدى الڤيكنج بما فى ذلك القرابين الآدمية ، الأمر الذى يكاد يتفق اتفاقا تاما مع الأوصاف التى وردت فى قصصهم البطولية .

وكانت بيزنطة فى حالة اجهاد مستمر ، فمن ناحية كانت تجهدها حروبها

مع الفرس الساسانيين ومن ناحية أخرى كانت تجهدها الغارات المستمرة من الشمال التى كانت تقوم بها قبائل البلغار والسلاف وغيرهما . وفى القرن السابع بعد الميلاد كانت بيزنطة والفرس قد أنهكوا بعضهم فى الحروب انهاكا تاما وأوصلوا الفلاحين فى المناطق التى كانت مسرحا لتلك الحروب الى حالة تامة من اليأس وعدم الاهتمام بكل مايحدث . وكانت الطريقة التى يتبعها الحكام للحصول على الضرائب هى أن يعينوا أغنى رجل فى أى منطقة محصلا للضرائب . فاذا تركوا له الحرية فى اتباع ما يريده من وسائل ولم ينجح فى تحصيل الضرائب المطلوبة كان عليه أن يدفع الفرق من ماله الخاص ، ولسنا نتوقع أن مثل هذا العمل كان يجعل من الناس أصدقاء متحمسين للحكومة المركزية .

وفى هذه الظروف ، وعلى ذلك المسرح ، ظهرت جيوش العرب الغازية فى عهد من خلفوا « محمد » مباشرة (١) . لقد أطلنا فى الحديث لنعطى صورة واضحة لما كان حادثا أيام الغزو ، لأننا سنجد صورة أخرى أشد غرابة عندما استطاعت الجيوش العربية الصغيرة الآتية من الصحراء أن تهزم جيوش أعظم امبراطوريتين فى العالم فى ذلك العهد . ولكن الامبراطوريات الكبيرة لايمكن أن تهزم بسهولة ما لم يصبها التحلل فى داخلها ، ونحن نرى

---

(١) كتب المؤلف هذا الفصل كغيره من فصول الكتاب ، ونحا فيه نحوا علميا خالصا ، ولكنه فى بعض المواضع قد صعب عليه فهم أهداف الاسلام لانه من ناحية من غير المؤمنين به ، ومن ناحية أخرى ليس من المتخصصين فى الدراسات الاسلامية ، وربما كان الخطأ راجعا الى المصادر الاجنبية التى استمد منها معلوماته . وقد اضطررت فى حالتين فقط الى ترك بعض جمل فى الكتاب لخطأ ماورد فيها ، ولكنى بذلت كل ماوسعنى الجهد للابقاء على أقوال المؤلف وأسلوبه مهما ورد فيها من آراء ربما لايرضى عنها بعض المتزمتين الذين لايؤمنون بمثل هذا الاتجاه فى البحث ، وربما كان العيب الرئيسى هو خلط كاتبه ، كمئات من أمثاله من الكتاب الغربيين بين الدين الاسلامى وبين عادات بعض الناس من المسلمين المتأخرين فى حضارتهم ، والذين يأتون كثيرا من الاعمال التى لايرضى عنها الاسلام الصحيح . (المترجم)

هنا شيئا يشبه ، ولو شبها ضئيلا ، غزوات القبائل البربرية الهمجية فى أوروبا، ولكن الفارق المهم الذى سهل على العرب غزواتهم هو أنه بينما كان للغزاة المتوحشين فى العصور السابقة الذين غزوا الامبراطورية الرومانية تنظيم قبلى يحتم عليهم أن يقاوموا بعض المقاومة الأغراب الذين انضموا اليهم وأصبحوا جزءا من القبيلة ، نرى العرب وقد وحد بينهم دين واحد ، وكان دينا قويا يهدى الى الصواب ويرحب بمن يريدون الدخول فيه . وفى الأيام الأولى للغزوات الاسلامية كان كل من يتبع دينهم يصبح أخا فى الاسلام ؛ ولا شك أن كثيرا من الغزوات العربية الأولى كانت تحمل فى طياتها ثورة اجتماعية هيأت للعامة من الناس فرصا أفضل مما كان ميسورا لهم فى ظل النظم القائمة فى الامبراطوريات القديمة .

والديانة المحمدية ، والأفضل أن تسمى الديانة الاسلامية او الاسلام ؛ بدأت بما كان يعلمه محمد لأتباعه ، فقد ولد فى مكة فى عام ٥٧٠ ميلادية من عائلة ذات مركز حسن ولكن أباه مات قبل ولادته كما ماتت أمه عندما كان فى السادسة من عمره . وكانت طفولته غير مستقرة وصعبة لأن الطفل اليتيم كثيرا ماكان يذهب ليقيم عند مختلف المرضعات والأقارب . وفى السنوات الاولى من سنى المراهقة كان يعمل راعيا فأصبح لديه وقت كثير لاطالة التأمل والتفكير . وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره ذهب الى سوريا مع عم له ، وخاض غمار حرب دينية محلية ، وعندما أصبح فى الرابعة والعشرين كان ينوب عن أرملة غنية (وهى السيدة خديجة) فى السفر بقافلتها التجارية ، وبعد عام آخر أى فى عام ٥٩٥ ميلادية تزوج تلك الأرملة التى كانت فى الأربعين من عمرها وكانت قد تزوجت قبل ذلك مرتين ولها من زوجيها السابقين ولدان وبنت ، وولدت له هذه الأرملة ولدين ماتا عندما كانا طفلين ، وأربع بنات . وفى السنوات الواقعة بين عامى ٥٩٥ ، ٦١٠ كان محمد تاجرا محترما فى مكة وكان يلقب بالأمين نظرا لما اتصف به من صدق وحكمة فى أحكامه . وعلى

أية حال فعندما بلغ الاربعين من عمره بدأ يحس بعدم الرضا عن حياته الهادئة الرضية وكان يذهب الى كهف خارج مدينة مكة ليتفرغ للتأمل ، وجاءه الوحى فى صورة أحلام وأصبح مقتنعا ان الله قد اختاره ليكون وسيلة لهداية الناس .

ولم تكن مكة مدينة هامة على طريق القوافل فحسب ، بل كانت أيضا مركزا للحج الدينى لأنها كانت مقر عبادة أحد الآلهة الهامين فى الديانة العربية القديمة . ولهذا السبب كان أهل مكة ميالين الى الأمور الدينية ، كما سهلت عليهم اتصالاتهم بالتجار الوقوف على ما لدى اليهود والمسيحيين من آراء .

واجتذب الوحى الذى نزل على محمد عددا من الأتباع وبدأ يبشر بين الناس ويدخل آخرون فى الدين الجديد . وكجميع المدن العربية كانت مكة منقسمة الى أحزاب مختلفة ، وحاولت جماعة قوية ممن كانوا يكرهون عائلة محمد ، ورأوا فى تعاليمه ما يهدد تجارة الحج ، حاولت أن تغتاله ولكنها لم تنجح فى محاولتها . وهاجر محمد والجماعة المخلصة القليلة من أتباعه الى المدينة فى يوم ١٦ يولية عام ٦٢٢ وهو تاريخ هام يجب ألا ننساه لأنه عام الهجرة الذى يؤرخ به جميع المسلمين حتى الآن ، كما يؤرخ المسيحيون بذلك اليوم الذى قيل انه تاريخ مولد المسيح .

ورحب سكان المدينة ، وتقع الى الشمال من مكة بمحمد ، وبخاصة لأنهم كانوا منافسين قدماء للمكيين ، وكثيرا ماكانت بعض المدن تلجأ الى سياسة أخذ أحد الغرباء المنفيين من بلده ومساعدته ليصبح مواطنا ذا شأن لكى يخلق المتاعب لمدينته التى فر منها .

ونشبت عدة مواقع بسيطة بين مكة والمدينة وأخيرا جمع المكيون جيشا كبيرا محاولين الاستيلاء على المدينة . ويمكننا أن ندرك مستوى ثقافة العرب فى ذلك العهد من أن هذه الغزوة مذكورة فى التاريخ الاسلامى تحت اسم غزوة الخندق . فقد قامت المدينة بارشاد أحد الفرس الذين أسلموا وكان

يعيش فيها (١) بحفر خندق حولها . ولم تكن لعرب الصحراء فى تلك الأيام الا خبرة قليلة لاتكفى للتغلب على أى تحصينات حربية، بل وصل بهم الأمر الى أنهم لم يعرفوا ماذا يفعلون تجاه هذا الخندق . وعسكروا خارج المدينة ولم تكن لديهم أى فكرة عما يمكنهم عمله ليدخلوا اليها . وبعد بعض المناوشات القليلة بدا لهم أن الحصار لا فائدة منه ، وأنهم لايستطيعون أن يفعلوا شيئا، وكانت القوة المهاجمة مكونة من عشائر وبدنات مختلفة وتوجد بينهم أحقاد ومنازعات . فلما لم تنشب معركة تجعلهم يجمعون على أمر واحد بدأوا يتشاجرون فيما بينهم وأخيرا تفرقوا .

وبعد هذا النصر الذى لم يرق فيه دم ، لم يعد أحد يشك فى قوة محمد فى بلاد العرب . وفى عام ٦٣٠ قام بينه وبين أهل مكة اتفاق بأن يسمحوا له بالعودة الى مكة مقابل أن يجعل هذه المدينة مركزا لديانته الجديدة وبذلك يضمنون بقاء ، بل وزيادة ، دخلها من تجارة الحج .

عاد محمد الى مكة فى عام ٦٣٠ فهدم أصنام الديانة القديمة وحرم على أى حاج ، اللهم الا حجاج المؤمنين ، أن يدخلوا الى مكة ، وأمر بأنه يجب على عبدة الأوثان أن يختاروا بين اثنين اما القتل واما الاسلام . أما « أهل الكتاب » ، ويعنى النصارى واليهود (٢) فقد سمح بأن يظلوا على دينهم ، ولكنه فرض عليهم ضريبة خاصة .

ومات محمد بعد عامين من عودته الى مكة ، مات وهو فى سن الثانية والستين ، وهى سن غير قليلة بالنسبة الى الأنبياء اذ أن أكثر زعماء الديانات الكبيرة ماتوا قبل أن يوطدوا بحوثهم الفكرية الخاصة بالأديان التى كانوا

---

(١) يشير المؤلف الى سلمان الفارسى الذى أشار على النبى عليه الصلاة والسلام بحفر الخندق . (المترجم)

(٢) يضيف المؤلف اليهم المجوس أيضا ولكن هذه الاضافة ترجع الى أيام عمر بن الخطاب وأهل السنة يقتصرون فقط على النصارى واليهود . (المترجم)

يبشرون بها .

مات محمد بعد أن نجح وأصبح رجلا ميسورا ، وهو يختلف أيضا فى ذلك عن غيره من الأنبياء ، كان رجلا اجتمعت له التجارب ، فقد عمل راعيا للغنم ومحاربا وتاجرا . وكان يعرف ثقافة العرب معرفة تامة وكانت تعـاليمه تلائم حاجات الناس ولم يطلب منهم شيئا يمزق نظمهم الأساسية فى الحيـاة .

لقد عمل من أجل توحيد العرب والقضاء على التعصـب القبلى القـديم وتحويل ذلك الى ولاء دينى ، وبكل تأكيد كانت تعاليم محمد أكثر صراحـة وفهما مما كان عليه الحال فى الديانة الزرادشتية أو الديانة المسيحية وهمـا الديانتان اللتان كانتا تنافسان الاسلام منذ نشأته .

وشعر العرب الذين كانوا على علم بتعاليم اليهود والنصارى وآرائهم انهم ينقصهم شىء وذلك لأنه لم يكن لديهم (عند موته) كتاب مقدس أو حديث مكتوب . فقد بدأ عرب الصحراء فى ذلك الوقت يقبلون على تعلم الكتـابة ، وكان لديهم ذلك الخوف والاحترام للوثائق المكتوبة وما عساه أن يكون لها من تأثيرات سحرية ، وهو أمر لا يقتصر عليهم وحدهم بل تشترك فيـه كل الشعوب التى لا تعرف القراءة والكتابة .

يتكون القرآن من الآيات التى نزلت على محمد ، فسد حاجة طالما شـعر بها العرب فى حياتهم ، وقد نطق محمد بجزء كبير منه عندما كان فى حـالة غيبوبة ، ولغة القرآن لغة عالية شعرية التركيب تجمع بين ابتهالات غامضة وتحذير للمؤمنين ، ويتناول فى بعض أجزائه الأخرى أمورا مختلفة .

وبالرغم من أن محمدا لم يعش طويلا ليضع حدا نهائيا لكل ما استجد من مشاكل فانه وضع أسس عقيدة ونظام قانونى أتمها من جاءوا بعده . وورد فى القرآن عدد لا يحصى من القواعد الخاصة بالسلوك ، والى جانب القـرآن نفسه فقد كان هناك أيضا الحديث وهو مجموعة أقوال محمد وأحكامه التى ظل الصحابة يذكرونها بعد موته . وقد روى جزءا منها بعض من عرفوا محمدا

فى حياته ولكن يوجد من بينها ما تناقله الرواة عن طريق السماع . وبدأ كتاب الاسلام بعد وفاة النبى يجمعون بحماسة متدفقة كل ما قاله أو حـدث له ، يجمعون ذلك ممن شاهدوا ذلك بأنفسهم أو ممن نقلوا عنهم ، وقد اسـتمر ذلك طالما كان هناك شخص واحد كان يعيش فى أيام النبى . ومـن هـذه الكتب ذات القداسة الخاصة يمكننا أن ندرس ما يختص بالتاريخ المقدس الاسلامى وهى مازالت حتى الآن المصدر الأساسى لدراسة الاسلام . واستمد القرآن أكثر ماحواه من تشريعات من القوانين التى كان الناس متعارفين عليها فى أيام ماقبل الاسلام مع القليل من التغييرات . ولاشك أن القوانين التى وردت فى القرآن هى تحسينات عظيمة فى كل حالة من الحالات على القوانين السابقة لأن محمدا كان مصلحا اجتماعيا . فنرى فى القرآن مثلا نصا على أن السيد يجب أن يكون رحيما بمن يملكه من العبيد . وهناك أمر آخر يحرص عليه المسلمون جميعا وهو أن المؤمنين جميعا اخوة ومتساوون اجتـماعيا . والى جانب ذلك فقد ورد أيضا فى الاسلام أمر آخر له شأن كبير . فان أى شخص يولد فى أى مرتبة اجتماعية ، حتى ولو كان عبدا رقيقا ، يستطيع أن يصل الى أعلى المناصب وهذا يتفق مع منطق الاسلام لأن الله الذى خـلق الكون ويدبر أموره يستطيع أن يجعل من أى انسان شخصه متسولا فى أى يوم من الأيام ، وأن يجعل منه سلطانا فى اليوم الثانى اذا شاء ذلك وأراده ، وقد أثبت الاسلام فى جميع أدوار تاريخه مرونة غيرعادية فى نظمه الاجتماعية.

ولكن لم تكد تمضى خمسون سنة على موت محمد حتى انقسم الاسلام الى ثلاث فرق رئيسية ، وقد انقسمت هذه الفرق وتفرعت عنها فيما بعـد فرق أخرى . فبالرغم من بساطة تعاليم الاسلام ووضوحها فقد ترتب عـلى ارتفاع شأن ذلك الدين أن سارت بعض جماعات منه فى اتجاهات مختـلفة . فعندما انهارت القبائل المجاورة أصبح أمر السيطرة عليها لقمة سائغة تستحق التنافس على الحصول عليها ولهذا السبب أصبح موضوع الأحقية الشرعيـة

فى تولى الخلافة أمرا على درجة كبيرة من الأهمية . وكان أبناء محمـــد من الذكور قد ماتوا وهم فى سن الطفولة ثم مات بعد ذلك حفيداه فى الحروب الداخلية بشأن تولى الخلافة . وكان النبى قد اختار « أبو بكر » ليتـــولى شئون الأمة من بعده وكان أبو بكر من أوائل الصحابة وكان أبا لاحـــدى زوجاته ولكنه كان شيخا كبيرا ومات بعد محمد بعامين ثم حدث بعـــد ذلك انشقاق فى الاسلام وانقسم الناس الى معسكرات ثلاثة وهم أهـــل السنة والخوارج والشيعة .

وقال أهل السنة أن أى فرد من عشيرة محمد (أى من قريش) يمكـــن أن يختاره الناس للخلافة مما جعل باب الاختيار واسعا ، ونظروا الى الخليفة على أنه الوريث المباشر للنبى وعلى ذلك يكون القائد الأعلى للجيش والرئيس الدينى للمسلمين . أما الخوارج فقد قالوا بأن الخلافة أمر مباح يستطيع أن يتولاه كل مؤمن صالح مهما كان أصله وموئده مادام جميع المؤمنين اخـــوة فى الاسلام ، وقد انقرضت هذه الفرقة الدينيه الآن اللهم الا بعض من بقى منهم فى جماعات صغيرة فى شمال افريقيا . أما الجماعة الثالثة وهم الشيعة فقد قالوا بضرورة الانتساب الى على الذى كان ابن عم محمد وكان له بمثابة الابن ، وكان زوجا لابنته المحبوبة فاطمة . واعتقد الشيعة أن نفوذ محمد وسلطانه قد تجسدا فى على ومعنى ذلك من الناحية الفلسفيه أن الخليفة فرد نقل الله اليه نفوذ محمد وسلطته . لم يتجسد محمد نفسه فى على ولكن كانت له شبه قدسية بسبب القوة الالهية التى حلت فيه .

وبزوال الخوارج من مسرح الحوادث أصبح الفريقان الرئيسيان فى العالم الاسلامى هما السنة والشيعة ويعتبر كل منهما أن الآخر لايسير فى الطريق المستقيم ، بل ويرميه بالمروق . وظل أهل السنة الذين كانوا يسكنون فى بلاد العرب وفى مصر أقرب الى الاسلام الاصلى ، وبالرغم من أنهم جماعة محافظة فان بعض التعديلات قد وجدت لها سبيلا الى مذهبهم الدينى وذلك لقبولهم

لفكرة « الاجماع » وهو الاعتقاد بأنه نظرا لأن الله هو المسيطر على كل ما فى الوجود فان أى عادة غير ضارة يقبلها المســلمون تبقى لأن الله يريد ذلك ، وبالرغم من أنها ربما كانت تتعارض مع الدستور القرآنى والحديث . وقد أفاد هذا المبدأ السنيين الذين خرجوا للتبشير بالدين الاسلامى فائدة كبيرة فى عملهم وبخاصة فى أفريقيا ، فقد استطاع أولئك الدعاة أن يلائموا بين العقائد الاسلامية وبين العادات المحلية للزنوج الأفريقيين بصورة عجز عنها المبشرون المسيحيون وسيترتب على ذلك أنه مالم يحدث شىء غير متوقع فمن المنتظر أن يعتنق زنوج أفريقيا الديانة الاسلامية أكثر من احتمــال اعتناقهم للدين المسيحى .

أما الشيعة ، وأكثرهم كانوا من الفرس فقد جمعوا بين فلســفة ما قبــل الاسلام وبين عادات امبراطوريتهم القديمة ، وضموا هذين الى تعاليم محمد وخرجوا من ذلك كله ببعض فرق المتصوفة ، وفى الحقيقة أن كلا من السنيين والشيعة ليس الا امتدادا حضاريا لحضارة الشرق الأدنى القديم .

لم يكن عرب الصحراء جماعة كبيرة العدد ، وكانت جيوشهم بالرغم ممن انضم اليها ممن اعتنقوا الاسلام مازالت جيوشا صغيرة . وعلى أية حال فلم يكن الدين الاسلامى فى يوم من الأيام دينا يدعو الى الخنوع أو الاستسلام، وكان أتباعه دائما محاربين ممتازين . تمكن القائد العربى «عمرو بن العاص» من غزو مصر فى عام ٦٣٩ بجيش قوامه أربعة آلاف رجل (١) مع أن سكان مصر فى ذلك الوقت كانوا بين ثلاثة وأربعة ملايين واستطاعوا أن يبقــوا فى البلاد ثلاث سنوات حتى وصلتهم الامدادات لاتمام اخضاعها اخضاعا تاما . كان العرب أهل صحراء ليس لديهم الا نصيب ضئيل من الحضارة، ومع ذلك تيسر لهم أن يستولوا على بلاد وشعوب أكثر منهم فى المدنية بفضل مقدرتهم

---

(١) ذكر مؤلف الكتاب أن عددهم ثلاثة آلاف . (المترجم)
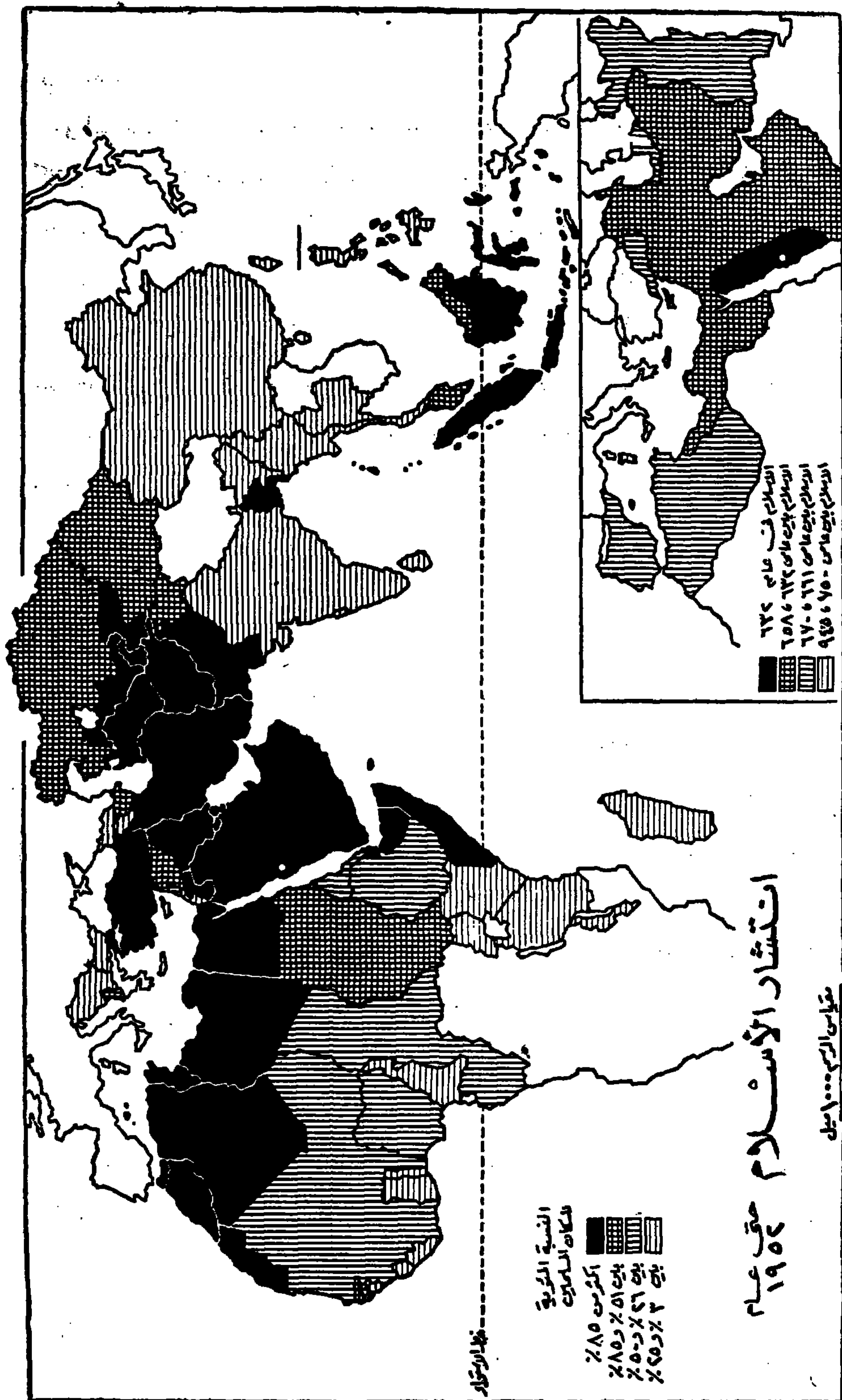
فى الحرب .

وكما يحدث دائما فى مثل هذه الظروف فقد اقتبس المسلمون النظم التى كانت سائدة بين الجماعات المغلوبة ، وذلك لأن الغالبين الذين تكون حضارتهم أقل من حضارة المغلوبين يجدون أنفسهم أمام مشاكل ادارية كثيرة . وفى بلد مثل مصر كان فى يوم من الأيام احدى الامبراطوريات القديمة ، نرى أن ذلك البلد عندما غزاه العرب فى القرن السابع الميلادى كانت أساليبه الفنيـة فى معالجة الشئون الادارية قد استكملت كل مقوماتها . ورأى الغزاة الجدد أن استخدام الموظفين القدامى كان أسهل لهم من محاولة تدريب مجموعة جديدة، وذلك لأن حكم عدد كبير من الناس يحتاج الى أساليب خاصة . وهكذا لم تمض الا قرون قليلة حتى نرى العرب . قد استوعبوا النظم التى كانت سائدة فى مختلف المدنيات فى البلاد التى غزوها .

وأقبل العرب اقبالا شديدا على الحياة المتمدنة اذ رأوا فيهـا أنها اكثـر راحة لهم من حياتهم القديمة فى الصحراء . وكانت الامبراطورية الفارسية، والجزء الذى تم لهم الاستيلاء عليه من الامبراطورية البيزنطية ، بلادا منهوكة القوى دب التعفن الى داخلها ولكن بالرغم من ذلك كله لم يزل لديها الشىء الكثير الذى كان جديدا على الغازين وباعثا لهم على الانتعاش . وترتب على ذلك حدوث نهضة عظيمة فى الناحية الثقافية ، نهضة جعلت من العالم الاسلامى مركزا للنشاط الثقافى ، وبالرغم من أن العرب نبذوا نظمهم القـديمة فقـد فرضوا عقيدة الاسلام على الشعوب المغلوبة .

ولا يتسع المجال فى هذا الكتاب للحديث عن الغزوات الاسـلامية التى ضمت اليها الامبراطوريات المتداعية التى كانت على جانبى بلاد العرب بسرعة تدعو للدهشة . وباستثناء مناطق الرياح الموسمية فى جنوب شرقى آسـيا ، ارتبط انتشار الاسلام ارتباطا وثيقا بنوع خاص من البيئة، ولم تتعمق جذوره فى بلد من نوع آخر . والبيئة النموذجية لانتشاره هى البلد نصف الجاف

(اى الذى لا تسقط فيه الأمطار الكثيرة) الذى يحتوى على مناطق فيها مياه كافية تسمح بقيام الزراعة وتسمح أيضا بوجود حياة المدن ، فان مثل هـذه المنطقة تميل سريعا الى ايجاد حكومة مركزية بعـد أن تصل الى مسـتوى خاص فى الناحية الصناعية ، لأن المدن تصبح تحت رحمة أى جماعة تسيطر على طرق التجارة بين تلك المدن وبعضها البعض .

والبلاد الاسلامية فيما عدا مايوجد منها فى جنوب شرقى آسيا أغلبها بلاد تجارية وزراعية ، ومن الأمور التى يمتاز بها الاسلام أن الصنـاع وأرباب الحرف والتجار يحتلون مركزا اجتماعيا رفيعا ، ويختلف ذلك اختلافاواضحا عن الحضارات الأخرى فى آسـيا ، وقد ترتب على ذلك قيـام نظام متوازن، يسير عليه بتكافؤ تام ، ذوو الثقافات المتباينة من سـكان المدن والمشتغلين بالزراعة والبدو .

وبقى أسلوب حياة البدو دون أن يعتريه تغيير كبير آلافا من السنين . أما سكان المدن (غير المتقدمة) فانهم يحيون حياة تشبه حيـاة الأوروبيين فى القرن السادس عشر . ومعظم سكان المدن والبلاد الكبيرة ليسوا عربا خلصا فى حقيقة الأمر ولكنهم من أبناء شعوب المدنيات القديمة الذين دخل اليهم الاسلام ، ولكنهم ظلوا الى حد كبير يحتفظون بالأساليب الحضارية القديمة سواء الهلينيستية أو السورية (١) .

---

(١) يقول أكثر العلماء الاجانب ويرددون ، سواء عن حسن نية أو عن سوء نية ، مثل هذا القول ، الذى يريدون منه أن يثبتوا ان العرب قاصرون فقط على الجزيرة العربية وانهم لم يدخلوا الى البلاد الاخرى المجاورة الا كمستعمرين دخلاء سرعان ما استوعبتهم تلك البلاد التى كانت اعرق منهم فى الحضارة . ولكن هؤلاء الباحثين ينسـون حقيقـة علمية هامة وهى أن المنطقة كلهـا فى الاصل منطقة حضارية واحدة واكثرها يسود فيه عنصر من جنس واحد وهو الجنس السامى الذى يرجح أن موطنه الاصلى كان فى الجزيرة العربية . فاذا كانت بعض البلاد قد تقدمت فى مدنيتها نظرا لعوامل بيئية او محلية أكثر من البعض الآخر ، او تعرضت أثناء تاريخها الطويل للاتصال بالحضارات الاخـرى

وأصغر الوحدات فى نظام الحياة العربية هى مضارب خياء البدو والقرى . وتستخدم قوافل البدو فى نقل بعض البضائع المصنوعة ، وبضائع الترف كالشاى والقهوة والسكر ، أما القرى فهى المصدر الرئيسى الذى يمدالناس بالطعام . ويتم التبادل فى المدن التى تقام فيها الأسواق التى يجلب اليها كل من البدو وأهل القرى مالديهم من بضاعة .

ويختارون أمكنة المدن فى هذه المنطقة نصف الجافة قريبة من مجرى أحد الأنهار ليشرب منه السكان وليروى حقولهم البعيدة . ومازالت بعض الطرق البدائية مستخدمة فى الزراعة مثل الساقية التى يعلقون فيها الأوانى الفخارية ويدفع بها تيار مجرى الماء لتحريكها ودورانها ، أو مثل الشادوف فى مصر . وليس الفارق بين المدينة والقرية فارقا فى الحجم فقط ، فالقرية تعتمد أساسا على الزراعة وليس فيها الا القليل من المتخصصين مثل النجار وصاحب الحمام ... الخ . الذين يقدمون خدماتهم للقرويين ، أما البلدة المتوسطة فسكانها من المزارعين والتجار والمتخصصين الذين لايخدمون أهل البلدة فحسب ، بل ويقدمون خدماتهم لجميع القرى البعيدة ومضارب البدو ، وفى

ولم يتيسر ذلك لغيرها ، فان ذلك كله لايغير شيئا من الحقيقة . فهذه المنطقة من العالم التى يقطنها العرب فى الوقت الحالى وتمتد من شواطىء الخليج الفارسى متجهة نحو الشرق ، وتشمل شمال افريقيا كله منطقة لها كيان حضارى مستقل يسود فيه الدم العربى وتستخدم فيه اللغة العربية ، وتجمع بين معظم سكانه نظم حضارية واحدة وقد زاد من وحدتها انتشار الدين الاسلامى فى كل هذه الارجاء . ومن الخطأ الكبير ان يعتقد أى انسان أن دراسة تاريخ أو مدنية اى بلد من البلاد فى الايام السابقة لظهور الاسلام شىء يتعارض مع الوحدة العربية أو الاسلامية، فان مثل هذا القول تافه ولا قيمة له ، ويدل على جهل من يقوله ، بل على العكس من ذلك فان اى تعمق فى دراسة التاريخ القديم للبلاد ضرورى لفهم الاسس الحضارية للعرب انفسهم ويظهر فضل هذه الاقطار المختلفة على مدنية العالم ويقوى اعتزاز كل عربى بانتسابه الى هذا الوطن الكبير الذى نشأت فيه اكثر المدنيات القديمة الهامة وأعطى للعالم الغربى والشرقى أعظم مايعتز به الناس وهى الاديان السماوية الثلاثة فليس موسى وعيسى ومحمد الا من ابناء هذا الوطن العربى . (المترجم)

البلدة المتوسطة فى العادة مدرسة ومستشفى ومحكمة .

أما المدينة فهى المركز الرئيسى للحكومة ، ويكثر فيها التبادل التجـارى على نطاق واسع ، ويختارون أمكنتها حيث يوجد مورد ماء طبيعى يكفى لحاجة عدد كبير من السكان . فمدينة فاس مثلا مشيدة فوق جزء من الهضبة الجيرية ولكن يوجد فيها مورد ماء عظيم لاينضب . ونظرا لأن هذا المـورد المائى ينحدر بمعدل مائتين وخمسين قدما فى كل ميل فان ماءها صالح لتحريك الماكينات الهيدروليكية والطواحين ويمكن رش شوارعها وأسواقها بالماء . وتوجد نافورات المياه فى الشوارع ، واستطاع كل مالك ثرى أن يقيم نافورة فى حديقته اذ يحب المسلمون رؤية المياه الجارية ، وليس أحب الى قلب أى عائلة فى بلاد الشرق الأوسط من أن يكون لها منزل ذو نافورة فى حوشه ، أو يكون لها منزل خلوى على مقربة من بحيرة أو نهر .

وتمتلىء المدن بالشوارع الضيقة تتخللها بعض الطرق العريضة ، وتطـل المنازل مباشرة على الشوارع وقلما يكون لها فتحات فى واجهات المنازل غير باب واسع يكفى لدخول عربة منه . ويستخدم الدور الأرضى عادة لأجل المطبخ والمخازن ، أما حجرات السكنى فهى فى الطابق العلوى . وفى منازل العائلات الغنية يقضى النساء أوقاتهن فى الأدوار العليا ويشغلن أوقاتهن بالتطلع الى سير الحياة من نوافذ ذات مشربيات تطل على الشارع (١)

والنساء المسلمات يعشن فى عزلة تامة ، وفى الحالات النادرة التى يدعى فيها ضيوف الى المنزل لا تظهر سيدة واحدة من أهل البيت ، أما الحياة الاجتماعية للرجال فانها تتركز فى المساجد والأسـواق والقهاوى والحمامات . والمـكان الوحيد الذى تستطيع النساء فيه أن يجتمعن للثرثرة هو المقابر طالما أن الزوج

---

(١) ربما كان مثل هذا النوع من الحياة سائدا فى بعض المدن الاسلامية فى القرن الماضى أو مازال فى بعض مدن شمال افريقيا وبعض البلاد الاخـرى ولكنه اختفى تماما من مصر وغيرها من بلاد الشرق الادنى ، واصبح أبناء الجيل الحاضر لايعرفونه الا عن طـريق مايسمعونه او يقراونه فى الكتب . (المترجم)

لا يستطيع أن يمنع زوجته من اظهار حزنها على الموتى من أقاربها . وتعيش الشابات من النساء فى عزلة قوية ، ولكن بعد أن يصبحن متوسطات العمر يستطعن أن يخرجن ويتمتعن بحرية أكثر ، ولكنهن لا يخرجن الا محجبات[1] ولا شك أن المجتمع الاسلامى مجتمع يسيطر عليه الرجال ، ومع هذا فكثيرا ما تدير بعض السيدات المتقدمات فى السن ذوات الارادة القوية شئون المنزل كما هى العادة فى معظم البلاد .

وتختلف الأسواق فى البلاد الاسلامية عن مثيلاتها فى المدن الأوروبية ، اذ يقصدون من اقامتها أن تكون مركزا يجد فيه الناس بسهولة جميع أنواع البضائع . ويحب الناس المناقشة على سعر السلع فذلك أهم من الوقت الضائع أو أحذيتهم التى يصيبها التلف من كثرة السير . ويجد الانسان فى تلك الأسواق شارعا للادوات المصنوعة من الجلد ، وشارعا آخر للادوات النحاسية .. الخ ، فيستطيع المشترى أن ينتقل من حانوت الى آخر مقارنا بين الأسعار والأصناف، وتصل المفاصلة فى السعر الى مستوى فنى رفيع ويتمتع به المشتركون فيه . ومازالت المصنوعات اليدوية هى السائدة فى تلك البلاد بالرغم من أنه يمكن

---

(1) ان ماذكره المؤلف عن الحياة الاجتماعية فى البلاد الاسلامية بصفة التعميم لايكاد يوجد له اثر فى الوقت الحالى اللهم الا فى بعض بلاد قليلة فى شمال افريقيا وفى أحياء خاصة فى بعض العواصم القديمة مثل أسواق دمشق والقاهرة وبغداد . أما عن وصفه لحياة النساء فقد أصبح ايضا من ذكريات الماضى البعيد فى بلاد الشرق ، واذا كان الدين الاسلامى يحرم على النساء الخروج وهن متبرجات فان هذا الدين لم يحرم على المراة الخروج من منزلها ، كما سمح لها بأن تكشف عن وجهها وكفيها ، وأن تزاول كل عمل شريف . واذا كان الناس فى بلاد الشرق قد غالوا فى وقت من الاوقات فى المحافظة على نسائهم ، فان ذلك يرجع الى اثر بعض العادات المحلية أو التأخر الاجتماعى ولا شأن له بالدين . وعلى أية حال فان الاعوام الثلاثين الماضية فى مصر وفى غيرها من البلاد الاسلامية قد غيرت كثيرا من الاوضاع فاختفت أكثر الاوصاف التى كتبها المؤلف والذى يبنى فيها حكمه ، كما هو واضح على ما رآه فى بعض بلاد شمال أفريقيا وخصوصا مدينة فاس فى الجزائر المعروفة بشدة محافظتها . (المترجم)

دائما الحصول على سلع صنعت ميكانيكيا ، وقد أخذ عددها يتزايد بتقدم الزمن . وفى الأسواق ، نرى السلع المحلية التى يبيعها الأشخاص أنفسهم الذين قاموا بصنعها كما كان الحال فى ايام العصور الوسطى فى أوروبا بين الصناع المحترفين . وفى الحوانيت الصغيرة نرى الصياغ وصناع الأحذية يجلسون داخلها ويقومون بعملهم امام المارين . ويتمتع أرباب الحرف باحترام كبير ، اذ يقدر الناس بل ويحترمون المهارة الفنية . وتمتاز كل مدينة باحدى الصناعات الخاصة التي تحددها المادة الخام فى تلك المنطقة ويتنافس الصناع فيما بينهم ، كل منهم يريد أن يفوق غيره ، ويترتب على ذلك تقدم هذه الصناعة تقدما كبيرا وتصل الى مستوى عال فيها ، وبذلك تحصل المدينة على شهرة تذيع فى ارجاء الدنيا بأنها البلد الذى ينتج الأنواع الفاخرة من تلك الصناعة .

وتزدهر الصناعات اليدوية فى كل من البلد المتوسط والمدينة ،ولكن الشيء الذى تمتاز به المدينة أنه يوجد بها عدد كبير من الصناع فى كل حرفة ، ولهذا يرون أنفسهم منساقين لتنظيم أنفسهم تنظيما يبعدهم عن سيطرة حاكم السوق وينتظم كل من الصناع والتجار فى جمعيات تجمع أرباب الحرفة الواحدة (١) كمثيلاتها فى القرون الوسطى فى أوروبا ، ولكل جمعية رئيس يكون مسئولا أمام حاكم السوق . ومن أهم الآثار التى ترتبت على وجود تلك الجمعيات لأبناء الحرفة الواحدة فى تلك البلاد انها استطاعت ان تبعد الارقاء عن مجال الصناعات اليدوية .

ففى الحضارتين اليونانية والرومانية كان استخدام العبيد سببا فى كثرة الانتاج بمصاريف رخيصة ، الى حد ما ، مثل استخدام الماكينات فى العصر الحاضر ، ولكن لم يسمح فى البلاد الاسلامية بأن يقوم العبيد بالعمل فى الحرف

---

(١) ربما كانت كلمة نقابة هى الاصح ولكنى فضلت عدم استخدامها نظرا لما تحمله كلمة نقابة فى العصر الحاضر من مدلول لم يكن لها فى القرن الماضى والعصور التى قبله . (المترجم)

حتى ولو كانوا صناعا مهرة قبل استرقاقهم ، واقتصر عملهم على الأعمال العامة التى يستخدم فيها عدد كبير من الناس ولا تحتاج الى مهارة خاصة أو للقيام بالخدمة فى المنازل .

ومازال نظام الرقيق موجودا فى بعض البلاد الاسلامية ولكنه تضاءل جدا(١)، وعلى أية حال ففى الأيام السالفة كانت العائلة الاسلامية الغنية تستخدم عددا من العبيد ، وكان أمرا عاديا أن يتخذ رب العائلة من بين الرقيقات الجميلات الصغيرات السن محظيات له ، وبذلك يصبحن جزءا من أهل المنزل . فاذا حملت احداهن بطفل من سيدها تصبح هى وطفلها أحرارا ، وقد أدت تلك العادة الى بعض النتائج التى تدعو الى الدهشة . ففى أسرة آل عثمان كانت وراثة العرش كثيرا ما تنتقل الى أحد أبناء السلطان من احدى المحظيات . ونظرا لأن أجمل وأذكى الشابات كن يخترن للخدمة فى القصر كان ذلك وسيلة عظيمة لادخال دم جديد الى الفرع الملكى ، وكان معناه أيضا أنه لم يكن يجرى فى عروق السلاطين المتأخرين الا قدر ضئيل من الدم العثمانى .

وبهذه الطريقة أصبح الكثير من النساء الرقيقات أمهات للسلاطين ؛ ولكن الظروف ساعدت الرقيق الذكور أيضا على الحصول على الكثير من النفوذ والسلطة ، والسبب فى ذلك هو أن الشعوب الاسلامية فى الماضى لم تتبع أى نظام من نظم الحكومة المنتخبة أو التى تمثل الشعب . كان السلاطين يتمتعون بسيطرة مطلقة لا يحدها الا ما يقوم به الشعب من مشاغبات او ما ينشأ داخل السراى من ثورات . فالسلطان الذى يصدر أمرا يبغضه شعبه بغضا شديدا كان يتعرض لأن يهجم عليه عامة الشعب فى المدينة لأن ذلك كان الوسيلة الوحيدة التى يمكنهم أن يعبروا بها عن عدم موافقتهم . ومع ذلك فان أخطر تهديد

---

(١) جميع البلاد الاسلامية اصدرت منذ عهد بعيد القوانين التى تحرم تحريما قاطعا وجود الرقيق او الاتجار فيه ، وربما لانجد اثرا لذلك الا فى بلد شرقى واحد ، والرقيق فى طريقه الى الزوال النهائى . (المترجم)

ضد تلك السيطرة المطلقة كان يأتى من ناحية الأمير الذى يتوقع أن يخلفه على العرش. فاذا كان لدى ذلك الأمير سلطة فربما يحاول الاطاحة بأبيه عندما يرى نفسه وقد حصل على القدر الكافى من رضا الشعب ليقبله خليفة لأبيه. فلهذا السبب كان السلطان يفضل تعيين رجال جدد فى الوظائف الادارية، وأن يكون اولئك الرجال من أصل عائلى بسيط حتى لا يتطلع أحدهم الى العرش. وأحيانا يفضلون وضع العبيد فى تلك الوظائف، لأن العبد الذى يصل الى مركز كبير ثم يطيح بسيده لا يمكن أن يقبله الشعب خليفة له. ولهذا أحاط الملوك أنفسهم، وشغلوا كل الوظائف الادارية الكبيرة، بالعبيد لأن العبيد الذين يتولون وظائف ذات مسئولية وسلطة يشعرون شعورا قويا بأنه من مصلحتهم أن يبقى حكامهم على قيد الحياة، وأخيرا انتهى أمر استخدام العبيد لادارة البلاد وأصبح العبيد هم الحكام الحقيقيين.

وفى المنطقة التى أصبحت تسمى ايران والهند نشأ عدد من الأسرات الحاكمة التى أسسها ملوك أصلهم من الأرقاء. فالغازى المسلم الذى أخضع شمال الهند وهو محمود الغزنى كان فى الاصل عبدا رقيقا وكان عدد كبير من أعاظم الملوك من الاسرى الذين أحضروهم من القبائل التركية فى منطقة الاستبس، وقد أثبت أولئك الرجال أنهم أهل شجاعة وذوو كفاية فى الادارة وكان العبد الذى تتضح فيه مثل هذه الصفات يشتريه حاكم آخر ويمرنه على القيام بمهام أعماله الجديدة ثم يوكلها اليه. وقد ذكر فى بعض الكتب أن أحد الترك الذى أصبح ملكا كان سيده الملك اشتراه بما يعادل ربع مليون دولار وكان يقصد عند شرائه أن يدربه ليصبح وريثه فى العرش، وبذلك يضمن أن من سيخلفه رجل قدير تم تدريبه.

وفى الممالك الاسلامية الاخرى نشأت منظمات ربما كان خير مثل لها المماليك فى مصر. فقد كان الحكام المسلمون فى مصر يجلبون المماليك وكانوا من الرقيق الأبيض اللون كمتطوعين فى الجيش. وذلك لأن المصريين كانوا

يفضلون أن يكونوا أرباب حرف أكثر من انخراطهم فى سلك الجندية . وكان أكثر هؤلاء المماليك من السلاف والجركس واليونان . وكانوا فى مبدأ أمرهم يكونون الحرس الخاص للسلطان ثم أصبحوا بعد ذلك يكونون جيش الدولة، وأخيرا تمت لهم السيطرة الحربية على مصر وصمموا على التخلص من السلطان، ونفذوا ما أرادوه . وحكم المماليك مصر عدة مئات من السنين كفئة منظمة وكانوا يشترون عبيدا جددا للمحافظة على استمرار سلطانهم الحربى ، وكان لهم نظام تدريجى فى الرتب يبدأ بما يقابل اليوزباشى والقائمقام واللواء الى أن يصلوا الى الفريق الذى كان فى حقيقة الأمر هو حاكم البلاد .

والجنود الانكشارية ، وهم الجنود الأرقاء فى الأمبراطورية التركية مثل آخر من هذا النوع من الرقيق الذين نظموا أمورهم . فقد كان الاتراك يجمعونهم من بين رعاياهم المسيحيين ، وكان الآباء يبيعون الأذكياء من أبنائهم الذين يتراوح عمرهم بين الثامنة والعاشرة ، وكان الآباء يفعلون ذلك بشىء من الرضا لأن هؤلاء الاطفال لم يدربوا فقط ليصبحوا جنودا بل ليكونوا اداريين أيضا ، ومع مضى الزمن أصبحت مقاليد الأمور فى تركيا بين أيديهم يخلعون ويولون السلاطين كما يروق لهم ، ومع ذلك فان الاتراك يدينون بالشىء الكثير فى انتصاراتهم فى الحروب خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر لهؤلاء الانكشارية الذين كانوا أحسن فرق المشاة فى العالم فى ذلك الوقت.

والمسجد هو بيت العبادة لدى المسلمين يذهبون اليه فى أوقات مختلفة لتأدية الصلاة خمس مرات فى كل أربع وعشرين ساعة . يصعد المؤذن الى احد ابراج المسجد وتسمى المآذن ، ويؤذن داعيا المسلمين الى الصلاة ، ويحرم استخدم النواقيس والموسيقى فى المساجد وربما كان سبب تحريمهما راجعا الى أنهما كانا فى أيام محمد جزءا من الديانة المسيحية .

ويحرم أيضا وجود تماثيل من أى نوع كان ، لأن ذلك يذكر الناس بالديانة الوثنية القديمة التى قضى عليها محمد فى مكة . وقطعة الأثاث الوحيدة فى

المسجد هى المنبر . وأحيانا تفرش السجاجيد فوق أرض المسجد وفى بعض الأحيان يحضر بعض المصلين سجاجيد صلاتهم معهم اذا شاءوا . ويسمح الاسلام بزخرفة جدران المسجد فيضيف ذلك شيئا كثيرا الى جماله ، وغالبا ما تكون هذه الزخارف مكونة من أشكال معقدة مرسومة ببلاطات ملونة . وهناك أيضا الزخرفة بالكتابة ، وقد وصلوا فى ذلك الى درجة الكمال ، وهى تؤدى غرضين اولهما الجمال الفنى وثانيهما الفوائد المستمدة من معانيها .

وفى المسجد ، فى العادة ، حوش واسع تحيط به أروقة مقامة فوق أعمدة يجلس فيها الناس يتحدثون ويستريحون بعد الصلاة ، كما يوجد فى هذا الحوش أحيانا شجرة أو شجرتان للجلوس تحت ظلهما . وقد أشرنا قبل الآن الى النافورة التى يستخدمون ماءها فى الوضوء ، ولايسمح بأى أعمال تجارية داخل المسجد ولكنه مكان لطيف ليجتمع فيه الناس .

والى جانب المواظبة على الصلاة فى المسجد فان كل مسلم تقى يتحتم عليه أن يحج الى مكة مرة على الأقل أثناء حياته . وعندما نزل الأمر بالحج كانت مساحة البلاد الاسلامية قليلة وربما كان المقصود منه تشجيع تجارة أهل مكة التى كانت تدر عليهم الربح فى الماضى .

ومنذ انتشار الاسلام فى كل بقاع الأرض أقامت الفرق الدينية المختلفة أضرحة للصالحين من المسلمين . وفى شمال أفريقيا مثلا يعتقد بعض الناس انه اذا حج أى شخص سبع مرات الى أحد هذه الأضرحة فان ذلك يعادل حجة واحدة الى مكة . ولا يتسع المقام هنا لاعطاء وصف كامل لما يجرى فى الحج فى مكة ، ولكن أهم الطقوس هى الهرولة حول الكعبة وهى ذلك البناء الصغير الذى كان يحتوى على ٣٦٠ صنما حطمها محمد ، واستلام الحجر الأسود وهو من أحجار الشهب وكان من بين الأشياء المقدسة لدى العرب

قبل الاسلام ، وهو مثبت الآن فى جدار الكعبة ويرتفع قليلا عن الأرض (١)

وبالرغم من أن الحياة الفكرية فى الاسلام فى الوقت الحاضر ربما كانت متمسكة بالقديم ، فان الاسلام مازال دينا قويا حيا ، وهو فى الوقت ذاته قوة فى حياة أتباعه . وفى جميع البلاد الاسلامية تقام الصلوات ويقرؤون القرآن باللغة العربية دائما ومعنى ذلك ان جميع المتعلمين فى البلاد الاسلامية المترامية الأطراف تجمعهم لغة واحدة مشتركة ، كما كانت اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى فى أوروبا مفهومة لجميع المتعلمين ، لأن اللاتينية كانت لغة الكنيسة. وهكذا نرى أن وراء هذه الانقسامات السياسية فى الاسلام توجد نواة قوية من المعرفة العامة والتفاهم العام بين جميع المسلمين . ويسمو الاسلام فوق الحدود السياسية الدولية ، وهى نقطة هامة يجب أن توضع موضع الاعتبار عند محاولة التنبؤ بما عساه أن يحدث من رد فعل فى العالم الاسلامى عند حدوث أى أزمة عالمية .

---

(١) أشار المؤلف الى ثلاثة أركان فقط من أركان الاسلام ولكنه أغفل اثنين منها وهما الصوم والزكاة (المترجم)

تعليق على الفصل السابع والعشرين

راينا توخيا لدقة البحث ان نعرض ماجاء بالفصل السابع والعشرين على احد العلماء العرب ، فعرضنا هذا الفصل على الاستاذ محمد محمد المدنى استاذ الشريعة ورئيس قسم العلوم الاسلامية فى كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، فوافانا بهذا البحث القيم ، ورأينا تعميما للفائدة نشره كملحق بهذا الفصل .

النص رقم (١) ص « ٣٤٠ »

« والديانة المحمدية ـ والافضل ان تسمى الديانة الاسلامية ، أو الاسلام ـ بدأت بما كان يعلمه محمد لاتباعه »

التعليق

يشير المؤلف بقوله « والافضل أن تسمى الديانة الاسلامية .. الخ الى ان المسلمين يؤثرون تسمية الدين باسمه على نسبته الى « محمد » وذلك لانه جرت عادة كثير من مؤلفي الغرب على نسبة الدين الى « محمد » فيقولون « الديانة المحمدية » مثلا ، ويقولون عن المسلمين « المحمديون » : وربما اوحى ذلك الى القارىء بأن هؤلاء المؤلفين يرمون بنسبة الدين الى محمد ، الى انه هو صاحبه كمصلح أو مفكر لا كنبى مبعوث من الله برسالة .

. . . .

النص رقم (٢) ص « ٣٤٠ »

«وكانت طفولته غير مستقرة وصعبة، لان الطفل اليتيم كثيرا ماكان يذهب ليقيم عند مختلف المرضعات والاقارب»

التعليق

يحكم المؤلف على طفولة محمد بأنها كانت « غير مستقرة وصعبة » ، ويعلل ذلك بكثرة اختلاف المرضعات عليه ، وكثرة الاقارب الذين اضطر بحكم يتمه الى الاقامة عندهم .

وهذا الحكم غير صحيح ، والتعليل الذى علله به غير مستقيم لما يأتى :

أولا : ان مسألة تعدد مرضعاته صلى الله عليه وسلم صحيحة ، فقد ارضعته امه أياما ثلاثة قبل أن تسلمه الى المرضعات ، وأرضعته ثويبة جارية عمه أبى لهب أياما ثلاثة اخرى ، ثم أرضعته حليمة السعدية بقية السنتين ، وقد روى انه رضع رضعات قليلة من بعض النساء اللواتى كن يصادفنه فيتبرعن بالارضاع ، على حسب العادة المألوفة من حنان النساء .

ومن هنا نقرر أن رضاعته المستمرة الاساسية كانت من حليمة السعدية ، وأن ماعدا حليمة لايعد الا ارضاعا فى حالات استثنائية على قلته .

ثانيا : كان من عادة قريش وغيرهم من اشراف العرب أن يدفعوا أطفالهم الى المراضع لاغراض منها أن ينشأ الطفل فى الاعراب فيكون ذلك أفصح للسانه ،

وأجلد لجسمه ، وأجدر ان يتعود الخشونة ، وفى هذا يقول الامام عماد الدين يحيى بن أبى بكر العامرى فى كتابه المسمى (بهجة المحافل ــ ص ٤١ ج ١)

« وكان أهل مكة يسترضعون أولادهم فيهم ــ أى فى بنى سعد قوم حليمة المرضعة الرئيسية لمحمد ــ لفصاحتهم ، وليجمعوا للولد ما بين صحة البادية وفصاحتها ، وآداب الحضارة وملاحتها » .

وقد ذكر هذا المعنى ايضا الامام الفقيه المحدث ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبى الحسن الخثعمي السهيلى فى كتابه المسمى : (الروض الانف ــ ص ١٠٩ ج ١) ، ثم أيده بماروى فى السنة المطهرة من أن أبا بكر رضى الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « مارأيت أفصح منك يارسول الله ! » فقال عليه الصلاة والسلام : « وما يمنعنى وأنا من قريش وأرضعت فى بنى سعد » ، كما ايده بماروى من أن عبد الملك بن مروان كان يقول « أضر بنا حب الوليد » وذلك أن الوليد أبنه كان لحانا ــ أى كثير اللحن فى اللغة ــ من دون اخوته جميعا ، لان الجميع أرسلوا الى البادية من أول أمرهم فتعربوا ونشأوا على الفصاحة ماعداه فقد كانت أمه تحبه ولم تقدر على فراقه فأبقاه عبد الملك معها .

فهذا ماكان يحملهم على دفع أولادهم الى المراضع الاعرابيات واذن فلا يستقيم فى الحكم أن يعد اتصال محمد بالمراضع مظهرا من مظاهر عدم أستقرار طفولته ، وانما كان ذلك تمشيا مع عادة الاشراف من قومه فى العهد بأطفالهم الى المراضع لمصلحة تربوية مقصودة .

ثالثا : فيما يتعلق بتنقل محمد بين عدة أقارب ، نرى فى تاريخه :

١ ــ أنه فى السنة السادسة من عمره خرجت به أمه الى أخواله بنى عدى بن النجار بالمدينة لزيارتهم ، وأقامت عندهم وهو معها شهرا .

٢ ــ وانه عاش فى كفالة جده عبد المطلب قبل وفاة أمه وبعد وفاتها . وكان له فى نفس جده العظيم منزلة كبرى يسرت له أن يعيش بين عمومته وابناء عمومته عيشا عزيزا كريما ، بل كان فى ذلك مبرزا فائقا لا يعدل به أقرانه .

٣ ــ وانه عاش بعد وفاة جده فى كفالة عمه ابى طالب ، ولم يكن أبوطالب أكبر الاعمام سنا ، ولا أغناهم ، ولكنه كان انبلهم واكرمهم فى قريش مكانة واحتراما ، فلذلك عهد اليه عبد المطلب بكفالة محمد من بعده ، فكان له خير كافل ، وكان يحبه كحب جده له ، وكان يقدمه على جميع إبنائه ، لما يجده فيه من النجابة والذكاء والبر وطيب النفس ــ « راجع ص ١١٢ من كتاب حياة محمد للدكتور هيكل » .

واذن فاتصاله بالاقارب فى طفولته لم يسبب له اضطرابا كما يقول المؤلف ، بل كان على نحو كريم عزيز سبب له راحة واطمئنانا .

وهذا مايعبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى خطابا لنبيه : « الم يجدك يتيما فآوى » ــ الآية ٦ من سورة الضحى ــ

فايواء الله لنبيه واضح فيما ذكرناه ، ولا يكون ذلك نعمة يمتن الله بها عليه ، الا اذا كانت حياته به قد استقرت وهدأت وتيسرت .

. . . .

النص رقم (٣) ص « ٣٤٠ »

« وفى السنوات الاولى من سنى المراهقة كان يعمل راعيا ، فأصبح لديه وقت كبير لاطالة التأمل والتفكير » .

التعليق

قال ابن اسحق فى حديث السيرة : « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مامن نبى الا وقد رعى الغنم . قيل : وأنت يارسول الله ؟ قال: وانا » .

وعلق عليه صاحب كتاب (الروض الانف) الذى سبق ذكره فقال :

« انما أراد ابن اسحق بهذا الحديث رعايته الغنم فى بنى سعد مع أخيه من الرضاعة ، وقد ثبت فى الصحيح أنه رعاها بمكة أيضا على قراريط لاهل مكة — ذكره البخارى — وذكر البخارى أيضا عنه صلى الله عليه وسلم انه قال :

ماهممت بشىء من أمر الجاهلية الامرتين .. وذكر ان احدى المرتين كانت فى غنم يرعاها هو وغلام من قريش ، فقال لصاحبه : أكفنى أمر الغنم حتى آتى مكة ... الخ — انظر ص ١١٢ ج ١ من (الروض) .

. . . .

النص رقم (٤) ص « ٣٤٠ »

« وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره ذهب الى سوريا مع عم له ، وخاض غمار حرب دينية » .

التعليق

يذكر المؤلف هنا واقعتين منفصلتين على أنهما وقعتا وسنه صلى الله عليه وسلم سبعة عشر عاما .

١ — فأما عن رحلته الى الشام مع أحد أعمامه ، فذلك العم هو أبو طالب ، وقد رأى أن يصحب محمدا معه اليها حتى لايتركه لاحد من أقاربه لعله لايحسن القيام بأمره ، وكان محمد نفسه راغبا فى ذلك — أى فى السفر مع عمه — .

وقد اختلف فى تحديد سنه حين قام بهذه الرحلة ، فقيل كان فى التاسعة ، وقيل كان فى الثانية عشرة ، وقيل كان فى الثالثة عشرة واختار الطبرى المؤرخ المفسر انه كان ابن أثنتى عشرة سنة .

وعلى هذا فلم يكن النبى صلى الله عليه وسلم فى السابعة عشرة من عمره حين قام بهذه الرحلة — كما قال المؤلف .

٢ — واما الحرب التى خاضها محمد ووصفها المؤلف بأنها « حرب دينية » فهى الحرب المعروفة بحرب « الفجار » — على وزن القتال — وقد اشتقوا لها

هـذا اللفظ المفيد لمعنى « الفجور »لانها وقعت فى شهر ذي القعدة « انظر بهجة المحافل ص ٤٦ ج ٢١ » وهـذاالشهر واحد منأربعة أشهر كانتمعظمة فى الجاهلية وقد تعود العرب أن يمتنعوا فيها عن القتال ، فلما ابتدات هذهالحرب فى أحد هذه الاشهر الاربعة اعتبروهاحربا فاجرة ، فسموها «حرب الفجار»

والاسلام يعترف بقدسية هـــذهالاشهر الحرم ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى سورة التـوبة : « ان عـدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يومخلق السموات والارض منهاأربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن انفسكم . » وقد حدد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الاشهر بأسمائها فقال فى خطبة الوداع « هن ذوالقعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان » .

وحرب الفجار هذه كانت بين قريش ومن معها من كنانة ، وبين قيس عيلان ، وشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أيام هذه الحرب اخرجه اعمـامه معهم ، وقال رسول الله : « كنت أنبل على أعمامى . » أى ارد عنهم نبل عدوهم اذا رموهم بهـا .

وقد اختلف فى سنه صلى الله عليه وسلم فى حرب الفجار ، بين خمس عشرة سنة وعشرين سنة ، وبالاخير جزم ابن اسحق .

ولعـل سبب هـذا الاختلاف انالحرب المذكورة قد طالت ، وظلت تقع بين الفريقين نحو أربع سنوات ، فهى اذن قد بدأت ورسول الله فى الخامسـة عشرة أو بعدها بقليل ، وانتهت وهو العشرين أو قبلهـا بقليـل (راجـع ١٢٠ ج ١ من سيرة ابن هشام ، ١١٤ من حياة محمد للدكتور هيكل) .

. . . .

النص رقم (٥) ص « ٣٤٠ »

« وعندما أصبح فى الرابعة والعشرين كان ينوب عن ارملة غنيـة فى السفر بقافلتها التجارية ، وبعد عام آخر تزوج تلك الارملة .. الخ »

التعليق

١ ــ فى بهجة المحـافل أن خروج محمد فى تجارة خديجة كان قبل أن يتزوجها بشهرين واربعة وعشرين يوما ، والمعروف انه تزوجها وهو فى الخامسة والعشرين « راجع بهجة المحافل ص٤٧ ج ١ » .

٢ ــ ماقاله المؤلف بشأن أولاد محمد من خديجة صحيح .

وقد ذكر بعض الرواة انه رزق منهابثـلاثة أولاد ذكور ، وهم : القاسـم ، والطاهر ، والطيب . والتحقيق ان هذا اشتباه ، فان « الطاهر » و « الطيب » لقبان تكريميان لولد واحد اسمه « عبد الله » .

٣ ــ وما قاله المؤلف من ان خديجة كانت قد تزوجت قبل محـمد مرتين صحيح ، وزوجها الاول هو « عتيق بن عائذ » وزوجها الثانى هو « أبو هالة هند بن زرارة » ــ أبو هالة : كنيته ، وهند اسمه بالرغم من أنه غالبا من أسماء النساء ــ .

***

النص رقم (٦) ص (٣٤٠ »

« كان محمد تاجرا فى مكة ، وكان يلقب بالامين نظرا لما اتصف به من صدق وحكمة فى أحكامه » .

التعليق

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة يتجر ، وكان له شريك يسمى « السائب بن أبى السائب » ، وقد تقدم انه ذهب فى تجارة خديجة ثم تزوجها .

وقال الرواة انه كان بعد زواجه من خديجة يعمل فى مالها ويأكل من نتيجة عمله .

وكان ملقبا بالامين نظرا لما اتصف به من صدق وحكمة فى أحكامه كما قال المؤلف .

• • • •

النص رقم (٧) ص « ٣٤١ »

« فعندما بلغ الاربعين من عمره ... الخ »

التعليق

١ — ماقاله المؤلف من أن الوحى جاءه وهو فى الاربعين من عمره صحيح ؛ وكذا ماقاله من انه قبيل أن يأتيه الوحى كان قد بدأ يحس بعدم الرضا عن حياته الهادئة الرضية ، وكان يذهب الى كهف خارج مكة ليتفرغ التأمل — كل هذا يشير به الى رغبته صلى الله عليه وسلم التى أتجه اليها فى هذه الفترة اتجاها قويا للتعبد والعزلة والتفكر والتأمل ، وأنه كان ينقطع فى غار يسمى — غار حراء — على فرسخين من شمال مكة ، وذلك فى شهر رمضان من كل سنة ، مكتفيا بالقليل من الزاد يحمل اليه .

٢ — وماقاله من أن الوحى كان يجيئه فى صورة احلام ، مطابق لما صح فى الحديث من أن « أول مابدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة ، فكان لايرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح » .

• • • •

النص رقم (٨) ص « ٣٤١ »

« ولم تكن مكة مدينة هامة على طريق القوافل فحسب ، بل كانت ايضا مركزا للحج الدينى ، لأنها كانت مقر عبادة أحد الآلهة الهامين فى الديانة العربية القديمة »

التعليق :

المراد به الصنم الأكبر (هبل) كبير آلهة العرب فى الجاهلية ، وساكن الكعبة بمكة ، وكان الناس يحجون اليه من كل فج .

• • • •

النص رقم (٩) ص « ٣٤١ »

« واجتذب الوحى الذى نزل على محمد عددا من الأتباع ، وبدأ ينتشر بين الناس ... الخ »

التعليق :

١ ـ يريد المؤلف بالاتباع الذين اجتذبهم الوحى ، أوائل من دخلوا فى الاسلام .

٢ ـ يقرر المؤلف أن الذين كانوا قد دبروا اغتيال محمد هم جماعة قوية ممن كانوا يكرهون عائلته ورأوا فى تعاليمه ما يهدد تجارة الحج .

والحقيقة ان العداوة لم تكن بين عائلة وعائلة ، وانما كانت عداوة بسبب الدعوة الدينية ، وان الجماعة التى حاولت اغتيال محمد كانت مؤلفة من عدد كبير من فتيان القبائل المختلفة ، والسر فى ذلك رغبة قريش فى أن يتفرق دم محمد فى القبائل حين يطعنه كل هؤلاء الفتيان ، فيشتركوا جميعا فى قتله ، فلا يستطيع بنو عبد مناف ـ وهم قومه الاقربون ـ أن يقاتلوهم جميعا ، وحينئذ يضطرون الى الاكتفاء بقبول الدية .

٣ ـ المؤلف يقرر أن محمدا هاجر هو والجماعة القليلة من أتباعه الى المدينة فى يوم ١٦ من يولية سنة ٦٢٢م

ولا ننازعه فى التاريخ فهى مسألة حسابية

ولكن نستدرك عليه بأن أصحاب محمد واتباعه المخلصين هاجروا قبله ، وانه لم يهاجر معه يوم هاجر الا ابوبكر الصديق .

. . . .

النص رقم (١٠) ص « ٣٤١ »

« ورحب سكان المدينة ... الخ »

التعليق :

يصور المؤلف ترحيب المدينة بمحمد على انه كان ناشئا عن المنافسة القديمة لمكة ، وانهم أرادوا بذلك أن يتخذوا منه مواطنا لهم يخلق المتاعب لمدينته التى فر منها

والواقع أن المدنيين كانوا مؤمنين بالدعوة الاسلامية ايمانا عميقا ، ويمكن ادراك ذلك من المناقشة التى دارت بين النبى ومن بايعوه بيعة العقبة ، فقد بايعوه وهم يعلمون انهم سيعادون بمبايعته قوة عظمى ، وانهم سيعرضون أموالهم وارواحهم الى أكبر الخطر ، وقالوا « انا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الاشراف » . وسألوه قائلين « فمالنا يارسول الله ان نحن وفينا بذلك ؟ » قال « الجنة ! »

فالمسألة مسألة اقتناع وايمان دينى من غير شك .

. . . .

النص رقم (١١) ص « ٣٤١ »

« ونشبت عدة مواقع بسيطة بين مكة والمدينة ، واخيرا جمع المكيون جيشا كبيرا محاولين الاستيلاء على المدينة ... الخ »

التعليق :

ليست كل المواقع الأولى بسيطة كما يقــول المؤلف ، فمنها موقعة بدر التى هزم فيها المكيون المشركون شر هزيمة، وقتل فيها صناديدهم ، ومثل غــزوة أحد التى هزم فيها المسلمون هــزيمة شديدة ، وتعلموا منها دروسا فى طاعة الرسول وعدم الخروج على أمره

اما الغزوة التى جمع فيها المكيــون جيشا كبيرا ، فهى غـزوة الخنــدق ، وتسمى ايضا غزوة الأحزاب ، وما قاله فيها صحيح ، غير ان رجوع المكيين كان بسبب يأسهم وحدوث انقلاب جــوى وعواصف شديدة اقتلعت خيامهم ، وفتت فى عضدهم ، كما جاء فى قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بمــا تعملون بصيرا ، اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصــار وبلغت القلوب الحناجر وتظنــون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » الآيات من ٩ الى ١١ / الأحزاب ــ راجع كتب السيرة ، ومنها (حياة محمد) للدكتور حسين هيكل .

• • • •

النص رقم (١٢) ص « ٣٤٢ »

« وبعد هذا النصر الذى لم يرق فيه دم ، لم يعد احد يشك فى قوة محمــد فى بلاد العرب . وفى عام ٦٣٠ قام بينه وبين اهل مكة اتفاق بأن يســمحوا له بالعودة الى مكة مقابل أن يجعل هــذه المدينة مركزا لديانته الجديدة ، وبذلك يضمنون بقاء ، بل وزيادة ، دخلها من تجارة الحج ... الخ »

التعليق :

لقد فتح النبى مكة سنة ٦٣٠ بعد نقض قريش عهد الحديبية الذى وقع بين الفريقين فى سنة ٦٢٨

ولم يقع بينه وبين مكة اتفاق فى سنة ٦٣٠ ــ كما قال المؤلف ــ بأن يسمحوا له بالعودة الى مكة بالمقابل الذى ذكره ، .فقد دخلها فاتحا منتصرا بجيش كبــير لم تر قريش لها طاقة به فخضعت ، ولم يعط النبى يومئذ ، ولا قبل ذلك ، عهدا بأن يجعل مكة مركزا لدينه ، بل ينبئنا التاريخ أن الأنصار ــ أهل المدينــة ــ لما توهموا أن رسول الله ربما بقى بمكة بعد أن لقى أهله واستقر فى بلده ، دعاهم محمد فسألهم : هل ظنوا ذلك ؟ فلمــا عرف منهم مخافتهم قال : « معاذ الله ! المحيا محياكم ، والممات مماتكم » وبذلك يتبين انه لم يعتزم البقاء بمكة وجعلها عاصمة دينه أو دعوته ، ولو كان قــد أعطى عهدا بذلك لما وسعه الا الوفاء به على سنته فى الوفاء بالعهود ، وقد عاد الى المدينة فيما بعد .

• • • •

النص رقم (١٣) ص « ٣٤٢ »

« عاد محمد الى مكة سنة ٦٣٠ فهدم أصنام الديانة القديمة .. الخ »

التعليق :

١ ـ ما قاله المؤلف من أن محمـداطهر الكعبة من الأصنام ، صحيح ، فقد أتم النبى ذلك فى أول يوم لفتـح مكة ؛ فأزال الصور المعلقة على جدرانها وحطم الأصنام ومن بينها (هبل) الصنم الأكبر وكان يتلو وهو يشير اليها بقضيب فى يده قوله تعالى « وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » الآية ٨١ من الاسراء

٢ ـ وما ذكره المؤلف من أن النبى حرم على غير المؤمنين من الحجـاج أن يدخلوا مكة ، صحيح ، فقد حدث ذلك عام الوفود ، وهو السنة التاسعة مـن الهجرة ، بعد أن نزل قوله تعالى « براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين . » من ١ الى آخر الآية ٣٦ من سورة التوبة ـ فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم عليا فأدرك أمير الحج فى موسم الحج حينئذ ـ وهو أبو بكـر ـ فتلا على الناس هذه الآيات ، ثم صـاح قائلا : « أيها الناس : انه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهـد فهو الى مدته . » ثم أجل الناس أربعة اشهر بعد ذلك اليوم ليرجع كل قوم الى مأمنهم وبلادهم ، ومن يومئذ لم يحج مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان .

٣ ـ وما قاله المؤلف من ان أهـل الكتاب من اليهود والنصارى سمح لهم بأن يظلوا على دينهم على شرط أن يدفعوا الجزية ، صحيح ايضا ، وفيه قوله تعالى فى الآية ٢٩ من سورة التـوبة « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

٤ ـ علق المترجم هنـا بأن المؤلف أضاف الى أهل الـكتاب : المجوس فى هذا الحكم ايضا ، وقال المترجم : « ان هـذه الأضافة ترجع الى أيام عمر بن الخطاب . وأهل السنة يقتصرون فقط على النصارى واليهود » .

وأقول : يشير السـيد المترجم الى ما رواه البخارى باسناده عن بجالة انه قال : « ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى حدثه عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر » .

وقد ورد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال فى شأن المجوس : « سـنوا بهم سنة أهل الكتاب » وحمل العلماء ذلك على أخذ الجزية منهم ، وفى ذلك يقول ابن قدامة فى ص ٥٧٠ ج ١٠ من كتابه (المغنى) :

« اذا ثبت هذا فان اخذ الجزية من أهل الكتاب والمجوس ثابت بالاجمـاع لانعلم فى هذا خلافا ، فان الصحابة رضى الله عنهم أجمعوا على ذلك ، وعمل به

الخلفاء الراشدون ومن بعدهم الى زمننا هذا . (والمؤلف الذى نقل عنه هذا النص توفى سنة ٦٣٠ هـ) من غير نكير ولا مخالف ، وبه يقول أهل العلم من أهل الحجاز ، والعراق والشام ، ومصر ، وغيرهم ، مع دلالة الكتاب على أخذ الجزية من أهل الكتاب ، ودلالة السنة على أخذ الجزية من المجوس بما روينا من قول المغيرة لاهل فارس : امرنا نبينا أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده او تؤدوا الجزية ، وحديث بريدة وعبد الرحمن بن عوف وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » ا هـ .

....

النص رقم (١٤) ص « ٣٤٢ »

« ومات محمد بعد عامين من عودته الى مكة : مات فى سن الثانية والستين »

التعليق :

المشهور انه مات فى الثالثة والستين من عمره .

....

النص رقم (١٥) ص « ٣٤٣ »

« مات محمد بعد أن نجح وأصبح رجلا ميسورا ... الخ » .

التعليق :

١ ــ لم يكن الرسول حين مات ميسورا يسرا يتعلق بشخصه ، فان التاريخ يروى انه مات ودرعه مرهونة عند يهودى .

اما أسهمه من الغنائم والانفال فقد كانت تحت يده ينفق منها على الناس وفى مصالح الأمة .

٢ ــ وما قاله المؤلف فى هذا النص بعد ذلك صحيح .

....

النص رقم (١٦) ص « ٣٤٣ »

« وشعر العرب الذين كانوا على علم بتعاليم اليهود والنصارى وآرائهم انهم ينقصهم شىء ، وذلك لانه لم يكن لديهم عند موته كتاب مقدس أو حديث مكتوب ... الخ » .

التعليق :

العرب بدأوا يتعلمون الكتابة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان يشجعهم على ذلك حتى انه كان يجعل من فداء الاسرى أن يعلم الاسير عددا من المسلمين الكتابة .

وكان له صلى الله عليه وسلم طائفة من الكتاب تكتب القرآن تحت اشرافه ، ووجدت صحف القرآن المكتوبة على عهده فى بيته ، وهى التى اعتمد عليها عند جمع القرآن الجمع الاول فى عهد أبى بكر ، مع الاعتماد كذلك على الحفظ وتتبع الآيات نصا وترتيبا عند الصحابة تحقيقا لما نقل عن الرسول مشافهة ، ومؤازرة لما وجد عنده كتابة .

ولذلك لانسلم للمؤلف أن تعلم العرب الكتابة بدأ بعد موته ، وأنه لم يكن لديهم عند موته كتاب مقدس .

....

النص رقم (١٧) ص « ٣٤٣ »

« يتكون القرآن من الآيات التى نزلت على محمد ... الخ » .

التعليق :

١ - يقول المؤلف فى هذا النص : « ان محمدا قد نطق بجزء كبير منه عندما كان فى حالة غيبوبة » .

فان كان يشير بذلك الى ماكان يصاحب حالة نزول الوحى عليه من معاناة ومجاهدة ، فهذا صحيح ، ولكن تلك المعاناة والمجاهدة انما كانت تحدث وهو يوحى اليه ، أى عند التلقى ، أما نطقه بما أوحى اليه فكان بعد أن يسرى عنه ، فهو اذن لم يكن ينطق بالآيات وهو فى حالة غيبوبة .

وان كان المؤلف يريد مايصرح به بعض كتاب السيرة الغربيين من ان القرآن ثمرة لنوبات عصبية جعلته ينطق بهذا اللون من الكلام ، فذلك غير صحيح ، وقد قرر الاطباء انه لايعرف مرض عصبى فى تاريخ الانسان يثمر مثل هذه الثمرات العظيمة التى تتجلى فى هذا القرآن .

٢ - وقد وصف المؤلف القرآن الكريم بأن لغته شعرية التركيب تجمع بين ابتهالات غامضة ... الخ .

والقرآن واضح كل الوضوح ، وليست لغته شعرية وان كانت عالية قوية ، وقد تناول أصول الدين والشريعة على وجه معجز وكانت الفاظه وأساليبه فى غاية الدقة والتحرير ، وبين الزمان والعلم مدى تلك الدقة والعظمة .

....

النص رقم (١٨) ص « ٣٤٣ »

« وبالرغم من أن محمدا لم يعش طويلا ليضع حدا نهائيا لكل ما استجد من مشاكل ، فانه وضع أسس عقيدة ونظام قانونى أتمها من جاءوا بعده ... الخ » .

التعليق :

فى هذا النص يقرر المؤلف :

١ ــ ان محمدا وضع أسس عقيدة ونظام قانونى أتمها من جاءوا بعده ، وهذا فيما يتصل بالعقيدة قول لايسهل التسليم به ، فان العقائد هى الحقائق الايمانية التى لايكون المسلم مسلما الا بها ، كاعتقاد وحدانية الله ، ونبوة محمد ، والبعث ، والدار الآخرة ، ونحو ذلك ، وتلك العقائد قد بينت بالقرآن والسنة بيانا شافيا تاما .

وغاية مافى الامر أن المسلمين قد حدث بينهم كثير من الخلاف فيما وراء العقائد الاصلية من المعارف المتصلة بها ، وهذا لايسمى خلافا فى العقائد ، ولا يعتبر الكلام فيه اتماما للعقائد ، وانما هو معارف فكرية لكل رأيه فيها حسب نظره واجتهاده ، وليس ذلك من أصول الدين ولا من ضروريات العقيدة والايمان

أما مايتعلق بالاحكام والتشريعات القانونية فى الاسلام ، فمن المسلم به انه ليس فى طاقة عهد واحد أن يستوعب كل النظم القانونية تفصيلا بحيث لايبقى لما بعده من العهود عمل ما .

غير أن الاسلام قد وفى على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومابلغه من كتاب وسنة ، بنظام قانونى تشريعى فيه كثير من التفصيلات ، وفيه الى جانب ذلك من القواعد والاصول ، ومن أسباب المرونة ، ماجعل الفقهاء والائمة والمجتهدين قادرين على استنباط كثير من أحكام ماجد وما يجد من الحوادث وصور المعاملات ولكنهم فى اجتهادهم واستنباطهم راجعون الى الكتاب والسنة ومافيهما من نصوص أو قواعد وضوابط وعلل ترشد الى قياس الصحيح .

٢ ــ وكلام المؤلف عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحمس المسلمين لجمعها والعناية بها صحيح فى الجملة .

٣ ــ وزعم المؤلف أن القرآن استمد أكثر ماحواه من تشريعات من القوانين التى كان الناس متعارفين عليها فى أيام ما قبل الاسلام مع القليل من التغييرات، وقرر أن القوانين التى وردت فى القرآن هى تحسينات عظيمة فى كل حالة .

وهذا المعنى كثيرا مارردده كتاب الغرب ، وهم يريدون به أن يزعموا ان الشريعة الاسلامية مقتبسة من القانون الرومانى وغيره .

والواقع الذى يتجلى لمن درسوا هذه الشريعة فى انصاف انها مستقلة استقلالا تاما ، وأن لها قواعدها واصولها وطابعها الخاص وفلسفتها التى تختلف عن فلسفة القوانين الرومانية وغيرها .

ولايعنى ذلك بطبيعة الحال انه لاتوافق أبدا بينها وبين غيرها من القوانين ولو فى بعض الجزئيات أو المبادىء ، فان مثل هذا التوافق والتلاقى ضرورى وطبيعى ، وكل مافى الأمر أن محاولة تجريد الشريعة الاسلامية من كل العناصر

التي تمتاز بها كشريعة مستقلة ، انما هي محاولة مجانبة للانصاف العلمي .
٤ ـ ويذكر المؤلف أمثلة مما يعده تحسينا فى التشريع الاسلامى فيشير مثلا الى النصوص التى تقرر وجوب رحمة السيد بعبده .
وهذه النصوص مثل قوله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل **وما ملكت ايمانكم** » . الآية ٣٦ من سورة النساء .
ويشير كذلك الى مبدأ الاخوة والمساواة بين المؤمنين ، وهو المقرر بقوله تعالى « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » الآية ١٠ من سورة الحجرات .
ويشير كذلك الى مثل قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير » . الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

. . . .

النص رقم (١٩) ص « ٣٤٤ »
« ولكن لم تكد تمضي خمسون سنة على موت محمد حتى انقسم الاسلام الى ثلاث فرق رئيسية ... الخ » .

التعليق :

١ ـ يذكر المؤلف ان النبى كان قد اختار أبا بكر ليتولى شئون الامة من بعده ، والواقع انه لم يختره لذلك صراحة ، ولكن الذين يقولون بأحقية أبى بكر بتولى الخلافة يستنبطون ذلك من أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اختاره ليؤم الناس فى الصلاة حينما كان مريضا ، فقالوا : مادام الرسول قد اختاره لهذا الامر الدينى ، فهو أحق بأن يختار لهذا الامر الدنيوى وهو القيام بشئون الخلافة .
والشيعة لا يسلمون للسنة بذلك ، ويرون أن عليا هو الامام المنصوص عليه من الرسول اعتمادا على ماصح عندهم فى ذلك مما لا يوافقهم عليه أهل السنة ولا يرون قبول نصوصهم فيه ، فهى مسألة خلافية .
٢ ـ ويقول المؤلف ان الشيعة يعتقدون أن نفوذ محمد وسلطانه قد تجسدا فى على ، والمؤلف وان فسر هذا التجسد بمعنى أن الخليفة فرد نقل الله اليه نفوذ محمد وسلطته ، فانه يعمم الكلام عن الشيعة ، والواقع أن الشيعة فرق كثيرة ، ولهم نظريات مختلفة ومنهم طوائف قد انقرضت ، وليس من التحقيق أن يحكم على طوائفهم ونظرياتهم بحكم واحد .

. . . .

النص رقم (٢٠) ص « ٣٤٥ »

« وبزوال الخـــوارج مـــن مسرح الحوادث أصبح الفريقـــان الرئيسيان فى العالم الاسلامى هما السنة والشيعة ، ويعتبر كل منهـــما أن الآخر لايسير فى الطريق المستقيم ، بل ويرميه بالمروق ... الخ » .

التعليق :

الواقع أن العصبيـــة المذهبية ، او الطائفية ، لعبت دورا هاما فى التفريق بين السنة والشيعة ، بل بين مذاهب السنة فيما بينها ، ومذاهب الشيعة فيما بينها أيضا ، وكان للسياسة دخل كبير فى ذلك ، وكان للحكام أهداف من ورائه .

ولكن كان فى المسلمين دائما منصفون من كل طائفة ، يرون أن الخـــلاف بين الفريقين ليس جوهريا ، وليس فى أصول الدين التى ظل الايمان بها قائما متفقا عليه . غير أن الجمهور والعامة فى كل زمان هم الذين يضخمون دائما أسباب القطيعة ، ويتقبلون سعى النافخين فى رمادها من أهل الاغراض والاهواء .

وفى العـــالم الاســـلامى الآن حـــركة جديدة يراد بها التقريب بين الطوائف المختلفة وجمع كلمتهم حول الاصول الاصلية المتفق عليها وعلى أنها أركان ضرورية فى الاسلام، وأن يعذر كل فريق مخالفيه فيما وراء هذه الاصول ، ومركز هذه الحركة الآن فى القاهرة حيث ألفت منذ أكثر من عشر سنوات جماعة باسم جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية تضم علماء من الجامعة الازهرية وعلماء من الشيعة الامامية ، ويمثل الاولون مذاهب السنة الاربعة ، كما يمثـــل الآخرون مذهبى الامامية الاثنى عشرية فى ايران والعراق وغيرهما ، والزيدية فى اليمن ، وقد كان على رأس هـــذه الجماعة عالم كبير سنى حنفى تولى منصب الافتاء فى مصر ثمانية عشر عاما، وتولى منصب مشيخة الازهر مرتين الى سنة ١٩٥٢ وهو المرحـــوم الشيخ عبد المجيد سليم كما كان فى عضويتها وما زال كثير من رجال الفكر والعلم فى مختلف المذاهب الستة ، وبعضهم ممن تولوا مناصب الوزارة وغيرها ، ولهذه الجماعة دار بها مكتبة حاوية لمختلف كتب المذاهب ، ومجلة منتظمة الصدور رفيعـــة البحـــوث ، تدعو الى فـــكرة التقريب ، ويكتب فيها اعلام الفريقين : السنة والشيعة ، ومراسلون فى مختلف البلاد الاســـلامية ، وفروع فى بعضـــها متعاونة مع المركز الرئيسى .

ووزارة الاوقـــاف بالقـــاهرة وعلى رأسها عالم سنى ، تؤيد هذه الجماعة ، وتؤازر سعيها ، وقد قامت اخيرا بطبع كتاب من كتب الشيعة الامامية قدمته لها جماعة التقريب ، كنموذج للتفكير الفقهى الشيعى يعرض على علماء السنة فى المساجد والمعاهد والجامعات ، كل ذلك يدل على اتجاه جديد فى العلاقات

بين السنة والشيعة ينبغي أن يعرف وان ترصد وجوه النشـــاط فيـــه ، حـتى تتكون الصورة الواقعية الحالية للعـــالم الاسلامي فى مختلف طوائفه .

٢ — ويقرر المؤلف أن أهل السنة الذين كانوا يسكنون بلاد العرب ومصر هم أقرب الى الاسلام الاصلى ، وانهم بالرغم مـــن محافظتهم ، فان بعض التعديلات قد وجـدت لها سبيلا الى مذهبهم الدينى ، وذلك لقبولهم فكرة « الاجماع » ... الخ .

وربما كان حكم المؤلف على هـــذا الفريق أو ذاك من حيث قربه أو بعـــده عن الاسلام ، حكما من غيرذى اختصاص ولا يرضى به الفريق الآخر على الاقل ، والحـــركة الجـــديدة التى اشرنا اليهـــا فى الفقرة السابقة قائمة على استبعاد التعصب المذهبى ، وترك مايوسع الهوة الخلافية ، واحترام كل فريق لحـــق صاحبه فى أن ينظر ويجتهد ويدرس ما صح عنـــده من النصـــوص فى حـــرية كاملة .

٣ — ثم أن المؤلف يشير الى الاجماع فى عبارات غامضة ، ويضـــع له مفهوما لايعرفه علماء الاسلام ، يسمح بان يتقبل المسلمون اية عادة « تتعارض » مع الدستور القرآنى والحديث ، بحجة أن الله يريد ذلك ، اذ هو المسيطر على كل ما فى الوجود .

وهذا ليس بصحيح :

اولا — لان الاجماع هو اتفاق جميع المجتهدين من هذه الامة فى عصر ما على حكم شرعى ، واذن فلا ينعقد الاجماع باتفاق غير المجتهدين ، ولا عبـــرة بمـــا يجمع عليه العامة دون المجتهدين ، ولا ينعقـــد الاجماع كذلك باتفاق بعض المجتهدين دون من عاصروهم .

ثانيا — لان الاجماع لابد أن يكون مستندا الى كتاب أو سنة أو قياس صحيح ، ويشترط فيه الا يكون معارضا لنص قائم من كتاب أو سنة .

ونرجح أن الشبهة التى وقع فيهـــا المؤلف جاءت مع عدم فهمه لما ورد من الاحاديث التى اســـتدلوا بها على كون الاجماع حجة ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم « لاتجتمع أمتى على خطأ » أو « لاتجتمع أمتى على ضلالة » وقوله صلى الله عليه وسلم « ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن ، وما رآوه قبيحا فهو عند الله قبيح » فظن المؤلف أن من موضوعات الاجماع الحكم بمـــا يعارض كتابا او ســـنة ، فاذا اجمـــع المسلمون على تقبل عادة وابقائها — كما يقول — فانها تصبح عادة مقبولة ولو كانت معارضة للنص — هكذا فهم المؤلف وكان عليه أن يدرك أنه لايمكن الاجماع على مخالفة نص صحيح ، وان الرسول ينفى أن يحدث من الامة اجماع على ذلك ، ويقرر أن الله تعالى عصم الامة من وقوع مثل هذا الاجماع فيها ، اذ لابد أن يوجد من يخالف فلا يتم الاجماع .

وقد رتب المؤلف على مافهمه امرا ، هو ما توهمه من أن السر فى نجاح المبشرين المسلمين فى افريقيا دون المبشرين المسيحيين ، هو أن الاولين استطاعوا ان يلائموا بين العقائد الاسلامية ، وبين العادات المحلية للزنوج الافريقيين بصورة عجز عنها المسيحيون وقال المؤلف : انه سيترتب على ذلك انه مالم يحدث شيء غير متوقع فمن المنتظر ان يعتنق زنوج افريقيا الديانة الاسلامية أكثر من احتمال اعتناقهم للدين المسيحى .

ولاشك أن مايقوله المؤلف عن وجود فرص التقبل أمام المبشرين المسلمين أكثر من المبشرين المسيحيين فى هذا المجال صحيح ، ولكن السر الذى ربطه به غير صحيح كما بينا ، لانه مبنى على خطأ فى التصور السليم لفكرة الاجماع وشروطها الاساسية ، ومدى امكانها لتقدير حكم شرعى ، أو تقبل عادة ما ، أحدثها الناس ورغبوا فى اقرارها .

• • • •

النص رقم (٢١) ص « ٣٤٦ »

« لم يكن عرب الصحراء جماعة كبيرة العدد ، وكانت جيوشهم بالرغم ممن انضم اليها ممن اعتنقوا الاسلام مازالت جيوشا صغيرة ... الخ » .

التعليق :

١ ــ المؤلف فى هذه الفقرات يريد أن يرجع انتصار المسلمين على البلاد التى دخلوها ، الى قوتهم الحربية فحسب ، والى تعفن الحالة الداخلية فى تلك البلاد ، ومع كونه يعترف بالاصلاح الأسلامى وبمبادئه ومثله العليا ، لكنه لأيكاد يذكر من ذلك الا النواحى التى تفيده فى أحكامه ، مثل اعترافه بأن الدين الاسلامى لم يكن فى يوم من الأيام دينا يدعو الى الخنوع والاستسلام ، وكان اتباعه دائما محاربين ممتازين ، فانه بهذا يريد التوصل الى أن النصر الذى فاز به المسلمون يرجع الى قوتهم المادية وامتيازهم فى الحروب ، لا الى عوامل معنوية استفادوها من دينهم جعلت دعوتهم تؤثر فى الشعوب ، وتسهل عليهم الفتوح .

٢ ــ ويميل المؤلف أيضا الى تصوير المسلمين الفاتحين متخلفين حضارة عمن غلبوهم ، بدليل أنهم اضطروا الى استخدام الموظفين القدامى فى شئون الأدارة التى كانوا يجهلونها .

وتلك فى الواقع مسألة تقديرية ، وقد يكون ذلك راجعا الى عدل الحكم الاسلامى وطبيعته ، والى ترحيب أهل البلاد بهم الى درجة تبادل الثقة بين المغلوبين والغالبين .

٣ ــ وكذلك ينزع المؤلف الى ارجاع نجاح الدعوة الاسلامية الى عوامل

تجارية واقتصادية وجغرافية ،اضطرت المدن التى تعيش فى مستوى خاص اساسه صناعى أو تجارى الى تقبل حكم الاسلام لاحساسها بانها تحت رحمة اى جماعة تسيطر على طرق التجارة بين تلك المدن .

وللمؤلف مايرى فى مثل هذه الامور التى لايعتمد فيها على نصوص او حوادث تاريخية معينة ، وانما يعتمد فيها على تقديره وتأمله ، ولكن مما لاشك فيه للباحث المنصف أن الاسلام دعوة سرت فى الناس بمبادئها وتعاليمها وعدلها قبل أن تسير اليهم فى جحافلها وجيوشها ، وقبل أن تتحكم فى المدن والطرق بسلطتها أو موقعها او نفوذها.

النص رقم (٢٢) ص « ٣٤٩ »

« والبلاد الاسلامية فيما عدا ما يوجد منها فى جنوب شرقى آسيا اغلبها بلاد تجارية وزراعية ... الخ ».

التعليق :

١ ــ كلام المؤلف فى هذا وصف لاسلوب حياة المسلمين فى أقاليمهم المختلفة ، وهو موضوع دراسة اجتماعية مدنية ، وقد علق عليه السيد المترجم بما فيه الكفاية .

٢ ــ وما ذكره عن المسجد وماله من أهمية فى المجتمع الاسلامى صحيح فى الجملة ، وكذلك ماذكره عن الحج ، الا قوله « وربما كان المقصود منه تشجيع تجارة أهل مكة التى كانت تدر عليهم الربح فى الماضى » .

فان ذلك من فوائد الحج التى لم يلغها الاسلام ، وليست هى كل فوائده ولا المقصد الاساسى فيه ، فهناك فرق بين اقتران العبادة الروحية بفائدة مادية ، وبين كون هذه العبادة مشروعة من اجل تحقيق هذه المنفعة المادية .

والخلاصة ان العبادات فى الاسلام تهدف الى الاصلاح الروحى ، ولا تمنع ما لا ينافى ذلك من المنافع المادية، وفى مسالتنا هذه يقول القرآن الكريم : « واذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام ، فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق ، ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » .

٢٧ ــ ٣٠ من سورة الحج

٣ ــ وما ذكره المؤلف عن أضرحة الصالحين ، وأن بعض الناس يعتقدان زيارة أحد هذه الاضرحة سبع مرات يعادل الحج الى مكة ــ انما ذلك أوهام لبعض العامة الذين لايعول عليهم ، وليس ذلك من الاسلام .

* * * *

هذا مارأيت التعليق به على ماكتبه المؤلف .

والسلام عليكم ورحمة الله .

محمد محمد المدنى

استاذ الشريعة ورئيس قسم العلوم الاسلامية فى كلية دار العلوم بجامعة القاهرة

١٣ من اكتوبر سنة ١٩٥٨ م

بعض المراجع الهامة

الفصل الثالث عشر

BUCK, SIR P. H. : The Coming of the Maori. Nelson, N.Z. : Cawthron Institute of Scientific Research; 1925.

——— : Vikings of the Sunrise. New York : Frederick A. Stokes Co.: 1938.

DUFF, R. : The Moa-Hunter Period of Maori Culture. Wellington, N. Z. : Department of Internal Affairs; 1950.

LINTON, R. : The Archeology of the Marquesas Islands. Hawaii : B.P. Bishop Museum Bulletin, No. 23; 1925.

MOVIUS, H.L., JR. : Early Man and Pleistocene Stratigraphy in Southern and Eastern Asia. Cambridge : Papers of the Peabody Museum, Harvard University, Vol. xix No. 3; 1944.

RIESENFELD, A. : The Megalithic Culture of Melanesia. Leiden : E.J. Brill; 1950.

الفصل الرابع عشر

BURROWS, E.G. : Western Polynesia : A Study in Cultural Differentiation. Gothenburg : Ethnographic Museum: Ethnographic Series 7; 1938.

CODRIGTON, R.H. : The Melanesians. Oxford : Clarendon Press; 1891.

COON, C.S., and ANDREWS, J.M., IV : Studies in the Anthropology of Oceania and Asia. Cambridge: Papers of the Peabody Museum, Harvard university, Vol. xx; 1943.

DEACON, A.B.: Malekula: A. Vanishing People in the New Hebrides. London : G. Routledge & Sons ; 1934.

FIRTH, R. : We, the Tikopia. London : G. Allen & Unwin; 1936.

——— : Primitive Economics of the New Zealand Maori. New York E.P. Dutton & Co.; 1929.

GOODENOUGH, W.H. : Kin and Community on Truk. New Haven : Yale University Publications in Anthropology, No. 46; 1951.

KRIEGER, H.W. : Island Peoples of the Western Pacific, Micronesia, and Polynesia. Washington : Smithsonian Institution, War Background Studies, No. 16; Sept., 1943.

LINTON, R. : The Material Culture of the Marquesas Islands. Hawaii: Memoirs of the B. P. Bishop Museum, Vol. VIII, No. 5; 1923.

——— : The Tanala, a Hill Tribe of Madagascar. Chicago : Field Museum of Natural History, Anthropological Series, Publication No. 317, Vol. xxii; 1933.

LINTON, R.; WINGERT, P.; and D'HARNONCOURT, R. : Arts of the South Seas. New York; Museum of Modern Art; Simon and Schuster; 1946.
the South Seas. New York ; Museum of Modern Art; Simon and Schuster; 1946.
MALINOWSKI, B. : Argonauts of the Western Pacific. New York; E. P. Dutton & Co.: 1932.

——— : Coral Gardens and Their Magic. London : G. Allen & Unwin; 1935.

MEAD, M. : From the South Seas, New York : William Morrow & Co.; 1939.

OLIVER, D. : The Pacific Islands. Cambridge : Harvard University Press; 1951.

RIVERS, W.H.R. : History of Melanesian Society. Cambridge : The University Press; 1914.

SPOEHR, A. : Majuro : A village in the Marshall Islands. Chicago : Chicago Natural History Museum; 1949.

WHITING, J.W.M.; On Becoming a Kwoma. New Haven : Yale University Press; 1941.

WILLIAMS, F.E. : Papuans of the Jrans-Fly. Oxford : Clarendon Press; 1936.

الفصل الخامس عشر

BARTON, R.F. : The Kalingas. Chicago : University of Chicago Press; 1949.

BRIGGS, L.P. : The Ancient Khmer Empire. Philadelphia : Transactions of the American Philosophical Society; 1951.

COLE, F.C. : The Peoples of Malaysia. New York: D. Van Nostrad Co.; 1945.

COVARRUBIAS, M. : The Island of Bali. New York : Alfred A. Knopf; 1937.

DOBBY, E.H.G. : Southeast Asia. New York : John Wiley & Sons; 1950.
DU BOIS, C. : The People of Alor. Minneapolis University of Minnesota Press ; 1944.
FIRTH, R. : Malay Fishermen : Their Peasant Economy. London : Kegan Paul, Trench, Trubner & Co.; 1946.
HEINE-GELDERN, R. : "Prehistoric Research in the Netherlands Indies." In Science and Scientists in the Netherland-Indies. Edited by Pieter Honig and Frans Verdoorn. New York : 1945.
KENNEDY, J. : The Ageless Indies. New York : The John Day Co.; 1942.
KROM, N. J. : Borabudur : Archeological Description. The Hague : M. Nijhoff; 1927.
PERRY, W. J.: The Megalithic Culture of Indonesia. London : Longmans, Green & Co.; 1918.
TER HAAR, B. : Adat Law in Indonesia. Translated : New York : Institute of Pacific Relations; 1948.
WINSTEDT, R. : The Malays : A Cultural History. London : Routledge & Kegan Paul; 1950.

الفصل السادس عشر

BRAIDWOOD, R.J. : The Near East and the Foundations of Civilization. Eugene, Oregon : Oregon State System of Higher Education; 1952.
CHILDE, V.G. : New Light on the Most Ancient East. Revised edition. London : Routledge and Kegan Paul; 1952.
DAVISON, D. : The Story of Prehistoric Civilizations. London : Watts & Co.; 1951.
FRANKFORT, H. : The Birth of Civilization in the Near East. London: Williams & Norgate; 1951.
PERKINS, A.L. : The Comparative Archeology of Early Mesopotamia. Chicago : Studies in Ancient Oriental Civilizations, No. 25; 1949.

الفصل السابع عشر

CHILDE, V.G. : The Dawn of European Civilization. Fourth edition. New York; Alfred A. Knopf; 1948.

——: Prehistoric Migrations in Europe. Oslo : H. Aschehough & Co.; 1950.

DAVISON, D. : The Story of Prehistoric Civilizations. London ; Watts & Co.; 1951.

HAWKES, C.F.C. : The Prehistoric Foundations of Europe : To the Mycenean Age. London : Methuen & Co.; 1940.

PEAKE, H., and FLEURE, H.J. : The Corridors of Time Series. Vols. I-IX, New Haven : Yale University Press; 1926-36.

الفصل الثامن عشر

CHILDE, V.G. : The Bronze Age. Cambridge : The University Press; 1930.

——: The Dawn of European Civilization. Fourth edition. New York: Alfred A. Knopf : 1948.

——: Prehistoric Migrations in Europe, Oslo : H. Aschehough & Co.; 1950.

CLARK, J.G.D. : Prehistoric Europe : The Economic Basis: New York: The Philosophical Library; 1952.

DAVISON, D. : The Story of Prehistoric Civilizations : London : Watts & Co.; 1951.

HAWKES, C.F.C. : The Prehistoric Foundations of Europe : To the Mycenean Age. London : Methuen & Co.; 1940.

الفصل التاسع عشر

CHILDE, V.G. : The Aryans : A Study of Indo-European Origins. London : Kegan Paul, Trench, Trubner & Co.; 1926.

HUDSON, A.E. : Kazak Social Structure. New Haven : Yale University Press; 1938.

JOCHELSON, W. : The Peoples of Asiatic Russia. New York : American Museum of Natural History; 1928.

KELLER, A.G. : Homeric Society. New York : Longmans, Green & Co.; 1902.

LAMB, H. : Genghis Khan, Emperor of All Men. New York : Penguin Books; no date.

الفصل العشرون

The Cambridge Ancient History. 12 volumes. Cambridge : The University Press; 1923-29.
BAIKIE, J. : The Life of the Ancient East. New York; The Macmillan Co.; 1923.
GLUECK, N. : The Other Side of the Jordan. New Haven : American Schools of Oriental Research; 1940.
MUSIL, A. : The Manners and Customs of the Rawala Bedouin. New York : Czech Academy of Sciences and Arts; 1928.
O'LEARY, De L. : Arabia Before Muhammed. London : Kegan Paul, Trench, Trubner & Co., 1927.
PATAI, R. : Man and Temple. New York : Thomas Nelson & Sons; 1947.
SWAYNE, H.G.C. : Seventeen Trips Through Somaliland. London : R. Ward; 1900.
WOOLLEY, SIR L. : Abraham : Recent Discoveries and Hebrew Origins. New York : Charles Scribner's Sons : 1936.

الفصل الواحد والعشرون

BREASTED, J.H. : Ancient Times, A History of the Early World. Boston : Ginn & Co. : 1916.
CARLETON, P. : Buried Empire. New York : E.P. Dutton & Co.; 1939.
CHILDE, V.G. : New Light on the Most Ancient East. Revised edition. London : Routledge & Kegan Paul; 1952.
DAVISON, D. : The Story of Prehistoric Civilizations. London : Watts & Co.; 1951.
DELAPORTE, L. : Mesopotamia : The Babylonian and Assyrian Civilization. New York; Alfred A. Knopf; 1925.
FRANKFORT, H. : The Birth of Civilization in the Near East. London : Williams & Norgate : 1951.
WOOLLEY, C.L. : The Sumerians. Oxford : Clarendon Press ; 1928.
——: Ur of the Chaldees. New York; Charles Scribner's Sons; 1930.

الفصل الثاني والعشرون

ALBRIGHT, W.F. : The Archeology of Palestine. Harmondsworth : Pelican Books; 1949.

CHILDE, V.G. : New Light on the Most Ancient East. Revised edition. London : Routledge & Kegan Paul; 1952.

DOUGHERTY, R.P. : The Sealand of Ancient Arabia. New Haven : Yale University Press; Yale Oriental Series : Researches, Vol. xIx; 1932.

GURNEY, O.R. : The Hittites. Harmondsworth : Pelican Books; 1952.

MORET, A., and DAVY, G. : From Tribe to Empire. New York : Alfred A. Knopf; 1926.

OLMSTEAD, A.T. : History of Assyria. New York : Charles Scribner's Sons; 1923.

——: History of the Persian Empire (Achaemenid Period). Chicago: University of Chicago Press; 1948.

الفصل الثالث والعشرون

EVANS, SIR A. : The Palace of Minos at Knossos. 4 volumes. London : Macmillan & Co.; 1921-35.

HOMER : The Iliad. Translated by W.H.D. Rouse. New York : New American Library of World Literature (Mentor Classics); 1950.

——: The Odyssey. Translated by W.H.D. Rouse. New York : New American Library of World Literature (Mentor Classics); 1950.

PENDLEBURY, J.D.S. : The Archeology of Crete. London : Methuen & Co.; 1939.

PLATO : The Works of Plato. Selected and edited by Erwin Edman. New York : Modern Library; 1930.

PLUTARCH : The Lives of the Noble Grecians and Romans. Translated by John Dryden. New York: The Modern Library; 1932.

الفصل الرابع والعشرون

BLUMNER, H. : The Home Life of the Ancient Greeks. Translated by Alice Zimmern. New York : Funk and Wagnalls Co.; no date.

DURANT, W. : The Life of Greece. New York : Simon and Schuster; 1939.
GLOVER, T.R. : The Ancient World : A. Beginning. New York : The Macmillan Co.; 1935.
HALL, H.R. : The Civilization of Greece in the Bronze Age. London : Methuen & Co.; 1928.
HERODOTUS : The History of Herodotus. Translated by G. Rawlinson. New York : Tudor Publishing Co.; 1932.
HYDE, W.W. : Ancient Greek Mariners. New York : Oxford University Press; 1947.
PLATO : The Works of Plato. Selected and edited by Erwin Edman. New York : The Modern Library; 1930.
PLUTARCH : The Lives of the Noble Grecians and Romans. Translated by John Dryden. New York : The Modern Library; 1932.
ROSTOVIZEFF, M.I. : Out of the Past of Greece and Rome. New Haven : Yale University Press; 1932.

الفصل الخامس والعشرون

GREEN, A.S. : History of the Irish State to 1014. London : Macmillan & Co.; 1925.
JACOBSTHAL, P. : Early Celtic Art. Oxford : Clarendon Press; 1944.
TACITUS : The Complete Works of Tacitus. Translated by A.J. Church and W.J. Brodribb. New York : The Modern Library; 1942.
THUCYDIDES : The Complete Writings of Thucydides. Translated by Crawley. New York : The Modern Library; 1934.

الفصل السادس والعشرون

BARROW, R.H. : Slavery in the Roman Empire. London : Methuen & Co.; 1928.
CARCOPINO, J. : Daily Life in Ancient Rome. Translated by E.O. Lorimer. New Haven : Yale University Press; 1940.
DURANT, W. : Caesar and Christ. New York : Simon and Schuster; 1944.

GIBBON, E. : The Decline and Fall of the Roman Empire. 2 volumes. New York : The Modern Library; 1932.

RANDALL-MACIVER, D. : The Etruscans. Oxford : Clarendon Press; 1927.

——: Italy Before the Romans. Oxford : Cladendon Press; 1928.

الفصل السابع والعشرون

BROCKELMANN, C. : History of the Islamic Peoples. Translated by J. Carmichael and M. Perlmann. New York : G.P. Putnam's Sons; 1947.

COON, C.S. : Caravan : The Story of the Middle East. New York : Henry Holt & Co.; 1951.

DIENER, B. : Imperial Byzantium. Translated by E. and C. Paul. Boston : Little, Brown & Co.; 1938.

HELL, J. : The Arab Civilization. Translated by S.K. Bukhsh. Cambridge : W. Heffer and Sons; 1925.

HITTI, P.K. : The History of the Arabs. Third edition, revised. London : Macmillan & Co.; 1943.

LINDSAY, J. : Byzantium into Europe. London : The Bodley Head; 1952.

RUNCLMAN, S. : Byzantine Civilization. London : Edward Arnold and Co.; 1936.

YOUNG, T.C., editor : Near Eastern Culture and Society. Princeton : Princeton University Press; 1951.

تمّ طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

إذا كان لنتون فى أواسط القرن العشرين قد آمن بضرورة دراسة الحضارة الإنسانية عبر تاريخها، بسبب ازدياد التواصل والصلات بين الشعوب، فكيف بنا ونحن نعاصر ثورة فى وسائل الاتصال ونقل المعرفة، كما نعاصر تطورات العولمة التى تسعى لأن تجعل من العالم قرية كونية واحدة تخضع للهيمنة الغربية - الأمريكية، مما لا يتفق مع طبيعة "اختلاف" الحضارات والثقافات وتنوعها الخلاق. إن حاجتنا الآن، فى بدايات القرن الحادى والعشرين، لدراسة ومعرفة أصول هذه الحضارات والثقافات أكثر ضرورة، ومن هنا تكمن أهمية مراجعة هذا الكتاب لمعرفة أصل الشجرة، التى ننتمى إليها جميعًا، شجرة الحضارة الإنسانية.

تصميم الغلاف: نسرين كشك